بسم الله الرحمن الرحيم

قام الطالب بتعديل ما طلب منه في الرسالة

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات العليا العربية

فرع الأدب



شعر الفقهاء في العصر العباسي الثاني

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب

اعداد الطالب

أول خير عمر عيسى سراج

إشراف

الأستاذ الدكتور / محمود حسن زيني

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

(ملخص الرسالة)

اقتضت طبيعة هذه الدراسة وهي بعنوان "**شعراء الفقهاء في العصر العباسي الثاني**" أن أجعلها في تمهيد وبابين وخاتمة ،حيث قمتُ في التمهيد بتتبع أثر فقهاء هذا العصر في الساحة الأدبية، وجاء الباب الأول : " أغراض وموضوعات شعر الفقهاء " في ثلاثة فصول ، عرضتُ في الفصل الأول للأغراض الإسلامية المتمثلة في : المناجاة والزهد والأخلاق والآداب الإسلامية والحكمة ، وتحدثتُ في الفصل الثاني عن الأغراض التقليدية التي شملت : المدح والفخر والهجاء والاخوانيات والغزل والوصف ، وتناولتُ في الفصل الثالث الأغراض التعليمية التي تمثلت في الشعر التعليمي والألغاز ، أما الباب الثاني " الخصائص الفنية " فقد استوعب ثلاثة فصول أيضاً ، عالجتُ في الفصل الأول الخصائص الفكرية والمعنوية ، وفي الفصل الثاني تتبعتُ الخصائص الأسلوبية من خلال دراسة بناء القصيدة وأسلوبها والألفاظ والتراكيب وموسيقى الشعر والصورة الفنية ، وخصصتُ الفصل الثالث للحديث عن بعض قضايا الإسلام والشعر من خلال دراسة الالتزام الإسلامي في شعر الفقهاء، وكذلك التجربة الشعرية والصدق الفني ، وفي الخاتمة ذكرتُ أهم النتائج التي توصلتُ إليها ومنها أن زهد الفقهاء كان أصيلاً في بواعثه ودوافعه ، وأنهم سعوا في مجال الأخلاق والآداب الإسلامية إلى ترسيخ قيم وأخلاق الإسلام الفاضلة ، كما تعرضوا بالذم لبعض الخصال الفاسدة التي وجدت في المجتمع ، وفي مجال الأغراض التقليدية تطرق الفقهاء إلى معظم ميادين المدح وكان مدحهم بدافع الاعجاب والإكبار والتقدير لمدوحيهم ، وكان معظم فخرهم ذاتياً افتخروا فيه بخصالهم الحميدة التي استمدوها من الإسلام ، وانصرف معظم هجاء الفقهاء إلى محاربة من يتعرض لأمور العقيدة والدين وإلى انتقاد الأوضاع الاجتماعية الخاطئة ، وبينت الرسالة في الباب الثاني أن معظم أفكار ومضامين شعرهم مستمدة من الإسلام ، وقد تميزت بالسهولة والوضوح وكانت السمة الغالبة على ألفاظهم وتراكيبهم هي السهولة والوضوح أيضاً ، كما نظموا في معظم الأوزان الشعرية إلا أنهم مالوا إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة ، وفي مجال الصورة الفنية كانت للفقهاء صور فنية جميلة مفعمة بالحركة والحيوية وكذلك التشخيص الحي والمشاركة الوجدانية ، وفي مجال الالتزام بينت الرسالة أن شعر فقهاء هذا العصر كان في جملته شعراً ملتزماً بالإسلام ، بيد أنه كان في الأغراض الإسلامية أكثر وضوحاً من الأغراض التقليدية ، والحمد لله رب العالمين .

يعتمد ...

عميد كلية اللغة العربية	المشرف	الطالب
أ.د/ حسن محمد باجوده	أ.د/ محمود حسن زيني	أول خير عمر عيسى سراج

﴿ الإهداء ﴾

إلى أبي وأمي ...

عرفانا بجزيل عطائهما ...

إلى زوجتي وابني محمد ...

وفاء بجميل صبرهما ...

* * *

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، حمداً كثيراً يوافي نعمه ، ويكافيء مزيده ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد بن عبد ا لله ، وعلى آله وصحبه الغر الميامين ، ومن سار على هديه إلى يوم الدين ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا ، واجعله حجة لنا لا علينا ، إنك أنت العليم الحكيم .

وبعد ، فحين رغبت في اختيار موضوع لمرحلة الدراسة العالمية (الدكتوراه) ، لم يطل بي البحث كثيراً ، فقد كنت منذ مرحلة الماجستير مهتماً بالتنقيب عن التراث الأدبي ، الذي خلفه علماء السلف – رحمهم ا لله – .

لذلك فقد عقدت العزم على مواصلة السير في هذا الاتجاه ، فرأيت أن يكون موضوعي لنيل درجة الدكتوراه تحت عنوان : " شعر الفقهاء في العصر العباسي الثاني" دراسة وتحليلا .

وكانت الحوافز الدافعة لي على اختيار هذا الموضوع ما يلي :

١- اغفال الكثير من الباحثين والدارسين لهذا التراث الشعري الذي خلفه الفقهاء ، وعدم اكتراثهم به ، ووسمه بالضعف والجمود والبرود .

٢- شعوري بأهمية الكتابة في هذا الموضوع الخصب ، ولا سيما بعد إطلاعي على رسالتين علميتين في هذا المجال وهما :

أ- شعر الفقهاء ، نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول ، للباحث حسني مصطفى ناعسة – في الأصل رسالة ماجستير سنة ١٩٧٥م ، جامعة القاهرة .

ب- شعر فقهاء المشرق من بداية عصر الخلفاء ، حتى نهاية العصر العباسي الأول ، للباحث عادل عبد ا لله حجازي - رسالة دكتواره سنة ١٤١٠هـ ، جامعة أم القرى - .

٣- وقوفي على شعر كثير للفقهاء ، عند دراستي في مرحلة الماجستير لأدب ابن الجوزي ، أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن (ت ٥٩٧هـ) .

لذلك كله أحببت أن أدلي بدلوي في هذا المجال ، إذ أجدني أقرب من غيري في دراسة شعر فقهاء هذا العصر .

مقاصد الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى المقاصد التالية :

١- اكمال جهد من سبقني في دراسة شعر الفقهاء ، وذلك لسد النقص الكبير في هذا المجال ، خدمة للتراث العربي الإسلامي وإحياءه .

٢- تسليط الضوء على شعر فقهاء هذا العصر ، المبثوث في بطون أمهات الكتب ، والمصادر القديمة ، والدواوين الشعرية ، ودراسته واستخلاص ما فيه من قيم روحية وإنسانية وفنية .

٣- التعريف بالشعراء الفقهاء في هذا العصر الحافل بالأحداث من تاريخنا الإسلامي ، وتقويم شاعريتهم ، وبيان مواقفهم من مجتمعاتهم من خلال نتاجهم الشعري .

٤- لفت أنظار الباحثين والدراسين إلى هذا الشعر ، لدراسته والوقوف أمامه ، وقفة متأنية منصفة .

وبطبيعة الحال فأنا هنا لا أدرس ظاهرة أدبية محددة بزمان ومكان معين ، بل أدرس نتاج فئة من الشعراء يجمعهم تخصص واحد وهو الفقه بمعناه الاصطلاحي – أي كل من اتصل بعلم الفقه تصنيفا أو تدريساً أو عمل في القضاء أو الفتوى ... – ، الذين كانوا متفرقين في أجزاء وبقاع كبيرة ، كانت ضمن حاضرة الخلافة العباسية ، إبان عزها وقبل تفككها .

لذا رأيت أن أوسع الزمان والمكان في هذه الدراسة ، من أجل توسيع دائرة الاستقراء ، في سبيل الخروج بصورة دقيقة عن شعر الفقهاء في العصر العباسي الثاني.

فعلى الرغم من أن العديد من مؤرخي الأدب والدارسين ، يحددون العصر العباسي الثاني من (٢٣٢هـ) حتى (٣٣٤هـ) (١) فإنني أميل إلى الأخذ برأي فريق آخر من الدارسين يحدد هذا العصر من (٢٣٢هـ) حتى (٦٥٦هـ) وهي السنة التي سقطت فيها الخلافة العباسية .(٢)

كما أنني لم أخصص مكاناً بعينه أخضعه للدراسة ، مثل بغداد أو إقليم العراق مثلاً ، إنما انصب اهتمامي على حاضرة الخلافة العباسية ، التي شملت المشرق الإسلامي، إبان قوتها .

إذ أن الكثير من الأمصار ، قد انفصلت عن جسد الخلافة العباسية ، واستقلت بذاتها في هذا العصر ، وأصبحت سلطة الخلافة معنوية فقط – حتى في عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، التي كانت تحت نفوذ الأتراك والفرس (٣) – تمثل الجانب الديني ،

---

(١) ممن أخذ بهذا الرأي الدكتور شوقي ضيف في كتابه العصر العباسي الثاني ص ١٦ ، والدكتور رشدي علي حسن في كتابه شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني ص٧ ، والدكتور حسين عطوان في كتابه مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني ص٥-٩ وغيرهم .

(٢) انظر عصر الدول والامارات للدكتور شوقي ضيف . ص٥ .

(٣) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين ٣/٢ .

الذي يربط بين الأمصار الإسلامية المستقلة اسميا ، فكان يدعى للخليفة العباسي في خطبة الجمعة .

ففي عام (٥٦٧هـ) جدد السلطان صلاح الديني الأيوبي عودة الخطبة والسكة باسم الخليفة العباسي ، بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر ، وكذلك الحال في اليمن... (١)

ولما كان الأمر كذلك ، لم يكن أمامي سوى تجاهل تلك الظروف السياسية ، التي مزقت وحدة الخلافة العباسية ، والتعويل على الدعاء في خطب الجمعة للخليفة العباسي ، لأنه يمثل اعترافاً بسلطة الخلافة الدينية .

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن أجعلها في تمهيد وبابين وخاتمة ، وأغفلت المقدمات التاريخية والسياسية ، لأنها أشبعت بحثا ودراسة .

وقمت في التمهيد بتتبع أثر فقهاء العصر العباسي الثاني في الساحة الأدبية .

وجاء الباب الأول : " أغراض وموضوعات شعر الفقهاء " في ثلاثة فصول .

عرضت في الفصل الأول للأغراض الإسلامية المتمثلة في : المناجاة ، والزهد ، والأخلاق والآداب الإسلامية ، والحكمة .

وتحدثت في الفصل الثاني عن الاغراض التقليدية ، التي شملت : المدح ، والفخر ، والرثاء ، والهجاء ، والإخوانيات ، والغزل ، والوصف .

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٦٨/١١، وفيات الأعيان لابن خلكان ١٥٩/٧ ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي للدكتور محمد سالم بن شديد العوفي ص ٣١٨ - ٣١٩ .

وتناولت في الفصل الثالث الأغراض التعليمية ، التي تمثلت في الشعر التعليمي، والألغاز .

أما الباب الثاني : " الخصائص الفنية " فقد استوعب ثلاثة فصول أيضاً .

عالجت في الفصل الأول ، الخصائص الفكرية والمعنوية .

وفي الفصل الثاني تتبعت الخصائص الاسلوبية ، من خلال دراسة بناء القصيدة وأسلوبها ، والألفاظ والتراكيب ، وموسيقى الشعر ، والصورة الفنية .

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن بعض قضايا الإسلام والشعر ، من خلال دراسة الالتزام الإسلامي في شعر الفقهاء ، وكذلك التجربة الشعرية والصدق الفني .

وفي الخاتمة ذكرت أهم النتائج التي توصلت إليها .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على أكثر من منهج ، فكان منهجي قائماً على على التحقيق والوصف والتحليل والمناقشة والنقد والموازنة .

أما مصادر الرسالة ومراجعها ، فقد كانت كثيرة ومتنوعة ، دينية ، وتاريخية ، وأدبية ، وشعرية ، ونقدية ...

ففصول الباب الأول ومباحثه اقتضت مني الرجوع إلى كتب التاريخ والحوليات ، وكتب الطبقات ، وتراجم الأدباء والشعراء ، من أجل تخريج وتوثيق نصوص الفقهاء غير المحققة ، بالإضافة إلى دواوينهم المخطوط منها والمطبوع .

وأفدت في الدراسة الفنية ، في الباب الثاني من المصادر والمراجع الأدبية المتخصصة ، ولاسيما ما اتصل منها بالنقد .

وقد واجهتني خلال الدراسة بعض الصعوبات ، التي تمكنت بفضل ا لله من تجاوزها بعد جهد مضن ، ومنها كثرة الفقهاء الشعراء في هذا العصر ، الذين بلغ عددهم مائة وستة عشر فقيهاً .

بالإضافة إلى كثرة نتاجهم الشعري ، الذي لا يزال معظمه مبثوثاً في بطون المصادر وأمهات الكتب .

وبعد ، فأحمد ا لله تعالى بما هو أهل له ، وكما ينبغي لجلال وجهه ، وكريم إحسانه ، وعظيم سلطانه ، على ما أنعم من إتمام هذه الرسالة ، إذ ما كان ليتم لي ذلك لولا عنايته وفضله وتوفيقه عز وجل .

كما أرى لزاماً على أن أتوجه بالشكر الجزيل ، إلى جامعتي (أم القرى) التي أتاحت لي الفرصة ، لأكمل دراستي في رحابها ، وأخص بالشكر القائمين على كلية اللغة العربية ، وقسم الدراسات العليا العربية .

وأتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان ، إلى المشرف على هذه الرسالة أستاذي الدكتور / محمود حسن زيني ، الذي كان له فضل الإشراف على رسالتي التي حصلت بها على درجة الماجستير ، ثم كان له الفضل الأكبر بعد فضل ا لله تعالى ، في تشجيعي على إكمال مسيرتي العلمية ، وأمدني بتوجيهاته ، ولم يدخر وسعاً إلا قدمه لي ، فقد رعى هذا البحث مذ كان فكرة ، حتى أصبح حقيقة ماثلة للأعين ، فجزاه ا لله كل خير.

كما أتقدم بالشكر والعرفان لأساتذتي وزملائي ، على ما قدموه لي من عون كبير في إنجاز هذا البحث .

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل ، إلى الأستاذين الجليلين عضوي لجنة المناقشة ، لتكرمهما بقبول مناقشة هذه الرسالة ، وعلى بذهما الوقت والجهد في تقويمها ، وأسأل ا لله أن ينفعني بتوجيهاتهما .

وفي الختام ، لست أزعم أنني بلغت في هذه الدراسة ما تصبوا إليه نفسي من الاحتواء والإحاطة ، ولا أبرئ نفسي ، فالنقص مستول على سائر البشر ، ولكنني حاولت تقديم جهد متواضع يضاف إلى ما سبقه من جهود في دراسة ونشر تراثنا الأدبي الخالد .

فإن كنت قد وفقت فيما صبوت إليه فبتوفيق ا لله أولاً وآخراً ، وإن كان السعي قد قصر بي دون تحقيق الغاية ، فحسبي أنني حاولت مخلصاً ، وبذلت في سبيل ذلك غاية جهدي ، ولم أتوان في سبيل البحث أو أبخل عليه بوقت أو جهد أو مال ..

وا لله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأن يوفقنا لمرضاته ، وأن يسدد على طريق الخير خطانا ، ويجعل لنا من أمرنا رشدا ، وعلى ا لله قصد السبيل ، والحمد لله رب العالمين .

أول خير عمر عيسى سراج

تمهيد

فقهاء العصر العباسي الثاني في الساحة الأدبية :

كان لفقهاء هذا العصر حضور في الساحة الأدبية في العديد من الأمصار ، وذلك من خلال اتصالهم بمجالس الخلفاء والوزراء ، واتصالهم بمشاهير أدباء العصر ، وما جادت به قرائحهم من أشعار في مختلف الأغراض .

فعلى الرغم من أن بعض الفقهاء ، حاولوا طمس معالم شعرهم وشاعريتهم تحرجاً[1] – كما كان بعضهم قليل الاعتداد بشعره نظراً لانشغاله بالفقه وغيره من العلوم[2] – فقد كان لأكثرهم صولات وجولات في ميادين الشعر والأدب ، وأسهموا في قيام نهضة أدبية في أكثر من عاصمة إسلامية .

فكل أمير كان يسعى بكل ما أوتي من قوة إلى جذب نوابغ العلم والأدب إلى بلاده ومن بينهم الفقهاء [3] .

فهذا القاضي أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي (٢٧٨ – ٣٤٢هـ) كان من أعيان أهل العلم والأدب في عصره ، وتقلد قضاء البصرة والأهواز بضع سنين ، وحين صرف عنه ، ذهب إلى سيف الدولة بن حمدان [4] زائراً ومادحاً ،

---

(١) ومن هؤلاء الفقيه أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري (تـ ٢٩٧هـ) ، انظر تاريخ بغداد ٥/٢٥٨، أوراق من ديوان أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني ص ١٠ ، ٨٥ ، ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي الفيروزابادي (٣٩٣ – ٤٧٦هـ) ، انظر الوافي بالوفيات ٦ / ٦٥ ، وإمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني النيسابوري (٤١٩ – ٤٧٨هـ) ، انظر دمية القصر للباخرزي ٢/٢٥٠ ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/١٨٣ ، ٢٠٨ .

(٢) مثل الشريف المرتضى (٣٥٥ – ٤٣٦هـ) ، انظر مقدمة ديوانه ١ / ٢٠ .

(٣) انظر ظهر الإسلام ٢/٢ ، كتاب القاضي الجرجاني للدكتور أحمد أحمد بدوي ص ١٥ .

(٤) علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي أبو الحسن سيف الدولة (٣٠٣ – ٣٥٦هـ) أمير حلب ، كان شجاعاً شاعراً ، وأخباره مع المتنبي وغيره من الشعراء كثيرة ومشهورة ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ١/٣٧ – ١١٢، المنتظم ٧/٤١ ، وفيات الأعيان ٣ / ٤٠١ – ٤٠٦ ، الأعلام ٤/٣٠٣ – ٣٠٤ .

فأكرم مثواه ، وأحسن قراه ، وكتب في معناه إلى الحضرة ببغداد ، حتى أعيد إلى عمله، وزيد في رزقه ورتبته وكان المهلبي الوزير (٢٩١-٣٥٢)[١] ، وغيره من وزراء العراق يميلون إلى القاضي التنوخي " ويتعصبون له ويعدونه ريحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء ويعاشرون منه من تطيب عشرته وتلين قشرته ، وتكرم أخلاقه وتحسن أخباره، وتسير أشعاره ... " [٢]

وكان هذا القاضي في جملة الفقهاء والقضاة الذين كانوا يجتمعون عند الوزير المهلبي وينادمونه ، ومنهم القاضي أبو بكر محمد بن عبد الرحمن بن قريعة البغدادي (٣٠٢ - ٣٦٧هـ) [٣] والقاضي أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف (٣٠٦-٣٨١هـ) [٤] .

وذهب الثعالبي إلى أن هؤلاء الفقهاء كانوا يجتمعون عند المهلبي على اطراح الحشمة ، وبالغ في وصفهم بالخلاعة والمجون [٥] ، دون أن يدلل على ما يقول ، حيث

---

(١) أبو محمد الحسن بن محمد بن عبد الله من ولد المهلب بن أبي صفرة ، من كبار الوزراء الأدباء الشعراء ، في عصره ، كان وزيراً لمعز الدولة البويهي ، وكان محباً للأدب وأهله ، اشتهر بمآخذه على المتنبي وهو كتاب ذو أجزاء مخطوطة حقق بعضها ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٢/٢٦٥-٢٨٥ ، المنتظم ٧/٩ ، معجم الأدباء ٩/١١٨ ، وفيات الأعيان ٢/١٢٤ - ١٢٧ ، الأعلام ٢/٢١٣ .

(٢) يتمية الدهر ٢/٣٩٣ ، وفيات الأعيان ٣/٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٣) ولي قضاء " السندية " من أعمال بغداد ، كان مختصاً بالوزير المهلبي ، ونادم عز الدولة بن بويه ، وكان كثير النوادر ، أشتهر بسرعة البديهة في الجواب عن جميع ما يسأل عنه في أفصح لفظ ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/٣١٧ - ٣٢٠ ، المنتظم ٧/٩١ ، وفيات الأعيان ٤/٣٨٢ - ٣٨٤ ، الأعلام ٦/١٩٠ .

(٤) تولى قضاء القضاة ببغداد ، وكان أديباً شاعراً عالماً ثقة عفيفاً ظريفاً ، وكان الصاحب بن عباد يقول : " أشتهي أن أدخل بغداد وأشاهد جرأة محمد بن عمر العلوي وتنسك أبي أحمد الموسوى وظرف أبي محمد بن معروف " تاريخ بغداد ١٠/٣٦٥ ، وانظر يتيمة الدهر ٣/١٢٥ واسمه فيها عبدالله بن أحمد ، النجوم الزاهرة ٤/٦٢ ، الأعلام ٤/١٩١ .

(٥) يتيمة الدهر ٢/٣٩٤ وتابع الثعالبي في ذلك كل من ياقوت في معجم الأدباء ١٤/١٦٦ - ١٦٨ ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ٣/٣٦٦-٣٦٧ .

صدر حديثه عنهم بقوله : " ويحكى أنه كان في جملة القضاة ... " [1] ولعل السبب الذي دفعه إلى إيراد هذا الخبر بتلك الصورة هو أبيات الشاعر المشهور السرى الرفاء (توفى بعد ٣٦٠هـ) [2] التي أقذع فيها في وصف مجالس القضاة ، حيث قال :

مجالسٌ ترقصُ القضاةُ بها ... إذا انتشوا في مخانقِ البرمِ [3]
وصاحبٍ يخلطُ المجونَ لنا ... بشيمةٍ حلوةٍ من الشِّيمِ
تخضبُ بالرَّاحِ شَيْبَهُ عبثًا ... أناملٌ مثلُ حُمْرَةِ العَنَمِ [4]
حتى تَخَالَ العُيُونُ شَيْبَتَهُ ... شيبةَ فَعْلانَ ضُرِّجَتْ بِدَمِ [5]

والحق أن معظم القضاة في ذلك العصر كانوا ملتزمين بالشرع – قولاً وفعلاً – وبأدب القاضي ، فإن بدر من بعضهم تصرف مخل في مجالسهم الخاصة ، فلا يصح التعميم أو التشهير [6] .

ومن فقهاء هذا العصر الذين أسهموا في مجال الأدب ، القاضي أبي محمد الحسن ابن عبد الرحمن ابن خلاد الرامهرمزي (تـ ٣٦٠هـ) الذي وصفه الثعالبي بقوله : " من أنياب الكلام وفرسان الأدب ، وأعيان الفضل ، وأفراد الدهر ، وجملة القضاة الموسومين

---

(١) يتيمة الدهر ٣٩٤/٢ .

(٢) انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٢ / ١٣٧-٢١٤، تاريخ بغداد٩ / ١٩٤، وفيات الأعيان ٣٥٩/٢-٣٦٢ ، الأعلام ٨١/٣ .

(٣) البرم : نوع من الثياب .

(٤) العنم : شجرة صغيرة دائمة الخضرة لها ثمر أحمر تتخذ للصبغ .

(٥) يتيمة الدهر ٣٩٤/٢ ، وانظر الأبيات مع بعض الاختلاف في رواية الألفاظ في ديوان السرى الرفاء ٦٧٧/٢ .

(٦) انظر القضاء والقضاة في الإسلام " العصر العباسي " للدكتور عصام شبارو ص ٦ – ٧ .

بمداخلة الوزراء والرؤساء وكان مختصاً بابن العميد [1]، تجمعهما كلمة الأدب ولحمة العلم، وتجرى بينهما مكاتبات بالنثر والنظم.. وهكذا كانت حاله مع المهلبي الوزير .."[2].

ومن المحاورات الشعرية التي جرت بين القاضي ابن خلاد والوزير ابن العميد ، حينما أهدى القاضي إليه كتاباً في الأطعمة ، وابن العميد ناقه من علة كانت به فكتب إلى القاضي قصيدة منها :

فهمــــتُ كتــــابكَ في الأطعمــــةْ ... ومـــا كـــان نـــولي أن أفهمــــةْ
فكـــم هـــاج مـــن قَـرَمٍ ســـاكنٍ ... وأوضـــح مـــن شـــهوةٍ مبهمـــةْ [3]
وأرَّثَ في كبـــــــدي غلَّــــــــةً ... مـــن الجـــوعِ نيرانُهـــا مُضْرَمَـــةْ
فكيـــفَ عمـــدتُ بـــه ناقهـــــًا ... جوانِحُـــــه للطـــوى مُسْلِمَـــةْ [4]

ومما جاء في جواب القاضي ابن خلاد قوله :

هلـــــمَّ الصحيفـــــةَ والِمقْلَمَـــــةْ ... وأدنِ المُحَيْـــــبَرَةَ المفعمـــــــــةْ
لأكتـــبَ ماجـــاشَ في خَـــاطِري ... فقـد عظـمَ الخـوضُ في النَّبْرَمَـةْ [5]
وعجِّـــل علـــيَّ بهـــذي وذي ... فإنِّي من الخَـوْضِ في ملحمــةْ
ألا حبَّـــذا ثُـــمَّ يـــا حبَّـــذا ... كتابي المصـــنَّفِ في الأطعمـــةْ

---

(١) محمد بن الحسين بن محمد أبو الفضل ابن العميد (تـ ٣٦٠هـ) الوزير وأحد أئمة الكتاب ، قال عنه الثعالبي : " بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد " يتمية الدهر ١٨٣/٣ ، وانظر في ترجمته ايضاً: وفيات الأعيان ١٠٣/٥-١١٠ ، شذرات الذهب ٣١/٣ ، الأعلام ٩٨/٦ .

(٢) يتيمة الدهر ٣ / ٤٩٠ .

(٣) القرم : شدة الشهوة والشوق إلى اللحم .

(٤) الناقه : من يفهم الحديث ونحوه ، والطوى : الجوع .

(٥) النبرمة : ذكر الثعالبي أنها شيء يجمع من الحبوب ، ويدق ويعجن بحلاوة ، انظر يتمية الدهر ١٩٧/٣ .

كفاتَــا بِــهِ اللهُ مــا راعنَــا بِعلَّــةِ سيِّدِنَــا المؤلِمَــةْ (١)

ومن مكاتبات القاضي ابن خلاد مع الوزير المهلبي ، قوله مهنئا لما استوزر :

الآنَ حــينَ تعَــاطَى القــوسَ بَارِيهَــا وأبصرَ السَّمْتَ في الظَّلْمَاءِ سَارِيهَا
الآنَ عــادَ إلى الدُّنْيــا مُهذِّبُهَــا سيفُ الوَزَارةِ بَلْ مِصْبَاحُ دَاجِيهَا
تُضْحِي الوَزَارةُ تَزْهَى في مــواكبِهَــا زُهوَّ الرِّياضِ إذا جادَتْ غَوادِيهَا(٢)

فأجابه الوزير قائلاً :

مَواهِــبُ اللهِ عِنْــدِي مــا يُدَانِيهَــا سَعْيٌ ومجهــودٌ وسَــعْي لا يُوازِيهَــا
واللهَ أســألُ تَوْفِيقــاً لِطَاعَتِــهِ حتَّى يوافِــقَ فِعْلِــي أمــرَهُ فِيهَــا
وقَــدْ أتتــنِيَ أبيــاتٌ مهذَّبَــةٌ ظَرِيفَــةٌ جَزْلَــةٌ رَقَّــتْ حَواشِــيهَا
ضَمَّنتَهَا حُسْــنَ إبْــدَاعٍ وتَهْنِئَــةٍ أنْــتَ المهنَّــا ببادِيهَــا وتَالِيهَــا (٣)

ويعد القاضي أبو علي المحسِّن بن علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي (٣٢٧ – ٣٨٤هـ) (٤) من أدباء وشعراء هذا العصر ، وذكر الثعالبي نقلا عن أحد معاصريه : "أنه

---

(١) المصدر السابق ١٩٩/٣ ، ٢٠١ .

(٢) جادت غواديها : هطلت أمطارها .

(٣) يتيمة الدهر ٤٩٠/٣ – ٤٩١ .

(٤) ولد في البصرة ونشأ في بيت علم وفقه وأدب ، فوالده هو القاضي أبو القاسم على التنوخي – السالف الذكر– تولى القضاء بعدة نواح ، له من التصانيف كتاب الفرج بعد الشدة ، ونشوار المحاضرة ، والمستجاد من فعلات الأجواد ، وكانت وفاته ببغداد . انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٤٠٥/٢ – ٤٠٧ ، تاريخ بغداد ١٥٥/١٣ ، معجم الأدباء ٩٢/١٧ ، وفيات الأعيان ١٥٩/٤–١٦٢ ، والأعلام ٢٨٨/٥ .

رأى ديوان شعره ببغداد أكبر حجماً من ديوان شعر أبيه "[1] ومما يؤسف له أن كلا الديوانين هما في حكم المفقود [2] .

وكان القاضي المحسِّن التنوخي من جلساء عضد الدولة البويهي (٣٢٤-٣٧٢هـ)[3] يتذاكر معه الشعر ، وكانت له مقدرة على ارتجال الشعر وإجادته [4] .

وكان للقاضي الناقد علي بن عبد العزيز الجرجاني (تـ ٣٩٢هـ) [5] حضور أدبي بارز في القرن الرابع الهجري ، فبالإضافة إلى كتابه النقدي الشهير " الوساطة بين المتنبي وخصومه " جادت قريحته بالكثير من الشعر الجيد، ذكره الفقيه أبو إسحاق إبراهيم ابن علي الشيرازي الفيروزابادي (٣٩٣-٤٧٦هـ)[6] في كتابه " طبقات الفقهاء " وأشار إلى وجود ديوان شعر له [7] ، بيد أننا لا نعلم شيئاً عنه لعدم وجوده بين أيدينا ، قال

---

(١) يتيمة الدهر ٤٠٥/٢ وانظر وفيات الأعيان ١٥٩/٤ .

(٢) القضاء والقضاة في الإسلام ص٣٢٠ .

(٣) أبو شجاع فناخسرو الملقب ، عضد الدولة بن ركن الله أبي على الحسن ابن بويه الديلمي ، أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية ، وهو أول من خوطب بالملك في الاسلام . وأول من خطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة ، كان مشاركاً في العلوم شاعراً ، قصده شعراء عصره ، انظر ترجمته . يتيمة الدهر ٢٥٧/٢ - ٢٥٩، المنتظم ١١٣/٧ ، وفيات الأعيان ٥٠/٤ - ٥٥، الأعلام ١٥٦/٥ .

(٤) انظر نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي المحسن التنوخي ٨٦/٤-٨٧ ، معجم الأدباء ١٠١/١٧-١٠٢.

(٥) تولي قضاء جرجان ، وقضاء قضاة الرى ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٣/٤-٢٨ ، وفيات الأعيان ٢٧٨/٣-٢٨١، الأعلام ٣٠٠/٤ .

(٦) فقيه شافعي بارز ، ولد بفيروزاباد بفارس ، ومات ببغداد ، له مصنفات فقهية ، وكان يقول الشعر الحسن ، ويضرب به المثل في الفصاحة والمناظرة ، وكان في غاية الورع ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٢٩/١ - ٣١، طبقات الشافعية الكبرى ٢١٥/٤-٢٣٣ ، شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم لعلي الخاقاني ٤٩/١ ، الأعلام ٥١/١ .

(٧) انظر ص ١٢٢ .

عنه الثعالبي " حسنة جرجان "(1) ، وفرد الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان حدقة العلم ، ودرة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر "(2) وكان متصلاً بالصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ)(3) ، ملازماً لمجالسه الأدبية(4) ، يدلي فيها بدلوه ، من ذلك حينما نفق برذون أبي عيسى المنجم ، أوعز الصاحب إلى جلسائه – ومن بينهم القاضي الجرجاني – أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا البرذون فقال كل منهم شعراً(5) . ومما قاله القاضي الجرجاني من قصيدة طويلة :

ذهبَ الطرْفُ فاحتسِبْ وتَصَبَّرْ ... لِلرَّزايَا فالحرُّ مَنْ يَتَعَزَّى
فعلى مِثْلِهِ اُسْتُطِيرَ فُؤادُ الـ ... حَازِمِ النَّدْبِ حَسْرَةً واسْتَفَزَّا
لم يكنْ يسمعُ القِيَادَ على الهَوْ ... نِ ولا كانَ نَافِراً مُشْمَئِزَّا(6)

وقد تبوأ القاضي الجرجاني منزلة عالية في عصره ، وأقر له معاصروه بالموهبة الأدبية العالية.

فهذا الصاحب بن عباد يسجل شهادته في نبوغه الأدبي شعراً ، حيث قال مثنياً على شاعريته :

---

(1) جرجان مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ١١٩/٢ .

(2) يتيمة الدهر ٣/٤ .

(3) إسماعيل بن عباد بن العباس أبو القاسم الطالقاني الوزير الأديب ، استوزره مؤيد الدولة بن بويه ثم أخوه فخر الدولة ، أسهم في إرساء نهضة أدبية في عصره بجذب العلماء والأدباء إلى مجالسه ، له مصنفات أدبية ، انظر ترجمته: يتمية الدهر ٢٢٥/٣ - ٣٤٠ ، معجم الأدباء ١٦٨/٦ ، وفيات الأعيان ٢٢٨/١ - ٢٣٢ ، الأعلام ٣١٦/١ .

(4) انظر يتيمة الدهر ٢٣٥/٣-٢٣٦ ، كتاب القاضي الجرجاني الأديب الناقد للدكتور محمود السمرة ص١٠٢-١٠٤ ، كتاب القاضي الجرجاني للدكتور أحمد بدوي ص ٢٧-٢٨ .

(5) انظر يتيمة الدهر ٢٥٣/٣ .

(6) المصدر السابق ٢٥٥/٣ .

إِذَا نَحْـنُ سَـلَّمْنَا لـكَ العِلْـمَ كُلَّـهُ   فَدَعْنَا وَهذِي الكُتْـبَ نُحْسِـنْ صُدُورَهَا
فإِنَّهُـــــمُ لا يَرْتَضُــونَ مَجِيئَنَـــــــا   بِجَزْعٍ ، إِذَا نَظَّمْتَ أَنْتَ شُذُورَهَــــا (١)

وكان الشريف المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) (٢) على صلة وطيدة بكثير من خلفاء وأمراء وسلاطين عصره ، الذين كانوا على درجة عالية من المشاركة في فنون الأدب ، خاصة الشعر ، فكانوا يثيرون قريحته ، وينبهون عاطفته فيجود بما تجود به من الشعر الممتع الرصين ، الذي جمع في ديوان كبير يتكون من ثلاثة أجزاء(٣) .

وقد عرف الشريف المرتضى بوصف الطيف ، الذي أجاد فيه (٤) ، وجمع ما نظمه فيه – بالإضافة إلى ما نظمه غيره من الشعراء – في كتاب قيم أسماه " طيف الخيال " (٥) يعد عمدة في فنه في أدبنا العربي ، كما عرف بوصف الشيب وله في ذلك أيضاً كتاب بعنوان " الشهاب في الشيب والشباب " (٦) .

(١) الجزع : الخرز اليماني ، الشذور : القطع من النهب ، والبيتان في معجم الأدباء ١٦/١٤ .

(٢) أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب العلوي الموسوى الفقيه المتكلم الأديب الشاعر ، كانت إليه نقابة الطالبيين ببغداد ، وكان فقيه الشيعة الإمامية في عصره ، وكان يقول مع ذلك بالإعتزال ، له تصانيف كثيرة ، مولده ووفاته ببغداد ، انظر ترجمته : تتمة يتيمة الدهر ٦٩/٥-٧٢ ، دمية القصر ٢١٥/١ ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني القسم الرابع – المجلد الثاني ص٤٦٥ ، وفيات الأعيان ٣١٣/٣-٣١٧ ، الأعلام ٢٧٨/٤ – ٢٧٩ .

(٣) انظر مقدمة ديوان الشريف المرتضى ٥/١ .

(٤) الذخيرة ، القسم الرابع – المجلد الثاني ص ٤٦٦ ، وفيات الأعيان ٣١٣/٣ .

(٥) نشر الكتاب عدة مرات ، منها بتحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفي عن دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة عام ١٣٨١هـ – ١٩٦٢م ، وكذلك بتحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي ضمن سلسلة من تراثنا الخالد (٣) ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .

(٦) نشر الكتاب في دار الرائد العربي ببيروت ١٩٨٢ – ١٤٠٢هـ .

وغلب على بعض الفقهاء غرض المدح ، أمثال القاضي أبي بكر ناصح الدين أحمد ابن محمد بن الحسين الأرجاني (٤٦٠ - ٥٤٤هـ) [١] ، الذي عبر في مدائحة عن صلاته القوية برجالات عصره [٢] وعلى رأسهم المستظهر با لله العباسي (تـ ٥١٢هـ)[٣] ، والمسترشد با لله العباسي (تـ ٥٢٩هـ) [٤] .

وكذلك الفقيه الشاعر أبو الفرج مهذب الدين عبد ا لله بن أسعد بن علي المعروف بابن الدهان الموصلي الحمصي (تـ ٥٨١هـ) [٥] الذي كان للمديح النصيب الأكبر في ديوانه [٦] .

---

(١) شاعر بارز ، عربي المحتد من الأنصار ، ولي قضاء تستر وعسكر ببلاد خوزستان ، انظر معجم البلدان ١٤٣/١ ، ٢٩/٢ ، وانظر ترجمته : وفيات الأعيان ١٥١/١ - ١٥٥ ، الوافي بالوفيات ٣٧٣/٧ - ٣٧٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥٢/٦-٥٣ ، الأعلام ٢١٥/١ .

(٢) انظر الوافي بالوفيات ٣٧٤/٧ ، مقدمة ديوان الأرجاني ١٥/١ .

(٣) أبو العباس أحمد المستظهر بن عبد ا لله المقتدي بن محمد القائم ، ولى الخلافة بعد أبيه سنة ٤٨٧هـ ، كان محباً للخير هيناً ليناً ، لم تصف له الخلافة ، فلم يتجاوز حكمه باب داره ، وفي عهده أخذ الفرنج بيت المقدس عنوة سنة ٤٩٢هـ وقتلوا أهله بالمسجد الأقصى ، انظر ترجمته : الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٣١/١٠ ، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين لابن دقماق ص١٦١ - ١٦٢ ، الأعلام ١ / ١٥٨ .

(٤) أبو منصور الفضل المسترشد بن أحمد المستظهر ، بويع بالخلافة بعد أبيه ، وكان ذا نفس أبية ، فارساً شجاعاً فصيحاً ، حدثت في أواخر أيامه فتنة بهمذان أسفرت عن مقتله . انظر ترجمته : الكامل في التاريخ ٥٣٦/١٠، الجوهير الثمين ص١٦٢-١٦٤ ، فوات الوفيات ١٧٩/٣ ، الأعلام ١٤٧/٥ .

(٥) فقيه شافعي ، ولد بالموصل وأقام مدة بمصر ثم انتقل إلى بلاد الشام ، وتولى التدريس بحمص لذا نسب إليها أيضاً وفيها توفي ، كان أديباً شاعراً لطيف الشعر انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٥٧/٣ - ٦٠ ، الوافي بالوفيات ٦٧/١٧-٦٨،طبقات الشافعية الكبرى ١٢٠/٧ - ١٢١ ، الأعلام ٧٢/٤ .

(٦) نشر ديوانه وحققه عبد ا لله الجبوري ، مطبعة المعارف بغداد - الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

وكانت تقوم بين الفقهاء الشعراء مناظرات أدبية ، ومحاورات شعرية ، تأخذ أحياناً طابع التنافس الذي كان ينتقل من ميدان العلم والفقه إلى ميدان الأدب .

وأبرز ذلك ما كان بين الفقيه أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري (٢٥٥-٢٩٧هـ)(١) ، والفقيه أبي العباس أحمد بن عمر بن سريج (٢٤٩ - ٣٠٦)(٢).

فقد اجتمع الظاهري يوماً بابن سريج في مجلس الوزير محمد بن داود بن الجراح (٢٤٣-٢٩٦هـ)(٣) ، " فتناظروا في الإيلاء(٤) فقال ابن سريج : أنت بقولك : " من كثرت لحظاته دامت حسراته "(٥) أبصر منك بالكلام في الإيلاء ، فقال له أبو بكر : لئن قلت ذلك فإني أقول :

---

(١) كان فقيهاً أديباً شاعراً ظريفاً مناظراً ، لما توفى والده الذي ينسب إليه المذهب الظاهري ، جلس في حلقته فاستصغره الناس فدسوا إليه من يسأله عن حد السكر فأجاب إجابة شافية بينت موضعه من العلم ، صنف في عنفوان شبابه كتابه " الزهرة " ولد وعاش ومات ببغداد ، وانظر ترجمته : تاريخ بغداد ٢٥٦/٥ - ٢٦٣ ، المنتظم ٩٣/٦ - ٩٥ ، وفيات الأعيان ٢٥٩/٤ - ٢٦١ ، الوافي بالوفيات ٥٨/٣-٦١ ، الأعلام ١٢٠/٦ ، مقدمة كتاب الزهرة ٧/١ - ١٦ ، مقدمة أوراق من ديوان الأصفهاني ص ٧ - ٢٥ .

(٢) قال عنه أبو اسحاق الشيرازي : " كان من عظماء الشافعيين وأئمة المسلمين ، وكان يقال له الباز الأشهب ، ولى القضاء بشيراز ، وكان مناظراً شاعراً ، مولده ووفاته في بغداد ، أدخله الباحث عادل حجازي ضمن فقهاء العصر العباسي الأول في رسالته " شعر فقهاء المشرق من بداية عصر الخلفاء حتى نهاية العصر العباسي الأول " ١١٣٩/٣ - ١١٤٠ على الرغم من أنه عاش في أوائل العصر العباسي الثاني ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٢٨٧/٤ ، طبقات الفقهاء ص١٠٨-١٠٩ ، وفيات الأعيان ٦٦/١-٦٧ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢١/٣-٣٩، الأعلام ١٨٥/١ .

(٣) أديب من علماء الكتاب ، كان صديقاً لعبد الله بن المعتز ، صار وزيراً له يوم خلافته ، فلما انتقض أمره استتر ثم قبض عليه فقتل ، له عدة تصانيف منها كتاب " الورقة في أخبار الشعراء " وكتاب " الوزراء " انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٢٥٥/٥ ، وفيات الأعيان ٤٢٧/٣ ، الوافي بالوفيات ٦١/٣ ، والأعلام ١٢٠/٦ .

(٤) من آلى يولي إيلاءً . والإيلاء لغة : الإمتناع باليمين ، واصطلاحاً : الإمتناع باليمين من وطء الزوجة . انظر : الصحاح للجوهري ٢٢٧٠/٦ ، فقه السنة للسيد سابق ٣٣٢/٢، معجم فقه السلف للكتاني ٧٣/٧-٧٦.

(٥) يشير بذلك إلى الباب الأول من كتاب الزهرة ٤٥/١-٥٧ .

أُنَــزِّهُ في رَوْضِ المَحَاسِــنِ مُقْلَــتِي ... وأمْنَــعُ نَفْسِــي أنْ تَنَــالَ مُحرَّمَــا

وأَحْمِـلُ مِـنْ ثُقْـلِ الهَـوىَ مَـالَوْ أنَّـهُ ... يُصَبُّ علىَ الصَّخْـرِ الأصَـمِّ تَهدَّمَـا

وَيَنْطِـقُ طَـرْفِي عَـنْ مُـتَرْجَمِ خَـاطِرِي ... فَلَـوْلاَ اخِتَلاسِــي رَدَّهُ لتكلَّمَــا

رأيْتُ الهَوى دَعْوى مِن النَّاسِ كُلِّهِــم ... فما إنْ أرَى حُبَّـاً صَحِيحـاً مُسَلَّمَـا

فقال له ابن سريج : وبم تفتخر علي ولو شئت أنا لقلت :

وَمُسَــاهِرٍ بــالغُنْجِ مِــنْ لَحَظَاتِــهِ ... قَــدْ بِــتُّ أمْنَعُــهُ لَذِيــذَ سِــنَاتِهِ

ضَنــّاً بِحُسْــنِ حَدِيثِــهِ وعِتَابِــهِ ... وأُكَــرِّرُ اللَّحَظَــاتِ فِي وَجَنَاتِــهِ

حتَّى إذَا مَــا الصُّبْحُ لاحَ عَمُــودُهُ ... ولَــيَّ بِخَاتَــمِ رَبِّــهِ وَبَرَاتِــهِ

فقال أبو بكر : يحفظ الوزير عليه ذلك حتى يقيم شاهدي عدل أنه ولى بخاتم ربـه ، فقـال أبو العباس ابن سريج : يلزمني في ذلك ما يلزمك في قولك :

أُنَــزِّهُ في رَوْضِ المَحَاسِــنِ مُقْلَتِــي ... وأمْنَعُ نَفْسِــي أنْ تَنَـالَ مُحرَّمَــا

فضحك الوزير وقال : لقد جمعتما ظرفاً ولطفاً وفهماً وعلماً " [1] .

وكانت تربط بعض الفقهاء الشعراء علاقات أدبية وطيدة مع شعراء عصرهـــم ،

(١) لعل تعليق الوزير يغني عن الكثير من الشرح والتحليل لما جاء في هذا الخبر ، انظر : وفيات الأعيان ٤/٢٦٠ ، وكذلك تاريخ بغداد ٥/٢٦٠ - ٢٦١ ، الوافي بالوفيات ٣/٦٠-٦١ ، أوراق من ديوان أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري ص٦٢ . وانظر مزيداً من هذه المناظرات في طبقات الشافعية الكبرى ٦/٥٨-٥٩ ، القضاء والقضاة في الإسلام ص١٨٢.

فهذا القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي (٣٦٢-٤٢٢هـ) [١] ، اجتاز في طريقه إلى مصر بمعرة النعمان [٢] وفيها يؤمئذ أبو العلاء المعري (٣٦٣ – ٤٤٩هـ) [٣] فاستضافه وأكرم مثواه ، وفي ذلك يقول من جملة أبيات :

والمَالِكيُّ ابْنُ نَصْرٍ زَارَ في سفَرٍ ... بِلادَنَا فحمِدْنَا النَّأْيَ والسَّفَرا

إذَا تفقَّهَ أحْيَا مَالِكاً [٤] جَدَلاً ... وَيَنْشُرُ المِلكَ الضِّلّيلَ [٥] إنْ شَعَرَا [٦]

---

(١) كان فقهياً أديباً شاعراً ، صنف في مذهبه كتاب " التلقين " وغير ذلك من المصنفات ، تولى القضاء ببادرايا وباكسايا وهما بليدتان من أعمال العراق ، وغير ذلك ، نبت به بغداد في أواخر عمره ، فخرج منها إلى مصر وفيها مات . انظر ترجمته : الذخيرة . القسم الرابع – المجلد الثاني ص٥١٥ – ٥١٧ ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ٦٩١/٤ ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكي ٢٦/٢-٢٧ وفيات الأعيان ٢١٩/٣ – ٢٢٢ ، والأعلام ١٨٤/٤ .

(٢) بليدة في الشام بالقرب من حماة ، تنسب إلى الصحابي النعمان بن مقرن الأنصاري رضي الله عنه . انظر معجم البلدان ١٥٦/٥ ، وفيات الأعيان ١١٦/١ .

(٣) أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري . الشاعر والفيلسوف واللغوي المعروف ، أصيب بالجدري صغيراً ، ولد ومات بمعرة النعمان . انظر ترجمته : تتمة اليتيمة د/١٦ ، معجم الأدباء ١٠٧/٣ ، وفيات الأعيان ١١٣/١– ١١٦ ، والأعلام ١٥٧/١ .

(٤) يريد الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري ، إمام دار الهجرة ، وأحد الإئمة الأعلام ولد بالمدينة سنة (٩٥هـ) وبها مات سنة (١٧٩هـ) انظر ترجمته : طبقات الفقهاء ص ٦٧ – ٦٨ ، ترتيب المدارك ١٠٢/١ – ٢٥٤ ، الديباج المذهب ٨٢/١ – ٩٧ ، وفيات الأعيان ١٣٥/٤ – ١٣٩ ، والأعلام ٢٥٧/٥ – ٢٥٨ .

(٥) هو الشاعر الجاهلي أمرؤ القيس بن حجر الكندي .

(٦) الذخيرة ، القسم الرابع – المجلد الثاني ص٥١٦ ، وفيات الأعيان ٢٢٠/٣ ، وانظر علاقة القاضي أبي حصين على بن عبد الملك الرقي قاضي حلب بالأمير الشاعر أبي فراس الحارث بن سعيد ابن حمدان (٣٢٠-٣٥٧هـ) وما كان بينهما من محاورات شعرية في تتمة اليتيمة ١٢٧/٥ – ١٢٨ .

وكان القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري (٣٤٨ - ٤٥٠هـ) (١) على اتصال بأبي العلاء المعري، وكانت بينهما أشعار متبادلة، فحينما وافى المعري بغداد، أرسل إليه القاضي الطبري الأبيات التالية متسائلاً:

ومَا ذَاتُ دَرٍّ لا يحِلُّ لحَالِبٍ ... تناولُهُ واللَّحمُ منها مُحَلَّلُ ؟
لمَنْ شَاءَ في الحالَيْنِ حَيًّا ومَيِّتًا ... ومَنْ شاءَ شُرْبَ الدَّرِّ فهو مُضَلَّلُ (٢)
إذا طعنَتْ في السِّنِّ فاللحمُ طَيِّبٌ ... وآكِلُهُ عِنْدَ الجميعِ مُغفَّلُ
وخِرْفانُها للأكلِ فيها كزَازَةٌ ... فما لِحَصِيفِ الرَّأيِ فيهنَّ مَأْكَلُ
وما يَجْتَنِي مَعْنَاهُ إلاَّ مُبَرِّزٌ ... عليمٌ بأسْرَارِ القُلوبِ مُحَصِّلُ

فأملى المعرى الجواب على الرسول في الحال ارتجالاً:

جَوابانِ عَنْ هذَا السُؤالِ كِلاهُمَا ... صَوابٌ وبعضُ القائِلينَ مُضَلَّلُ
فَمَنْ ظَنَّهُ كَرْمًا فليسَ بكَاذِبٍ ... ومَنْ ظَنَّهُ نَخْلاً فليسَ يُجَهَّلُ
لحومُهما الأعنابُ والرُّطَبُ الَّذي ... هُو الحِلُّ والدَّرُّ الرَّحيقُ المسَلْسَلُ
ولكنْ ثِمَارُ النَّخْلِ وهي غَضِيضَةٌ ... تُمرٌ وغَضُّ الكَرْمِ يُجْنَى ويُؤْكَلُ
يُكَلِّفُني القاضِي الجَليلُ مَسَائِلاً ... هي النَّجْمُ قَدْراً بل أعزُّ وأطْوَلُ
ولوْ لمْ أُجِبْ عنها لكُنْتُ بجَهْلِهَا ... جَديراً ولكنْ من يَوَدُّكَ مُقْبِلُ (٣)

---

(١) الفقيه الشافعي المعروف، كان ثقة ورعاً، ولد بآمل وهي مدينة تابعة لطبرستان، واستوطن بغداد، وولى القضاء بربع الكرخ إلى حين وفاته، عمر طويلاً ولم يختل عقله ولا تغير فهمه، فكان يفتي ويستدرك على الفقهاء الخطأ، انظر ترجمته: طبقات الفقهاء ص ١٢٧ - ١٢٨، وفيات الأعيان ٢/٥١٢ - ٥١٥، طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٢ - ١٦ والأعلام ٣/٢٢٢.

(٢) في الوافي بالوفيات: من رام شرب الدر.

(٣) وفيات الأعيان ٢/٥١٢ - ٥١٣، الوافي بالوفيات ١٦/٤٠٢.

ونجد أبا العلاء أيضاً يستملح معنى لأحد الفقهاء فيضمنه في شعره ، دون حرج أو غضاضة ، فقد ذكر صاحب وفيات الأعيان أنه أخذ قوله من قصيدته المشهورة :

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ وَالذَّنْبُ لِلعَيْنِ لا لِلنَّجْمِ في الصِّغَرِ (١)

من بيتي الفقيه أبي الحسن منصور بن إسماعيل التميمي المصري (تـ ٣٠٦هـ) (٢) :

عابَ التَّفَقُّهَ قَومٌ لا عُقُولَ لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِ إذَا عَابُوهُ مِنْ ضَرَرِ

ما ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى والشَّمْسُ طَالِعَةٌ أَنْ لا يَرى ضَوْءَهَا مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَرِ (٣)

وسيطول بنا الحديث إذا أردنا استقصاء مشاركات الفقهاء في مجال الأدب في العصر العباسي الثاني ، بيد أن هذه المشاركات نجدها تتضاءل كلما تقدم بنا الزمن نحو العصور المتأخرة ، خاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين ، حيث اقتصر فيهما كثير من الفقهاء على نظم الشعر تعبيراً عن تجربة ذاتية من غير مشاركة في قصائد المدح الرسمية وغير ذلك من المشاركات العامة ، ومن أبرز الأسماء في هذه الفترة كل من : الفقيه أبو فضل يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد الطنزي المعروف بالخطيب الحصكفي

---

(١) انظر شروح سقط الزند لأبي العلاء المعري ١٦٢/١ ، ورواية الشطر الأول فيه : والنجم تستصغر الأبصار صورته .

(٢) فقيه شافعي ضرير ، أصله من رأس العين بالجزيرة ثم سافر إلى بغداد ، ومدح فيها الخليفة المعتز با لله ، ثم استقر به الأمر في مصر ، وفيها توفي ، له مصنفات في الفقه ، وله شعر جيد سائر جمعه وحققه الدكتور عبد المحسن فراج القحطاني ، انظر ترجمته : طبقات الفقهاء ص١٠٧-١٠٨ ، المنتظم ١٥٢/٦ ، معجم الأدباء ١٨٥/١٩ - ١٨٦ ، وفيات الأعيان ٥ / ٢٨٩ - ٢٩٢ ، الأعلام ٢٩٧/٧ - ٢٩٨ ، منصور بن إسماعيل الفقيه حياته وشعره للدكتور عبد المحسن فراج القحطاني ص ١٧ - ٤١ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٩٠/٥ ، أدب الفقهاء لعبد الله كنون ص٣٨ ، منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص١٠٣ ، وانظر ما قيل عن اعتماد الشاعر أبي الطيب المتنبي في بعض شعره على الفقيه منصور أيضاً في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص٢٩١، منصور بن إسماعيل الفقيه، حياته وشعره ص٤٧-٤٨.

(٤٦٠ - ٥٥١) (١) ، والعلامة أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي البكري البغدادي المعروف بابن الجوزي (تـ ٥٩٧هـ) (٢) ، وشيخ الإسلام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الدمشقي (٥٤١- ٦٢٠هـ) (٣) ، وقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الإربلي المعروف بابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١هـ) (٤) وغيرهم .

---

(١) فقيه شافعي أديب ، ولد بطنزه وهي بليده صغيرة بديار بكر ونشأ في حصن كيفا ، وهي قلعة حصينة في نواحي ميا فارقين فنسب إليها ، ودخل بغداد فتفقه بها وقرأ الأدب على الخطيب التبريذي ثم رجع إلى بلاده ، واستوطن ميافارقين وولى الخطابة بها ، وكان إليه أمر الفتوى بها ، وفيها مات ، ذكر العماد الأصفهاني بأنه كان علامة زمانه ومعري العصر في نثره ونظمه انظر ترجمته : خريدة القصر - قسم شعر الشام ٤٧١/٢ - ٥٤٠ ، المنتظم ١٨٣/١٠ ، معجم الأدباء ١٨/٢٠ ، وفيات الأعيان ٢٠٥/٦ - ٢١٠ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٠/٧ ، الأعلام ١٤٨/٨ .

(٢) كان علامة عصره ، احتمع فيه من العلوم ما لم يجتمع في غيره ، له مصنفات كثيرة في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والأدب وغير ذلك ، اشتهر بالوعظ ، ولد ومات في بغداد ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ١٤٠/٣ - ١٤٢ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٣٩٩/١ ، شذرات الذهب ٣٢٩/٤ ، معجم المؤلفين ١٥٧/٥ ، الأعلام ٣١٦/٣ - ٣١٧ ، أدب ابن الجوزي ، رسالة ماجستير تقدم بها الباحث إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ١٤٠٩هـ ص ١٠ - ٣٢ .

(٣) من أكابر فقهاء الحنابلة ، ولد في جماعيل ، من قرى نابلس بفلسطين ، وقدم دمشق مع أهله صغيراً فتعلم بها ، ورحل إلى بغداد ثم عاد إلى دمشق وفيها كانت وفاته ، له مصنفات كثيرة أشهرها كتاب " المغنى " انظر ترجمته: فوات الوفيات ٢ / ١٥٨ - ١٥٩ ، البداية والنهاية ٩٩/١٣ ، الذيل على طبقات الحنابلة ١٣٣/٢ ، شذرات الذهب ٨٨/٥ ، الأعلام ٦٧/٤ ، معجم المؤلفين ٦ / ٣٠ .

(٤) الفقيه والمؤرخ والأديب المعروف صاحب الكتاب الشهير " وفيات الأعيان " ولد بإربل بالقرب من الموصل ، تفقه بالموصل قدم الشام في شبابه ، وتولى القضاء في مصر والشام ، وولى التدريس في كثير من مدارس دمشق وبهامات ، يتصل نسبة بالبرامكة ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ١١/٧ - ٦١ (ترجمة المحقق) ، الوافي بالوفيات ٣٠٨/٧ - ٣١٠ ، فوات الوفيات ١١٠/١ - ١١١ ، الدليل الشافي على المنهل الصافي لابن تغرى بردي ١/ ٧٤ - ٧٥ ، الأعلام ١ / ٢٢٠ .

الباب الأول

أغراض وموضوعات شعر الفقهاء

الفصل الأول : الأغراض الإسلاميـــــة .

الفصل الثاني : الأغراض التقليديـة .

الفصل الثالث : الأغراض التعليميـة .

الفصل الأول

الأغـــــراض الإسلاميـــــة

المبـــحث الأول : المناجاة

المبحث الثاني : الزهـــــد

المبحث الثالث : الأخلاق والآدب الإسلامية

المبحث الرابع : الحكمة

المبحث الأول : المناجاة

اتخذ الفقهاء من الشعر منبراً ، يلهجون عبره بذكر ا لله تعالى ، وتسبيحه والثناء عليه بما هو أهل له ، والتقرب إليه ، وكذلك مناجاته بكل ما يعتمل في نفوسهم ، من مشاعر الحب والشوق والخوف والرجاء .. في لحظات الضعف والقوة ، والصحة والمرض .. كما بثوا من خلال أشعارهم شكواهم إلى خالقهم مما يعتريهم من ضعف بشري يصرفهم عن عبادته ، متذللين خاضعين يرجون عفوه ورحمته التي وسعت كل شيء ، ويخشون عقابه مما اقترفته أيديهم من سوء وآثام .

فهذا الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي يبسط يديه خاضعاً لله تبارك وتعالى ، راجياً عفوه ، مقراً بجرمه قائلاً :

لا شيءَ أعظَمُ مِنْ جُرْمِي سِوَى أمَلِي ... لِحُسْنِ عَفْوِكَ عَنْ جُرْمِي ومُجْتَرَمِي
فإنْ يكُنْ ذَا وذَا في القَدْرِ قَدْ عَظُمَا ... فَأنْتَ أعظَمُ مِنْ سِرِّي ومِنْ نَدَمِي (1)

والشاعر هنا لم ينس لحظة واحدة أنه يقف مناجياً رباً رحيماً يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن جميع الذنوب والآثام مهما كانت ، على الرغم من احساسه الشديد بعظم جرمه ، وانظر إلى كلمة " أعظم " التي رددها الشاعر مرتين ، ليبين أن ا لله عز وجل أعظم من ذنوبه ، وأنه لا يعجزه شيء .

ويتوجه القاضي أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة (٢٦٠-٣٥٠هـ)(2) بالرجاء إلى ا لله تعالى - وليس إلى سواه - فهو المغيث والراحم والنصير

(١) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ١٣٧ .

(٢) من أهل بغداد ، كان أحد أصحاب محمد بن جرير الطبري ، تقلد قضاء الكوفة من قبل أبي عمر محمد بن يوسف ، وكان من العلماء بالأحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر ، وله مصنفات عديدة ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٣٥٧/٤-٣٥٩ ، الجواهر المضية ٢٣٨/١-٢٣٩ ، بغية الوعاة ٣٥٤/١ ، شعراء بغداد ٣٨٣/١ - ٣٨٤ ، الأعلام ١٩٩/١ .

ذو الطول ، حيث قال :

لَيْسَ لي عُـدَّةٌ تشُـدُّ فُـؤادي غَيْرَ ذِي الطَّوْلِ ، عُدَّتي وظَهيري
هـو ذُخْـرِي لِكُـلِّ مـا أرْتَجِيـهِ وغَيَّاثِـي ورَاحِمـي ونَصِيـري [1]

ويناجي الفقيه أبو عبد الرحمن عمر بن الحاكم الزاهد أبي سعد محمد بن محمد المعروف بالأشقر [2] ربه الذي يعلم السر وأخفى ، بأبيات سائلاً إياه أن يحط عنه ذنوبه التي أنقضت ظهره :

إلهِـي حَاجَـاتي إليـكَ كَثيـرَةٌ وأنْـتَ بِحَـالي عَـالِمٌ وَخَبِيـرُ
وأنْـتَ رَحِيـمٌ بالبَرِيَّـةِ فاقْضِهَـا جَمِيعاً وذَا سَهْلٌ عَلَيْكَ يَسِيـرُ
ذُنوبِـي ذُنُـوبِي حُـطَّ عَنِّـيَ ثِقْلَهَـا فَقَدْ أنْقَضَتْ ظَهْرِي وأنْتَ غَفُورُ [3]

وقد أحسن الشاعر في استهلال مناجاته بقوله " إلهي " وهو ما يشعر بالخضوع والتذلل لخالقه عز وجل ، وكذلك القرب منه .

وقال الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبدويه النهرواني (ت ٥٢٥هـ) [4] مبتهلاً إلى الله تعالى ، نادماً على ما اقترفته يداه من الذنوب ، راجياً عفوه وغفرانه :

(١) تاريخ بغداد ٣٥٨/٤ ، شعراء بغداد ٣٨٥/١ .
(٢) لم يترجم له صاحب الدمية ، واكتفى بايراد أبيات من شعره ، بعد أن وصفه بأنه من الفقهاء ، وقال عن شعره : " مقطعاته حلوة كالشهد ، وإن كانت مقصورة على مر الزهد " ٢٦٤/٢ .
(٣) دمية القصر ٢٦٤/٢ - ٢٦٥ .
(٤) ذكر عمر الجعدي مصنف كتاب " طبقات فقهاء اليمن " أنه كان من أبناء التجار المسافرين في البحار ، تفقه بكتب أبي إسحاق الشيرازي ، سكن عدن ثم انتقل إلى زبيد ، ثم استقر في جزيرة كمران في البحر وفيها مات ، وكان زاهداً ورعاً متحرياً في المطعم ، له تصنيف في أصول الفقه سماه " الإرشاد ، وذكر محقق الكتاب أن الأرجح أن اسمه محمد بن الحسن بن عبدويه المهروباني وليس النهرواني . انظر ص١٤٤- ١٤٧ ، وانظر شذرات الذهب ٧٥/٤-٧٦ ، مرآة الجنان لليافعي ٢٤٢/٣-٢٤٤ ، معجم المؤلفين ٢٧٥/١٠ .

لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ ذَنْبِي فَإِنِّي كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ قَرُبْتُ بَعُدْتُ
لَيْتَنِي عِنْدَمَا عَصَيْتُكَ رَبِّي لِهَوانِي على الرَّمَادِ ذُبِحْتُ
لَيْتَنِي عِنْدَما هَمَمْتُ بِذَنْبٍ بِوَقُودِ الحَصَى حُرِقْتُ فَفُتُّ
يَا رَحِيمَ العِبَادِ إنْ لم تُجْزِنِي فَلِنَفْسِي إذَنْ خَسِرْتُ خَسِرْتُ
يَا رَحِيمَ العِبَادِ طُرًّا أجِرْنِي وأغِثْنِي فَقَدْ هَلَكْتُ هَلَكْتُ
يَا رَحِيمَ العِبَادِ اجْعَلْ جَوابِي يا عُبَيْدِي فَقَدْ رَحِمْتُ رَحِمْتُ [1]

ويلاحظ هنا أن الشاعر قد تعمد تكرار ألفاظ وعبارات بعينها في مناجاته لخالقه لتجسيد ما في نفسه من مشاعر الندم والخوف والرجاء ...

ويستجير القاضي أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن النضر المعروف بالأديب (توفى بعد ٥٥٨هـ) [2] بربه الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، في شدة أصابته قائلاً :

يَا مُسْتَجِيبَ دُعَاءِ المُسْتَجِيرِ بِهِ ويَا مُفَرِّجَ لَيْلِ الكُرْبَةِ الدَّاجِي
قَدْ أُرْتِجَتْ دُونَنَا الأبْوَابُ وامْتَنَعَتْ وجَلَّ بَابُكَ عَنْ مَنْعٍ وإرْتَاجِ
نَخَافُ عَدْلَكَ أنْ يَجْرِي القَضَاءُ بِهِ ونَرْتَجِيكَ فَكُنْ للخَائِفِ الرَّاجِي [3]

ويشكو الفقيه إبراهيم بن نصر بن طاقة المصري الحموي المعروف بابن الفقيه نصر

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٤٦ .

(٢) من أسوان أو أسنا بصعيد مصر ، أثنى عليه العماد وقال عنه : " من الأفاضل الأعيان المعدودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع " تولى قضاء الصعيد وأخميم ، وكان أحد عمال الديار المصرية في زمن الأفضل شاهنشاه أحمد بن بدر الجمالي (٤٥٨ - ٥١٥هـ) وكان له ديوان شعر ، توفى بعد سنة (٥٥٨هـ) وليس كما ذكر عمر رضا كحالة أنه كان حياً قبل (٧٤٨هـ) انظر ترجمته : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ٢/٩٠ - ٩٨ ، الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد للأدفوى ص٤٠٨-٤١٤ ، بغية الوعاة ٢/٢٠٠-٢٠١ ، معجم المؤلفين ٧/٢٣١ .

(٣) خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ٢ / ٩٢ .

(تـ ٦٣٨هـ) (١) إلى ربه ما يلاقيه من ضيق في رزقه ، ونفاد صبره وعدم احتماله ، وقلة حيلته ، قائلاً :

أشْــــكُو إلَيْــــكَ وأنْـــــتَ أرْ حَـمُ مَــنْ شَـكَوْتُ إليــهِ حَـالِي
ضَـــاقَتْ علــــيَّ ثَلاثَــــةٌ رِزْقِــي وصَــدْرِي واحْتِمَــالِي
وَعَدِمْـــتُ حُسْـــنَ ثَلاثَـــةٍ جَلَدِي وصَبْــرِي واحْتِيَالِــي (٢)

أما القاضي أبو أحمد منصور بـن محمـد الأزدي الهـروي (تـ ٤٤٠هـ) (٣) فيتوجـه إلى المولى القدير جلت قدرته راجياً أن يعزه ، ليقينه بأن العزة لا تكون إلا به ، حيث قال:

يَـــارَبِّ أذْلَلْـــتَ قَوْمــاً يَـــارَبِّ كُــنْ لي مُعِــزَّا
سَمَّيْتَنِـــي لَـــكَ عَبْـــداً حَسْبِـــي بِذَلِــكَ عِــزَّا (٤)

وقد أكثر الفقهاء وألحوا في مناجاتهم لربهم ، على حمده وشكره عز وجل لما أسبغه عليهم من نعم كثيرة لا تحصى ولا تعد ، كما أعربوا عن يقينهم بجوده وكرمه الذي لاحد له .

---

(١) قال عنه السبكي : " فقيه ، أديب ، رئيس ، وجيه ، مولده سنة إحدى أو اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وأجاز له ابن الجوزي وجماعة ... ولي نظر الأحباس بالديار المصرية ، ونظر الديوان بالأعمال القوصية " وختم ترجمته له بذكر امتحانه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث صودر وسلم إلى من عاقبه فضربه حتى مات ، انظر طبقات الشافعية الكبرى ١٢٤/٨-١٢٥ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١٢٥/٨ .

(٣) قاضي هراة ، كان أديباً شاعراً ، تفقه ببغداد ومدح القادر بـا لله العباسي قال عنه الباخرزي ما موجزه : أفضل من بخراسان على الإطلاق ، يبلغ ديوان شعره أربعين ألف بيت ، أوتي حظاً وافراً من حياته ، وبلغ أرذل العمر من وفاته . وكان مغرى بالشراب ، له خمريات وغزليات فائقة . وقال عنه السبكي : " كان فقيهاً شاعراً مجيداً ، لا يعتري شعره عجمة مع كونه من أهلها " انظر ترجمته : تتمة اليتيمة ٢٣٢/٥ – ٢٣٣، دمية القصر ٩٣/٢ – ٩٤ ، معجم الأدباء ١٩١/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٦/٥ ، الأعلام ٣٠٣/٧ .

(٤) دمية القصر ١٠١/٢ .

فهذا الشيخ أبو علي محمد بن أحمد بن القاسم الروذباري (ت ٣٢٢هـ) (١) يرى أن سعادته الحقيقية إنما تكمن في إزجاء الحمد والشكر والثناء بكل جوارحه إلى الله عز وجل ، كما جاء في قوله :

لَوْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنِّي لَهَا لُغَةٌ ... تُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مازَانَ شُكْرِي إِذَا أَشَرْتُ بِهِ ... إِلَيكَ أَجْمَلَ فِي الإِحْسَانِ وَالمِنَنِ (٢)

وقال قاضي القضاة شهاب الدين محمد بن أحمد بن خليل بن سعادة الخويي (٦٢٦ – ٦٩٣هـ) (٣) يناجي ربه بهذه الأبيات الرقيقة ، التي تنبض ثقة بخالقه عز وجل :

بِخَفِيِّ لُطْفِكَ كُلَّ سُوءٍ أَتَّقِي ... فَامْنُنْ بِإِرْشَادِي إِلَيهِ وَوَفِّقِ (٤)
أَحْسَنْتَ فِي المَاضِي وإِنِّي وَاثِقٌ ... بِكَ أَنْ تَجُودَ عَلَيَّ فِيمَا قَدْ بَقِي
أَنْتَ الَّذِي أَرْجُو فَمَالِي والوَرَى ... إِنَّ الَّذِي يَرْجُو سِوَاكَ هُوَ الشَّقِي (٥)

وقال أيضاً عن تعلقه الشديد بربه ، ووقوفه ببابه الذي لا يرد عنه أحد ، ورفضه كل ما سواه :

(١) أحد أئمة الصوفية ، بغدادي الأصل ، يتصل نسبه بكسرى أنو شروان ، أقام بمصر وصار شيخها ، وكان فقيها محدثاً نحوياً ، وله شعر حسن رقيق ، وفي اسمه خلاف ، حيث ذكر السبكي أن اسمه هو : أحمد بن محمد بن القاسم ، بيد أن الخطيب البغدادي أكد أن اسمه : محمد بن أحمد بن القاسم وكذلك ابن الأثير في تهذيب الأنساب ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٣٢٩/١ – ٣٣٣ ، اللباب في تهذيب الأنساب ٤٨٠/١ ، طبقات الشافعية الكبرى ٤٨/٣ ، الأعلام ٥ / ٣٠٨ – ٣٠٩ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٣٣/١ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥١/٣ .

(٣) قاضي دمشق وابن قاضيها ، ولد ونشأ بها ، تولى قضاء القدس ثم حلب ، فقضاء الديار المصرية ، ثم نقل إلى قضاء الشام ، كان إماماً وفقيهاً شافعياً ، وأديباً شاعراً ، له مصنفات عديدة ، انظر ترجمته : الوافي بالوفيات ١٣٧/٢ ، فوات الوفيات ٣١٣/٣ – ٣١٤ ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ٥٩١/٢ – ٥٩٢ ، بغية الوعاة ٢٣/١-٢٤ ، الأعلام ٣٢٤/٥ .

(٤) في بغية الوعاة : وبحق لطفك .

(٥) الوافي بالوفيات ٢/ ١٣٩ ، فوات الوفيات ٣١٤/٣ ، الدليل الشافي ٥٩٢/٢ ، بغية الوعاة ٢٤/١ .

أمَّــا سِــوَاكَ فَبَابُــهُ لا أطْــرُقُ		حَسْـبِي كَرِيــمٌ جُــودُهُ مُتَدَفِّــقُ
مَا إنْ يَخَــافُ بِظِــلِّ بَابِــكَ واقِــفٌ		ظَمَـأً وبَحْـرُ نَــداكَ طَـامٍ مُغْــدِقُ
بِجِبَــالِ جُــودِكَ لا يَــزالُ تَعلُّقِــي		مَـا خَـابَ يومـاً مَـنْ بِهَـا يَتعلَّــقُ
بُشْرَى لمن أضْحَــى رَجَــاؤُكَ كنــزَهُ		ولَــهُ الوثُــوقُ بأنَّــهُ لا يُمْلِــقُ (١)

وتطرق الفقهاء في موضوع المناجاة إلى الأسقام والوهن والعجز الذي يعتريهم ، مبتهلين إلى الله أن يزيل مابهم من أسقام ، وأن يعفو عن تقصيرهم في أداء ما أوجبه عليهم من فروض وواجبات .

وها هو الفقيه أبو عبد الرحمن عمر بن محمد بن محمد المعروف بالأشقر ، ينظم أبياتاً مؤثرة يتضرع فيها إلى ربه أن يشفيه مما به من أمراض ، وأن يكشف عنه الضر ، حيث قال :

إلَهِــي إنْ لم تَشْــفِنِي فمَــنْ الَّــذِي		شَفَانِي وعَافَانِي سِواكَ مِـن السُّقْمِ ؟
ومَـنْ يَكْشِـفُ الضُرَّ المُلِمَّ بِسَاحَتِــي		ويَقْضِي دُيوني حِيْنَ يَبْهَظُنِي غُرْمِـي ؟
سِــوَاكَ إلـٰـهَ العَــالمِينَ فــإنَّهُمْ		جَمِيعاً أبَوا إلاَّ التَّوَاطِي على الظُّلْمِ
متَى ما بدَتْ لي حَاجَــةٌ وذَكَرْتُهَــا		لغَيْرِكَ يامَولاىَ خِبْتُ على رُغْمِي (٢)

وعبر أحد الفقهاء عن اعتذاره لخالقه ، فقد نظم الفقيه فخر الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي الصالحي الحنبلي المعروف بابن البخاري (٥٩٥ – ٦٩٠هـ) (٣) أبياتاً يعتذر فيها لربه من صلاته قاعداً بسبب عجزه ، وكذلك عدم

(١) الوافي بالوفيات ١٣٩/٢ ، فوات الوفيات ٣١٤/٣ .
(٢) دمية القصر ٢٦٥/٢ .
(٣) فقيه محدث ، كان سند وقته ، عمر طويلاً ، أجاز له ابن الجوزي وغيره ، حدث طويلاً في الكثير من البلاد في دمشق ومصر وبغداد وغيرها ، وله شعر جيد ، توفى بدمشق انظر ترجمته : الذيل على طبقات الحنابلة ٣٢٥/٢، الدليل الشافي على المنهل الصافي ٤٤٩/١ – ٤٥٠ ، شذرات الذهب ٤١٤/٥ ، الأعلام ٢٥٧/٤.

حضوره الجمعة والجماعات ، قال فيها :

إِلَيْكَ اعْتِذارِي مِنْ صَلاتِي قَاعِداً ... وعَجْزِي عَنْ سَعْيٍ إلى الجُمُعَاتِ
وَتَرْكِي صَلاةَ الفَرْضِ في كُلِّ مَسْجِدٍ ... تَجَمَّعَ فِيهِ النَّاسُ للصَّلَوَاتِ
فيَارَبِّ لا تَمْقُتْ صَلاتِي وَنَجِّنِي ... مِنَ النَّارِ، واصْفَحْ لي عَنِ الهَفَواتِ (١)

وأخذ الموت حيزاً كبيراً من مناجاة الفقهاء لخالقهم ، فقد كان يؤرقهم ويقض مضجعهم افراطهم في جنب الله ، بظلمهم لأنفسهم ، واقترافهم الذنوب والآثام ، لهذا ابتهلوا إليه عز وجل خاضعين متذللين بأرق الأشعار ، ليحط عنهم أوزارهم ، ويدخلهم في رحمته يوم الفزع الأكبر ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

يقول الشريف المرتضى متضرعاً إلى ربه سائلاً إياه أن يؤمن روعاته في يوم الحشر العظيم :

يَاربِّ لا تَجْعَلِ المَنْظُورَ مِنْ أجَلِي ... يَلْقَاكَ بالسَّيِّءِ المَكْرُوهِ مِنْ عَمَلِي
واجْعَلْ مَسِيرِي إلى لُقْيَاكَ يَوْمَ تَرَى ... حَشْرَ الأنَامِ على نَهْجٍ مِنَ السُّبُلِ
في واضِحٍ جَدَدٍ تَأبى العِثَارَ بِهِ ... رِجْلِي فلا هَفْوَتِي فِيهِ ولا زَلَلِي (٢)
وأعْطِنِي الأمْنَ في يَوْمٍ تَكُونُ بِهِ ... قُلُوبُ خَلْقِكَ مُلْقَاةً على الوَجَلِ
كَمْ ذَا أُؤَمِّلُ عَفْواً لَسْتُ أكْسَبُهُ ... وَيْلٌ لِجِلْدِي يومَ النَّارِ مِنْ أمَلِي (٣)

وأوصى العلامة أبو الفرج ابن الجوزي أن يكتب على قبره الأبيات الرقيقة التالية ، يناجي فيها ربه راجياً أن يتجاوز عن سيئاته ، ويشمله بكريم عفوه :

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٣٢٨ .
(٢) الجدد : الأرض المستوية .
(٣) ديوان الشريف المرتضى ٣/٩٤ .

يَـــا كَثِيـــرَ العَفْـــوِ عَمَّـــنْ كَـــثُرَ الذَّنْـــبُ لَدَيْـــهِ
جَـــاءَكَ المُذْنِـــبُ يَرْجُـــو الصَّـــفْـــحَ عَـــنْ جُـــرْمِ يَدَيْـــهِ
أنَـــا ضَيْـــفٌ وجَـــزَاءُ الـــضَيْـــفِ إحْسَـــانٌ إليْـــهِ (١)

وكذلك حال قاضي القضاة ابن خلكان ، الذي قال متضرعاً إلى ربه ، معترفاً بجرمه ، راجياً في حلمه وعفوه :

يَـــارَبِّ إنَّ العَبْـــدَ يُخْفِـــي عَيْبَـــهُ فاسْـــتُرْ بِحِلْمِـــكَ مَـــابَدَا مِـــنْ عَيْبِـــهِ
ولَقَدْ أتَـــاكَ ومَالَـــهُ مِـــنْ شَافِـــعٍ لِذُنُوبِهِ فاقْبَـــلْ شَفَاعَـــةَ شَيْبِـــهِ (٢)

وهكذا يسير شعر المناجاة عند الفقهاء على هذه الوتيرة ، مرتكزاً على صدق العاطفة ، ورقة الشعور ، بالإضافة إلى سهولة الألفاظ ، وسلاسة الأساليب الإنشائية من نداء وتمن ... القادرة على أداء ماتجيش به نفس المتكلم من مشاعر ، وما يريد أن يثيره في المخاطب من انفعالات ، لأن الجملة الطلبية – كما يقرر نقاد الأدب – أدنى إلى روح الشعر ، الذي يراد به التأثير من الجملة الخبرية (٣) .

ولعل النماذج السابقة تصور لنا بجلاء ، تلك النفوس الشفافة ، التي كانت ترى سعادتها في الإقبال على ا لله تعالى .

بيد أن هذا الغرض الشعري يتحول عند بعض الفقهاء إلى شيء من التصوف ، وقد أظهروا في هذا الشعر تمكناً لناصية البيان ، وللأدوات الشعرية ، حيث جاء رقيقاً يعبر عن صفاء نفوسهم ، ونقاء سريرتهم ، وتعلقهم الشديد بخالقهم عز وجل ، إذ لم

---

(١) انظر ديوان ابن الجوزي ضمن رسالة " أدب ابن الجوزي " ص ٢١٨ .
(٢) فوات الوفيات ١١٧/١ ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ٧٥/١ .
(٣) انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، بلاغة ومنهاجا للدكتور عبد الغني محمد سعد بركه ص ٣٢٦ .

يكن لهم مأرب في دنياهم وآخرتهم سوى حب لقاء خالقهم تبارك وتعالى (١) ، انطلاقاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه.."(٢)

ففي مجال حب الله ، تستوقفنا أبيات للعديد من الفقهاء تتجلى فيها أسمى معاني الحب والخضوع لله عز وجل ، فهذا الشيخ أبو علي محمد بن أحمد بن القاسم الروذباري ، يجد لذته في هلاك روحه في سبيل حب خالقه فهو يقول :

رُوحِي إليْكَ بِكُلِّهَا قَدْ أجْمَعَتْ — لَوْ أنَّ فِيكَ هَلاكَهَا مَا أقْلَعَتْ
تَبْكِي إليْكَ بِكُلِّهَا عَنْ كُلِّهَا — حَتَّى يُقَالَ مِن البُكَاءِ تَقَطَّعَتْ
فانْظُرْ إلَيْهَا نَظْرَةً فَلَطَالَمَا — مَتَّعْتَهَا مِنْ نِعْمَةٍ فَتَمَتَّعَتْ (٣)

أما الفقيه أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (٣٩٦ - ٤٨١هـ) (٤) فكانت تتنازعه عاطفتان جارفتان تجاه خالقه ، هما الحب والخوف ،كما عبر عن ذلك بقوله :

نَهْوَاكَ نَحْنُ ، ونَحْنُ مِنْكَ نَهَابُ — أهَوًى وخَوْفًا ؟ إنَّ ذَاكَ عُجَابُ !
شَخَصَ العُقُولُ إلَيْكَ ثُمَّ اسْتَحْسَرَتْ — وتَحَيَّرَتْ في كُنْهِكَ الألْبَابُ (٥)

---

(١) انظر التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق للدكتور زكي مبارك ٢٨٧/١ .

(٢) سنن الدارمي ، باب في حب لقاء الله ٣١٢/٢ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٥١/٣ .

(٤) الإمام والفقيه الحنبلي الواعظ ، شيخ خراسان في عصره ، من ولد الصحابي أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، كان مظهراً للسنة داعياً إليها ، وقد امتحن وأوذي ، له مصنفات عديدة ، انظر ترجمته ، دمية القصر ١٨٨/٢ ، طبقات الحنابلة ٢٤٧/٢ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٥٠/١ ، المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد للعليمي ١٥٤/٢ ، الأعلام ٤/ ١٢٢ .

(٥) الذيل على طبقات الحنابة ٦٦/١ ، المنهج الأحمد ٢ / ١٥٧ .

ومن الجدير بالذكر أننا نلاحظ اختلافاً في التوجه ودرجة العاطفة في النصين السابقين ، فبينما نجد جموحاً في عاطفة الحب يعبر عن شدة الطاعة لله عند الروذباري ، نجد أن عاطفتي الحب والخوف تسيران معاً في خط متواز عند الهروي .

ويلجأ الفقيه الواعظ مجد الدين أبو الفتوح أحمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي (تـ ٥٢٠هـ) (١) إلى التلميح بدلاً من التصريح في الإعراب عن محبته لخالقه الذي يتجاوز عن سيئات عباده ، فحينما قرأ المقرئ في إحدى مجالس وعظه ، قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ (٢) ، قال : شرفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقوله يا عبادي ، ثم أنشد :

وَهَانَ عَلَيَّ اللَّوْمُ في جَنْبِ حُبِّهَا ... وَقَوْلُ الأَعَادِي إِنَّهُ لَخَلِيعُ
أَصَمُّ إِذَا نُودِيتُ بِاسْمِي وَإِنَّنِي ... إِذَا قِيلَ لِي يَا عَبْدَهَا لَسَمِيعُ (٣)

ويتضرع الفقيه أبو القاسم عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي الدمشقي المعروف بابن الحنبلي (تـ ٥٣٦هـ) (٤) إلى ربه سائلا إياه أن يعلل فؤاده المريض ، ومعرباً عن رضاه وقبوله لقبض روحه ، حيث يقول :

---

(١) أخو الإمام الغزالي ، كان من الفقهاء غير أنه مال إلى الوعظ والتصوف ، طاف البلاد ، درس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه لما ترك التدريس ، واختصر كتابه " إحياء علوم الدين " وسماه " لباب الأحياء " كما صنف كتاباً آخر سماه " الذخيرة في علم البصيرة " انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٩٧/١ - ٩٨ ، الوافي بالوفيات ٨ / ١١٥ ، طبقات الشافعية الكبرى ٦٠/٦ ، الأعلام ٢١٤/١ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٥٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٩٧/١ - ٩٨ ، الوافي بالوفيات ١١٥/٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ٦١/٦ .

(٤) من فقهاء الحنابلة ، مولده ووفاته بدمشق ، كان سفير صاحبها حين هاجمها الإفرنج سنة (٥٢٣هـ) إلى الخليفة العباسي المسترشد بالله ببغداد ليطلب منه النجدة ، له تصانيف عديدة ، انظر ترجمته : الذيل على طبقات الحنابلة ١٩٨/١ - ٢٠٠ ، المنهج الأحمد ٢٥٠/٢ ، شذرات الذهب ١١٣/٤ ، الأعلام ١٨٤/٤ ، معجم المؤلفين ٢٢٤/٦ .

سَيِّدي عَلِّلِ الفُؤادَ العَليلا   واحْيِني قَبْلَ أنْ تَراني قَتيلا
إنْ تَكُنْ عَازِماً على قَبْضِ رُوحِي   فَتَرَفَّقْ بِهَا قَلِيلاً قَلِيلا [1]

وتبلغ عاطفه الحب ذروتها عند الفقيه أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرج الأنصاري المعروف بابن الكيزاني المصري (تـ ٥٦٢هـ) [2] فهو يستمرئ أسقامه وآلامه ، ويأبى أن يعالجه الطبيب ، لأن دواءه يكمن في الأنس بخالقه ، وتعليل قلبه بذكراه ، كما بين ذلك بقوله :

اِصْرِفُوا عَنِّي طَبِيبِي   وَدَعُونِي وَحَبِيبِي
عَلِّلُوا قَلْبِي بِذِكْرَا   هُ ، فَقَدْ زَادَ لَهِيبِي
طَابَ هَتْكِي في هَوَاهُ   بَيْنَ وَاشٍ وَرَقِيبِ
لا أُبَالِي بِفَوَاتِ النْـ   ـنَفْسِ مَادَامَ نَصِيبِي
لَيْسَ مَنْ لَامَ وإنْ   أطْنَبَ فِيهِ بِمُصِيبِ
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي   وَجُفُونِي بِنَحِيبِي [3]

ومن مقتضيات الحب الإلهي الذل والخضوع والتضرع وسفك الدموع بين يدي الخالق عز وجل كما عبر عن ذلك الفقيه الواعظ سعد الله بن نصر بن سعيد المعروف بابن

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ١٩٩/١ ، المنهج الأحمد ٢٥٠/٢ .

(٢) كان فقيهاً حسناً ومذكراً جميل الوعظ والأمر ، عالماً بالأصول والفروع ، إلا أن كلامه في الصفات كلام مهجور ، وكانت له بمصر وسواحل الشام فرق تنتمي إليه في المعتقد ، توفى بمصر ، له ديوان شعر أكثره في الزهد طبع في دار المعارف بمصر باعتناء على صافي الحسين ولم أعثر عليه ، انظر ترجمته : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ١٨/٢-١٩ ، المحمدون من الشعراء وأشعارهم للقفطى ص١٥٣ ، وفيات الأعيان ٤٦١/٤ - ٤٦٢ ، الأعلام ٢٩٦/٥ ، وانظر حديث الدكتور شوقي ضيف عنه في كتاب عصر الدول والإمارات (مصر) ص ٣٥٣ - ٣٥٦ .

(٣) خريدة القصر - قسم شعراء مصر ٢٠/٢ ، المحمدون من الشعراء ص ١٥٤ - ١٥٥ .

الدجاجي وبابن الحيواني (٤٨٢ - ٥٦٤) [١] بقوله :

لي لَـــذَّةٌ في ذِلَّـــتِي وخُضُوعِـــي ... وأُحِبُّ بَيْنَ يَدَيْكَ سَفْكَ دُمُوعِـي
وَتَضَرُّعِـــي في رأْيِ عَيْنِـكَ رَاحَـــةٌ ... لِي مِنْ جَوًى قَدْ كُنَّ بَيْنَ ضُلُوعِـي
ما الذُّلُّ للمَحْبُوبِ في حُكْمِ الهَوَى ... عَارٌ ، ولا جَوْرُ الهَوَى بِبَدِيـعِ
هَبْنِي أسَأْتُ فأيْنَ عَفْوُكَ سَيِّدِي ... عَمَّنْ رَجَاكَ لِقَلْبِـهِ المَوْجُـوعِ ؟
جُدْ بالرِّضَى مِنْ عَطْفِ لُطْفِكَ واغْنِـهِ ... بِجَمالِ وجْهِكَ عَنْ سُؤالِ شَفِيـعِ [٢]

بيد أننا نجد شططاً وتجاوزاً في بعض الشعر الذي صدر عن بعض الفقهاء في وصف علاقتهم بخالقهم وحبهم له ، بمالا ينبغي أن يكون بين العبد وربه ، كما جاء في أبيات الفقيه عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبى الحديد المدائني المعتزلي (٥٨٦ - ٦٥٦هـ) [٣] :

وَحَقِّكَ لَوْ أدْخَلْتَنِي النَّارَ قُلْتُ لِلَّـ ... ـذِينَ بِهَا قَدْ كُنْتُ مِمَّنْ يُحِبُّهُ
وأفْنَيْتُ عُمْرِي في دَقِيقِ عُلُومِـهِ ... ومَا بُغْيَتِي إلاَّ رِضَاهُ وقُرْبُهُ
هَبُونِي مُسِيئاً أوتَغَ الحِلْمَ جَهْلُهُ ... وأوبَقَهُ دُونَ البَرِيَّةِ ذَنْبُهُ [٤]
أمَا يَقْتَضِي شَرْعُ التَّكَرُّمِ عَفْوَهُ ... أيَحْسُنُ أنْ يُنْسَى هَوَاهُ وحُبُّهُ ؟ [٥]

---

(١) كان من أعيان الفقهاء ، وشيوخ الوعاظ ، وكان مقرئاً وصوفياً وأديباً وشاعراً ، حلو العبارة ، وحسن النثر والنظم ، انظر ترجمته : الوافي بالوفيات ١٨٦/١٥ ، فوات الوفيات ٤٦/٢ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٣٠٢/١ - ٣٠٣ ، معجم المؤلفين ٢١٦/٤ .

(٢) الوافي بالوفيات ١٨٦/١٥ ، فوات الوفيات ٤٦/٢ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٣٠٤/١ .

(٣) فقيه عالم بالأدب من أعيان المعتزلة ، كان معدوداً في أعيان الشعراء ، وله شعر جيد ، ولد في المدائن وانتقل إلى بغداد وفيها توفى ، خدم في الدواوين السلطانية ، له مصنفات عديدة منها : " الفلك الدائر على المثل السائر " في ذكر مآخذ ابن الأثير في كتابه المثل السائر ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٣٩١/٥ - ٣٩٢ ، فوات الوفيات ٢٥٩/٢ ، الأعلام ٢٨٩/٣ ، معجم المؤلفين ١٠٦/٥ .

(٤) الوتغ بالتحريك : الهلاك ، وأوتغه الله : أي أهلكه . انظر الصحاح للجوهري ١٣٢٨/٤ .

(٥) فوات الوفيات ٢٦٠/٢ .

فكأن الشاعر يخاطب هنا مخلوقاً يقابل الإحسان بالإساءة ، وليس خالقاً حكيماً عادلاً، تعالى ا لله عز وجل عن كل نقيصة علواً كبيراً ، فا لله أجل وأكرم وأرحم من أن يعذب عبداً ، أفنى عمره في التقرب إليه باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

ومما سبق يمكننا القول إن شعر المناجاة عند فقهاء العصر العباسي الثاني شعر تعبدي في مجمله ، حيث تدور مناجاتهم حول شكر ا لله تعالى ، والثناء عليه ، والدعاء والاستغفار وغير ذلك مما يكون بين العبد وربه ، وقد تميز شعرهم بعاطفة صادقة جياشة ، كشفت عن عمق صلتهم بخالقهم عز وجل ، واستشعارهم الطمأنينة والأنس إليه تبارك وتعالى ، بالإضافة إلى سهولة ألفاظهم ورقة وجمال عباراتهم .

وفي مجال حب الذات الإلهية ، جاء شعرهم رقيقاً معبراً عن حبهم وتعلقهم وخضوعهم لله عز وجل ، وكان في مجمله معتدلاً في الحب ، مقتصداً في التوجه ليس فيه شطط أو انحراف عن جادة الصواب ، إلا فيما ندر .

المبحث الثاني : الزهد

يحسن بي قبل الحديث عن الزهد أن أعرض لمفهومه عند أهل اللغة ، وأهل العلم ، قبل الشروع في تتبعه في الآثار الشعرية للفقهاء ، فالزهد في اللغة : خلاف الرغبة ، تقول : زهد في الشيء ، وعن الشيء يزهد زهداً وزهادة ، وزهد يزهد لغة فيه ، والزهد والزهادة في الدنيا ، ولا يقال الزهد إلا في الدين خاصة (1) .

أما معنى الزهد في اصطلاح أهل العلم فهو : انصراف الرغبة عن الشيء إلى ماهو خير منه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً بوجه من الوجوه ، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ، ولا مطلوباً في نفسه لم يسم زاهداً كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً ، فالزهد ليس ترك المال وبذله على سبيل السخاء والقوة واستمالة القلوب فحسب ، بل الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة .(2)

ويتضح لنا مما سبق أن الزهد يدل على ترك التعلق بالمباحات حتى لا تشغل عن الآخرة، تقرباً إلى ا لله تعالى رغبة في ثوابه ، وترك الحرام مخافة عقابه ، ومن ثم فإن الزهد يدل بوضوح على معنى أوسع من القناعة والورع ، لأن القناعة هي الاعتدال وقمع شهوات النفس ، والورع هو الكف عن المحارم والتحرج منها (3) .

---

(1) انظر الصحاح ٤٨١/٢ ، لسان العرب لابن منظور ١٩٦/٣ .

(2) انظر مختصر منهاج القاصدين لأحمد بن محمد المقدسي ص ٢٤٦ .

(3) انظر شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للدكتور على نجيب عطوى ص ٢٧ ، أدب الوعظ في النثر حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، رسالة دكتوراه تقدم بها الباحث عبد الله بن محمد بن حميد إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٣هـ - ١٤١٤هـ ، ٢٧/١ .

والمتأمل لشعر فقهاء هذا العصر يجد أن الزهد من أقرب الأغراض إلى نفوسهم وطبيعتهم التي استمدوها من فهمهم العميق لدينهم الحنيف ، فالدنيا مذمومة لا تدوم، والموت مصير كل حي ، ثم إلى سعادة أبدية أ وعذاب سرمدي .

وقد اقتضت الدراسة الموضوعية ، تصنيف موضوعات الزهد عند الفقهاء إلى محاور ، ليتسنى لنا معرفة حدوده وأبعاده ، حتى يكون حكمنا عليه بعد ذلك دقيقاً .

١- ذم الدنيا والتحذير منها :

الدنيا دار عمل واختبار وابتلاء ، يقول ا لله عز وجل : ﴿ ...لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلا ... ﴾ (١) ، وهي متا ع زائف ، كل ما فيها زائل ، ولا يبقى إلا وجه ا لله تعالى ، وقد أخذ فقهاء هذا العصر على عاتقهم من خلال الشعر ، تحذير الناس من الدنيا وزخرفها الخادع ، يقول الفقيه المحدث أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (٣١٦ – ٣٨٨هـ) (٢) محذراً من الحرص على الدنيا ، لأنها كالريح ليس لها قرار ، تهب تارة ، وتسكن تارة أخرى :

لَعَمْرُكَ مَا الحَيَاةُ وإنْ حَرَصْنَا ... عَلَيْهَا غَيْرُ رِيحٍ مُسْتَعَارَهْ
وَمَا لِلرِّيحِ دَائِمَةً هُبُوبٌ ... وَلَكِنْ تَارَةً تَجْرِي وَتَارَهْ (٣)

---

(١) سورة الملك ، الآية ٢ .

(٢) من ولد زيد بن الخطاب رضي ا لله عنه ، كان فقيهاً محدثاً أديباً شاعراً لغوياً ، وكان حجة صدوقاً ، رحل إلى العراق والحجاز وجال في خراسان ، وخرج إلى ماوراء النهر له مصنفات عديدة أبرزها كتاب " غريب الحديث " نسبته إلى مدينة بست من بلاد كابل وفيها توفى . انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٣٨٣/٤ – ٣٨٥ ، وفيها اسمه أحمد ، معجم الأدباء ٢٦٨/١٠-٢٦٩ ، وفيات الأعيان ٢١٤/٢-٢١٦ ، بغية الوعاة ٥٤٦/١ – ٥٤٧ ، الأعلام ٢٧٣/٢ .

(٣) يتيمة الدهر ٣٨٤/٤ ، معجم الأدباء ٢٧٠/١٠ .

و ينبه المؤرخ المحدث الفقيه أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (٣٩٢-٤٦٣هـ) [1] إلى ضرورة عدم الانخداع بزخرف الدنيا وزينتها الزائلة ، ولذتها الآنية ، قائلاً :

لا تَغْبِطَنَّ أخَا الدُّنْيَا بِزُخْرُفِهَا ... وَلَا لِلَذَّةِ وَقْتٍ عَجَّلَتْ فَرَحَا
فالدَّهْرُ أسْرَعُ شَيْءٍ في تَقَلُّبِهِ ... وَفِعْلُهُ بَيّنٌ لِلْخَلْقِ قَدْ وَضَحَا
كَمْ شَارِبٍ عَسَلاً فِيهِ مَنِيَّتُهُ ... وَكَمْ تَقَلَّدَ سَيْفًا مَنْ بِهِ ذُبِحَا [2]

أما الفقيه علي بن محمد بن الفرج بن إبراهيم البزار المعروف بابن أخي نصر العكبري (ت٤٧٣هـ) [3] فيعجب من محتكر الدنيا ، الذي يتشبث بها ، وهو يعلم بأنه سيرحل عنها ، وينصحه بأن يعتبر في نهاية أهلها قائلاً :

اَعْجَبْ لِمُحْتَكِرِ الدُّنْيَا وَبَانِيهَا ... وعَنْ قَلِيلٍ على كُرْهٍ يُخَلِّيهَا
دارٌ عَواقِبُ مَفْرُوحَاتِهَا حَزَنٌ ... إذَا أعَارَتْ أسَاءَتْ في تَقَاضِيهَا
يَا مَنْ يُسَرُّ بأيَّامٍ تَسِيرُ بِهِ ... إلى الفَنَاءِ وأيَّامٍ يُقَضِّيهَا
قِفْ في مَنَازِلِ أهْلِ العِزِّ مُعْتَبِراً ... وانْظُرْ إلى أيِّ شيءٍ صَارَ أهْلُوهَا؟
صَارُوا إلى جَدَثٍ قَفْرٍ ، مَحَاسِنُهُمْ ... على الثَّرَى وَدَوِيُّ الدُّودِ يَعْلُوهَا [4]

---

(١) صاحب كتاب " تاريخ بغداد " وغيره من الكتب القيمة ، كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين وكان من كبار الفقهاء إلا أنه غلب عليه الحديث والتاريخ ، إقامته ووفاته ببغداد ، انظر ترجمته : المنتظم ٢٦٥/٨ ، معجم الأدباء ١٣/٤ ، وفيات الأعيان ٩٢/١-٩٣ ، طبقات الشافعية الكبرى ، ٢٩/٤-٣٠ ، شعراء بغداد ٣٥٤/١ ، الأعلام ٧٢/١ .

(٢) معجم الأدباء ٢٥/٤ ، شعراء بغداد ٣٥٦/١ .

(٣) كان فقيه الحنابلة بعكبرة والمفتى بها ، وكان له تقدم في القرآن والحديث والفرائض ، وكان خيراً ورعاً زاهداً ناسكا ، انظر ترجمته : الذيل على طبقات الحنابلة ٣٧/١ - ٣٨ ، المنهج الأحمد ١٤٣/٢ ، شذرات الذهب ٣٤٦/٣ .

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة ٣٨/١ ، المنهج الأحمد ١٤٣/٢ .

ويصف القاضي زين الدين أبو عبد ا لله محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف الأنصاري الكفرطابي المعروف بابن الرفاء (ت ٦١٠هـ) [1] الدنيا بأنها دار الغدر والبلاء ، لذلك فلا ينبغي الركون إليها :

لَوْ نَفَرْتَـا عَـنِ السُّـكُونِ إلى الدُّنْـ ... يَـا هُدِينَـا إلى سَـوَاءِ الصِّـرَاطِ
دَارُ غَــدْرٍ وحَسْــرَةٍ وانْقِطَــاعٍ ... وبَــلاءٍ وقَلْعَــةٍ واشْــتِطَاطِ
أبَــداً تَسْتَــرِدُّ مَـــا وَهَبَتْــهُ ... كَخَلِيلِ [2] ابنِ يُونسَ الخَيَّـاطِ [3]

٣- التحذير من الذنوب ، ووجوب طاعة الله تعالى :

حذر الفقهاء من الذنوب والآثام لكونها من أسباب الهلاك والخزى والعار يوم القيامة ، وحثوا على التوبة النصوحة ، والخشية من ا لله تعالى ، وطاعته في السراء والضراء ، والتزود في هذه الدنيا الفانية بالأعمال الصالحة من أجل النجاة من عذاب الآخرة والفوز بالجنة .

فهذا الفقيه علي بن عمر بن أحمد بن عمار بن أحمد بن علي بن عبدوس الحراني (٥١٠ - ٥٥٩هـ) [4] يقول محذراً المذنب من ثقل ذنوبه ، التي تحملها

(١) ولي القضاء والأوقاف بحماة ، وله شعر حسن ، ولد بدمشق ، ومات ببارين ، وهو والد شيخ الشيوخ شرف الدين ، انظر الوافي بالوفيات ٢٦/٤ - ٢٧ ، وبارين مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب ، انظر معجم البلدان ٣٢٠/١ - ٣٢١ .

(٢) ذكر الصفدي في توضيح غرض الشاعر أن شخصاً يدعى عبد ا لله بن محمد بن سالم بن يونس الخياط كان له خليل يدعوه لمنادمته ، فإذا سكر خلع عليه ثوباً ، فإذا صحا من الغد بعث إليه فاستعاده منه ، انظر الوافي بالوفيات ٢٨/٤.

(٣) المصدر السابق ٢٧/٤ - ٢٨ .

(٤) فقيه حنبلي من حران بالجزيرة الفراتية ، وكان مفسراً ، له مصنفات عديدة ، منها تفسير القرآن ، والمذهب في المذهب في الفقه ، ومجالس وعظية ، وكانت وفاته بحران ، انظر ترجمته : الذيل على طبقات الحنابلة ٢٤١/١ ، المنهج الأحمد ٢٨٠/٢ ، الأعلام ٣١٥/٤ ، معجم المؤلفين ١٥٧/٧ .

جهالة ، مذكراً إياه بيوم عبوس سيحاسب فيه كل من أساء ، حاثاً إياه على التوبة قبل فوات الأوان :

يَا حَامِلاً ثِقَلَ الذُّنُوبِ تَجَاهُلاً ... حُمِّلْتَ مِنْ أَثْقَالِهَا العَظَائِمَا
لابُدَّ مِنْ يَوْمٍ عَبُوسٍ هَائِلٍ ... يَكُونُ مَنْ أَسْرَفَ فِيهِ نَادِمَا
قُمْ خَفِّفِ الثِّقْلَ بِحُسْنِ تَوْبَةٍ ... حَتَّى تَكُونَ فِي المَعَادِ سَالِمَا (١)

وحذر الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرج الأنصاري المعروف بابن الكيزاني المصري أيضاً من الوقوع في الذنوب والخطايا لأن لذة الدنيا لا تستحق أن تدنس النفوس بالذنوب من أجلها ، حيث قال

النَّفْسُ أَكْرَمُ مَوْضِعاً ... مِنْ أَنْ تُدَنَّسَ بِالذُّنُوبِ
مَا لَذَّةُ الدُّنْيَا لَهَا ... ثَمَناً وإِنْ مُزِجَتْ بِطِيبِ (٢)

وفي مجال طاعة الله عز وجل والتقرب إليه بالطاعات يقول القاضي أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف ، حاثاً على اغتنام الحياة الدنيا بالعمل الصالح :

يَا بُؤْسَ للإِنْسَانِ فِي الـ ... دُّنْيَا وإِنْ نَالَ الأَمَلْ
يَعِيشُ مَكْتُومَ العِلَلِ ... فِيهَا ومَكْتُومَ الأَجَلْ
بَيْنَا يُرَى فِي صِحَّةٍ ... مُغْتَبِطاً قِيلَ : اعْتَلَلْ
وَبَيْنَمَا يُوجَدُ فِيـ ... ـهَا ثَاوِياً قِيلَ : انْتَقَلْ
فَأَوْفَرُ الحَظِّ لِمَنْ ... يَتْبَعُهُ حُسْنُ العَمَلْ (٣)

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٤٢ ، المنهج الأحمد ٢/٢٨١ .
(٢) خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ٢/٩٤ .
(٣) تاريخ بغداد ١/٣٦٧

وتحدث القاضي الرئيس أبو عمر محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي النسوى (٣٧٨-٤٧٨هـ) (١) عن أهمية طاعة الله عز وجل ، لمن أراد الفوز برضوانه ، فقال :

مَـنْ رَامَ عِنْـدَ الإلَـهِ مَنْزِلَـةً ... فَلْيُطِـعِ اللهَ حَـقَّ طَاعَتِـهِ
وحَقُّ طاعَاتِـهِ القِيَـامُ بِهَـا ... مُبَالِغاً فِيـهِ وُسْـعَ طَاقَتِـهِ (٢)

٣- النعي بالشيب :

تطرق الفقهاء في أشعارهم إلى الشيب وعدوه نذيراً ، يعلن للناس اقتراب رحيلهم عن الدنيا ، ومفارقتهم للأهل والأحبة ، وقد وضح تأثرهم في ذلك بشعراء الزهد في العصر العباسي الأول ، ولاسيما الشاعر أبي العتاهية (١٣٠-٢١١هـ) (٣) الذي كان كثيراً ما يشبه المشيب بالناعي ، حتى يجعل الخاطئين يثوبون إلى طريق الرشاد ، ومن ذلك قوله :

إنَّما الشَّيْـبُ لابْـنِ آدمَ نَـاعِ ... قَـامَ في عَارِضَيْـهِ ثُمَّ نعَـاهُ

وقوله أيضاً :

نَعَى لَـكَ شَـرْخَ الشَّبَـابِ المَشِيبُ ... وَنَادَتْكَ باسْمِ سِوَاكَ الخُطُوبُ (٤)

---

(١) فقيه شاعر ، كان له معرفة بالأدب ، ولد في نسا بخراسان ، رحل إلى العراق ومصر والشام ومكة ، بعثه الأمير طغرلبك رسولاً إلى دار الخلافة ببغداد ، وكان السلاجقة يعتمدونه في المهمات ، ولاه القائم بأمر الله القضاء بخوارزم ، ولقبه بأقضى القضاة ، له مصنفات في الفقه والتفسير ، انظر ترجمته : طبقات الشافعية الكبرى ٤/١٧٥-١٧٧ ، طبقات المفسرين للسيوطي ص٣٦ ، الأعلام ٦/١٩١ ، معجم المؤلفين ١٠/١٣٤.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٤/١٧٧ .

(٣) الشاعر المشهور أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء ، العينى المعروف بأبي العتاهية ، انظر ترجمته : طبقات الشعراء لابن المعتز ص٢٢٧ - ٢٣٤ ، وفيات الأعيان ١/٢١٩ - ٢٢٦ ، الأعلام ١/٣٢١ ، معجم المؤلفين ٢/٢٨٥ .

(٤) انظر شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة ص ٣٤٢ - ٣٤٣ ، التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول للدكتور مجاهد مصطفى بهجت ص ٥٤٣ - ٥٤٤ ، أبو العتاهية أشعاره وأخباره للدكتور شكري فيصل ص ٢٧ ، ٤٢١ .

وقد نسج الكثير من فقهاء العصر العباسي الثاني على منواله ، فهذا الفقيه أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد ا لله التميمي البغدادي (ت ٤٢٩هـ) [١] يتحدث عن شبابه وشيبه اللذين هما دليلا رحيله عن الدنيا قائلاً :

شَبَابِي وشَيْبِي دَلِيلَا رَحِيْلِي ... فَسَمْعاً لِذَا وذَا مِنْ دَلِيلِ
وَقَدْ مَاتَ مَنْ كانَ لي مِنْ عَدِيلِ ... وَحَسْبِي دَليلاً رَحِيلُ العَدِيلِ [٢]

ويعبر الفقيه أبو محمد رزق ا لله بن عبد الوهاب التميمي البغدادي (٤٠٠–٤٤٨هـ)[٣] عن كرهه للشيب لا بسبب لونه ، ولكن لكونه مقدمة للموت ، لذا لا يجدى قصه أو خضابه ، كما جاء في قوله :

وَمَا شَنَآنُ الشَّيْبِ مِنْ أجْلِ لَوْنِهِ ... ولكِنَّهُ حَادٍ إلى البَيْنِ مُسْرِعُ
إذَا مَا بَدَتْ مِنْهُ الطَّلِيعَةُ آذَنَتْ ... بأَنَّ المَنَايَا خَلْفَهَا تَتَطَلَّعُ
فإنْ قَصَّهَا المِقْرَاضُ صَاحَتْ بأُخْتِهَا ... فَتَظْهَرُ تَتْلُوهَا ثَلاثٌ وأَرْبَعُ
وإنْ خُضِبَتْ حَالَ الخِضَابُ لأنَّهُ ... يُغَالِبُ صُنْعَ ا للهِ ، وا للهُ أَصْنَعُ
فَيُضْحِي كَرِيشِ الدِّيكِ فِيهِ تَلَمُّعٌ ... وأفْظَعُ مَا يُكْسَاهُ ثَوْبٌ مُلَمَّعُ
إذَا مَا بَلَغْتَ الأرْبَعِينَ فَقُلْ لِمَنْ ... يَوَدُّكَ فِيمَا تَشْتَهِيهِ وتُسْرِعُ :
هَلُمُّوا لِنَبْكِي قَبْلَ فُرْقَةِ بَيْنِنَا ... فَمَا بَعْدَهَا عَيْشٌ لَذِيذٌ ومَجْمَعُ [٤]

---

(١) الفقيه الشافعي الأصولي ، كان أديباً شاعراً ، وكان ماهراً في فنون عدة ، كان صدر الإسلام في عصره ، ولد ونشأ في بغداد ، ورحل إلى خراسان ، فاستقر في نيسابور ، ومات في اسفرائين ، له مصنفات عديدة ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٤٧٧/٤ واسمه فيها عبد القادر ، وفيات الأعيان ٢٠٣/٣ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٣٦/٥ – ١٣٩ ، فوات الوفيات ٣٧٠/٢ – ٣٧١ ، الأعلام ٤٨/٤.

(٢) فوات الوفيات ٣٧٢/٢ .

(٣) فقيه حنبلي ، كان شيخ أهل العراق في زمانه ، اجتمع له القرآن والفقه والحديث والوعظ والأدب ، مات في بغداد ، له مصنفات عديدة منها كتاب " شرح الإرشاد " في الفقه ، انظر ترجمته : الذيل على طبقات الحنابلة ٧٧/١ – ٧٨ ، المنهج الأحمد ١٦٤/٢ – ١٦٦ ، شذرات الذهب ٣ / ٣٨٤ ، الأعلام ١٩/٣ .

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة ٨٠/١ – ٨١ ، المنهج الأحمد ١٦٦/٢ – ١٦٧ .

ويعد العلامة أبو الفرج ابن الجوزي إقبال الشيب خير ناصح ، وخير نذير ، ينصحه بالاستعداد للرحيل ، إذ يقول :

قَدْ رَأَيْتُ المَشِيبَ نُوراً تَبَدَّى نَوَّرَ الطُرْقَ ثُمَّ مَا إنْ تَعَدَّى
إنَّ نُورَ الشَّبَابِ عَارِيَةٌ عِنْـ ـدِي فَجَاءَ المُعِيرُ حَتَّى اسْتَرَدَّا
جَاءَنِي نَاصِحٌ أَتَانِي نَذِيرٌ بِبَيَاضٍ أَرَانِي الأَمْرَ جِدَّا (١)

أما شيخ الإسلام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي فيرى أنه من الحمق أن يعمر مسكناً في الدنيا ، بعد أن اشتعل الشيب في رأسه ، إذ إن قدوم الشيب نعي له، حيث يقول .

أَبَعْدَ بَيَاضِ الشَّعْرِ أَعْمُرُ مَسْكَنَاً سِوَى القَبْرِ ؟ إنِّي إنْ فَعَلْتُ لأَحْمَقُ
يُخَبِّرُنِي شَيْبِي بِأَنِّيَ مَيِّتٌ وَشِيكاً وَيَنْعَانِي إلَيَّ فَيَصْدُقُ
تَخَرَّقَ عُمْرِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَهَلْ مُسْتَطِيعٌ رَتْقَ مَا يَتَخَرَّقُ ؟ (٢)

ويعد الشريف المرتضى أبرز من تناول الشيب في شعره ، فقد أكثر فيه حتى تجاوز كل من نظم قبله في هذا المجال ، فله فيه ما يزيد على الثلاثمائة بيت (٣) ، والملاحظ في وصف الشيب لدى الشعراء أنه لم يقصد لذاته ، إنما يورد فيه الشاعر بيتاً أو بيتين في المناسبات العابره ، ولكن المرتضى اتخذ منه موضوعاً مستقلاً للقول ، حرص على استيفاء القول فيه .(٤)

وقد تحدث الشريف المرتضى في مستهل كتابه عن رأيه في الشيب ، حيث بين فيه أنه يمدح ويذم ، ومما جاء في مدحه قوله : " فيمدح بأن فيه الجلالة والوقار ،

(١) أدب ابن الجوزي ص١٥٠ .
(٢) البداية والنهاية ١٣/١٠٠ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٢/١٤١ .
(٣) انظر الشهاب في الشيب والشباب للشريف المرتضى ص ٦ .
(٤) انظر أدب المرتضى من سيرته وآثاره للدكتور عبد الرزاق محي الدين ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

والتجارب والحنكة ، وأنه يصرف عن الفواحش ، ويصد عن القبائح ، ويعظ من نـزل به ، فيقلل إلى الهوى طماحه ، وفي الغي جماحه ، وأن العمر فيه أطول والمهل معه أفسح ، وأن لونه أنصع الألوان ... " (١) وقال في معرض ذمه : " إنه رائد الموت ونذيره ، وإنه يوهن القوى ، ويضعف المنة ، ويطمع في صاحبه ، وإن النساء يصددن عنه ... " (٢) .

ويتضح لنا مما سبق أن رؤية المرتضى للشيب لا تختلف كثيراً عن رؤية غيره من الفقهاء ، إذ تضمنت معاني الزهد والوعظ والإرشاد ... ، ولكنه يتميز عنهم بأن رؤيته كانت أكثر شمولاً ، فقد ذهب إلى أن الشيب يمدح ويذم ، بينما يرى فيه معظم الفقهاء نذيراً بالموت فقط .

ومن نماذج شعره في ذم الشيب قوله :

يَقُولُونَ لِي لِمَ أَنْتَ للشَّيْبِ كَارِهٌ ... فَقُلْتُ : طَرِيقُ المَوْتِ عِنْدَ مَشِيْبِي
قَرُبْتُ الرَّدَى لَمَّا تَجَلَّلَ مَفْرَقِي ... وكُنْتُ بَعِيداً مِنْهُ غَيْرَ قَرِيبِ
وكُنْتُ رَطِيبَ الغُصْنِ قَبْلَ حُلُولِهِ ... وغُصْنِيَ لَمَّا شِبْتُ غَيْرُ رَطِيبِ
ولَمْ يَكُ إلاَّ عَنْ مَشِيبِ ذَوَائِبِي ... جَفَاءُ خَلِيلِي وازْوِرَارُ حَبِيبِي
ومَا كُنْتُ ذَا عَيْبٍ فَقَدْ صِرْتُ بَعْدَهُ ... تُخَطُّ بِأَيْدِي الغَانِيَاتِ عُيُوبِي
فَلَيْسَ بُكَائِي للشَّبَابِ وإنَّمَا ... بُكَائِي على عُمْرٍ مَضَى وَنَحِيبِي (٣)

والشريف المرتضى لم ينس هنا ، وهو يتحدث عن مبررات كرهه للشيب ، أن يذكر أنه أضحى عيباً في أعين الغانيات ، وسبباً في جفاء الحبيب ، وهو الأمر الذي لا نجده عند غيره من الفقهاء .

---

(١) الشهاب في الشيب والشباب ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٨ .

(٣) ديوان الشريف المرتضى ١/١٢٠ ، الشهاب في الشيب والشباب ص ١٩٨ .

الموت والقبر والحساب :

كان لفقهاء هذا العصر وقفات طويلة مع الموت في أشعارهم ، وقد تناولوا قضية الموت على أنها القضية الرئيسة في التزهيد من الدنيا ، على نحو ما نجده عند شعراء الزهد في العصر العباسي الأول [1] ، إذ بينوا أنه مصير كل حي ، وكيف أنه ينتزع المرء من بين أهله وأخلائه ، كما تحدثوا عن رحلة الموت ، والقبر وضيقه وظلمته وأهواله ، والبعث والحساب ، وأنه ينبغي على كل ذي عقل أن يستعد لهذا الموقف العظيم حتى يكون من الناجين.

يقول الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي موجهاً حديثه لمن يوقن بفراق الدنيا ، والبعث والحساب ، ثم لا يرعوى :

إذَا كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ الفِرَا ... قَ فِرَاقَ الحيَاةِ قَرِيبٌ قَرِيبْ
وأنَّ المُعِدَّ جِهَازَ الرَّحِيلِ ... لِيَوْمِ الرَّحِيلِ مُصِيبٌ مُصِيبْ
وأنَّ المُقَدِّمَ مَا لاَ يَفُوتُ ... على مَا يَفُوتُ مَعِيبٌ مَعِيبْ
وأنَّكَ عَنْ ذَاكَ لا تَرْعَوِي [2] ... فأمْرُكَ عِنْدِي عَجِيبٌ عَجِيبْ [3]

ويذم القاضي أبو القاسم ناصر بن أحمد بن بكر الخويي (٤٦٦ - ٥٠٧ هـ) [4] حياتنا في هذه الدار الفانية ، لأنها حياة قصيرة لا تدوم ، ثم نموت ، فنصير تراباً كأن لم نكن ، إذ يقول :

---

(١) انظر أدب الزهد في العصر العباسي ، نشأته وتطوره وأشهر رجاله ، رسالة دكتوراه ، تقدم بها الباحث عبد الستار السيد متولي إلى جامعة الأزهر عام ١٩٧٢ ، ص ٤٧٧ ، التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٥٣٠، ٥٣٣ .

(٢) ترعوي : تكف وتقلع .

(٣) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ٧٠ .

(٤) كان شيخ الأدب في أذربيجان ، ولي القضاء بها مدة ، ورحل إليه الناس من الأطراف ، وصنف شرح اللمع لابن جني ، نسبته إلى خوى بضم الخاء وفتح الواو وياء مشددة : بلد مشهور من أعمال أذربيجان ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ٢١١/١٩ ، معجم البلدان ٤٠٨/٢ ، بغية الوعاة ٣١٠/٢ - ٣١١ ، الأعلام ٣٤٧/٧، معجم المؤلفين ٦٧/١٣-٦٨ .

نَصِيرُ تُرَاباً كَأنْ لَمْ نَكُنْ وُعَاةَ العُلُومِ رُعَاةَ الأُمَمْ
فَتَبّاً لِعَيْشٍ قَصِيرِ الدَّوَامِ وَوِجْدَانِ حَظٍّ قَرِيبِ العَدَمْ (١)

وتطرق العلامة أبو الفرج ابن الجوزي إلى الحديث عن القبر ووحشته ، وكيف أن الأهل والأصحاب يتركون الميت في قبره وحيداً ، ليقتسموا أمواله ، حيث قال :

يَنْسَاكَ الأَهْلُ إذَا رَجَعُوا عَنْ قَبْرِكَ لا تَسْمَعْ كَذِبَا
تَرَكُوكَ أَسِيراً إذْ ذَهَبُوا بِتُرَابِ ضَرِيحِكَ مُحْتَجِبَا
وَغَدَوا فَرِحِيْنَ بِمَا أَخَذُوا وغَدَوْتَ بِإثْمِكَ مُحْتَقِبَا
وَتَرَى أعْمَالَكَ قَدْ حَضَرَتْ فَتُنَكِّسُ رَأْسَكَ مُكْتَئِبَا (٢)

وتعرض الفقيه فخر الدين علي بن أحمد المقدسي الصالحي المعروف بابن البخاري لذكر البعث والحساب ، والجنة والنار ، وهو في صدد وعظه لنفسه ، وتحذيرها من الغفلة ، لاقتراب الموت منها ، إذ قال :

أَتَتْكَ مُقَدِّمَاتُ المَوْتِ تَسْعَى وَقَلْبُكَ غَافِلٌ عَنْهَا وسَاهِي
فَجِدَّ فَقَدْ دَنَتْ مِنْكَ المَنَايَا ودَعْ عَنْكَ التَّشَاغُلَ بِالمَلاَهِي
فَلا تَأْمَنْ لِمَكْرِ اللهِ ، واحْذَرْ وكُنْ مُتَقَاصِراً عِنْدَ التَّنَاهِي
فَكَمْ مِمَّنْ يُسَاقُ إلى جَحِيمٍ صَحَائِفُهُ مُسَوَّدَةٌ كَمَا هِي
وَلَيْسَ كَمَنْ يُسَاقُ إلى نَعِيمٍ وجَنَّاتٍ مُزَخْرَفَةٍ زَوَاهِي
فَلا تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سُوءٍ فَحُسْنُ الظَّنِّ جِدٌّ غَيْرُ وَاهِي (٣)

---

(١) معجم الأدباء ١٩/٢١١ – ٢١٢ ، بغية الوعاة ٢/٣١١ ، وفيها : قرين العدم .

(٢) أدب ابن الجوزي ص ١٢٧ .

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٣٢٨ .

ومن خلال تتبع الآثار الشعرية السابقة ، يتبين لنا أن زهد فقهاء العصر العباسي الثاني كان أصيلاً في بواعثه ودواعيه ، فقد كان دافعهم إلى الزهد هو التقوى والورع والإصلاح، وذلك بحكم اتصالهم الوثيق بالشريعة الإسلامية ، ودعوة الإسلام إلى الزهد واضحة جلية من خلال نصوص القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة (١) ، التي استلهمها الفقهاء في معظم أشعارهم ، ويظهر لنا ذلك من خلال تصورهم وتصويرهم للموت والقبر والبعث والحساب ، إذ إن رحلة الموت عندهم مغايرة تماماً لما كانت عليه في تصور الشاعر الجاهلي ، الذي كان يرى في الميت مجموعة من العظام تتحول إلى هامة تطير . (٢)

وقد دارت الموضوعات التي تناولها الفقهاء في زهدهم حول التحذير من الدنيا وزخرفها ، وعدم الركون إليها ، والتحذير من الذنوب والمعاصي ووجوب طاعة الله تعالى ، والتقرب إليه بالأعمال الصالحة ، والتفكير الدائم بالموت ، والتحذير من مقدماته (الشيب) .

وهذه المعاني كما ترى مشتركة عند أغلب الشعراء الذين نظموا في الزهد ، لا تختلف إلا في الصياغة والآراء وقوة الاحساس (٣) ، لذلك لا نجد في زهد فقهاء هذا العصر ما يميزه عن غيره ، كما أنه لم يكن شاملاً مستقصياً لجميع أوجه الزهد ، فلا نجد مثلاً أثراً لوعظ السلطان في شعرهم ، وهو ما كان معروفاً عند شعراء الزهد في العصر العباسي الأول . (٤)

---

(١) انظر باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها في رياض الصالحين للإمام النووي ص٢٢١-٢٣١ .

(٢) انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ٢١٠ .

(٣) انظر شعر الزهد في القرن الثاني والثالث للهجرة ص١٢٣-١٢٤ .

(٤) انظر التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٥٣١ .

المبحث الثالث : الأخلاق والآداب الإسلامية :

حث الإسلام على مكارم الأخلاق ، ودعا إلى الإلتزام بها ، حتى إنه جعل حسن الخلق شرطاً لكمال الإيمان ، كما جاء في قول الرسول الكريم صلى ا لله عليه وسلم : " أكملُ المؤمنين إيماناً أحْسَنُهُمْ خُلقاً " (١) .

ومكارم الأخلاق إحدى الدعامات التي سعى الإسلام إلى ترسيخها في الناس ، كما بين ذلك النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام في قوله : " بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارِمَ الأخلاق " (٢) .

ويعد شعر الأخلاق والآداب الإسلامية ، من الموضوعات الجديدة التي ازدهرت في العصر العباسي الأول ، حيث تناول شعراء ذلك العصر – وفي مقدمتهم الفقهاء – مثالية الشيم الإسلامية الرفيعة شيمة شيمة ، وأخذوا يفردونها بمقطوعات أو قصائد يجردونها ، ولها محللين ومفكرين وملاحظين ، فقطعة في تصوير الكرم ، وقطعة في تصوير الحلم ، وقطعة في تصوير الحياء ، وقطعة في تصوير العفة ، وقطعة في تصوير الصبر ... (٣) .

فإذا ما انتقلنا إلى فقهاء العصر العباسي الثاني ، نجد أنهم أولوا هذا الموضوع جل اهتمامهم ، شعوراً منهم بأهميته في بناء المجتمع الإسلامي وقيامه ، وصلاح ذات بين أفراده ، فحثوا الناس بأشعارهم على التحلي بفضائل الأخلاق ، وذموا الفاسد منها ، ويلاحظ أن المعاني الخلقية لا يمكن الفصل بينها في شعرهم في أكثر الأحيان ، إذ

---

(١) انظر سنن أبي داود ، كتاب السنة ٣٠٤/٤ .

(٢) انظر الموطأ للإمام مالك بن أنس ٩٠٤/٢ .

(٣) انظر العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص ١٨١ ، شعر الفقهاء ، نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول ص ٣٩ – ٤٧ ، أدب الفقهاء ص ١٠٢ .

تأتي مجتمعة فنجد في بعض الأبيات الصدق والصبر والقناعة ... الخ ، ولكنني على الرغم من ذلك سأحاول أن أتناول هذه المعاني مفردة ، حتى تسهل دراستها .

١- القناعة :

القناعة خصلة من الخصال التي ينبغي على المسلم التحلي بها ، فهي عز وغنى ترفع شأن كل من اتصف بها ، وتنأى به بعيداً عن الذل والهوان ، وحين تتحقق القناعة للمرء ، يطيب ويهنأ عيشه ، وقد أبرز العديد من الفقهاء هذا الخلق الكريم في أشعارهم ، ومنهم الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي ، الذي عبر عن رضاه بما قسمه الله تعالى له ، يقيناً منه بأن رزقه لن يفوته ، لذلك فهو قانع بالقليل ، حيث قال :

أَلَا إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَيْسَ يَفُوتُ ... فَلا تَرْعَنْ إنَّ القَلِيلَ يَقُوتُ
رَضِيتُ بِقَسْمِ اللهِ حَظًّا لأَنَّهُ ... تَكَفَّلَ رِزْقِي مَنْ لَهُ المَلَكُوتُ
سَأَقْنَعُ بِالمَالِ القَلِيلِ لأَنَّنِي ... رَأَيْتُ أَخَا المَالِ الكَثِيرِ يَمُوتُ (١)

ويعجب الفقيه منصور أيضاً ممن يكفيه قوته ، وله بيت يواريه ثم لا يقنع ، بل يصر على إذلال نفسه ، ويبذل وجهه وعمره لمن لا يملكه ، إذ يقول :

مَنْ كَفَاهُ مِنْ مَسَاعِيـ ... ـهِ رَغِيفٌ يَغْتَذِيهِ
ولَهُ بَيْتٌ يُوارِيـ ... ـهِ وثَوْبٌ يَكْتَسِيهِ
فَعَلامَ يَبْذُلُ الوَ ... جْهَ لِذِي كِبْرٍ وَتِيهِ ؟
وعَلامَ يَبْذُلُ العُمْـ ... ـرَ لِمَخْلُوقٍ سَفِيهِ (٢)

(١) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ٨١ .
(٢) المصدر السابق ص ١٥٨ - ١٥٩ .

ويرى الفقيه أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري (تـ ٣٢٩هـ) (١) أن القناعة تغني صاحبها ، وتسمو به عن الوضاعة ، فهو يقول :

مَـنْ قَنِعَـتْ نَفْسُـهُ بِبُلْغَتِهَـا ... أَضْحَـى غَنِيًّـا وظَـلَّ مُمْتَنِعَـا
للهِ دَرُّ الْقُنُـوعِ مِـنْ خُلُـقٍ ... كَـمْ مِنْ وَضِيـعٍ بِـهِ قَـدْ ارْتَفَعَـا
تَضِيقُ نَفْسُ الفَتَـى إِذَا افْتَقَـرَتْ ... وَلَوْ تَعَـزَّى بِرَبِّـهِ اتَّسَعَـا (٢)

فإذا ما انتقلنا إلى القاضي أبي سعيد الخليل بن أحمد بن محمد بن الخليل السجزي المعروف بابن جنك (تـ ٣٧٨هـ) (٣) نجده يرضى من الدنيا بقوت يقيم أوده ، وهو لا يسعى لكسب القوت ، إلا لأنه يعينه على تعلم علم يرد به الجهل ، فهو القائل :

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِقُوتٍ يُقِيمُنِي ... وَلَا أَبْتَغِي مِـنْ بَعْدِهِ أَبَـداً فَضْـلاَ
وَلَسْتُ أَرُومُ القُـوتَ إِلاَّ لأَنَّـهُ ... يُعِيـنُ علـى عِلْـمٍ أَرُدُّ بِـهِ جَهْـلاَ
فَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِطِيبِ نَعِيمِهَـا ... لأَصْغَرَ مَا فِي العِلْمِ مِنْ نُكْتَةٍ عَـدْلاَ (٤)

---

(١) من أهل بغداد ، كان شيخ الحنابلة ومقدمهم في وقته ، وكان شديداً على أهل البدع ، فكثر أعداؤه فأوغروا عليه قلب الخليفة القاهر سنة (٣٢١هـ) فطلبه فاستتر ثم ظهر في عهد الخليفة الراضي سنة (٣٢٣هـ) وعاد إلى مكانته ، ثم تغير عليه الراضي فاستتر حتى توفي ، له مصنفات منها " شرح كتاب السنة " والبربهاري نسبة إلى " البربهار " وهي أدوية كانت تجلب من الهند ، انظر ترجمته " طبقات الحنابلة ١٨/٢-٤٥ ، اللباب ١٠٧/١ ،الوافي بالوفيات ١٤٦/١٢-١٤٧ ، شذرات الذهب ٣١٩/٢ ، الأعلام ٢٠١/٢ .

(٢) الوافي بالوفيات ١٢ / ١٤٦ .

(٣) إمام مشارك في العديد من العلوم ، فكان فقيهاً حنفياً محدثاً ، وواعظاً أديباً شاعراً ، رحل في طلب العلم إلى الكثير من الأمصار ، وكان شيخ أهل الرأي في عصره ، أدرك الأئمة والعلماء ، وصنف العديد من التصانيف، وولي القضاء ببلدان شتى من وراء النهر ، ومات بسمرقند وهو قاض بها ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ٧٧/١١ - ٨٠ ، الوافي بالوفيات ٣٩٢/١٣ ، النجوم الزاهرة ١٥٣/٤ ، شذرات الذهب ٩١/٣ ، الأعلام ٣١٤/٢ .

(٤) معجم الأدباء ٧٩/١١ ، الوافي بالوفيات ٣٩٣/١٣ وقد تفرد بذكر البيت الثالث .

ويلوم القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي نفسه ، لأنه أطاع مطامعه فاستعبدته ، في حين أنه لو قنع لكان حرا ، متحرراً من كل الشهوات ، كما جاء في قوله :

طَلَبْتُ المَسْتَقَرَّ بكُلِّ أرْضٍ ... فَلَمْ أرَ لي بأرْضٍ مُسْتَقَرَّا
ونِلْتُ مِن الزَّمانِ ونَالَ مِنِّي ... فكَانَ مَنالُهُ حُلْواً ومُرَّا
أطَعْتُ مَطَامِعِي فاسْتَعْبَدَتْنِي ... فَلَوْ أنِّي قَنِعْتُ لكُنْتُ حُرَّا(١)

وينصح الفقيه أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودي البوسنجي (٣٧٤-٤٦٧هـ) (٢) كل من يريد أن يعيش حياة طيبة لا كدر فيها ولا تنازع ، بأن عليه أن يتحلى ويتزين بالقناعة ، حيث يقول :

إنْ شِئْتَ عَيْشاً طَيِّباً ... صَفْواً بِلَا مُنَازِعِ
فَاقْنَعْ بِمَا أُوتِيتَهُ ... فَالعَيْشُ عَيْشُ القَانِعِ (٣)

أما الفقيه أبو الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الواسطي (٤٠٩-٤٩٨هـ) (٤) فإن القناعة عنده مستمدة من قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أصبحَ

---

(١) الديباج المذهب ٢٨/٢ .

(٢) كان شيخ عصره والمقدم في زمانه ، برز في الفقه والأدب والتفسير ، وكان صالحاً زاهداً ورعاً أخذ عنه فقهاء بوشنج ، وبها توفى - وهي بليدة من نواحي هراة انظر معجم البلدان ٥٠٨/١ - انظر ترجمته : المنتظم ٢٩٦/٨ ، فوات الوفيات ٢٩٥/٢ - ٢٩٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ١١٧/٥ - ١١٩ ، النجوم الزاهرة ٩٩/٥ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٢٠/٥ .

(٤) فقيه شافعي من أهل واسط ، تفقه على أبي إسحاق الشيرازي ، وغلب عليه الأدب والشعر واشتهر به ، كان شديد التعصب للطائفة الشافعية ، وظهر ذلك في قصائده المعروفة بالشافعية ، وذكر ابن خلكان أنه رأى ديوان شعره في مجلد واحد في الخزانة الأشرفية بدمشق ، توفى بواسط ، انظر ترجمته : خريدة القصر ، الجزء الرابع - المجلد الأول ص٣١٥ - ٣١٦ ، المنتظم ١٤٥/٩ ، معجم الأدباء ٢٥٧/١٨ - ٢٦٠ ، وفيات الأعيان ٤٥٠/٤ - ٤٥٢ ، الوافي بالوفيات ١٤٢/٤ - ١٤٣ ، الأعلام ٢٧٧/٦ .

منكم معافىً في جسدِهِ ، آمِناً في سَرَبِهِ [1] ، عِنْدَهُ قوتُ يومه ، فكأنَّما حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا " [2] .

لذا فهو قانع في هذه الدنيا بقوت يكفيه مع الأمن والصحة ، ويرى في طلب المزيد ضرباً من الجنون ، كما بين ذلك في أبياته التالية ، التي ضمنها بعض ألفاظ الحديث النبوي الشريف السالف الذكر :

إذَا مَا مَرَّ يَوْمٌ بَعْدَ يَوْمٍ ... وَوَجْهِي مَاؤُهُ فيهِ مَصُونُ
وقُوتِي قُرْصَتَانِ إلى ثَلاثٍ ... بِهَا مِلْحٌ يَكُونُ ولا يكُونُ
وسِرْبي آمِنٌ ، وأنَا مُعَافىً ... ولَيْسَ علَيَّ في الدُّنْيَا دُيُونُ
فَمَا أشْكُو الزَّمَانَ ، فإنْ شَكَوْتُ الـ ... ـزَّمَانَ ، فإنَّهُ منِّي جُنُونُ [3]

ولعل من نافلة القول أن نشير هنا إلى أن القناعة التي حث عليها الإسلام ، والتي رأينا نماذج من شعر الفقهاء فيها ، لا تعني التواكل والخمول ، واللواذ بالعجز ، بأي حال من الأحوال ، إنما هي قناعة يصحبها عمل دائب ، وجهاد مستمر ، لتحقيق الأهداف السامية من وراء استخلاف ا لله للإنسان في الأرض .

٣- الصبر

من المعاني التي حرص الفقهاء على تجسيدها في أشعارهم الصبر ، حيث حثوا الناس على التحلي به ، وبينوا ما لصاحبه من ثواب عظيم عند ا لله عز وجل ، كما أوضحوا أنه خير وسيلة لتحمل النوائب والنكبات في هذه الحياة ، وأنه ليس بعد الضيق إلا الفرج ، وحذروا من اليأس والقنوط ، لأنهما طريق الخزي والخسران المبين .

---

(١) آمناً في سربه : أي في نفسه .

(٢) انظر سنن ابن ماجه ، باب القناعة ١٣٨٧/٢ .

(٣) خريدة القصر الجزء الرابع – المجلد الأول ص ٣٢١ .

يقول القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني ، حاثاً على الصبر ، ومحذراً من اقتراض المال من أجل انفاقه على شهوات النفس في وقت العسر :

إِذَا شِئْتَ أنْ تَسْتَقْرِضَ المَالَ مُنفِقاً ... على شَهَواتِ النَّفْسِ في زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلْ نَفْسَكَ الإِنْفَاقَ مِنْ كَنْزِ صَبْرِهَا ... عَلَيْكَ وإِنْظَاراً إلى زَمَنِ اليُسْرِ
فَإِنْ فَعَلَتْ كُنْتَ الغَنِيَّ وإِنْ أَبَتْ ... فَكُلُّ مَنُوعٍ بَعْدَهَا وَاسِعُ العُذْرِ (١)

وكذلك حال القاضي أبي على الحسين بن محمد بن أحمد المروروذي (تـ ٤٦٢هـ) (٢) الذي حث على التحلي بالصبر أمام نكبات الدهر ، مؤكداً بأن الله تعالى سيعقب بعد العسر يسرا ، حيث قال :

إِذَا مَا رَمَاكَ الدَّهْرُ يَوْماً بِنَكْبَةٍ ... فَأَوْسِعْ لَهَا صَدْراً وأحْسِنْ لَهَا صَبْرا
فَإِنَّ إِلٰهَ العَالَمِينَ بِفَضْلِهِ ... سَيُعْقِبُ بَعْدَ العُسْرِ مِنْ فَضْلِهِ يُسْرَا (٣)

ويقرر الفقيه أبو علي محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح البغدادي البسطامي (تـ ٥٤٨هـ) (٤) أن كل محنة لها نهاية محتومة ، فلابد من الصبر إزاءها ، لأن السعي في وأد المحنة قبل بلوغ غايتها ، سوف يزيد من مآسيها ، إذ يقول :

مَا مِحْنَةٌ إلاَّ لَهَا غَايَةٌ ... وفي تَنَاهِيهَا تَقَضِّيهَا
فاصْبِرْ فَإِنَّ السَّعْيَ في دَفْنِهَا ... قَبْلَ التَّنَاهِي زَايِدٌ فِيهَا (٥)

---

(١) معجم الأدباء ١٤/٢٠، البداية والنهاية ١١/٣٣٢ .

(٢) إمام جليل من كبار فقهاء الشافعية ، كان رجل علم ، له " التعليقة " المشهورة ، توفي بمروالروذ ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٢/١٣٤-١٣٥ ، طبقات الشافعية الكبرى ٤/٣٥٦ - ٣٥٨ ، الأعلام ٢/٢٥٤ ، معجم المؤلفين ٤/٤٥ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٤/٣٥٨ .

(٤) المعروف بإمام بغداد ، كان فقيهاً شافعياً مناظراً ، وشاعراً مجيداً ، أصله من بسطام ، انظر ترجمته : الوافي بالوفيات ٣/٣٣٣ ، شذرات الذهب ٤/١٤٩ .

(٥) الوافي بالوفيات ٣/٣٣٣ .

أما القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن النضر المعروف بالأديب ، فيلفت النظر إلى عظم أجر الصبر وهو في صدد حديثه إلى نفسه ، حاثاً إياها بالتزام الصبر احتساباً ، ومحذراً في الوقت نفسه من اليأس والقنوط من روح الله ، حيث يقول :

يَانَفْسُ صَبْراً واحْتِسَاباً إنَّهَا ... غَمَرَاتُ أيَّامٍ تَمُرُّ وَتَنْجَلِي
في اللهِ هُلْكُكِ إنْ هَلَكْتِ حَمِيدَةً ... وَعَلَيْهِ أجْرُكِ فاصْبِري وَتَوَكَّلِي
لا تَيْأَسِي مِنْ رَوْحِ رَبِّكِ واحْذَرِي ... أنْ تَسْتَقِرِّي بالقُنُوطِ فَتُخْذَلِي [1]

٣- عزة النفس :

جبلت النفس المؤمنة على العزة والإباء والأنفة ، وكان للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف موقف واضح ودعوة صريحة للتحلي بهذه القيم الخلقية العالية في مواطن كثيرة ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ ... وَللهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ وللمُؤْمِنِينَ ... ﴾ [2] ، وقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : " ... اليدُ العُلْيَا خيرٌ من اليدِ السُفْلَى " [3] .

وقد عبر فقهاء العصر العباسي الثاني في شعرهم عن اعتزازهم والتزامهم بهذا الخلق الإسلامي الرفيع ، ورفضهم لكل ما يهين النفس ويرزي بها . يقول الإمام أبو جعفر محمدبن جرير بن كثير بن غالب الطبري (٢٢٥ - ٣١٠هـ) [4] عن عزة

---

(١) خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ٩٣/٢ .

(٢) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(٣) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، كتاب الوصايا ٣٧٧/٥ .

(٤) المحدث الفقيه المقرئ المؤرخ المشهور ، جمع من العلوم ما رأس به أهل عصره ، وكان يرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، عرض عليه القضاء فامتنع ، استوطن بغداد إلى وفاته ، وله مصنفات كثيرة ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ١٦٢/٢-١٦٣ ، المنتظم ١٧٠/٦ - ١٧٢، معجم الأدباء ٤٠/١٨ ، البداية والنهاية ١٤٥/١١-١٤٦ ، الأعلام ٦٩/٦ ، معجم المولفين ٩ / ١٤٧ .

نفسه واستغنائه عن الناس ، وحيائه ، وعدم بذل ماء وجهه ، على الرغم من أنه أيسر سبيل إلى الغنى :

إذَا أعْسَرْتُ لَمْ أُعْلِمْ رَفِيقِي ... وأسْتَغْنِي فَيَسْتَغْنِي صَدِيقِي (١)
حَيَائِي حَافِظٌ لي مَاءَ وَجْهِي ... وَرِفْقِي في مُطَالَبَتِي رَفِيقِي
ولوْ أنِّي سَمَحْتُ بِبَذْلِ وَجْهِي ... لَكُنْتُ إلى الغِنَى سَهْلَ الطَّرِيقِ (٢)

ويصف القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني عزة نفسه وخدمته للعلم ، ورفضه لمواقف الذل والهوان ، حيث يقول في الأبيات التالية التي تناقلتها الأفواه جيلاً بعد جيل ، وأثنى عليها العلماء والأدباء (٣) ، وغيرهم :

يَقُولُونَ لي : فِيكَ انْقِبَاضٌ ، وإنَّمَا ... رَأوا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أحْجَمَا
أرَى النَّاسَ : مَنْ دَانَاهُمو هَانَ عِنْدَهُمْ ... ومَنْ أكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
ومَازِلْتُ مُنْحَازاً بِعِرْضِي جَانِباً ... مِن الذَّمِّ ، أعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا
إذَا قِيلَ : هذَا مَشْرَبٌ ، قُلْتُ : قَدْ أرَى ... ولكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
ولَمْ أقْضِ حَقَّ العِلْمِ إنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لي سُلَّمَا
وَلَمْ أبْتَذِلْ في خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأخْدُمَ مَنْ لاقَيْتُ لكِنْ لِأُخْدَمَا
أأشْقَى بِهِ غَرْساً وأجْنِيهِ ذِلَّةً ... إذاً فاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أحْزَمَا
ولَوْ أنَّ أهْلَ العِلْمِ صَانُوه صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
ولكِنْ أهَانُوهُ فهَانَ ، وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا (٤)

---

(١) في المنتظم ، والبداية والنهاية : لم يعلم .

(٢) المنتظم ١٧١/٦ ، معجم الأدباء ٤٣/١٨ ، البداية والنهاية ١٤٦/١١ .

(٣) انظر أدب الفقهاء ص ١٠٤ ، من غـزل الفقهاء للشيخ علي الطنطاوي ص١٦-١٧ ، أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور عبد الحكيم بلبع ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٤) يتيمة الدهر ٢٥/٤ ، المنتظم ٢٢١/٧، معجم الأدباء ١٧/١٤، البداية والنهاية ٣٣١/١١-٣٣٢ ، وغير ذلك.

وهذه الأبيات تمثل تجربة شعرية عالية القيمه ، في تصوير موقف العالم في اعتزازه بعلمه ونفسه ، وترفعه عن السقوط في قيعان الفساد ، لأنه محسوب عليه كل حركة ونقله ، فهو المثال الذي يحتذي نهجه .

كما يرفض القاضي الجرجاني في أبيات أخرى الغنى إذا كان ثمنه الذلة والمهانة والخضوع ، لأن نفسه الأبيه ترفض ذلك ، إذ يقول :

وَقَالُوا : تَوَصَّلْ بِالخُضُوعِ إلى الغِنَى ... ومَا عَلِمُوا أنَّ الخُضُوعَ هُو الفَقْرُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ المَالِ شَيْئَانِ حَرَّمَا ... عليَّ الغِنَى : نَفْسِي الأبِيَّةُ والدَّهْرُ [1]
إِذَا قِيلَ هذَا اليُسْرُ أبْصَرْتُ [2] دُونَهُ ... مَواقِفَ ، خَيْرٌ مِنْ وُقُوفِي بِهَا العُسْرُ [3]

أما الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن محمد بن نعيم البصري الأشعري النعيمي (ت ٤٢٣هـ) [4] فينصح بالتخلق بالعزة والأنفة والإباء ، وذلك بالقناعة مما في أيدي اللئام ، لأن إراقة ماء الوجه ، أشد من إراقة ماء الحياة ، كما عبر عن ذلك بقوله :

إِذَا أظْمَأتْكَ أكُفُّ اللِّئَامِ ... كَفَتْكَ القَنَاعَةُ شِبْعاً وريَّا
فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ في الثَّرَى ... وَهَامَةُ هِمَّتِهِ في الثُّرَيَّا
أبِيَّا لِنَائِلِ ذِي ثَرْوَةٍ ... تَرَاهُ بِمَا في يَدَيْهِ أبِيَّا
فَإِنَّ إرَاقَةَ مَاءِ الحَيَا ... ةِ دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ المُحَيَّا [5]

(١) في معجم الأدباء : بابان بدلاً من : شيئان .
(٢) في معجم الأدباء : عاينت بدلاً من : أبصرت .
(٣) معجم الأدباء ٣٣/١٤ ، وفيات الأعيان ٢٧٩/٣ .
(٤) نزيل بغداد ، درس بالأهواز ، وكان فقيهاً عالماً بالحديث متأدباً متكلماً ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٣٣١/١١ ، طبقات الفقهاء ص١٣١ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٧/٥-٢٣٨ .
(٥) طبقات الفقهاء ص١٣١ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٨/٥ - ٢٣٩ .

ويرى الفقيه أبو القاسم زين الإسلام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحه بن محمد القشيري النيسابوري (٣٧٦ – ٤٦٥هـ) (١) ، أنه يجب على المرء ترك مكانه ، إذا وجد فيه الذل والهوان ، والارتحال إلى موضع آخر ، لأن أرض الله أوسع من أن تضيق به ، حيث يقول :

الأَرْضُ أَوْسَعُ رُقْعَةً ... مِنْ أَنْ يَضِيقَ بِكَ المَكَانُ
وإِذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ ... وَيظَلُّ يَلْحَقُكَ الهَوَانُ
فاجْعَلْ سِوَاهُ مُعَرَّساً ... ومِنَ الزَّمَانِ لكَ الأَمَانُ (٢)

وتبلغ عزة النفس والاستغناء عن جميع المخلوقين ، مبلغاً غير محمود عند الفقيه أبي الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الشافعي الواسطي ، إذ أدى به ذلك إلى أن يرضى من فعل إبليس ترك السجود للمخلوق – آدم عليه السلام – على الرغم من تحفظه ، حيث قال :

كُلُّ رِزْقٍ تَرْجُوه مِنْ مَرْزُوقِ ... يَعْتَرِيهِ ضَرْبٌ مِنَ التَّعْوِيقِ (٣)
وأنَا قَائِلٌ وأسْتَغفِرُ اللَّـ ... ـهَ مَقَالَ المَجَازِ لَا التَّحْقِيقِ:
لَسْتُ أَرْضَى مِنْ فِعْلِ إِبْلِيسَ شَيْئاً ... غَيْرَ تَرْكِ السُّجُودِ للمَخْلُوقِ (٤)

ففي قوله : لست أرضى .. إلى آخر البيت ، شطط وفساد رأى ، ولا يبرؤه منه أنه اعتذر بالمجاز لا التحقيق ، لأن القضية هنا عقدية ، واستخدمها الشاعر استخداماً غير لائق .

---

(١) الفقيه الشافعي ، الشهير شيخ خراسان في عصره ، وصاحب الرسالة المشهورة ، كان علامة في الفقة والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة ، وكان متصوفاً ، كانت إقامته بنيسابور وبها توفى، انظر ترجمته : دمية القصر ٢/٢٤٦ – ٢٤٨ ، المنتظم ٨/٢٨٠ ، وفيات الأعيان ، ٣/٢٠٥ – ٢٠٧ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٥٣–١٥٩ ، الأعلام ٤/٥٧ .

(٢) دمية القصر ٢/٢٤٧ .

(٣) في وفيات الأعيان ، والوافي بالوفيات : من مخلوق بدلاً من مرزوق .

(٤) خريدة القصر ، الجزء الرابع – المجلد الأول ص٣٢٤ ، وفيات الأعيان ٤/٤٥٠ ، الوافي بالوفيات ٤/١٤٣.

٤- علو الهمة :

وقريب من عزة النفس التي ذكرنا نماذج لشعر الفقهاء فيها آنفاً ، علو الهمة وهي أيضاً من الخصال الإسلامية الرفيعة ، وقد عنى بها فقهاء هذا العصر ، في أشعارهم من خلال حديثهم عن هممهم العالية ، ورفضهم للتقاعس والخمول .

يقول الشريف المرتضى عن همته العالية وطموحه ، منوهاً بطهارة نفسه وطيب معدنه وحرصه على الحلال :

وليِ هِمَمٌ لَمَّا طَمَحْنَ إلى العُلَا طَمَحْنَ كَثِيرَاتٍ وقَلَّ صِحَابي
فَمِنْ عَذْبِ أزْوَادِ النَّزَاهَةِ مَطْعَمِي ومِنْ مَاءِ أحْوَاضِ العَفَافِ شَرَابي [١]

ويتحدث القاضي أبو بكر محمد بن القاسم بن مظفر بن علي الشهرزوري الموصلي (٤٥٤-٥٣٨) [٢] عن همته العالية التي دونها الأفلاك ، وما يتجشمه بسببها من متاعب ، فيقول [٣] :

هِمَّتِي دُونَهَا السُّهَا والثُّرَيَّا قَدْعَلَتْ جُهْدَهَا فَمَا تَتَدانَى [٤]

---

(١) ديوان الشريف المرتضى ١/٨٠ ، وانظر أيضاً حديثه عن همته العالية التي لا تحمل الضيم في ٣/١٩٤ .

(٢) قاضي الخافقين وسمى بذلك لكثرة البلاد التي ولى القضاء بها ، وشملت بلاد الشام والعراق وخراسان والجبال ، وكان قد اشتغل بالعلم على أبي إسحاق الشيرازي ، وسمع الحديث الكثير ، توفى ببغداد ، انظر ترجمته : المنتظم ١٠/١١٢ ، وفيات الأعيان ٤/٦٩-٧٠ ، الوافي بالوفيات ٤/٣٣٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٦/١٧٤-١٧٥ ، شذرات الذهب ٤/١٢٣ .

(٣) تردد ابن خلكان في نسبة البيتين التاليين إلى قاضي الخافقين ، فقد رأى في كتاب " تاريخ إربل " لابن المستوفي البيتين للقاضي القاسم بن المظفر الشهرزوري (ت ٤٨٩هـ) والد قاضي الخافقين ، وجد بيت الشهرزوري بينما رأى في كتاب " الذيل " للسمعاني هذين البيتين منسوبين إلى ولده ، أما الصفدي فقد نسب البيتين إلى قاضي الخافقين ، لذا جرى التنويه .

(٤) في وفيات الأعيان : السها والزباني

والسها : كوكب خفي ، لذا فالناس يمتحنون به أبصارهم ، وفي المثل " أريها السها وتريني القمر " انظر الصحاح ٦/٢٣٨٦.

فأنـــا مُتْعَـــبٌ مُعَنَّـــى إلـــى أنْ   تَتَفَانَـــــى الأيّـــامُ أو أتفانَـــى [1]

ويلاحظ في هذا المثال أن الشاعر يتحدث عن علو الهمة باعتبـاره خلقـاً عامـاً ، ولو عطفه إلى القيم الإسلامية لكان له معنى متميز في الأخلاق .

ويعتقد بعض الفقهاء أن الهمة العالية تقتضي من صاحبهـا الارتحال والاغتراب عن الوطن ، واقتحام المصاعب في سبيل بلوغ المراد وتحقيـق الغايـات ، يقـول القـاضي أبو المجد محمـد بـن عبـد الله بـن أبي المجد محمـد بـن عبـد الله بـن سـليمان التنوخـي (٤٤٠-٥٢٣هـ) [2] .

وَقَـدْ أوْسَـعَ اللهُ البِـــلادَ ولِلْفَتَـــى   إلى بَعْضِهَـا عَنْ بَعْضِهَـا مُـتَزَحْزَحُ [3]
فَخَلِّ الهُوَيْنَا إنَّهَا شَـــرُّ مَرْكَــــبٍ   وَدُونَكَ صَعْبَ الأمْرِ فالصَّعْبُ أنْجَـحُ
فإنْ نِلْتَ ما تَهْوَى فَذَاكَ وإنْ تَمُـتْ   فَلَلْمَوْتُ خَيْـرٌ لِلْكَرِيـمِ وأرْوَحُ [4]

وكتب في هذا الصدد أيضاً الفقيه أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز بن أبي بكر بـن عبد المؤمن القرشي العبدري المعروف بـابن النطرونـي الإسـكندري (تــ ٦٠٣هــ) [5] الأبيات الجميلة التالية ، التي جعلها حواراً رقيقاً مع زوجته أو لعلها نفسه :

---

(١) وفيات الأعيان ٦٩/٤ ، الوافي بالوفيات ٣٣٩/٤ .

(٢) فقيه شافعي كان فاضلا أديباً خطيباً شـاعراً مفتيـاً ، أدرك عـم أبيـه أبـا العـلاء المعـري وروى عنـه أشـعاره ومصنفاته ، ولي القضاء بمعرة النعمان إلى أن دخلها الفرنجة (٤٩٢هـ) فانتقل إلى شيزر وبعد مدة انتقل إلى حماة فأقام بها حتى مات ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ١١١/٣ - ١١٢ واسمه فيه " محمد بن عبيد الله "، الوافي بالوفيات ٣٣٤/٣ ، الأعلام ٢٢٨/٦ ، معجم المؤلفين ٢٤٣/١٠ .

(٣) قد أوسع ، كذا في معجم الأدباء ، ولا يستقيم الوزن إلا بإضافة حرف الواو ، فنقول : وقد أوسـع .. لأن التفعيلة من الطويل " فعولن " .

(٤) معجم الأدباء ١١٦/٣ .

(٥) فقيه مالكي من أهل الاسكندرية ، كان أديباً شاعراً ، رحل إلى بغداد ومدح الخليفة العباسي الناصر بعـدة قصائد ، عين ناظراً للبيمارستان العضدي ، واستمر حتى توفى ، انظر ترجمته ، فـوات الوفيـات ٤٠٥/٢ ، الأعلام ١٦٧/٤ .

بَـاتَتْ تَصُـدُّ عَـنِ الكَـرَى وَتقُـولُ : كَـمْ تَتغَـرَّبُ ؟
إنَّ الحَيَـاةَ مَـعَ القَنَـا عَـةِ والمُقَـامِ لأطْيَـبُ
فأجَبْتُهَـا : يَـا هَـذِهِ غَـيْرِي بِقَوْلِـكِ يُخْلَـبُ
إنَّ الكَرِيـمَ مُفـارِقٌ أوْطَانَـهُ أوْ يُجْـدِبُ
والبَـدْرُ حِـينَ يَشِـينُهُ نُقْصَانُـهُ يَتَغَيَّـبُ
لا يَرْتَقِـي دَرَجَ العُـلاَ مَنْ لا يَجِـدُّ وَيَتْعَـبُ (١)

وقد وفق الشاعر في وصف حاله بصورة البدرحين يشينه نقصانه فيتوارى عن الأنظار ، نظراً لملائمة هذه الصورة لحال الشاعر ، ولواقعيتها ، وحسن التعليل فيها .

وعن همـم العلمـاء في مجال العلـم والمعرفـة يتحـدث العلامـة أبـو الفـرج ابـن الجوزي ، ويصف همته العالية التي ليس لها مثيل في طلب العلـم ، ممـا أدى إلى ضمـور جسمه ، فيقول :

لِيَ هِمَّـةٌ في العِلْـمِ مَـامِنْ مِثْلُهَـا وهْـيَ الَّتي جَنَـتِ النُّحُـولَ هي الَّـتِي
خُلِقَتْ مِنَ العِلْقِ (٢) العَظِيمِ إلى المُنَى دُعِيَتْ إلى نَيْلِ الكَمَالِ فَلَبَّتِ (٣)

أما همة الإمام فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بـن الحسـن بـن علي الرازي (٥٤٤-٦٠٦هـ) (٤) فلا تقنع بالقليل الزائل ، لأن نفسـه تـروم أمـورا تصغـر الدنيا والدهر عندها ، فهو يقول :

---

(١) فوات الوفيات ٢/٤٠٥ .

(٢) العلق بالكسر : النفيس من كل شيء ، والجمع أعلاق .

(٣) أدب ابن الجوزي ص ١٣٦ .

(٤) مفسر وفقيه شافعي ، كان فريد دهره ونسيج وحده ، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقـولات وعلـم الأوائل ، له تصانيف مفيدة في العديد من الفنون ، وهو قرشي النسب تيمي بكـري أصلـه مـن طبرسـتان ، ومولده في الرى وإليها بنسب فيقال له : " ابن خطيب الرى " له شعر بالعربية والفارسية ، توفي بهـرات ، انظر ترجمته : وفيات الأعيـان ٤/٢٤٨ - ٢٥٢ ، الـوافي بالوفيـات ٤/٢٤٨ - ٢٤٩ ، طبقـات الشـافعية الكبرى ٨ / ٨١ - ٩٦ ، شذرات الذهب ٥/٢١ ، الأعلام ٦/٣١٣ ، معجم المؤلفين ١١/٧٩-٨٠ .

فَلَوْ قَنِعَتْ نَفْسِي بِمَيْسُورِ بُلْغَةٍ　لَمَا سَبَقَتْ فِي الْمَكْرُمَاتِ رِجَالَهَا
وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا مُنَاسِبَةً لَهَا　لَمَا اسْتَحْقَرَتْ نُقْصَانَهَا وَكَمَالَهَا
ولا أرْمُقُ الدُّنْيَا بِعَيْنِ كَرَامَةٍ　ولا أتوقَّى سُوءَهَا واخْتِلاَلَهَا
وذاكَ لأنِّي عَارِفٌ بِفَنَائِهَا　ومُسْتَيْقِنٌ تِرْحَالَهَا وانْحِلاَلَهَا
أرُومُ أُموراً يَصْغُرُ الدَّهْرُ عِنْدَهَا　وتَسْتَعْظِمُ الأفْلاَكُ طَرًّا وِصَالَهَا (١)

ومن النماذج الشعرية السابقة يتضح لنا تباين معاني الهمة عند الفقهاء ، فمنهم من عطفها إلى المفاهيم الإسلامية ، ومنهم من ألقى بها مجردة عن التعلق ، لذلك صارت هذه المعاني غير متفردة ولا مخصصة للفقهاء دون غيرهم من الشعراء .

٥- تحري الصدق :

حرص الإسلام على ترسيخ الصدق في نفوس الناس ، نظراً لأهميته البالغة في بناء المجتمع الإسلامي ، وهناك نصوص كثيرة تحث على الالتزام به (٢) ، وقد كان للفقهاء وقفة مع الصدق ، بينوا فضله العظيم ، وحثوا على التحلي به ، وذموا الكذب والمتصفين به ، وأشاروا إلى ما ينتظرهم من عذاب أليم . يقول الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي عن فضل الصدق ، ووجوب الاتصاف به ، واجتناب النفاق :

الصِّدْقُ أوْلَى مَابِهِ　دَانَ أُمْرُؤٌ فاجْعَلْهُ دِينَا
ودَعِ النِّفَاقِ فمَا رأيْتُ مُنَافِقاً إلاَّ مَهِينَا (٣)

وتحدث الفقيه أبو عبد الرحمن عمر بن محمد بن محمد المعروف بالأشقر ، عن فضل من يتصف بالصدق قائلاً :

(١) الوافي بالوفيات ٤/٢٥٧ .
(٢) انظر رياض الصالحين ص ٧٠ - ٧٢ ، مختصر منهاج القاصدين ص ٣٩٤ - ٣٩٦ .
(٣) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ١٤٢ .

المَـرْءُ يُعْـرَفُ فَضْلُـهُ بِلِسَانِهِ ... وبِصِدْقِ لَهْجَتِهِ وحُسْنِ بَيَانِهِ
فَإِذَا تَكَلَّمَ يَسْتَبِينُ كَمَالُهُ ... لِذَوِي النُّهَى والفَضْلِ مِنْ نُقْصَانِهِ (١)

أما الفقيه أبو بكر عبد الله بن علي بن صائن بن عبد الجليل بن الخليل ابن أبي بكر الفرغاني (تـ ٦١٦هـ) (٢) فقد حث على تحري الصدق ، واجتناب الكذب ، حيث قال :

تَحَرَّ فَدَيْتُكَ صِدْقَ الحَدِيثِ ... ولا تَحْسَبِ الكَذِبَ أمْراً يَسِيرَا
فمَنْ آثَرَ الصِّدْقَ في قَوْلِهِ ... سَيَلْقَى سُرُوراً وَيَرْقَى سَرِيرَا
ومَنْ كانَ بالكَذِبِ مُسْتَهْتِرَا ... سَيَدْعُو ثُبوراً ويَصْلى سَعِيرَا (٣)

٦- الكرم والإنفاق :

من المعاني التي تغني بها الفقهاء في شعرهم ، وشاركوا في إشاعتها بين الناس : الكرم والإنفاق وذم البخل ، وهي معان سبق أن أكدها القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف في مواطن كثيرة (٤) .

يقول الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي في وصف نفس الكريم ، التي تدله على فعل الخير :

إنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنَ الكَرِيـ ... ـمِ الحُرِّ وابِلُهُ فَطَلُّهْ
إنَّ الكَرِيمَ لَهُ علَى ... مَعْرُوفِهِ نَفْسٌ تَدُلُّهْ
يُبْدِي مَكَارِمَهُ كَمَا ... يُبْدِي فِرِنْدَ السَّيْفِ صَقْلُهْ (٥)

---

(١) دمية القصر ٢/ ٢٦٦ .

(٢) فقيه حنفي ، كان إماماً كبيراً في المذهب والخلاف والحديث والنحو واللغة ، وله النظم والنثر ، كان يتولى الخطابة بسمرقند ، قتل شهيدا ببخاري على أيدي التتار . انظر ترجمته : الوافي بالوفيات ١٧/٣٣٢-٣٣٣ ، الجواهر المضية ٢/٣١٤-٣١٥ ، بغية الوعاة ٢/٥٠ .

(٣) الوافي بالوفيات ١٧/٣٣٣ .

(٤) انظر رياض الصالحين ص ٢٥١ - ٢٥٦ ، مختصر منهاج القاصدين ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٥) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ١٣٠ .

وتحدث عن ثمرة البخل والكرم قائلاً :

زَادُ البَخِيــلِ إِذَا مَضَــى لِسَــبِيلِهِ ... ذَمُّ العِـــدَا وقَطِيعَـــةُ الـــوُرَّاثِ
وأخُو السَّمَاحِ فَحَظُّهُ مِــنْ أَهْلِــهِ ... ومِنَ الغَرِيـبِ مَدَائِــحٌ وَمَرَاثِــي (1)

وينصح الفقيه أبـو القاسـم علي بـن المظفـر بـن حمزة العلـوي الحسـيني الدبوسـي (تـ ٤٨٢هـ) (2) بوجوب اغتنام أوقات اليسر والرخاء ، لفعل الخيرات ، قائلاً :

أَقُولُ بِنُصْحٍ يَـا ابنَ دُنْيَـاكَ لا تَنَـمْ ... عَــنِ الخَــيْرِ مَـادَامَتْ فـإِنَّكَ عَــادِمُ
وإِنَّ الَّذِي لَمْ يَصْنَـعِ العُرْفَ فِي غِنَـىً ... إِذْ مَـا عَــلاهُ الفَقْـرُ لا شَـكَّ نَـادِمُ
فَقَدِّمْ صَنِيعاً عِنْدَ يُسْرِكَ واغْتَنِـــمْ ... فأنْـــتَ عَلَيْــهِ عِنْــدَ عُسْرِكَ قَادِمُ (3)

ومن مقتضيات الكرم انفاذ الوعد بالبذل وعدم المطل وخلف الوعـد ، يقـول القـاضي أبو العباس أحمد بن بختيار بن علي بن محمد بن جعفـر بـن إبراهيـم الواسـطي المعروف بابن المندائي (تـ ٥٥٢هـ) (4) حاثاً على الوفاء بالوعد ، مبيناً أن المطل مـن غـير عـذر من آفات الجود :

إِذَا وَعَدْتَ فَعَجِّلْ مَا وَعَـدْتَ بِـهِ ... فَالْمَطْلُ مِنْ غَـيْرِ عُـذْرٍ آفَـةُ الجُـودِ
فَــإِنْ تَعَــذَّرَ مَطْلُــوبٌ بِمَانِعَــةٍ ... فَالْيَأْسُ أَقْرَبُ مَشْـكُورٍ ومَحْمُـودِ
إِنَّ السُّؤالَ وإِنْ قَلَّـتْ مَصَــــادِرُهُ ... يُوفِي على كُلِّ مأمُولٍ ومَعْهُودِ (5)

---

(1) المصدر السابق ص ٨٦ .

(2) من أهل دبوسية وهي بلدة بين بخاري وسمرقند ، يرجع نسبه إلى زين العابدين بن الحسين ، كـان مـن أئمـة الفقهاء كامل المعرفة بالفقه والأصول بالإضافة إلى إطـلاع تـام بـالأدب ، انظـر طبقـات الشـافعية الكـبرى ٢٩٦/٥ - ٢٩٧ .

(3) المصدر السابق ٢٩٦/٥ - ٢٩٧

(4) من نواحي البطيحة وبها نشأ ، ودخل واسط واستوطنها ، ولي قضاء الكوفـة نيابـة عـن أبي الفتـح ابن البيضاوي قاضي الكوفة ، وعزل ثم قدم بغداد ، وولي الإعادة بالنظامية وكـان أديبـاً شـاعراً ، وصنـف كتباً منها كتاب " القضاة " انظر ترجمته : المنتظـم ١٧٧/١٠ ، الـوافي بالوفيـات ٢٦١/٦ - ٢٦٢ . بغيـة الوعاة ٢٩٧/١ ، معجم المؤلفين ١٧٢/١ .

(5) الوافي بالوفيات ٢٦٢/٦ .

وتحدث القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر الملقب بظهير الدين (ت ٦١٠هـ) [1] عن كراهة تأخر جود الكريم عن وقته فقال :

جُودُ الكَرِيمِ إذَا مَا كَانَ عَنْ عِدَةٍ   وقَدْ تأخَّرَ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الكَدَرِ
إنَّ السَّحَائِبَ لا تُجْدِي بَوارِقُها   نَفْعاً إذَا هي لَمْ تُمْطِرْ على الأثَرِ [2]

٧- أخذ المشورة :

الأخذ بالمشورة خلق رفيع حث عليه الإسلام ودعا إليه ، وقد تطرق إليه بعض الفقهاء في أشعارهم بالوصف والثناء ، وفي مقدمتهم القاضي أبو بكر ناصح الدين أحمد ابن محمد بن الحسين الأرجاني ، الذي تحدث عن أهميته ووجوب الأخذ به ومن ذلك، قوله في وجوب أخذ الإنسان بالمشورة وإن كان من أهل المشورات :

شَاوِرْ سِوَاكَ إذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ   يَوْماً وإنْ كُنْتَ مِنْ أهْلِ المشُورَاتِ
فالعَيْنُ تَلْقَى كِفَاحاً مَا نَأَى وَدَنَا   ولَا تَرَى نَفْسَهَا إلَّا بِمِرْآةِ [3]

وقال أيضاً في هذا الصدد :

اقْرِنْ بِرَأْيِكَ رَأْيَ غَيْرِكَ واسْتَشِرْ   فَالحَقُّ لا يَخْفَى علَى رَأْيَيْنِ
فالمَرْءُ مِرْآةٌ تُرِيهِ وَجْهَهُ   ويَرَى قَفَاهُ بِجَمْعِ مِرْآتَيْنِ [4]

وأبيات الأرجاني هذه تذكرنا بأبيات الشاعر المعروف بشاربن برد (٩٥-١٦٧هـ) [5]

---

(١) فقيه شافعي موصلي أصله من العراق من السندية ، تفقه بالمدرسة النظامية ببغداد ، وسمع الحديث ورواه ، وتولى القضاء بالسلامية وهي بلدة بأعمال الموصل ، وكان أديباً شاعراً ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٣٧/١ - ٣٨ الوافي بالوفيات ١٥٤/٦-١٥٥ ، البداية والنهاية ٦٦/١٣ .

(٢) وفيات الأعيان ٣٧/١ .

(٣) ديوان الأرجاني ٢٤٦/١ - ٢٤٧

(٤) المصدر السابق ، طبعة بيروت ص ٣٨٨ .

(٥) أشعر المولدين على الإطلاق ، أصله من طخارستان غربي نهر جيحون ونسبته إلى امرأة عقيلية قيل إنها أعتقته من الرق ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ، انظر ترجمته : طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١ ، وفيات الأعيان ٢٧١/١ - ٢٧٤ ، الأعلام ٥٢/٢ ، معجم المؤلفين ٤٤/٣ .

التي قيل إنها أحسن ما نظم في المشورة (1) ، ومما جاء فيها قوله :

إِذَا بَلَغَ الـرَّأْيُ المشُـورَةَ فاسْتَعِنْ ... بِـرَأْي نَصِيحٍ أوْ نَصِيحَـةِ حَـازِمِ
ولا تَجْعَلِ الشُّورَى عليكَ غَضَاضَـةً ... مَكَـانُ الخَـوَافِي قُـوَّةٌ لِلْقَـوَادِمِ
وَمَا خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الغُـلُّ أُخْتَهَـا ... وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لم يُؤَيَّدْ بِقَائِـمِ (2)

إذ نلاحظ المسحة الوعظية عند الرجلين ، ولكن يؤخذ على الأرجاني ميله إلى التكلف والصنعة ، خاصة في البيت الثاني من المقطوعة الثانية ، بالإضافة إلى التمكن الواضح لبشار من ناصية البيان ، وإجادته في تسخير أدواته الشعرية ، ليجعل القارئ يدرك أهمية الشورى في حياته ، فجاء كلامه أعمق دلالة من الأرجاني ، وأحسن تعليلا.

٨- شرف العلم واحترام العلماء :

رفع الإسلام من شأن العلم ، وشرف العلماء وأعلى منزلتهم ، وقد امتثل فقهاء العصر العباسى الثانى لهذا التوجيه الإسلامى الكريم ، فعنوا فى اشعارهم بالحديث عن شرف العلم ، وأهميته ووجوب طلبه ، وتقدير العلماء وطلبة العلم ، فهذا القاضى أبو بكر أحمد بن سيار بن محمد الصيمرى (ت٣٦٨هـ) (3) يحث على احترام العلماء ، ووجوب الاهتمام بهم ، وعدم احتقارهم ، وإن كان مظهرهم مبتذلاً، حيث يقول :

لا تَسْتَهِنْ عَالِماً وإنْ قَصُرَتْ ... أحْوالُـهُ في لِحَـاظِ رَامِقِـهِ
وانْظُـرْ إليـهِ بِعَيْنِ ذِي إرَبٍ ... مُهَـذَّبِ الـرَّأْيِ في طرائِقِـهِ
فَالْمِسْكُ تَيْسًا تَـرَاهُ مُمْتَهَنـاً ... بِفِهْرِ عَطَّـارِهِ وسَاحِقِهِ
حَتَّى تَـرَاهُ في عَارِضَيْ مَلِكٍ ... أوْ مَوْضِعَ التَّاجِ مِـنْ مَفَارِقِـهِ (4)

---

(١) انظر وفيات الأعيان ٢٧٢/١ .

(٢) ديوان بشار بن برد ١٧٢/٤-١٧٣.

(٣) تولى قضاء الجانب الشرقى من بغداد ، ثم قلد قضاء الحريم بدار الخلافة ثم عزل عنه وقلد القضاء بطريق خراسان ، وكان أديباً شاعراً ذا هيبة ومنظر عظيم ، وجثة مهولة ولحية طويلة ، انظر ترجمته : الوافى بالوفيات ٤١٣/٦-٤١٤ ، شعراء بغداد ٢٨٦/١-٢٨٧.

(٤) الوافى بالوفيات ٤١٤/٦، شعراء بغداد ٢٨٦/١-٢٨٧.

وقد آثر بعض فقهاء هذا العصر ، اعتزال الناس من أجل التفرغ للعلم ومدارسته...، وقد بين المحدث الفقيه أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي في كتابه الذى أنشأه لهذا الغرض ، أنه ليس المراد بالعزلة مفارقة الناس في الجماعات والجمعات، وترك حقوقهم في العبادات، وإفشاء السلام،ورد التحيات ... إنما المراد هو ترك فضول الصحبة ، ونبذ الزيادة منها وحط العلاوة (١) التي لا حاجة إليها (٢) . لذلك فهو يرى أن من أهم أسباب صفاء ذهنه ، وتتابع خواطره، وإقباله على العلم ، أن يخلو إلى نفسه بعيداً عن ضوضاء الناس ، كما عبر عن ذلك بقوله :

إِذَا خَلَوْتُ صَفَا ذِهْنِي وعَارَضَنِي ... خَوَاطِرٌ كَطِرَازِ البَرْقِ في الظُّلَمِ
وإنْ تَوالَى صِيَاحُ النَّاعِقِينَ على ... أُذْنِي عَرَتْنِيَ مِنْهُ لُكْنَةُ العَجَمِ (٣)

وكذلك حال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي أوضح في أبياته التالية ، أنه ما شعر بلذة العيش ، حتى اعتزل الناس وترك مخالطتهم ، وعكف في بيته على كتبه ، سعياً في طلب العلم ، حيث قال :

مَا تَطَعَّمْتُ لَذَّةَ العَيْشِ حَتَّى ... صِرْتُ لِلْبَيْتِ والكِتَابِ جَلِيسَا
لَيْسَ شَيْءٌ أعَزَّ عِنْدِي مِنَ العِلْـ ... ـمِ فَلِمْ أَبْتَغِي سِوَاهُ أَنِيسَا ؟
إِنَّمَا الذُّلُّ في مُخَالَطَةِ النْـ ... ـنَاسِ فَدَعْهُمْ وعِشْ عَزِيزًا رَئِيسَا (٤)

أما القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي فتتوق نفسه لخدمة العلم ، حتى ينصرم عمره ، كما أوضح ذلك في قوله :

---

(١) علاوة كل شيء : مازاد عليه.
(٢) العزلة للبستي ص ٥٨ – ٥٩ .
(٣) معجم الأدباء ٢٧٠/١٠ .
(٤) المصدر السابق ١٩/١٤-٢٠ ، وانظر الأبيات مع بعض الاختلاف في : المنتظم ٢٢٢/٧ ، الكامل في التاريخ لابن الاثير ٨٨/٧ .

يَاهْفَ نَفْسِي على شَيْئَيْنِ لَوْ جُمِعَا عِنْدِي لَكُنْتُ إذِنْ مِنْ أَسْعَدِ البَشَرِ
كَفَافُ عَيْشٍ يَقِينِي كُلَّ مَسْأَلَةٍ وخِدْمَةُ العِلْمِ حَتَّى يَنْقَضِي عُمْرِي [1]

٩- آداب الصحبة والصديق :

الأخوة الصادقة خلق عظيم ، حث عليه الإسلام ، ودعا إليه من أجل أن تسود بين أبناء المجتمع الإسلامي ، روح التعاون والتآزر .

وقد حرص الإسلام على أن تكون العلاقة المتبادلة بين الإخوة والأصدقاء قائمة على مبادئ سامية ، من التقوى والصلاح والمحبة في ا لله ، متجردة من الهوى والضلال، بعيدة عن تحقيق المنافع الشخصية الضيقة ، يقول ا لله تعالى : ﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ المُتَّقِينَ ﴾ [2] ، ومن السبعة الذين يظلهم ا لله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله : " رَجُلانِ تَحابَّا في ا للهِ ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وافْتَرَقَا عَلَيْهِ " [3] .

وقد زخر شعر فقهاء هذا العصر بصور جميلة لآداب الصحبة والإخاء ، ومظاهر الأخوة والمودة الصادقة .

فقد حث العديد من الفقهاء على اختيار الأخ والخل الوفي ، والتمسك به ، وذلك لندرته في هذه الحياة ، كما بين ذلك الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي الشيرازي ، في قوله :

سَأَلْتُ النَّاسَ عَنْ خِلٍّ وفِيٍّ فَقَالُوا مَا إلى هَذَا سَبِيلُ
تَمَسَّكْ إنْ ظَفِرْتَ بِوُدِّ حُرٍّ فإنَّ الحُرَّ في الدُّنْيَا قَلِيلُ [4]

(١) الذخيرة ، القسم الرابع – المجلد الثاني ص ٥٢٤ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية ٦٧ .
(٣) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، كتاب الآذان ١٤٣/٢ .
(٤) المنتظم ٩/٨ ، الوافي بالوفيات ٦٦/٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٢٤/٤ ، شعراء بغداد ٥٢/١ .

وكان الفقهاء على إدراك تام بأهمية وجود الأخ والصديق المخلص المعين في حياتهم ، فما ضاع من كان له صاحب ، كما جاء في قول الفقيه أبي الحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري (تـ ٣٨٠هـ) [1] .

مَاضَاعَ مَنْ كَانَ لَهُ صَاحِبْ ... يَقْدِرُ أَنْ يُصْلِحَ مِنْ شَأْنِهِ
فإِنَّمَا الدُّنْيَا بِسُكَّانِهَا ... وإِنَّمَا المَرْءُ بِإِخْوَانِهِ [2]

وقد تطرق العديد من الفقهاء إلى حقوق الأخوة وواجباتها ، وما ينبغي على الإخوة والأصدقاء ، أن يتحلوا به من خصال الود والمحبة الصادقة ... فمن ذلك عدم هجر الصديق بغير ذنب ، وعدم كتمان السر عنه ، كما نبه إلى ذلك الفقيه أبو بكر محمد ابن داود الأصفهاني الظاهري بقوله :

فَلا تَهْجُرْ أخَاكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ... فَإِنَّ الهَجْرَ مِفْتَاحُ السُّلُوِّ
إذَا كَتَمَ الخَلِيلُ أخَاهُ سِرًّا ... فَمَا فَضْلُ الصَّدِيقِ على العَدُوِّ ؟ [3]

ومن واجبات الصداقة أيضاً حسن الأدب مع الصديق ، وحسن رعايته ، كما بين ذلك القاضي أبو الحسن علي بن النعمان بن منصور بن أحمد بن حيون (تـ ٣٧٤هـ)[4] في حديثه عن صديقه ، حيث قال :

---

(١) كان فقيهاً مصنفاً للكتب في أنواع العلوم ، وكان مبرزاً في علم الكلام ، صحب أبا الحسن الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ) وأخذ عنه ، انظر ترجمته : طبقات الشافعية الكبرى ٤٦٦/٣ - ٤٦٧ ، معجم المؤلفين ٢٣٤/٧ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٤٦٧/٣ ، وللإطلاع على مزيد من شعر الفقهاء في وجوب اتخاذ الصديق ، انظر : المنتظم ٩/٨ ، الوافي بالوفيات ٦٤/٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٢٤/٤ ، منصور بن اسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ١٤٧ .

(٣) أوراق من ديوان أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني ص ٦٧ .

(٤) من قضاة مصر ، كان عالماً متمكناً في عدة فنون ، منها علم القضاء والفقه وعلوم العربية والأدب والشعر وأيام العرب ، وكان شاعراً مجيداً ، وكان وافر الحرمة عند الفاطميين حتى توفي بمصر ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٤٦٥/١ - ٤٦٦ ، دمية القصر ٢٧١/١ - ٢٧٢ ، وفيات الأعيان ٤١٧/٥ - ٤١٩ ، الأعلام ٢٩/٥ .

صَدِيــــــقٌ لي لَـــــــهُ أدَبٌ ... صَدَاقَــــةُ مِثْلِـــــهِ نَسَـــبُ
رَعَـــى لي فـــوقَ مَـــا يُرْعَـــى ... وأوْجَـــبَ فَـــوْقَ مَـــا يَجِـــبُ
فَلَـــــوْ نُقِــــدَتْ خَلائِقُـــهُ ... لَبُهْـــرِجَ (١) عِنْدَهَـــا الذَّهَـــبُ (٢)

ويلفت القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي الأنظار إلى أهمية الأخوة والمودة في ا لله تبارك وتعالى ، لأنها باقية على الأيام ، أما المودة المرتبطة بمنفعة دنيوية فهي زائفة لا خير فيها ، إذ يقول :

وَكُـــلُّ مَـــوَدَّةٍ في ا للهِ تَبْقَـــى ... علـــى الأيَّـــامِ مِـــنْ سَـــعَةٍ وَضِيـــقِ
وكُـــلُّ مَـــوَدَّةٍ في مَـــا سِـــوَاهُ ... فَكَالْحَلْفَـــاءِ في لَهَـــبِ الحَرِيـــقِ (٣)

وتطرق القاضي عبد الوهاب المالكي أيضاً إلى جانب مهم من واجبات الأخوة والصداقة ألا وهو غض الطرف عن الهنات ، والعفو ، وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة ، كما في قوله معاتباً صديقه :

هَبْنِي أسَأْتُ كَمَا زَعَمْتَ فأيْنَ عَاقِبَةُ الأُخُوَّهْ
ولئِنْ أسَأْتَ كَمَا أسَأْتُ فأيْنَ فَضْلُكَ والمُرُوَّهْ (٤)

ومن واجبات الصداقة أيضاً وصل الصديق وزيارته باستمرار ، وأوجب ما تكون الزيارة حين المرض ، لأن زيارة الخل والصديق الوفي تسعد المريض وتعجل في شفائه ، لذلك فهو يتطلع إليها بشغف بالغ ، فحينما مرض الفقيه أبو الفرج محمد بن

(١) بهرج الذهب : زيفه أو أصبح رديئاً .
(٢) يتمية الدهر ١/٤٦٥ - ٤٦٦ ، وفيات الأعيان ٥/٤١٨ ، وقد وهم جامع شعر الفقيه منصور التميمي حين ذكر هذه الأبيات في ما ثبت من شعره ص ٧٢ مع اختلاف في رواية بعض الألفاظ ، على الرغم من أنه أفرد ملحقاً في آخر الكتاب للأشعار التي نسبت إليه وإلى غيره ، انظر ص ١٦١ .
(٣) الذخيرة - القسم الرابع - المجلد الثاني ص ٥٢٣ .
(٤) المصدر السابق ص ٥٢٨ .

عبد الواحد بن محمد بن عمر بن ميمون الدارمي (٣٥٨ - ٤٤٨هـ) [1] عاده الشيخ أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الإسفراييني ، فسر أيما سرور بهذه الزيارة ، وقال :

مَرِضْتُ فَارْتَحْتُ إلى عَائِدٍ فَعَادَني العَالَمُ في وَاحِدِ
ذَاكَ الإمَامُ ابنُ أبي طَاهِرٍ أحْمَدُ ذُو الفَضْلِ أبُو حَامِدِ [2]

١٠- معانٍ خلقية أخرى :

كما تناول الفقهاء العديد من المعاني الخلقية الأخرى مثل التسامح ، والمداراة ، والحزم ... ، ونظراً لقلة شواهدهم الشعرية فيها فإننا سنجملها فيما يلي :

يقول الفقيه المحدث أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي حاثاً على التسامح مع الناس والقصد في كل الأمور :

تَسَامَحْ ولا تَسْتَوْفِ حَقَّكَ كُلَّهُ وأبْقِ فَلَمْ يَسْتَقْصِ قَطُّ كَرِيمُ [3]
ولا تَغْلُ [4] في شيءٍ مِنَ الأمْرِ واقْتَصِدْ كِلاَ طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمُورِ ذَمِيمُ [5]

وتحدث البستي أيضاً عن فضل مداراة الناس في هذه الحياة ، وعدها من رجاحة العقل ، حيث قال :

---

(١) فقيه من علماء الشافعية ، كان موصوفاً بالذكاء والفطنة ، وكان شاعراً فصيحاً ، عالماً بالحساب ، انتقل عن بغداد إلى الرحبة فسكنها مدة ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها حتى وفاته ، انظر ترجمته : طبقات الفقهاء ص١٢٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٨٢/٤ - ١٨٤ ، الأعلام ٦ / ٢٥٤ .

(٢) طبقات الفقهاء ص ١٢٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ٦٤/٤ - ٦٥ ، ١٨٣ . وستأتي ترجمة الأسفراييني في مبحث الحكمة.

(٣) في وفيات الأعيان ، طبقات الشافعية الكبرى : فسامح .

(٤) لا تغل : لا تسرف ولا تتغال .

(٥) العزلة لأبي سليمان البستي ص ٢٣٧ ، يتيمة الدهر ٣٨٥/٤ ، معجم الأدباء ٢٧١/١٠ ، وفيات الأعيان ٢١٥/٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٨٥/٣ .

مَـادُمْتَ حَيّـاً فَـدَارِ النَّـاسَ كُلَّهُـمُ   فإنَّمَـا أنْـتَ في دَارِ المُـدَارَاةِ
مَنْ يَدْرِ دَارَى ومَنْ لَمْ يَدْرِ سَوْفَ يُرَى   عَمَّا قَلِيـلٍ نَدِيمـاً للنَّدَامَـاتِ [1]

وقد تعرض البستي في كتابه العزلة إلى مفهوم المداراة وأهميتها في حياة النـاس ، وذكـر ماقيل في معناها ، ومن ذلك أن يخالط الإنسـان النـاس ببدنـه ، ويفـارقهم بقلبـه ، وأن يخلص الود للمؤمن الصالح ، ويعاشر الفاجر على أخلاقه ... [2]

أما القاضي عبد الوهاب بن علـي بـن نصـر البغـدادي المـالكي فينصـح بـالتزام الحزم في كل الأمور لأنه طريق النجاة من المخاطر ، ويحذر من العجز لأنه مذلـة حيـث يقول :

لا تَـتْرُكِ الحَـزْمَ في شـيءٍ تُحَـاذِرُهُ   فإنْ سَـلِمْتَ فَمَـا في الحَـزْمِ مِنْ بَـاسِ
العَجْزُ ذُلٌّ ومَا بالحَزْمِ مِـنْ ضَـرَرٍ   وأحْزَمُ الحَزْمِ سُوءُ الظَّنِّ بالنَّـاسِ [3]

ولا يخفى أن الشاعر قد جانب الصواب ، حينما عد سوء الظن بالنـاس قمـة الحـزم ، لأن هذا يخالف قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْـضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .. ﴾ [4] ، كما أن هذا الأمر يتنافى مع قيم وآداب الإسلام ، التي تحث علـى حسن الخلق مع الناس ، وحسن الظن بهم ، ومقابلة الإساءة بالإحسان .

ويشترط القاضي أبو بكر ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني لحب المرء ودوام مودته له ، أن يجتمع فيه جمال المظهر وسلامة الباطن ، إذ لا قيمـة للمظهـر إذا كان المخبر سيئاً ، حيث يقول :

---

(١) يتيمة الدهر ٣٨٣/٤ – ٣٨٤ ، معجم الأدباء ٢٧٢/١٠ ، وفيات الأعيان ٢١٦/٢ ، البداية والنهاية ٢٣٧/١١ .

(٢) انظر ص ٢٣٩ – ٢٤١ .

(٣) الذخيرة – القسم الرابع ، المجلد الثاني ص ٥١٩ .

(٤) سورة الحجرات ، الآية ١٢

أُحِبُّ المَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ ... لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ ... وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ (١)

التحذير من الخصال الذميمة :

وكما أثنى الفقهاء في أشعارهم على الخصال المحمودة ، ودعوا إلى الاتصاف بها ، فقد ذموا الخصال السيئة ، وحذروا من الوقوع فيها ، وبينوا آثارها السلبية – وقد رأينا جانباً من ذلك فيما سبق– ومن ذلك ذم الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي للمتكبر الذي يتيه عجباً بنفسه ، وهو في الأصل نطفة قذرة ، حيث قال :

تَتِيهُ وَجِسْمُكَ مِنْ نُطْفَةٍ ... وأنْتَ وِعَاءٌ لِمَا تَعْلَمُ (٢)

وتعرض الفقيه منصور أيضاً إلى ذم النفاق واتهم أهله بالجنون ، في قوله :

إنَّ قَوْماً يَأمُرونَا ... بِالَّذِي لا يَفْعَلُونَا
لَمَجَانِينُ وإنْ هُمْ ... لَمْ يَكُونُوا يُصْرَعُونَا (٣)

ومن الخصال القبيحة التي تناولها الفقهاء في أشعارهم بالذم والتقريع ، الحسد وهو خلق ذميم يعمد إليه أصحاب النفوس الضعيفة الملتوية ، الذين انحرفوا عن منهج الإسلام ، الذي يربي أبناءه على الإيثار وحب الخير لجميع الناس .

يقول القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى بن حماد بن داود النهرواني

---

(١) ديوان الأرجاني – طبعة بيروت ص ٣٧١ ، والبيت الأخير من شعر الألغاز الذي يقرأ مقلوباً .
(٢) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته ، وشعره ص١٣٨ .
(٣) المصدر السابق ص ١٤٣ ، وانظر مزيداً من شعره في ذم الرذائل في ص ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٥٣ ، ١٥٩ .

(تـ ٣٩٠هـ) (١) موجهاً حديثه إلى حاسده الذي أساء الأدب مع الله تعالى لأنه لم يرض بما وهبه الله عز وجل من نعم وخيرات :

أَلَا قُلْ لِمَنْ كَانَ لِي حَاسِداً ... أَتَدْرِي على مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبْ ؟
أَسَأْتَ على اللهِ في فِعْلِهِ ... لِأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ
فَجَازَاكَ عَنْهُ بِأَنْ زَادَنِي ... وَسَدَّ عَلَيْكَ وُجُوهَ الطَّلَبْ (٢)

أما الفقيه أبو طالب إبراهيم بن هبة الله بن علي بن عبد الله بن أحمد بن الحسن الدياري (تـ ٥٣٠هـ) (٣) ، فيشفق على حاسديه لما يلاقونه من هم وكرب ، إذ يقول :

إِنِّي لأَذْكُرُ حُسَّادِي فَأَرْحَمُهُمْ ... لِمَا يُلاقُونَ مِنْ هَمٍّ ومِنْ كَرْبِ
أَسْهَرْتُهُمْ يِذْكُرُونِي في كَآبَتِهِمْ ... وَنِمْتُ مِلْءَ جُفُونِي غَيْرَ مُكْتَئِبِ
هَذَا بِمَا رَقَدُوا عَمَّا شَرُفْتُ بِهِ ... لَمَّا سَهِرْتُ لَهُمْ في سَالِفِ الحِقَبِ (٤)

---

(١) كان من أعلم الناس في وقته ، بالفقه والنحو واللغة وأصناف الأدب ، وكان يذهب مذهب محمد بن جرير الطبري في الفقه ، وكان ثقة ، ولي القضاء بباب الطاق نيابة عن القاضي ابن صبر ، وصنف كتاب " الجليس والأنيس " في الأدب ، والتفسير الكبير ، منسوب إلى النهروان وهي بلدة قديمة كانت بالقرب من بغداد ثم خربت ، وقد نال الباحث محمد مرسي الخولي درجة الدكتوراه بالقاهرة برسالته عن المعافى وكتابه " الجليس والأنيس " انظر ترجمته " إنباه الرواه على أنباه النحاة للقفطي ٢٩٦/٣ – ٢٩٧ ، المنتظم ٢١٣/٧ – ٢١٤ ، معجم الأدباء ١٥١/١٩–١٥٢ ، البداية والنهاية ٣٢٨/١١ ، بغية الوعاة ٢٩٣/٢–٢٩٤ ، الأعلام ٢٦٠/٧.

(٢) إنباه الرواة ٢٩٦/٣ ، المنتظم ٢١٤/٧ ، معجم الأدباء ١٥٤/١٩ ولم يذكر فيه البيت الثالث ، البداية والنهاية ٣٢٨/١١ .

(٣) من أهل ديار بكر ، كان فقيهاً نبيهاً عفيفاً ، وكان شاعراً ، انظر ترجمته : خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ٢٦٤/٢ – ٢٦٥ ، الوافي بالوفيات ١٥٧/٦ شعراء بغداد ١٤٧/١–١٤٨ .

(٤) شعراء بغداد ١٤٨/١ .

وفي مجال تنفير الناس من الخمر ، وتحذيرهم من الوقوع في براثن أم الخبائث ، نجد الخطيب الحصكفي يدخل في نقاش مع مدمن مغرم بالخمر ، من أجل أن يحول بينه وبين هذا الداء الخبيث الفتاك ، قال فيه

وخَلِيعٍ بِتُّ أعْذُلُهُ ... وَيَرى عَذْلِي مِنَ العَبَثِ
قُلْتُ : إنَّ الخَمْرَ مُخْبِثَةٌ ... قَالَ : حَاشَاهَا مِنَ الخَبَثِ
قُلْتُ : فالأرْفَاثُ تَتْبَعُهَا ... قَالَ : طِيبُ العَيْشِ في الرَّفَثِ
قُلْتُ : مِنْهَا القَيْءُ قَالَ : أجَلْ ... شَرُفَتْ عَنْ مَخْرَجِ الحَدَثِ (١)
وَسَأجْفُوهَا ، فَقُلْتُ : مَتَى ؟ ... قَالَ : عِنْدَ الكَوْنِ في الجَدَثِ (٢)

ومراد الشاعر من هذا الحوار أن يبين لنا خطورة الإدمان على الخمر ، وتأثيره السيء على النفس ، وقد تعمد أن ينعت مدمن الخمر بالخليع إيحاءً ، للإشارة لما ينتج عن تعاطي الخمر وإدمانه من فساد خلقي ، وهدم للقيم النبيلة ، وقتل لنزعة الخير في النفس .

وبعد ، فإن فقهاء هذا العصر قد عبروا في أشعارهم ، بكل صدق وعفوية ، عن قيم وأخلاق وآداب الإسلام الفاضلة ، التي تسموا بالنفس الإنسانية من أوحال الوضاعة والامتهان ، إلى مراقي العزة والكرامة والشرف ، وكان مصدرهم في ذلك القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

---

(١) في معجم الأدباء : ثم القيء .
(٢) معجم الأدباء ١٩/٢٠ ، وفيات الأعيان ٢٠٦/٦ .

وقد خلفوا في هذا الموضوع نصوصاً كثيرة ، حرصوا أن تكون لغتها سهلة واضحة ، حتى تشيع بين الناس ، تناولوا فيها الكثير من القيم والأخلاق الفاضلة ، بالوصف والثناء بيد أنهم الحوا على خصال معينة ، مثل القناعة والصبر وعزة النفس وعلو الهمة والصدق والكرم والعلم وآداب الصحبة ... ، كما تعرضوا بالذم لبعض الخصال الفاسدة التي وجدت في المجتمع ، مثل الحسد ، والكبر والنفاق ... مع ملاحظة أنهم تعمدوا توجيه الذم إلى غير معين ، وفي هذا دلالة واضحة ، على داريتهم بالمباح والمحظور في هذا المجال .

المبحث الرابع : الحكمة

عرفت الحكمة في الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، إذا كان الشعراء يضمنون أشعارهم وقصائدهم خبرات وتجارب إنسانية عميقة ، عاشوها وانفعلوا بها ، وما تكشف لهم من أسرار الحياة وطبائع الناس[1] ...، لذلك كان شعر الحكمة ، خلاصة الشعر العربى وصفوته ، وهو أكثر أبيات الشعر العربي شهرة وسيرورة وذيوعاً على ألسنة الناس [2] .

وفقهاء هذا العصر مثل غيرهم من الناس كانت لهم تجارب طويلة مع الحياة ، سبروا من خلالها أخلاق الناس وطباعهم ، وعرفوا عن طريقها ما يكمن وراء مظاهر الحياة وأحداثها المتتابعة ، وسجلوا ما أوحت لهم هذه التجارب من آراء في الناس والحياة والزمان .

وترتدى الحكمة عندهم في أغلب الأحيان ثياب النصح والإرشاد ، وقد صيغت في قوالب لفظية سهلة واضحة ، قريبة إلى أفهام عامة الناس،وذلك حرصاً منهم على فاعلية النصح ، وعموم أثره ، فضلاً عن الإبانة التى هى أساس في الإفهام، وانعطاف نفس المتلقي نحو المقول شعراً ونثراً .

وتأتى الحكمة أحياناً مندمجة في موضوعات الشعر وأغراضه ، وهذا اللون من الحكم، ذو فاعلية كبيرة في لفت أنظار المتلقي ، والتأثير عليه.[3]

---

(١) انظر الحكم والأمثال لحنا الفاخورى ص ١٥ وما بعدها .

(٢) انظر كتاب حول الحكمة فى الشعر العربى للدكتور عبدالله أحمد باقازى ص ١٢٧.

(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢٠٦/١، أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٢٨٦-٢٨٧.

ويمكن تقسيم الحكمة عند الفقهاء إلى مجالات عديدة ، على الرغم من صعوبة ذلك في بعض شعرهم ، الذى جاء متضمناً حكماً تندرج تحت أكثر من مجال ، وهذه المجالات هي على النحو التالى :

١- الإنسان

كان للإنسان نصيب في حكم الفقهاء ، التى أخذت طابع الإرشاد ، لما فيه خيره وصلاحه ، وقدموا له من خلالها خلاصة تجاربهم الطويلة، وثقافاتهم المتنوعة.

يقول الفقيه أبو بكر محمد بن داود الأصفهانى الظاهرى في نهاية مقطوعة غزلية، يعاتب فيها الحبيب عتاباً شديداً ، مشيراً إلى أن الإنسان يرضخ – لا محالة – لما يقضيه الله تعالى:

وَمَنْ يُمْنَعِ العَذْبَ الزُّلالَ وَيُمْتَنِعْ ... مِنَ الشُّرْبِ مِنْ سُؤْرِ الكِلَابِ تَغَضُّبَا (١)
خَلِيقٌ إذَا لم يَسْتَطِعْ شُرْبَ غَيْرِهِ ... وخَافَ المَنَايَا أنْ يَذِلَّ فَيَشْرَبَا
إذَا المَرْءُ لَمْ يُقْدَرْ لَهُ مَا يُرِيدُهُ ... أرَادَ الَّذِي يُقْضَى لَهُ شَاءَ أمْ أبَى (٢)

وكتب القاضى أبو محمد عبيدا لله بن أحمد بن معروف ، على ظهر رقعة جاءته، فيها ذكر وضاعته وسقوط أصله ، جامعاً بين الحكمة والنصح والإرشاد ،مبيناً أن الإنسان ليس بنسبه وحسبه ، إنما هو بعقله وعلمه :

العَالِمُ العَاقِلُ ابنُ نَفْسِهِ ... أغْنَاهُ جِنْسُ عِلْمِهِ عَنْ جِنْسِهِ
كُنْ ابنَ مَنْ شِئْتَ وكُنْ كَيِّساً ... فإنَّمَا المَرْءُ بِفَضْلِ كَيْسِهِ (٣)
كَمْ بَيْنَ مَنْ تُكْرِمُهُ لِغَيْرِه ... وبَيْنَ مَنْ تُكْرِمُهُ لِنَفْسِهِ
مَنْ إنَّمَا حَيَاتُهُ لِغَيْرِه ... فَيَوْمُهُ أوْلَى بِهِ مِنْ أمْسِهِ(٤)

---

(١) السور:بقية الشيء ، وجمعه أسآر، وسؤر الفارة وغيرها ، انظر الصحاح ٦٧٥/٢، لسان العرب ٣٣٩/٤.

(٢) أوراق من ديوان محمد بن داود الأصفهانى ص ٣٦

(٣) الكيس : العاقل

(٤) تاريخ بغداد ٣٦٦/١٠.

ويعجب القاضى أبو الفتح أحمد بن مطرف العسقلانى (ت ٤١٣ هـ)(١) من تصرفات الناس الذين تختل عندهم المفاهيم ، فيعكسون الأمور ، فبينما يهدرون أعمارهم جزافاً، تراهم ينفقون أموالهم بالميزان ، حيث يقول :

وَلَا خِلافَ بأنَّ النَّاسَ مُنْذ خُلِقُوا ... فِيمَا يَرُومُونَ مَعْكُوسُو القَوَانِينِ
إذْ يُنْفَقُ العُمْرُ في الدُّنْيَا مُجَازَفَةً ... والمَالُ يُنْفَقُ فِيهَا بالمَوَازِينِ (٢)

أما القاضى عبدالوهاب بن على بن نصر البغدادي المالكي ، فإن نظرته للناس نابعة من الظروف القاسية التى أحاطت به ، من فقر وحاجة ، مما جعلته يفقد الثقة فيمن حوله، فحينما نبت به بغداد ، خرج منها متجهاً إلى مصر ، فتبعه الفقهاء والعلماء والأشراف ، الذين عجزوا عن توفير ما يقيم أوده فيها ، فأمرهم بالانصراف قائلاً:

لَا تَطْلُبَنَّ إلى المَجْبُوبِ أوْلَاداً ... وَلَا السَّرَابَ لِتَسْقِي مِنْهُ وَرَّادًا (٣)
ومَنْ يَرُومُ مِنَ الأنْذَالِ مَكْرُمَةً ... كَمَنْ يُوَتِّدُ في الأَتْبَانِ أوْتَادًا (٤)

ويتخذ الفقيه أبو حكيم إبراهيم بن دينار بن أحمد النهروانى الرزاز (٤٨٠-٥٥٦هـ)(٥) لنفسه أسلوباً حكيما في تعامله مع الناس ، خاصة السفهاء منهم ، حتى لا يجابه بما يكره ، كما بين ذلك بقوله:

---

(١) ولى القضاء بدمياط ، وكان أديبا فاضلاً، وله كتب كثيرة فى الأدب واللغة وغيرهما،وكان له ديوان شعر - ذكر ذلك ياقوت - جمعه على نسختين إحداهما معربه والأخرى مجردة دون الألف ورقة ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ٥/٦٣-٦٤، الوافى بالوفيات ٨/١٨١، بغية الوعاة ١/٣٩١، معجم المولفين ٢/١٨٠.

(٢) معجم الأدباء ٥/٦٤، الوافى بالوفيات ٨/١٨١، بغية الوعاة ١/٣٩١.

(٣) المجبوب : هو من قطعت خصيتاه ،انظر الصحاح ١/٩٦.

(٤) ترتيب المدارك ٤/٦٩٣.

(٥) فقيه بغدادى من فقهاء الحنابلة ، كان زاهداً حكيماً يكسب من عمل يده ، حيث كان يخيط الثياب ، له تصانيف فى الفقه والفرائض منها كتاب "شرح الهداية" انظر ترجمته : الذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٣٩ ، المنهج الأحمد ٢/٢٧٧-٢٧٨ ، شذرات الذهب ٤/١٧٦ ، شعراء بغداد ١/٢٢، الأعلام ١/٣٨.

وإنّـي لأتْـرُكُ عُـورَ الكَـلَامِ لِئـلَّا أُجَـابَ بِمَـا أكْـرَهُ[1]
أصَـمُّ عَـنِ الكَلِـمِ المُحْفِظَـاتِ وأحْلُـمُ والحِلْـمُ بـي أشْـبَهُ
إذَا مَـا أثَـرْتُ سِـفَاه السَّـفِيهِ علـيَّ فـإنِّي أنَـا الأسْـفَهُ
فَكَـمْ مِنْ فَتى يُعْجِـبُ النَّـاظِرينَ لَـهُ ألْسُـنٌ وَلَـهُ أوْجُـهُ
ينَـامُ إذَا حَضَـرَ المَكْرُمَـاتِ وعِنْدَ الدَّنَـاءَةِ يَسْتَنْبِـهُ[2]

٣- الحياة .

نظر الفقهاء إلى الحياة ، فوجدوها زائفة خادعة،فهـي لا تصفـو على حـال ، فحلوهـا مقرون بمرها ، والعاقل من لايغتر بها.

يقول القاضى أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي (٢٣١-٣١٨هـ)[3] مبيناً أن العيب في هذه الحياة يلصق بأهل المعالي ، لكنه يخفي في أهل الدناءة:

رأيْـتُ العَيْـبَ يَلْصَـقُ بالمعَـالِي لُصُـوقَ الحِـبْرِ في لِفْـقِ الثِّيَـابِ[4]
ويَخْفَى في الدَّنِـيءِ فَلَا تَـرَاهُ كَمَا يَخْفَى السَّـوَادُ على الإهَـابِ[5]

---

(١) فى الذيل على طبقات الحنابلة ، شعراء بغداد : وإنى لأذكر غور الكلام .

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة ٢٤٠/١ ، المنهج الأحمد ٢٧٨/٢-٢٧٩، شعراء بغداد٢٣/١ .

(٣) أنبارى الأصل ، ولى قضاء مدينة المنصور عشرين سنة ، كان مفتياً فى علوم شتى منها الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة وأصحابه ، وربما خالفهم فى مسائل عديدة ، وكان شاعراً مكثرا خطيباً حسن الخطابة ، صالح الحظ من الترسل فى الكتابة والبلاغة ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ١٣٨/٢-١٣٩، الوافى بالوفيات ٢٣٥/٦-٢٣٦، بغية الوعاة ٢٩٥/١-٢٩٦ ، الطبقات السنية فى تراجم الحنفية للغزى المصرى الحنفي ٣١١/١-٣١٧، شعراء بغداد ٢٢٤/١-٢٢٦، الأعلام ٩٥/١.

(٤) اللفق بالكسر : شقة من شقتي الملاءة .

(٥) معجم الأدباء ١٥٨/٢، والإهاب : الجلد.

أما الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد البخارى البافي (ت٣٩٨هـ)[١] فيحصر الأسباب التي تؤدى بالإنسان إلى الهلاك ،و تسلمه إلى الأجل في ثلاثةأمور ، هي الغربة والفاقة والهوى ، كما بين ذلك بقوله:

ثلاثَةٌ مَا اجْتَمَعْنَ في رَجُلٍ ... إلاَّ وأسْلَمْنَهُ إلى الأجَلِ
ذُلُّ اغْتِرَابٍ وَفَاقَةٌ وهَوًى ... وَكُلُّهَا سَائِقٌ على عَجَلِ [٢]

ويبين قاضى القضاة الرئيس أبو بشر الفضل بن محمد الجرجانى (ت٤١١هـ)[٣] أن الدنيا محببة إلى نفوس الناس على الرغم مما يكابدونه فيها من هم وغم وعناء ، ومع معرفتهم أن متاعها ممزوج بالهلاك ، إذ يقول :

وَلَمْ تَزَلْ هَذِه الدُّنْيَا مُحَبَّبَةً ... إلى نُفُوسٍ سَقَتْهَا السُّمَّ والعَسَلا [٤]

---

(١) كان من أفقه أهل زمانه ، مع المعرفة التامة بالأدب والنحو ، وكان يقول الشعر الحسن من غير تكلف ، قال عنه الثعالبي :" وإليه الرحلة اليوم ببغداد فى تدريس كتب الشافعى رحمه الله .....وله لسان يستوفي أقسام الفصاحة ويجمع بين العذوبة وحسن العبارة والبراعة ، وشعر يشرف بصاحبه ، ويأخذ من القلب بمجامعه " والبافي نسبة إلى قرية من قرى خوارزم انظر ترجمته : يتيمة الدهر ١٤٢/٣-١٤٣ وجاء فيه لقبه " النامى " بدلاً من البافي تصحيفا ، تاريخ بغداد ١٣٩/١٠-١٤٠ ، إنباه الرواه ١٣٢/٢ ، الوافى بالوفيات ٥٠٠/١٧، طبقات الشافعية الكبرى ٣١٧/٣ ، الأعلام ١٢٠/٤-١٢١.

(٢) تاريخ بغداد ١٤٠/١٠، إنباه الرواه ١٣٢/٢، الوافى بالوفيات ٥٠٠/١٧

(٣) فقيه أديب شاعر ، ولاه الصاحب بن عباد قضاء جرجان ، وحينما عاد الأمير شمس المعالي من خراسان إلى مملكته بعد إنقضاء أيام الصاحب ولاه قضاء قضاته بالإضافة إلى رياسة جرجان ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٥٢/٤-٥٣ ، دمية القصر ٧/٢-٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٠٤/٥.

(٤) دمية القصر ٨/٢ .

٣- الزمان :

تختلف نظرة الفقهاء إلى االزمان ، عن غيرهم من الشعراء ، الذين رأوا فيه عدواً جائراً، فصبوا عليه غضبهم (١) بينما رأى الفقهاء فيه عمراً يمضي ولا يؤب ، ويحمل في طياته عبراً وعظات (٢).

فهذا القاضى أبو بكر أحمد بن كامل بن شجرة يذكر أن صروف الزمان ، تكشف قبح أفعال البشر ، حيث قال :

صَرْفُ الزَّمَانِ تَنَقُّلُ الأيَّامِ ... والمَرْءُ بَيْنَ مُحَلَّلٍ وحَرَامِ
وإذَا تَقَشَّعَتِ الأُمُورُ تَكَشَّفَتْ ... عَنْ فَضْلِ أيَّامٍ وقُبْحِ أنَامِ (٣)

ويرى الشيخ أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الإسفراييني (٣٤٤-٤٠٦هـ)(٤) وجوب استغلال الأوقات لفعل الحمد ، لأنه يبقى على مدى الدهر ، إذ يقول :

لا يَغْلُوَنَّ عَلَيْكَ الحَمْدُ في ثَمَنٍ ... فَلَيْسَ حَمْدٌ وإنْ أثْمَنْتَ بِالْغَالِي
الحَمْدُ يَبْقَى على الأيَّامِ مَابَقِيَتْ ... والدَّهْرُ يَذْهَبُ بالأحْوَالِ والمَالِ (٥)

أما الفقيه أبو حكيم ابراهيم بن دينار بن أحمد النهرواني الرزاز ، فقد أعرب عن عدم سخطه وتبرمه من الدهر ، على الرغم مما فيه ، من ضيق وبلاء وهوان ، لأنه أتاح له معرفة الإخوان كما أوضح ذلك في قوله :

---

(١) انظر الحكم والأمثال لحنا الفاخورى ص ٥١.

(٢) انظر بيتي الخطيب البغدادي فى الحديث عن ذم الدنيا والتحذير منها فى مبحث الزهد .

(٣) معجم الأدباء ١٠٦/٤.

(٤) أحد أعلام الشافعية ، إنتهت إليه رياسة الدين والدنيا ببغداد ، ولد بأسفرايين وهى بلدة بخراسان بنواحى نيسابور ، ثم قدم إلى بغداد شاباً ، فتفقه فيها حتى عظمت مكانته فكان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثمائة فقيه ، وصنف كتباً عديدة ، وكانت وفاته ببغداد، انظر ترجمته : طبقات الفقهاء ص ١٢٣ ، وهو فيها "أحمد بن أبى طاهر " وفيات الأعيان ٧٢/١-٧٤، الوافى بالوفيات ٣٥٧/٧-٣٥٨، طبقات الشافعية الكبرى ٦١/٤- ٦٣ ، الأعلام ٢١١/١

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٦٥/٤.

يَـادَهْرُ إنْ جَـارَتْ صُروفُـكَ واعْتَـدَتْ وَرَمَيْتَـنِي في ضِيْقَـةٍ وهَـوَانِ
أنِّي أكـونُ عليكَ يَوْمـاً سَاخِطـاً وَقَدْ اسْتَفَدْتُ مَعَارِفَ الإخْوانِ(1)

٤- المال :

تفاوتت نظرة الفقهاء إلى المال وتنوعت ، إذ كان كل واحد منهم ينظر إليه من واقع خبرته وتجربته الذاتية ، لكنهم كانوا مجمعين على أهميته بالنسبة للإنسان . فهذا الفقيه الأديب أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي (٢٤٠-٣٢٣هـ)(2) يجعل من الثراء بالمال مصدر كل فخر ، حيث يقول في الأبيات التالية التى ضمنها حكماً متنوعة ، ومزج فيها الحكمة بالنصيحة :

وَمَا المَوْتُ قَبْلَ المَوْتِ غَيْرَ أنَّنِي أُرَى ضَرِعاً بالعُسْرِ يَوْمًا لِـذِي اليُسْرِ (3)
فَدَعْ قَوْلَهُمْ لَيْسَ الثَّرَاءُ مِنَ العُلَا فَمَـا الفَخْـرُ إلاَّ أنْ يُقَـالَ هُـوَ المُـثْرِي
إذَا أنْتَ لَمْ تَبْلُ الصَّدِيقَ فَلَا تَكُنْ لَـهُ آمِنـاً فِيمَـا يُجِـنُّ مِـنَ الأمْـرِ (4)
فإنْ سَتَرَتْ حَالُ إمرِئٍ لُوْمَ أصْلِهِ أبَى اللُّؤْمُ إلاَّ أنْ يَبِينَ مَـعَ السَّتْـرِ (5)

ولا نتفق مع نظرة هذا الفقيه التى تتسم بطابع المادية المفرطة ، ولا سيما في قوله :" الثراء من العلا " لأن المال لا يعدو أن يكون وسيلة ، يمكن أن ترفع من شأن صاحبها، إذا أحسن استخدامها ، ويمكن أن تكون نقمة ، تهوى به إلى الحضيض في

---

(1) المنهج الأحمد ٢٧٨/٢، وانظر حديث الشريف المرتضى عن الزمان فى ديوانه ١٣٦/٣، ٢٨٩.
(2) فقيه شافعى ، كان شاعراً أديباً ناقداً للشعر ، كثير الرواية ، له عدة مصنفات فى الفقه ، وأخرى فى الأدب، منها كتاب" الباهر فى أشعار المحدثين" نفى من بلده الموصل بعد أن ادعى عليه جماعة بكل قبيح فانحدر هارباً إلى مدينة السلام ومدح الخليفة المعتضد يشكو فيها ما ناله من ظلم ، يصف ما يحسنه من علوم ، انظر ترجمته ، معجم الأدباء ١٩٠/٧-١٩٤، الوافى بالوفيات ١٣٨/١١، معجم المؤلفين١٤٧/٣.
(3) ضرعاً أى ذليلاً
(4) تبل : أى تختبره وتمتحنه ، يجن : أى يخفى ويسير .
(5) معجم الأدباء ٢٠٠/٧-٢٠١.

حالة إساءته التصرف . ونلاحظ تأثر هذا الفقيه في قوله :" فإن سترت حال إمرئ ..." بقول الشاعر الجاهلي المعروف زهير بن أبى سلمى :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ اِمرئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وإنْ خَالَهَا تَخْفَى على النَّاسِ تُعْلَمِ [1]

لكن الفقيه جاء باللؤم مع الستر ، ووجهة المعنى في البيتين واحدة.

وقريب من نظرة الفقيه أبى القاسم الموصلى للمال ، ما جاء في بيتى الشريف المرتضى ، من أن صاحب الجاه والمال معذور من الناس ، وإن تعمد الإساءة ،في حين أن الذى لا يحالفه السعد في الحياة ملام وإن أحسن ، إذ يقول فيهما :

كُلُّ اِمْرِئٍ نَالَهُ جَدٌّ فَأسْعَدَهُ وإنْ أَسَاءَ إلى الأقْوَامِ مَعْذُورُ
وَيْلُ أُمِّ مَنْ في الوَرَى أَكْدَتْ مَطَالِبُهُ[2] فإنَّهُ بِسَحَابِ اللَّوْمِ مَمْطُورُ [3]

وبمقارنة هذا القول مع قول الفقيه أبي القاسم الموصلى السابق ،نجد أن كلام الشريف المرتضى أكثر دقة ، وأعمق دلالة وأحسن تعليلا.

فإذا ما انتقلنا إلى الفقيه أبى عثمان حمارتاش بن عبدا لله التركى الهيتى (ت ٦٢٠هـ)[4] نجده يوجه أنظار الناس إلى أهمية المال ، حتى وصل به الأمر إلى المبالغة في شأنه ، حيث زعم بأن الذين صنفوا العلوم إنما كان غرضهم تحصيل المال ، حيث يقول :

المَالُ أفْضَلُ مَا ادَّخَرْتَ فَلا تَكُنْ في مِرْيَةٍ مَا عِشْتَ في تَفْضِيلِهِ
مَا صَنَّفَ النَّاسُ العُلُومَ بأسْرِهَا إلاَّ لِحِيلَتِهِمْ على تَحْصِيلِهِ [5]

---

(١) شعر زهير بن أبى سلمى ، صنعة الأعلم الشنتمرى ص ٢٨.
(٢) أكدت مطالبه : فشلت وقل خيرها .
(٣) ديوان الشريف المرتضى ٢/٢٧-٢٨.
(٤) قدم إلى بغداد هارباً من مصادرة والى هيت له ، واستجار بوالدة الخليفة الناصر فعينته فقيهاً فى مدرستها ، صنف كتاباً سماه " الخمر وصفاتها " رحل إلى دمشق ومدح الأشرف موسى بقصيدة غزلها فى الخمر فلما أنشدها إياه قال له : يا فقيه ، تقول بها ؟ فاعتذر إليه بأنه ماشبب بأنثى ، فأعجب به وجعله من ندمائه ، انظر الوافى بالوفيات ١٣/٤١٩.
(٥) الوافى بالوفيات ١٣/٤٢٠.

ويرد عليه بأن العلم لله يغلب العلم للدنيا ، إذا أخلص الإنسان في تحصيله وصدق في طلبه ، وهذا حجة الإسلام الإمام أبوحامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسى(٤٥٠-٥٠٥هـ)[1] يحكي قصة طلبه العلم مع أخيه الفقيه أحمد الذى سبقت ترجمته فيقول " طلبنا العلم لغير ا لله تعالى فأبى أن يكون إلا لله"[2] على أنه لا بأس أن ينتفع الإنسان بالمال في إصلاح شأن دنياه ، لأنه وسيلة ، بل وسيلة عالية الشرف .

أما الفقيه أبو الخير محمد بن عبدا لله الضرير المروزي (ت٤٢٣هـ)[3] فإن نظرته للمال مغايرة لما سبق أن رأيناه ، فهو يرى أن المال والعقل لا يجتمعان أبداً ، كما جاء في قوله:

تَنَافَى المَالُ والعَقْلُ ... فَمَا بَيْنَهُمَا شَكْلُ
هُمَا كَالوَرْدِ والسِّنَّوْ ... جِسِ لا يَحْوِيهِمَا فَصْلُ
فَعَقْلٌ حَيْثُ لا مَالٌ ... ومَالٌ حَيْثُ لاعَقْلُ[4]

وهذه نظرة قاصرة لعلاقة المال بالعقل ، قد يكون مصدرها ظروف معينة في حياة هذا الفقيه ، جعلته يميل إلى هذه الرؤية ، بيد أن الواقع يخالفها ، لأنها إن صحت في شخص أو شخصين فإنها لا تصح حتما في معظم الناس .

---

(١) العالم والفقيه الشافعي الشهير ، صاحب المصنفات السائرة ، وعلى رأسها " إحياء علوم الدين " وتهافت الفلاسفة "والمنقذ من الضلال " لم يكن للمنهب الشافعي في آخر عصره مثله، عمل فترة من الزمن مدرساً فى المدرسة النظامية ، مولده ووفاته بطابران وهى بلدة من نواحي طوس بخراسان انظر ترجمته : المنتظم ١٦٨/٩ ، وفيات الأعيان ٢١٦/٤-٢١٩، طبقات الشافعية الكبرى ١٩١/٦، شذرات الذهب ١٠/٤، الأعلام ٢٢/٧.

(٢) انظر طبقات الشافعية الكبرى ١٩٤/٦.

(٣) برع فى الفقه واشتهر فى النحو والأدب وصنف فيها ، ويعد أحد أئمة الشافعية ، ومعروف عندهم بالمسعودى، وشرحه على مختصر المازنى عمدة في المذهب قال السمعاني فى كتاب مرو : كان من أصحاب الرأى ، فصار من أصحاب الحديث بصحبة الإمام أبى بكر القفال . انظر ترجمته : معجم الأدباء ٢١٣/١٨-٢١٤، الوافي بالوفيات ٣٢٨/٣ ، بغية الوعاه ١٤٩/١ ، معجم المؤلفين ٢٤٨/١٠.

(٤) معجم الأدباء ٢١٤/١٨، الوافى بالوفيات ٣٢٩/٣ وفيه تقديم العقل على المال فى البيت الأول ، بغية الوعاة ١٤٩/١.

ويتضح لنا مما سبق ، أن حكم الفقهاء كانت ثمرة لفهمهم للقرآن الكريم ، والسنه النبوية المطهرة ، وكذلك تراث الشعر العربى ، بالإضافة إلى تجاربهم وخبراتهم الذاتية في الحياة، وقد جاءت معظم حكمهم ممزوجة بالنصح والإرشاد ، في ثنايا الأغراض الشعرية المختلفة ، لذلك لم نجد عندهم أشعاراً مفردة للحكمة ، ويلاحظ أن معظم حكمهم كانت تتسم بالسطحية تفتقر إلى العمق والجدة .

أما عن أغلب المجالات التى تناولها الفقهاء فكانت الإنسان والحياة الدنيا وقل حديثهم عن الزمان ، ولعل السبب يعود إلى أن الزمان ربما كان بحاجة إلى رؤية فلسفية أكثر منها فقهية .

ومما تميز به الفقهاء في هذا المجال ، أن كثيراً من حكمهم كانت مرتبطة بواقعهم ، صادرة عن مواقف وقعت لهم ، ولم تكن نمطية تعليمية .

الفصل الثاني

الأغراض التقليدية

المبحث الأول : المدح

المبحث الثاني : الفخر

المبحث الثالث : الرثاء

المبحث الرابع : الهجاء والنقد الاجتماعي

المبحث الخامس : الإخوانيات

المبحث السادس : الغزل

المبحث السابع : الوصف

المبحث الأول : المدح

يعد المدح من أبرز أغراض الشعر العربي ، في مختلف عصوره ، فهو فن الثناء والإكبار والاحترام الذي يعني بإبراز صفات الممدوح المادية والمعنوية ، وهو ضرورة فرضها على أرض الواقع اعجاب الشعراء بالممدوحين ، أو حاجتهم إلى من يكفل هم هناء العيش ورغده ، وأيضاً حاجة الممدوحين لمن يخلد ذكراهم ، وكم خلد الشعر أناساً فطغت شهرتهم على من هم أحق منهم بالذكر .[1]

وقد كان لفقهاء العصر العباسي الثاني ، اسهامات في مجال المدح ، على الرغم من أن دافع الكثير منهم في ذلك لم يكن التكسب بالشعر ، وإنما كان معظم مدحهم تقديراً وإعجاباً وإكباراً للممدوح ، كما اتخذ بعضهم المدح ذريعة لإيصال الشكوى .

وقد خاض الفقهاء في معظم ميادين المدح ، حيث مدحوا الرسول الكريم صلى ا لله عليه وسلم وآل بيته الأطهار ، وصحابته الكرام ، رضوان ا لله عليهم جميعاً ، والخلفاء والوزراء ، والعلماء والفقهاء ، وأهل التقى والصلاح ...

وقد قامت معاني المديح عند فقهاء هذا العصر على القيم والمثل الأخلاقية ، التي حث عليها الإسلام من كرم وعدل وشجاعة وحزم وفضل ورجاحة عقل ...[2] وفي مجال مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، اندفع العديد من الفقهاء إلى إنشاء المدائح النبوية ، يدفعهم إلى ذلك حبهم للمصطفى صلى ا لله عليه وسلم ، والثناء عليه والافتخار به ، وكان من أبرزهم الفقيه الشاعر العالم أبو زكريا جمال الدين يحيى بن

---

(١) انظر كتاب المديح لسامي الدهان ص٥ وما بعدها ، أسس النقد الأدبي عند العرب ص ١٧٧- ١٨٠ .

(٢) حصر قدامة بن جعفر معاني المديح في أربع فضائل فقط ، وهي : العقل والشجاعة والعدل والعفة ، انظر نقد الشعر ص٩٦ .

يوسف بن يحيى الأنصاري الصرصري (٥٨٨ – ٦٥٦هـ) [١] الذي قيل إن مدائحه في النبي صلى ا لله عليه وسلم بلغت عشرين مجلداً ، [٢] ولا يزال ديوان شعره مخطوطاً[٣] ، ومن نماذج شعره في مدحه صلى ا لله عليه وسلم ، قوله معبراً عن محبته له، وافتخاره به ، ومثنياً على صفاته العظيمة :

سَيِّدٌ حُبُّهُ فَخَارٌ وَتَشْرِيـ ـفٌ وعِزٌّ بَاقٍ لأَهْلِ الصَّفَاءِ
أَحْمَدُ المُصْطَفَى السِّرَاجُ المُنِيرُ الـ ـخَيْرُ ، خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ [٤]

وقال مصوراً جمال خلقه وكرم أخلاقه ، وجمعه لكل المحاسن والأوصاف :

وَيَهَابُهُ مَنْ قَدْ رَآهُ بَدِيهَةً وَيُحِبُّهُ مُسْتَأْنِسُ الخُلَطَاءِ
جَمَعَ المَحَاسِنَ فهو أَحْسَنُ مَنْ مَشَى خُلُقاً وخَلْقاً سَيِّدُ البَطْحَاءِ
لا يَنْتَهِي الرَّاوِي إلى أَوْصَافِهِ وَيَحَارُ عُجْباً في حُلاَهُ الرَّائِي [٥]

ويلاحظ أن الصرصري يصدر في مدائحه النبوية عن محبة للرسول صلى ا لله عليه وسلم، شغفت قلبه ، وملكت عليه نفسه ، حتى غدا شعره مطبوعاً بطابعها [٦] .

---

(١) فقيه أديب لغوي شاعر ، من أهل صرصر بالقرب من بغداد ، كان ضريراً يسكن بغداد ، له منظومات كثيرة في الفقه وأصول السنة والمدائح النبوية ، والتصوف . قتله التتار حينما دخلوا بغداد ، وقيل إنه قتل أحدهم بعكازه قبل أن يقتلوه ، انظر ترجمته : الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٢٦٢ – ٢٦٣ ، البداية والنهاية ١٣/٢١١ ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ٢/٧٨٢-٧٨٣ ، النجوم الزاهرة ٧/٦٦ ، الأعلام ٨/١٧٧ .

(٢) انظر الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٢٦٣ .

(٣) توجد نسختان مصورتان للديوان المخطوط ، في مركز إحياء التراث الإسلامي بمعهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى برقم (١٠٠) و (١٠١) وهناك نسخة ثالثة في قسم المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة أم القرى أيضاً ، برقم (١٩٥٦) وهي النسخة التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة .

(٤) ديوان الصرصري المخطوط ، الورقة (١٠) وفي عجز البيت الثاني سقط واضح في المخطوط مما أدى إلى انكسار الوزن .

(٥) المصدر السابق ، الورقة (٦) .

(٦) انظر عصر الدول والإمارات للدكتور شوقي ضيف ص ٤١٥ .

ومن نظم في المدائح النبوية أيضاً قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن خلف العلامي المصري الشافعي المعروف بابن بنت الأعز (ت ٦٩٥هـ) [١] الذي نظم قصيدة دالية في مدح الرسول صلى ا لله عليه وسلم . ومنها قوله :

النَّاسُ بَيْنَ مُرَجِّزٍ ومُقَصِّدِ ... ومُطَوِّلٍ في مَدْحِهِ ومُجَوِّدِ
ومُخَبِّرٍ عَمَّنْ رَوَى ومُعَبِّرٍ ... عَنْ مَا رَآهُ مِنَ العُلى والسُّؤدَدِ

وفيها يقول عن خصائصه وصفاته النفسية والخلقية ، وما حباه ا لله تعالى من نور متوقد:

مَا في قُوَى الأذْهَانِ حَصْرُ صِفَاتِكَ الـ ... ـعُلْيَا ومَالكَ مِنْ كَرِيمِ المَحْتِدِ
وَتفَاوَتَ المُدَّاحُ فِيكَ بِقَدْرِ مَا ... بَصُرُوا بِهِ مِنْ نُورِكَ المُتَوَقِّدِ [٢]

وتتسم مدائح فقهاء هذا العصر للرسول صلى ا لله عليه وسلم ، بصورة عامة ، بسمو العاطفة وصدقها ، وبشدة حرارة الوجدان ، بيد أنها لا تخرج في معانيها وصورها عن مدائح السابقين ، بدءً من كعب بن زهير رضي ا لله عنه [٣] .

وفي مجال مدح آل البيت والصحابة رضي ا لله عنهم ، نظم الخطيب الحصكفي قصيدة في حب آل بيت المصطفى صلىا لله عليه وسلم ، ومدحهم ، بين فيها مدى حبه وتعلقه الشديد بهم ، حيث قال :

---

(١) فقيه نحوي أديب ، جمع بين القضاء والوزارة بمصر ، وكان من أحسن القضاة سيرة ، ثم استعفى وتولى التدريس بالمدرسة المجاورة لقبر الإمام الشافعي رحمه ا لله . وكانت وفاته بالقاهرة ، انظر ترجمته : فوات الوفيات ٢/٢٧٩-٢٨٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٧٢-١٧٥ ، البداية والنهاية ١٣/٣٤٦ ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ١/٤٠١ ، النجوم الزاهرة ٨/٨٢ ، الأعلام ٣/٣١٥ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٧٣-١٨٤ ، وانظر فوات الوفيات ٢/٢٨٠ .

(٣) انظر المدائح النبوية في الأدب العربي لزكي مبارك ص ٢١ ، وما بعدها ، كتاب المديح لسامي الدهان ٧١-٧٩ .

وَسَائِلي عَنْ حُبِّ أهْلِ البَيْتِ هَلْ ... أُقِرُّ إعْلاناً بِهِ أمْ أجْحَدُ ؟
هَيْهَاتَ مَمْزُوجٌ بِلَحْمِي ودَمِي ... حُبُّهُمْ وهُو الهُدَى والرَّشَدُ

وتحدث فيها عن صلاحهم وتقواهم وفضلهم ، فقال :

هُمْ في النَّهَارِ صُوَّمٌ لِرَبِّهِمْ ... وفي الدَّيَاجِي رُكَّعٌ وسُجَّدْ
قَوْمٌ أتَى في " هَلْ أتَى " مَدْحُهُمْ ... مَاشَكَّ في ذَلِكَ إلاَّ مُلْحِدُ
قَوْمٌ لَهُمْ فَضْلٌ ومَجْدٌ بَاذِخٌ ... يَعْرِفُهُ المُشْرِكُ والمُوَحِّدُ (١)

وكما هو واضح فإن هذه الأبيات متأثرة بشعر الكميت بن زيد الأسدي (٦٠-١٢٦هـ) (٢) وشعر الخوارج والشيعة (٣) ، بيد أن هذا الفقيه أشار في نهاية قصيدته إلى أنه ليس رافضياً أو خارجياً يحب آل البيت ، ويبغض الصحابة ، فهو يحب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حباً يليق بمنزلتهم من رسول الله عليه الصلاة السلام ، وكذلك بجهادهم العظيم ، من أجل إعلاء كلمة الله ، ونشر الإسلام في أصقاع الأرض ، ويقر بأن الخلفاء الراشدين هم أفضل الخلق ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول :

(١) المنتظم ١٠/١٨٥-١٨٦ وفيه : يعرفه المشرك ثم الملحد ، البداية والنهاية ١٢/٢٣٩ .

(٢) من أهل الكوفة ، كان شاعرا لهاشميين ، اشتهر في العصر الأموي ، وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها ، ثقة في علمه ، منحازاً إلى بني هاشم ، وكان خطيباً فارساً شجاعاً ، انظر ترجمته : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٥٨١ ، وفيات الأعيان ٥/٢١٩-٢٢٠ ، الأعلام ٥/٢٣٣ ، معجم المولفين ٨/١٤٧ .

(٣) انظر شرح هاشميات الكميت بتفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي ص ٥٥ - ٥٦ ، التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص٤٩ .

وَلَسْتُ أهْوَاكُمْ بِبُغْضِ غَيْرِكُمْ | إنِّي إذاً أشْقَى بِكُمْ لا أسْعَدُ
فَلاَ يَظُنُّ رَافِضِيٌّ أنَّنِي | وافَقْتُهُ أوْ خَارِجيٌّ مُفْسِدُ
مُحَمَّدٌ والخُلَفَاءُ بَعْدَهُ | أفْضَلُ خَلْقِ اللهِ فِيمَا أجِدُ
هُمْ أسَّسُوا قَواعِدَ الدِّينِ لنَا | وهُمْ بَنَوا أرْكَانَهُ وشَيَّدوا
ومَنْ يَخُنْ أحْمَدَ في أصْحَابِهِ | فَخَصْمُهُ يَوْمَ المَعَادِ أحْمَدُ (١)

كما تحدث الفقيه الصرصري في معرض مدحه للصحابة أيضاً ، رضوان الله عليهم ، عن فضلهم وعلمهم وفقههم ، فقال :

هُمْ خُلَفَاءُ الأنْبِيَاءِ وإنَّهُمْ | لَأعْيَانُ أهْلِ النَّقْلِ والفُقَهَاءِ
هُمُ العُرْوَةُ الوُثْقَى وإنَّ اخْتِلافَهُمْ | لَلُطْفٌ مِنَ الرَّحْمنِ لِلضُّعَفَاءِ (٢)

فإذا ما انتقلنا إلى مدح الخلفاء ، نجد لكثير من الفقهاء أشعاراً في مدحهم ، فقد رأوا فيهم حماة للإسلام ، دعاة إلى الحق ، يسوسون الرعية بالعدل والإحسان ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وهم من آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين يحتذون حذوه ويهتدون بهديه ، بالإضافة إلى ما تميزوا به من خصال حميدة مثل الكرم والشجاعة ...

يقول الفقيه الأديب أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ، من قصيدة طويلة في مدح الخليفة المعتضد بالله (٢٤٢ - ٢٨٩) (٣) يشكو إليه فيها ، ما ناله من ظلم ، راجيا أن ينصفه :

(١) المنتظم ١٨٦/١٠ ، البداية والنهاية ٢٣٩/١٢ - ٢٤٠ .
(٢) ديوان الصرصري المخطوط ، الورقة (٤) .
(٣) أبو العباس أحمد بن طلحة بن جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، بويع بالخلافة بعد عمه المعتمد سنه (٢٧٩هـ) ، فأزال الظلم وأقام العدل ، وبذل المال وأصلح الحال ، وجالس العلماء وأهل الفضل ، وكان شجاعاً مهاباً ، أعاد للخلافة العباسية هيبتها ، انظر ترجمته : الكامل ٧٣/٦ ، الجوهر الثمين ص ١٣٠ - ١٣٣ النجوم الزاهرة ١٢٦/٣ - ١٢٧ ، شذرات الذهب ١٩٩/٢ ، الأعلام ١٤٠/١ .

وَلي في أمِيرِ المُؤْمِنِينَ مَدَائِحٌ ... مَلأْتُ بِهَا الآفَاقَ حُسْنَ ثَنَائِيَا
وأمّتْ بِي الآمَالُ لا طَالِباً جَدًى ... ولا شَاكِياً إنْفَاضَ حَالِي وَمَالِيَا (١)
ولكِنَّنِي أشْكُو عَدُوًّا مُسَلَّطاً ... علَيَّ عَدَانِي بَغْيُهُ عَنْ مَجَالِيَا
أيَا ابْنَ الوُلاةِ الوَارِثِينَ مُحَمَّداً ... خِلافَتَهُ دُونَ المَوَالِي مَوَالِيَا (٢)
إذَا مَا اعْتَزَمْتَ الأمْرَ أبْرَمْتَ فَتْلَهُ ... وَلَمْ تَكُ عَنْ إمْضَائِكَ العَزْمَ وَانِيَا
فَلاتَكُ لِلْمَظْلُومِ نَادَاكَ في الدُّجَى ... لِغُرْبَتِهِ والدَّفْعِ للظُّلْمِ نَاسِيَا (٣)

ونرى في الأبيات السابقة ، كيف اتخذ الشاعر المدح وسيلة لإيصال شكواه إلى الخليفة، وكيف استطاع أن يستحثه على دفع الظلم عنه ، بتذكيره بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى غدا أهلاً للخلافة ، وكذلك بذكر بعض صفاته النفسية ، من حزم وقوة عزيمة .

ومدح القاضي ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني ، الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤) بقصيدة طويلة ، ومنها قوله عن سخائه :

وأعْطَتْ زَكَاةَ النَّدَى كَفُّهُ ... فَنَالَتْ يَدُ البَحْرِ مِنْهَا الغِنَى
وأُقْسِمُ : مَا مِثْلُهُ في السَّخَاءِ ... إلاَّ زَمانٌ بِهِ قَدْ سَخَا (٥)

ويقول في نفس القصيدة مادحاً الخليفه بنسبه الذي يتصل بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، الذي كانت له السقاية :

---

(١) الجدى : العطاء ، انفاض حالي وماليا : أي ذهاب مالي وسوء حالي .
(٢) موالي الأولى : العبد والخادم ، وموالي الثانية : القريب وابن العم .
(٣) معجم الأدباء ٧/١٩٦-١٩٧ ، وانظر الأبيات مع بعض الاختلاف في الوافي بالوفيات ١١/١٣٩ .
(٤) سبقت ترجمته في التمهيد .
(٥) ديوان الأرجاني ١/٧٧ .

إليكَ ابنَ ساقي الحَجيجِ الَّذي بِهِ اللهُ لِلْخَلْقِ طُرًّا سَقَى
دَعَانِي الوَلاءُ ، ومَازِلْتُ مِنْهُ مُسْتَمْسِكاً بِوَثِيقِ العُرَا (1)

ومدح القاضي الأرجاني أيضاً الخليفة المسترشد بالله (2) ، الذي كان ترتيبه التاسع والعشرين من بين خلفاء بني العباس (3) ، فقال في ذلك .

خَلائِفُ نُظِمُوا في سِلْكِ دَهْرِهِمْ ونُورُ وَجْهِكَ مِنْهُمْ في المُتُونِ سَرَى

إلى أن يقول :

عِشْرُونَ تَتْبَعُهَا مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ كانُوا المَنَازِلَ والمسترشِدُ القَمَرَا (4)

والشاعر ضمن البيت الأخير معنى قول الله تعالى : ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ..﴾ (5) وهو يريد أن يقول إن المسترشد غلب بفضله سائر الخلفاء من قبله ، فهو بينهم مثل القمر ، الذي ينتقل في منازله الثمانية والعشرين ، حتى يستدل به على مضى الشهور(6) ، وهذا أمر مبالغ فيه ، وما سير الخلفاء السابقين بغائبة عنا !!! ويبدو أن الذي حمله على هذه المبالغة ، هو ما وجده من توافق بين عدد الخلفاء السابقين للمسترشد ، وعدد منازل القمر !!

ومدح الفقهاء أيضاً الوزراء والرؤساء ، ولا سيما الذين كانت تربطهم بهم علاقات الصداقة والمودة ، حيث أشادوا بهم ، وأثنوا على فعالهم وفضائلهم الكثيرة ،

---

(1) المصدر السابق ٨٢/١ .
(2) سبقت ترجمته في التمهيد .
(3) وللقاضي الأرجاني قصيدة أخرى، عدد فيها خلفاء بني العباس إلى عهده ، انظر الديوان ٥٧٣/٢ - ٥٧٧.
(4) المصدر السابق ٥٧٧/٢ .
(5) سورة يسن ، الآية (٣٩) .
(6) انظر أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري ٣٧٧/٤ - ٣٧٨ .

فمن ذلك مدح القاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، للوزير أبى محمد الحسن بن محمد بن عبد الله المهلبي، إذ كتب إليه الأبيات التالية لما استوزر مهنئاً ومادحاً :

الآنَ حِينَ تَعَاطَى القَوْسَ بَارِيهَا ... وأبْصَرَ السَّمْتَ في الظَّلْمَاءِ سَارِيهَا [1]

الآنَ عَادَ إلى الدُّنْيَا مُهَلَّبُهَا ... سَيْفُ الخِلافَةِ بَلْ مِصْبَاحُ دَاجِيهَا

أضْحَى الوَزَارَةُ تُزْهَى في مَوَاكِبِهَا ... زَهْوَ الرِّيَاضِ إذَا جَادَتْ غَوَادِيهَا [2]

تَاهَتْ عَلَيْنَا بِمَيْمُونٍ نَقِيبَتُهُ ... قَلَّتْ لِمِقْدَارِهِ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا [3]

مُوَفَّقُ الرَّأيِ مَقْرُونٌ بِغُرَّتِهِ ... نَجْمُ السَّعَادَةِ يَرْعَاهَا ويَحْمِيهَا

مُعِزُّ دَوْلَتِهَا هُنِّئْتَهَا فَلَقَدْ ... أيَّدْتَهَا بِوَثِيقٍ مِنْ رَوَاسِيهَا [4]

وهذه الأبيات على الرغم من جودة سبكها، وجزالة ألفاظها، فإنها لا تدل على شخصية الفقيه، إذ إن الصفات التي مدح بها الممدوح، مثل : سيف الخلافة، وميمون النقيبة، وموفق الرأي، ونجم السعادة .. هي صفات عامه، وليس فيها ما يميز الفقيه الشاعر عن غيره من الشعراء، فهو لم يعطف هذه الصفات إلى القيم الأخلاقية التي هي أقرب إلى رؤيته الفكرية .

ومدح القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، الصاحب بن عباد، بشعر كثير أبرز فيه صفاته النفسية، ومن ذلك رسوخ قدمه في مجال الأدب، وابتكاره للمعاني التي لم يسبق إليها، وكيف أن الألفاظ تأتلف حول معانيه، كما جاء في قوله :

---

(١) تعاطي القوس باريها : عاد الأمر إلى نصابه، السمت : الطريق والحجة .

(٢) غواديها : جمع غادية وهي السحابة تنشأ غدوة أو مطر الغداة .

(٣) ميمون النقيبة : أي مبارك النفس .

(٤) معجم الأدباء ٩/٦-٧، والرواسي : الجبال الرواسخ، والخطاب هنا لمعز الدولة الذي ولى المهلبي الوزارة.

وَلَا ذَنْبَ لِلأَفْكَارِ أَنْتَ تَرَكْتَهَا إِذَا احْتَشَدَتْ لَمْ تَنْتَفِعْ بِاحْتِشَادِهَا
سَبَقْتَ لأَفْرَادِ المَعَانِي وأَلَّفَتْ خَوَاطِرُكَ الأَلْفَاظَ بَعْدَ شِرَادِهَا
فإِنْ نَحْنُ حَاوَلْنَا اخْتِرَاعَ بَدِيعَةٍ حَصَلْنَا على مَسْرُوقِهَا ومُعَادِهَا (١)

وقال أيضاً عن سخائه وبذله للمال – دون منة – حتى لا يكاد يبقى لنفسه شيئاً :

فَتىً كَيْفَ مَا مِلْنَا رأَيْنَا لَهُ يَداً بَعِيدَةَ رَمْي الشُّكْرِ مَطْلَبُهَا سَهْلُ
خَفِيفٌ على الأَعْيَانِ مَحْمَلُ مَنِّهَا ولكنْ على الأَفْكَارِ مِنْ عَدِّهَا ثِقَلُ
وَوَا للهِ ما أَفْضَى مِنَ المَالِ مَا نَشَا (٢) إلى كَفِّهِ إِلاَّ العَنَانُ أَوْ النَّصْلُ (٣)

وكان للوزير نظام الملك (٤٠٨ – ٤٨٥) (٤) نصيب من مدح الفقهاء ، نظير ما قام به من أمور جليلة ، وجهود عظيمة في ترسيخ العدل ، وإنشاء دور العلم ، وتعظيم العلماء ، فعن عدله ونصرته للمظلوم يقول الفقيه أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري :

بِجَاهِكَ أَدْرَكَ المَظْلُومُ ثَارَهْ وَيُمْنِكَ شَادَ بَانِي العَدْلِ دَارَهْ (٥)
وَقَبْلَكَ هُنِّئَ الوُزَرَاءُ حَتَّى نَهَضْتَ بِهَا فَهُنِّئَتِ الوَزَارَهْ (٦)

(١) يتيمة الدهر ١٩/٤ ، معجم الأدباء ٣١/١٤ ، وفيات الأعيان ٢٨٠/٣ .
(٢) مانشا : ما رجع وامتلك .
(٣) يتيمة الدهر ١٨/٤ .
(٤) أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي الملقب بقوام الدين ونظام الملك ، وزير حازم عالي الهمة ، كان من حسنات دهره ، وكان محباً للعلم وأهله ، استوزره السلطان إلب أرسلان ، فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين فلما مات ، خلفه ولده ملك شاه ، فصار الأمر كله لنظام الملك حتى قتله ديلمي على مقربة من نهاوند ، ودفن في أصبهان ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ١٢٨/٢ – ١٣١ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٠٩/٤ – ٣٢٨ ، شذرات الذهب ٣٧٣/٣ ، الأعلام ٢٠٢/٢ .
(٥) في الذيل على طبقات الحنابلة : ومنك بدلاً من يمنك .
(٦) دمية القصر ١٨٨/٢ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٦٥/١ .

وتحدث إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني النيسابوري (٤١٩-٤٧٨) (١) عن مناقبه العظيمة ، التي جعلت منه مقصداً للناس ، فقال :

فَلا زَالَ رَكْبُ المُعْتَفِينَ مَنِيحَةً ... لِذِرْوَتِكَ العُلْيَا وَلَازِلْتَ مَقْصِدَا
تَدِينُ لَكَ الشُّمُّ الأُنُوفِ تَخَضُّعًا ... ولَوْ أَنَّ زُهْرَ الأُفْقِ أَبْدَتْ تَمَرُّدَا
لَجَاءَتْكَ أَقْطَارُ السَّمَاءِ تَجُزُّهَا ... إليكَ لِتَعْفُو أوْ لِتُورِدَهَا الرَّدَى
وَمَا أَنَا إِلَّا دَوْحَةٌ قَدْ غَرَسْتَهَا ... وَسَقَّيْتَهَا حَتَّى تَمَادَى بِهَا المَدَى
فَلَمَّا اقْشَعَرَّ العُودُ مِنْهَا وَصَوَّحَتْ ... أَتَتْكَ بِأَغْصَانٍ لَهَا تَطْلُبُ النَّدَى (٢)

وحينماضاقت الحال بالفقيه الشاعر أبى الفرج مهذب الدين عبد الله بن أسعد بن علي المعروف بابن الدهان الموصلى الحمصي ، عزم على قصد الصالح بن رزيك (٤٩٥-٥٥٦هـ) (٣) وزير مصر ، وعجز عن استصحاب والدته ، وقيل زوجته (٤) ، فكتب إلى الشريف أبي عبد الله زيد بن محمد بن محمد بن عبيد الله الحسيني (ت٥٦٣هـ) (٥) الأبيات التالية مادحاً ، وواصفاً حاله :

(١) الفقيه الشافعي المعروف ، أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي ، كان غزير العلم أديباً بليغاً ، ولد في جوين من نواحي نيسابور ، ثم رحل في طلب العلم إلى بغداد ومكة ، وذهب إلى المدينة فأفتى فيها ودرس ، ثم عاد إلى نيسابور فبنى له نظام الملك المدرسة النظامية ، وكان يحضر دروسه كبار العلماء ، له مصنفات كثيرة ، انظر ترجمته : دمية القصر ٢٤٩/٢ - ٢٥٠ ، المنتظم ١٨/٩-٢٠ ، وفيات الأعيان ١٦٧/٣ - ١٧٠ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٦٥/٥ - ١٨١ ، الأعلام ١٦٠/٤ ، معجم المؤلفين ١٨٤/٦ - ١٨٥ .

(٢) وقد عقب السبكي على هذه الأبيات ، بذكر ندم إمام الحرمين على مخاطبته لنظام الملك بالبيتين الأخيرين ، وكيف أنه ضرب عليهما وأزالهما بيده ، لأنهما يتنافيان مع روعه وزهده ، انظر طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٩/٥ .

(٣) أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح ، كان والياً بمنية بنى خصيب من أعمال صعيد مصر ، فلما قتل الظافر إسماعيل صاحب مصر ، سنحت له الفرصة ، فدخل القاهرة بجمع عظيم وتولى الوزارة للخليفه الفاطمي الفائز ، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة ، وكان فاضلاً محباً لأهل الفضائل أديباً شاعراً، انظر ترجمته : خريد القصر ، قسم شعراء مصر ١٧٣/١ ، وفيات الأعيان ٥٢٦/٢ - ٥٣٠ ، الأعلام ٢٢٨/٣ .

(٤) جاء في ديوان ابن الدهان أنها والدته ، ولكن المصادر الأخرى تذكر أن المخاطبة هي زوجته ، انظر : وفيات الأعيان ٥٧/٣-٥٨ ، الوافي بالوفيات ٦٨/١٧ .

(٥) انظر الحديث عنه في وفيات الأعيان ٦٠/٣-٦١ .

وَذَاتِ شَجْوٍ أَسَالَ البَيْنُ عَبْرَتَهَا بَاتَتْ تُؤَمِّلُ بِالتَّفْنِيدِ إِمْسَاكِي
لَجَّتْ فَلَمَّا رأَتْنِي لا أُصِيخُ لَهَا بَكَتْ فأقْرَحَ قَلْبِي جَفْنُهَا البَاكِي
قَالَتْ وَقَدْ رَأَتِ الأَجْمَالَ مُحْدَجَةً والبَيْنُ قَدْ جَمَعَ المَشْكُوَّ والشَّاكِي :
مَنْ لِي إِذَا غِبْتَ فِي ذَا المَحْلِ قُلْتُ لها: اللهُ ، وابنُ عُبَيْدِ اللهِ مَوْلَاكِ
لا تَجْزَعِي بانْحِبَاسِ الغَيْثِ عَنْكِ فَقَدْ سَأَلْتُ نَوْءَ الثُّرَيَّا جَوْدَ مَغْنَاكِ (١)

أما ما قيل في مدح العلماء والفقهاء وأهل الفضل ، فقد حفظت لنا بعض المصادر شعراً لكثير من فقهاء هذا العصر ، أثنوا فيه على علمهم وصلاحهم وورعهم وزهدهم..

ومن ذلك ما قاله الفقيه أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري من جملة قصيدة في مدح الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ)(٢) رحمه الله ، بين فيها تقواه وورعه وزهده ، وما لاقاه من محن عظيمه في سبيل دينه ، ومنها :

حَبْرُ العِرَاقِ ، ومِحْنَةٌ لِذَوِي الهَوَى يَدْرِي بِبُغْضَتِهِ ذَوُو الأَضْغَانِ
عَرَفَ الهُدَى فاخْتَارَ ثَوْبَيْ نُصْرَةٍ وسَخَا بِمُهْجَتِهِ عُرَى عِرْفَانِ (٣)
عَرَضَتْ لَهُ الدُّنْيَا فَأَعْرَضَ سَالِماً عَنْهَا كَفِعْلِ الرَّاهِبِ الخُمْصَانِ
هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي دِيْنِهِ فَفَدَى الإِمَامُ الدِّينَ بِالجُثْمَانِ
للهِ مَالَقِيَ ابْنُ حَنْبَلَ صَابِراً عَزْماً وَيَنْصُرُهْ بِلَا أَعْوَانِ (٤)

---

(١) ديوان ابن الدهان ص١٨٢ .

(٢) إمام أهل السنة والجماعة ، أصله من مرو ، ولد ببغداد ، وفيها توفي ، انظر ترجمته : طبقات الحنابلة ٤/١-٢٠ ، تاريخ بغداد ٤١٢/٤ ، وفيات الأعيان ٦٣/١-٦٥ ، البداية والنهاية ٣٢٥/١٠-٣٤٣ ، الأعلام ٢٠٣/١ ، معجم المؤلفين ٩٦/٢-٩٧ .

(٣) في الذيل : وشجى بمهجته .

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة ٥٣/١ ، المنهج الأحمد ١٥٤/٢ ، وانظر مدائح الصرصري للإمام أحمد بن حنبل في ديوانه المخطوط ، الورقة (٢٩) ، (٣٠) .

فأنت ترى أن الممدوح ارتفع في نظر هذا الفقيه في هذه الأبيات ، بما اتصف به من الحق والعدل والزهد والصدق الخالص ، والصبر في سبيل ا لله ... [1] .

ولا يفوتني أن أذكر أن شيئاً من المبالغة ، قد اكتنف بعض المدائح التي أنشأها فقهاء هذا العصر ، منها ما كان محموداً بليغاً ، مثل أبيات القاضي أبي القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي ، الذي جعل القلوب تناجي ممدوحه ، بما جنت وتخافه الأوهام والأفكار لعظمته وقوته ، وهيبته في النفوس ، حيث قال :

مَلِكٌ تُنَاجِيهِ القُلُوبُ بِمَا جَنَتْ … وتَخَافُهُ الأوْهَامُ والأفْكَارُ
فَيَدٌ مُؤَيِّدَةٌ وقَلْبٌ قُلَّبٌ … وشَباً يُشَبُّ وخَاطِرٌ خَطَّارُ
حِينَ العُيُونُ شَوَاخِصٌ وَكأنَّهَا … لِلْخَوْفِ لَمْ تُخْلَقْ لَهَا أبْصَارُ
كُلُّ الوَرَى أرْضٌ وأنْتَ سَمَاؤُهَا … وَجَمِيعُهُمْ لَيْلٌ وأنْتَ نَهَارُ [2]

بيد أن القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني ، يفرط في المبالغة ، وهو الذي لم يرتض الإفراط في الشعر ، في كتابه " الوساطة " ، وذكر أنه سبب في انتقاصه وذمه [3] ، فقد مدح أبا القاسم الصاحب بن عباد ، بجعله مقسماً لأرزاق الناس ، مسئولاً عنها ، لذا كنى بأبي القاسم ، كما جاء في قوله :

يَا أيُّهَا القَرْمُ الَّذِي بِعُلُوِّهِ … نَالَ العَلاءُ مِنَ الزَّمَانِ السُّولاَ [4]
قَسَمَتْ يَدَاكَ على الوَرَى أرْزَاقَهَا … فَكَنَوْكَ قَاسِمَ رِزْقِهَا المَسْئُولاَ [5]

---

(١) انظر مزيداً من مدائح الفقهاء في العلماء في : معجم الأدباء ١١/٧٧ - ٧٨ ، طبقات الحنابلة ٢/١٩٩- ٢٠٠ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٢/١٤٠- ١٤١ .

(٢) معجم الأدباء ١٤/١٨٤ .

(٣) انظر ص ٤٢٠ ، ٤٢٣ .

(٤) الزمان السولا : يريد به زمان الرخاء ، انظر لسان العرب ١١/٣٥٠ .

(٥) يتيمة الدهر ٤/١٨ .

ومثل هذا الغلو والإفراط في المبالغة غير مقبول ، وما كان ينبغي أن يقع فيه القاضي الجرجاني ، وهو العالم الفقيه الناقد البصير !!!

وهنا لابد من الإشارة ، إلى المقبول والمرفوض من مبالغات الشعراء ، فالمبالغة من صنعة الشعر ، إذا كانت جذورها موجودة في الصفة التي يتناولها الشاعر بالمدح ، أما إذا لم تكن في أصل الصفة ، فهي والكذب سواء ، يستوي في ذلك ما كان فناً ، أو غير ذلك .(1)

وأختم هذا الفصل بأبيات طريفة للقاضي أبى روح ظفر بن عبد الله الهروي(2) فقد أورد له الثعالبي أربعة أبيات ، لم يسبق إليها في مدح الطفيلي ، قال فيها :

إنَّ الطُّفَيْلِيَّ لَهُ حُرْمَةٌ ... زَادَتْ على حُرْمَةِ نُدْمَانِي
لأنَّهُ جَاءَ ولَمْ أدْعُهُ ... مُبْتَدِئاً مِنْهُ بإحْسَانِ
مَائِدَتِي لِلنَّاسِ مَبْسُوطَةٌ ... فَلْيأتِهَا القَاصِي مع الدَّانِي
أحْبِبْ بِمَنْ أنْسَاهُ لاعَنْ قِلَىً ... وهو يُجِينِي لَيْسَ يَنْسَانِي(3) .

ومما سبق يمكننا القول إن فقهاء هذا العصر تطرقوا إلى معظم ميادين المدح ، وإنهم قالوا المدح بدافع الاعجاب والإكبار والتقدير لمدوحيهم ، وليس من أجل التكسب، وطلب الجوائز ، ومعظم مدحهم دال عليهم ، فليس فيه غلو أو إفراط ، وقد حرصوا فيه على إبراز الصفات النفسية والخلقية ، التي هي أقرب إلى رؤيتهم الفكرية ، وتوجههم العقدي ، مثل التقوى والصلاح والصبر والعدل والكرم .. ولكننا نجد عندهم أيضاً ، بعض المدح الذي يذوب في مدائح عامة الشعراء ، ويدور في فلكهم ، كما رأينا في أبيات القاضي ابن خلاد الرامهرمزي ، والقاضي الجرجاني .

---

(1) انظر نقد الشعر ص ١٨٤ ، العمدة لابن رشيق ٢/٦٠-٦١ ، أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٤٢٦ ، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري للدكتور محمد الحارثي ص ٨١ - ٩٠ .

(2) فقيه فاضل ، وأديب شاعر ، ولي قضاء العديد من بلاد خراسان ، له شعر جسيد ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٤/٣٩٧-٣٩٨ .

(3) يتيمة الدهر ٤/٣٩٨ .

المبحث الثاني : الفخر

الفخر باب المدح ، بل هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه [1] وهو كثير في الأدب العربي ، لا يكاد يخلو منه ديوان [2] . ويعد الفخر من أقل الأغراض الشعرية عند فقهاء هذا العصر ، ولعل سبب ذلك راجع إلى تورعهم عن تزكية أنفسهم ، وتحرجهم من ترديد عبارات الثناء عنها . وقد جاء معظم فخرهم معبراً عن ثقافتهم ، ومبادئهم الأخلاقية ، لذا قل عندهم الفخر التقليدي ، الذي يتسامى بالأحساب والأنساب ، وإن كان هذا مما لا يرفضه الإسلام ، إذا كان ضمن الدائرة التي ارتضاها ، وهي أن يفخر المرء بقومه وقبيلته من خلال الإسلام وبه . [3]

يقول القاضي أبو روح ظفر بن عبد الله الهروي ، مفتخراً بشدته وفروسيته ، وهمته العالية التي لم يتح لها فرصة العمل والإصلاح :

السَّيْفُ يَعْلَمُ أنَّ لي في حَدِّهِ ... سِرّاً نَهَاهُ الدَّهْرُ عَنْ إفْشَائِهِ
والدَّهْرُ يَعْلَمُ أنَّ لي في صَدْرِهِ ... نَاراً مُضَرَّمَةً على أحْشَائِهِ
هِمَمٌ مُؤَرِّقَةٌ جُفُونِي كُلَّمَا ... أرْخَى الظَّلامُ عليَّ ذَيْلَ خِبَائِهِ
ولَوْ أنَّ أطْرَافَ الرِّمَاحِ وفَيْنَ لي ... لأَخَذْتُ حَقَّ الدَّهْرِ مِنْ أبْنَائِهِ
هِمَمُ النُّفُوسِ مَنُوطَةٌ بِعَنائِهَا ... والمَرْءُ يَخْدَعُهُ لِسَانُ رَجائِهِ [4]

ويبدو من هذه الأبيات أن هذا الفقيه ، كان يعاني من قومه ومجتمعه ، الذين لم يقدروا امكاناته ومواهبه ، مما جعله ينغلق على ذاته ، ويطلق لخياله العنان ، مصوراً نفسه الأبية التي تسمو إلى العلا وتأبى القيود ، وقوته وفروسيته ، وكذلك همته العاليه التي تؤرق مضجعه ، ويلاحظ أن فخره كان صدى لحالاته النفسية ، من ضيق ومرارة لعجزه عن تحقيق طموحاته وآماله ، على أرض الواقع .

(١) انظر العمدة ١٤٣/٢ .
(٢) انظر كتاب الفخر والحماسة لحنا الفاخوري ص ٩ .
(٣) انظر مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي للدكتور مصطفى عليان ص ٩٨ – ٩٩ .
(٤) يتيمة الدهر ٣٩٨/٤ .

ويفخر القاضي أبو الحسن أحمد بن يحيى بن زهير ابن أبي جرادة العقيلي (ت ٤٢٩هـ) [١] بأبيه الذي كان يشتغل بدراسة واستنباط الأحكام من القرآن الكريم ، بالإضافة إلى اشتغاله بالخطابة وعلوم الشريعة : إذ يقول :

أَنَا ابْنُ مُسْتَنْبِطِ القَضَايَا ... وَمُوضِحِ المُشْكِلَاتِ حَلَّا
وابْنُ المَحَازِيبِ لَمْ تَعَطَّلْ ... مِنَ الكِتَابِ العَزِيزِ تُتْلَى
وفَارِسُ المِنْبَرِ اسْتَكَانَتْ ... عِيْدَانُهُ مِنْ حِجَاهُ ثِقْلا [٢]

ونظير هذا الفخر نجده عند العلامة أبي الفرج ابن الجوزي الذي نظم أشعاراً في الفخر بنفسه ، واعتزازه بعلومه ، وما حباه الله تعالى من مواهب وإمكانات ، وهو أمر عرف عنه في الأوساط العلمية في عصره [٣] ، ومما قاله عن قدراته وإمكاناته في مجال العلم ، التي يعجز عن مجاراتها أعداؤه وحساده :

يَوَدُّ حَسُودِي لَوْ يَرَى لِي زَلَّةً ... فَإِنْ لَمْ يَرَ الزَّلَّاتِ جَاءَتْ أَكَاذِيبُ
أَرُدُّ على خَصْمِي ولَيْسَ بِقَادِرٍ ... على رَدِّ قَوْلِي فَهْو مَوْتٌ وتَعْذِيبُ
تَرَى أَوْجُهَ الحُسَّادِ صُفْراً لِرُؤْيَتِي ... فإِنْ فُهْتُ عَادَتْ وهْيَ سُودٌ غَرَابِيبُ [٤]
إِذَا فُهْتُ لَمْ يَنْطِقْ عَدُوِّي بِلَفْظَةٍ ... إِذَا وَرَدَ الضِّرْغَامُ لَمْ يَلَغِ الذِّيبُ [٥]

وقال أيضاً عن مواهبه العلمية ، الأبيات التالية ، التي بالغ فيها في رفع شأن ثقافته وما وعاه من علوم ، حتى خرج عن المألوف :

---

(١) فقيه حنفي من أهل حلب ، ولد بها وتولى قضاءها ، وهو أول من ولي القضاء من بيته . له كتاب " الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه وما انفرد به عنهم " انظر ترجمته : معجم الأدباء ٢١/١٦ وفيه اسمه هبة الله بن أحمد ابن يحيى ، الوافي بالوفيات ٢٤٩/٨ ، الجواهر المضية ٣٥٠/١-٣٥١ ، الأعلام ٢٦٨/١ ، معجم المؤلفين ٢٥٣/٢ .

(٢) معجم الأدباء ٢١/١٦ ، الوافي بالوفيات ٢٤٩/٨ .

(٣) انظر أدب ابن الجوزي ص ٥٥ ، ٢٢٨ .

(٤) غرابيب : جمع غربيب وهو الشديد السواد .

(٥) المرجع السابق ص ١٣٢ ، وولغ من الإناء : شرب ما فيه بأطراف لسانه أو أدخل فيه لسانه فحركه .

مَازِلْتُ أُدْرِكُ مَا غَلَا بَلْ مَا عَلَا وأُكَابِدُ النَّهْجَ العَسِيرَ الأطْوَلَا
تَجْرِي بِيَ الأمَالُ في حَلَبَاتِهِ طَلْقَ السَّعِيدِ جَرَى مَدَى مَا أَمَّلَا
يُفْضِي بِيَ التَّوْفِيقُ فِيهِ إلى الَّذِي أعْمَى سِوَايَ تَوَصُّلاً وَتَغَلْغُلاً
لَوْ كَانَ هَذَا العِلْمُ شَخْصاً نَاطِقاً وَسَأَلْتَهُ : هَلْ زَارَ مِثْلِيَ ؟ قَالَ : لَا (١)

وللشريف المرتضى قصائد وأشعار كثيرة ، يفتخر فيها بنفسه وبأهله وآبائه وأجداده .

ففي صدد فخره بخصاله الحميدة ، يقول الأبيات التالية ، التي يذكر فيها نقاء عرضه وخلوه من العيوب :

قُلْ لِحُسَّادِي : أفِيقُوا فَأَتَاكُمْ عِنْدِي الطِّلابُ
عِبْتُمُ مَنْ لَيْسَ فِيهِ لِلَّذِي عَابَ مَعَابُ
وَلَهُ عِرْضٌ نَقِيٌّ زَالِقٌ عَنْهُ السِّبَابُ (٢)

وقال عن فروسيته وشجاعته :

لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي النِّسَاءُ مُشَيَّعاً لَهُ الرَّوْعُ مَغْنَيً والحُرُوبُ مَجَالِسُ (٣)
وَقَدْ جَرَّبُوا أَنِّي إِذَا احْتَدَمَ الوَغَى لِأَثْوَابِهَا دُونَ الكَتِيْبَةِ لَابِسُ (٤)
بِضَرْبٍ كَمَا اخْتَارَتْ شِفَارُ مَنَاصِلٍ وَطَعْنٍ كَمَا شَاءَ الكَمِيُّ المُدَاعِسُ (٥)
تَطَامَنَ عَنِّي كُلُّ ذِي خُنْزُوانَةٍ وَغَمَّضَ دُونِي الأَبْلَجُ المُتَشَاوِسُ (٦)
فَلَمْ يُرَ لِي لَمَّا سَمَقْتُ مُطَاوِلٌ وَلَمْ يَبْقَ لِي لَمَّا سَبَقْتُ مُنَافِسُ (٧)

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٨ .
(٢) ديوان الشريف المرتضى ٣٩/١ .
(٣) المشيع : السيد الشريف ، الذي تشيعه الناس أي تمشي وراءه ، والروع : الحرب ، والمغني : المنزل .
(٤) احتدم : اشتد ، والوغي : الحرب ، والكتيبة : الثلة من الجيش .
(٥) الكمي : الشجاع ، والمداعس : المطاعن ، ومناصل جمع منصل وهو السيف .
(٦) تطامن : خضع وذل ، والخنزوانة : الكبر ، والأبلج : المسفر ، والمتشاوس : الناظر بمؤخرة عينيه تكبرا .
(٧) ديوان الشريف المرتضى ١١٤/٢-١١٥، وسمقت : علوت .

ويعتز الشريف بنسبه كثيراً ، لأنه من نسل خير خلق ا لله عز وجل ، وآخر الأنبياء والمرسلين ، محمد صلى ا لله عليه وسلم ، إذ يقول موجهاً حديثه لأعدائه ومنافسيه الذين يحاولون النيل من نسبه :

أَلَسْتُ إِنْ عُدَّ هَذَا الخَلْقُ خَيْرَهُمُ ... لَمْ يَبْرَحُوا بَيْنَ جَدٍّلي وبَيْنَ أبِ ؟
مَا للنُّجُومِ الَّتِي بَانَتْ تُطَاوِلُنَا ... مِنْ كُلِّ عَالٍ عَلَا كُلَّ الوَرَى حَسَبِي
فَقُلْ لِمَنْ ضَلَّ مَغْرُوراً يُفَاخِرُنِي ... ومَالَهُ مِثْلُ عَجَمِي لا ولا عَرَبِي
أَلَيْسَ بَيْنَ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ خُتِمَتْ ... بِهِ النَّبِيُّونَ أَوْصِهْرٍ لَهُ نَسَبِي ؟ (١)

ولا يفوت الشاعر أن يؤكد أنه يستمد فخره بنفسه وبآبائه وأجداده من الدين ، فقد كان لهم النصيب الأكبر في إرساء دعائمه ، حيث يقول :

وَكَمْ لنَا مَفْخَرَةٌ دِينِيَّةٌ ... أَحْدَثَ نِزَارٌ كُلَّهَا هَامَ اليَمَنْ . (٢)

فإذا ما انتقلنا إلى القاضي أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد ا لله بن أحمد الهاشمي الرشيدي (ت ٤٣٩هـ) (٣) نجده يفخر أيضاً بجوده ، الذي ورثه عن آبائه وأجداده العظام ، بيد أنه لا يقنع بما ورثه من مجد ، لأنه يريد أن يضيف مجداً طريفاً ، إلى أمجاده التليدة ، التي شيد صروحها ، أجداده الخلفاء ، كما بين ذلك بقوله :

قَالُوا : اقْتَصِدْ في الجُودِ ، إنَّكَ مُنْصِفٌ ... عَدْلٌ وذُو الإنْصَافِ لَيْسَ يَجُورُ
فَأَجَبْتُهُمْ : إنِّي سُلَالَةُ مَعْشَرٍ ... لَهُمُ لِوَاءٌ في النَّدَى مَنْشُورُ (٤)
تَا للهِ إنِّي شَائِدٌ مَا قَدْ بَنَى ... جَدِّي الرَّشِيدُ وقَبْلَهُ المَنْصُورُ (٥)

---

(١) المصدر السابق ١/١١٨ - ١١٩ .
(٢) المصدر السابق ٣/٣٤٨ .
(٣) فقيه عباسي من ولد الخليفة هارون الرشيد ، مروذي الأصل ، سمع الحديث ، وتأدب وله شعر ، كان ذا فضل وشرف وخلق عظيم ، ولى القضاء بسجستان والوزارة بغرشستان ، والسفارة بين السلطان الماضي والقادر با لله ، لقب بتاج القضاة ، انظر ترجمته : تتمة يتيمة الدهر ٥/ ٢٦٩ ، تاريخ بغداد ٥/٥٠ ، المنتظم ٨/١٣٢ ، الوافي بالوفيات ٨/٣٦ ، شعراء بغداد ٢/٢٧ .
(٤) في تتمه اليتيمة : العلى بدلاً من الندى .
(٥) تتمة يتيمة الدهر ٥/٢٦٩ ، تاريخ بغداد ٥/٥٠ ، المنتظم ٨/١٣٢ ، الوافي بالوفيات ٨/٣٦ ، شعراء بغداد ٢/٢٧ .

ويفتخر الخطيب البغدادي بخصاله الرفيعة ، التي مكنته من مواجهة خطوب الدهر بكل اقتدار ، حيث يقول :

صَبَرْتُ تَكَرُّمـاً لِقِـرَاعِ دَهْـرِي ... وَلَمْ أجْـزَعْ لِمَـا مِنْـهُ دَهَـانِي (١)
وَلَمْ أكُ في الشَّـدَائِدِ مُسْـتَكِيناً ... أقُـولُ لَهَـا ألا كُفِّـي كَفَـانِي (٢)
وَلَكِـنِّي صَلِيـبُ العُـودِ عَـوْدٌ ... رَبِيـطُ الجَـأْشِ مُجْتَمِـعُ الجَنَـانِ (٣)
أبِيُّ النَّفْـسِ لا أخْتَـارُ رِزْقـاً ... يَجِيءُ بِغَيْـرِ سَيْفِـي أو سِنَانِـي (٤)

ويشبه القاضي أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني الأسواني المصري الملقب بالرشيد (ت ٥٦٣هـ) (٥) ، الخطيب البغدادي في فخره واعتداده بخصاله الأصيلة ، وثباته أمام صروف الزمان ، لكنه يتميز عن البغدادي بالعمق والدقة في وصف خصاله، وذلك من خلال اعتماده على التشبيه وضرب الأمثلة ، فهو يقول :

---

(١) لقراع دهري : أي لمحاربة دهري إياي ، دهاني : أي أصابني بدواهيه .

(٢) مستكينا : أي خاضعاً ، والاستكانة : الذلة والخنوع .

(٣) صليب : أي جلد قوي الجسم ، والعود : المسن من الإبل ، وجعله مجازاً عن الكهل المحنك ، والربيط : الحكيم ، كناية عن الشجاعة .

(٤) معجم الأدباء ٢٤/٤ .

(٥) كان كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً ، ولد بأسوان في صعيد مصر ، وكان أسود اللون ، قدم القاهرة بعد مقتل الظافر الفاطمي وجلوس الفائز ، فتقدم عند أمرائها ، فأنفذ إلى اليمن فلما وصل إليها قلد قضاءها ، وسمت نفسه إلى الخلافة ، وتابعه قوم فقبض عليه ، وجئ به مكبلاً إلى قوص ثم أطلق سراحه ، فعاش آمناً فترة من الزمن ، صنف فيها العديد من المصنفات ، ثم قتله شاور وزير العاضد ظلما لميله إلى أسد الدين شيركوه ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ٥١/٤-٥٨ ، وفيات الأعيان ١٦٠-١٦٤، الوافي بالوفيات ٢٢٠/٧-٢٢٢ ، الطالع السعيد ص ٩٨ - ١٠٢ ، بغية الوعاة ٣٣٧/١ - ٣٣٨ ، الأعلام ١٧٣/١ .

جلّتْ لَدَى الرَّزَايَا بَلْ جَلَتْ هِمَمِي ... وهَلْ يَضُرُّ جَلاءُ الصَّارِمِ الذَّكَرِ

غَيْرِي يُغَيِّرُهُ عَنْ حُسْنِ شِيمَتِهِ ... صَرْفُ الزَّمَانِ ومَا يَأْتِي مِنَ الغِيَرِ

لَوْ كَانَتِ النَّارُ لِلْيَاقُوتِ مُحْرِقَةً ... لكَانَ يُشْتَبَهُ اليَاقُوتُ بِالْحَجَرِ

لا تَغْرَرَنَّ باطْمَارِي وقِيمَتِهَا ... فإنَّمَا هِيَ أصْدَافٌ على دُرَرِ

ولا تَظُنَّ خَفَاءَ النَّجْمِ مِنْ صِغَرٍ ... فالذَّنْبُ في ذَاكَ مَحْمُولٌ على البَصَرِ(١)

أما القاضي أبو بكر ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني ، فقد كان فخره منصباً على شعره وشاعريته ، فهو يرى نفسه أشعر الفقهاء وأفقه الشعراء في عصره ، وشعره يرويه الناس لجودته ، كما جاء في قوله :

أنَا أشْعَرُ الفُقَهَاءِ غَيْرَ مُدَافَعٍ ... في العَصْرِ أوْ أنَا أفْقَهُ الشُّعَرَاءِ

شِعْرِي إذَا مَا قُلْتُ يَرْوِيهِ الوَرَى ... بِالطَّبْعِ لا بِتَكَلُّفِ الإلْقَاءِ

كالصَّوْتِ في ظُلَلِ الجِبَالِ إذَا عَلاَ ... للسَّمْعِ هَاجَ تَجَاوُبَ الأصْدَاءِ(٢)

وقال عن تجربته في نظم الشعر ، واقتباس المحدثين لمعانيه ، وعدم اقتباسه لمعنى سبق إليه:

وإنِّي لأُعْطِي الشِّعْرَ أوْفَى حُقُوقِهِ ... وإنْ لَمْ يَقِفْ بِي مَوْقِفَ الشُّعَرَاءِ

ومِنِّي اقْتِبَاسُ المُحْدَثِينَ مَعَانِياً ... ولَمْ أقْتَبِسْ مَعْنًى مِنَ القُدَمَاءِ(٣)

---

(١) الوافي بالوفيات ٢٢١/٧ ، وقد أخذ الشاعر معنى البيت الأخير من بيت أبي العلاء المعري ، الذي سبق ذكره في التمهيد.

(٢) ديوان الأرجاني ٤٣/١-٤٤ .

(٣) المصدر السابق ٥٠/١ .

والأرجاني يبالغ هنا كثيراً ، في رفع مستوى شعره وشاعريته ، بصورة تخالف الواقع ، وقد أشار إلى هذه القضية الأستاذ على جواد الطاهر ، في أثناء دراسته لشعر القاضي الأرجاني ، وذكر أن الشاعر – رحمه الله – قد أدعى كثيراً ، حتى خال نفسه مبتكراً منفرداً ، كما تتبع ما قاله النقاد الأقدمون ، من ثناء عظيم على شعره ، وخلص في النهاية ، إلى أن الكثير منهم كانوا متسامحين ومتساهلين في أحكامهم النقدية ، لأنهم كانوا يعكسون طرفاً من أذواقهم ، وأذواق عصرهم .(١) وبعد ، فإن معظم فخر فقهاء هذا العصر ، كان فخراً ذاتياً ، افتخروا فيه بخصالهم الحميدة ، التي استمدوها من الإسلام ، من عزة وإباء وصون النفس عن مواقف الذل والمهانة ، وشجاعة وقوة وكرم ، ومنهم من كان يفتخر بإمكاناته العلمية والشعرية ، ومنهم من كان فخره تقليداً ، حيث افتخروا بآبائهم وأجدادهم ، إلا أنهم لم ينحوا في ذلك منحي الجاهليين، من دعوة إلى عصبيات قبلية ، أو تطاول وإدعاءات كاذبة ، إنما كان فخرهم ضمن الدائرة التي ارتضاها الإسلام . وقد تميز معظم فخر الفقهاء بالصدق ، عدا ما نجده عند الأرجاني وابن الجوزي ، اللذين جنحا في فخرهما إلى كثير من المبالغة .

ويلاحظ أن فقهاء هذا العصر ، لم يتطرقوا في فخرهم إلى الجهاد والحماسة الدينية ، ولم يسجلوا بشعرهم ، ما كان يدور من صراع بين الإسلام وخصومه في بعض الثغور الإسلامية ، ولعل سبب ذلك يعود إلى أنهم أصحاب قلم لا سيف ، فانشغلوا بأمور العلم والتصنيف عن الجهاد ، بالإضافة إلى بعدهم عن مناطق الجهاد في ذلك العصر .

(١) انظر الشعر العربي في العراق وبلاد العجم ، في العصر السلجوقي أواسط القرن الخامس إلى أواسط القرن السادس ص٢٣٠-٢٣١ .

المبحث الثالث : الرثاء [1]

يعد الرثاء من أصدق فنون الشعر العربى ، ذلك لأنه يخاطب أخاً أو عزيزاً فارق الحياه أو ملكاً كان ملء السمع والبصر .. بقلوب محترقة ، أنطقها الحب والوفاء [2] .

وقد تجاوب فقهاء هذا العصر ، مع كل الأحداث التي كانت تقع لأفراد مجتمعاتهم وفى مقدمتها الموت ، ذلك المصير الذى لا مفر منه ، فكانوا يبكون بدموع الحزن من يتخطفه الموت ، ولا سيما إذا كان قريباً أو رفيقاً مخلصاً ..

وقد نظم الفقهاء فى ذلك أشعاراً ، رثوا فيها الخلفاء والأمرء والوزراء والعلماء والأدباء والأقرباء ... عبروا فيها عن أحزانهم لفقدهم كما أثنوا على فضائلهم ، وعددوا مناقبهم .

ففي مجال رثاء الخلفاء يقول الشريف المرتضى ، فى رثاء الخليفة العباسى القادر با لله (ت٤٢٢هـ)[3] ، وتهنئة الخليفة القائم با لله (ت٤٦٧هـ) [4]

(١) قسم الدكتور شوقى ضيف الرثاء إلى ثلاثة اقسام وهى :-
أ- الندب: وهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات الشجية ، والألفاظ الباكية المحزنة .
ب- التأبين : وهو الثناء على الميت ، وتعداد مآثره وفضائله .
حـ- العزاء وهو الصبر على فاجعة الموت ، والتفكر فى حقيقته وحقيقة الحياة الزائلة - انظر كتاب الرثاء ص ٥ - ٦ ، وسنرى من خلال الشواهد الشعرية بعض هذه الأنواع.

(٢) انظر الرثاء فى الشعر العربى أو جراحات القلوب للدكتور محمود حسن أبو ناجى ص ١١.

(٣) أبو العباس أحمد بن ابراهيم المتقى با لله بن جعفر المقتدر با لله بن أحمد المعتضد با لله بن الموفق بن المتوكل تولى الخلافة سنة (٣٨١هـ) وطالت مدة خلافته ، وكان حازماً مطاعاً ، وهو آخر خليفة عباسى تولى الأحكام بنفسه وفى أيامه فتحت السند والهند ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٣٧/٤ ، الجوهر الثمين ص١٥٢-١٥٤، الأعلام ٩٥/١.

(٤) أبو جعفر عبدا لله بن القادر با لله ، ولى الخلافة بعد وفاة أبيه بعهد منه ، كان ورعاً عادلاً كثير الرفق بالرعية، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٣٩٩/٩، فوات الوفيات ٢٠٣/١، الجوهر الثمين ص ١٥٥-١٥٩، الأعلام٦٦/٤.

هُوَ المَوْتُ يَسْتَلِبُ الصَّالِحِينَ ... ويَأْخُذُ مِنْ بَيْنِنَا مَنْ يَشَا

فَكَمْ دافَعُوهُ فَفَاتَ الدِّفَاعُ ... وكَمْ قَدْ رَقَوْهُ فأعْيَا الرُّقَى

مَضَى وهْوَ صِفْرٌ مِنَ المُوبِقَاتِ ... نَقِيُّ الإزَارِ خَفِيفُ الرِّدا

إذَا رَابَهُ الأمْرُ لمْ يَأْتِهِ ... وإنْ خَبُثَ الزَّادُ والَى الطَّوَى (١)

وبعد أن تحدث عن مناقب الفقيد ، انتقل إلى الحديث عن الخليفة الجديد معزياً ومهنئاً:

تَعَزَّ إمَامَ الوَرَى والَّذِي ... بِهِ نَقْتَدِي عَنْ إمَامِ الوَرَى

وخَلِّ الأسَى فالمحَلُّ الَّذِي ... جَثَمْتَ بِهِ لَيْسَ فِيهِ أسَى (٢)

أما القاضى أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير الغسانى الأسوانى المصرى الملقب بالرشيد فيشبه فى رثائه للظافر بأمر الله (ت٥٤٩هـ)(٣) مقتله بمقتل سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحسين بن على رضى الله عنهما ، مبالغة منه فى التعبير عن حزنه ، حيث يقول فى مرثيته التى مطلعها :

مَا لِلرِّيَاضِ تَمِيلُ سُكْرَا ... هَلْ سُقِّيَتْ بالمُزْنِ خَمْرَا

إلى أن يقول فى بكائه :

أَفَكَرْبَلاءٌ بالْعِرَا ... قِ ، وَكَرْبَلاءٌ بِمِصْرَ أُخْرَى ؟ (٤)

وأنشأ قاضى القضاة ابن خلكان أبياتاً فى رثاء الملك العزيز محمد صاحب حلب

---

(١) الطوى : بالفتح الجوع

(٢) ديوان الشريف المرتضى ٤/١ .

(٣) إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ بن محمد المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بأمر الله العلوى الفاطمى ، الملقب بالظافر بأمر الله ، ولد بالقاهرة وولى الخلافة صغيراً بعد أبيه بعهد منه ، كان كثير اللهو ، وفى أيامه أخذت عسقلان ، قتله أحد رجاله غيلة ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان١/٢٣٧-٢٣٨ ، الجوهر الثمين ص ٢١٤-٢١٥ ، النجوم الزاهرة ٣١٩/٥، الأعلام ١/٣١٨-٣١٩.

(٤) معجم الأدباء ٥٧/٤-٥٨، الوافي بالوفيات ٢٢٢/٧.

(ت٦٣٤هـ) [1] ، واستهلها ببيان هول هذا المصاب الجلل ،حيث قال :

هَوَى مِنْ نِظَامِ المُلْكِ وَاسِطَةُ العِقْدِ ... ولَمْ يَكُ مِنْ صَرْفِ المَنِيَّةِ مِنْ بُدِّ

فَمَا للرِّمَاحِ السُّمْرِ مُشْرَعَةَ القَنَا ... وَمَا للصِّفَاحِ البِيضِ مُرْهَفَةَ الحَدِّ

وفى ختام هذه الأبيات أبرز الشاعر محامد المتوفى ، وحسن سجاياه ، حيث قال عنه:

لَئِنْ أظْلَمَتْ دُنْيَا العُفَاةِ لِفَقْدِهِ ... فَقَدْ أشْرَقَتْ مِنْ وَجْهِهِ جَنَّةُ الخُلْدِ

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يَا خَيْرَ مَالِكٍ ... مَضَى غَيْرَ مَصْحُوبٍ سِوَى حُلَّةِ الحَمْدِ [2]

وكان للعلماء والفقهاء نصيب من مراثى فقهاء هذا العصر ، فقد آلمهم رحيل أولئك الأعلام عن هذه الدنيا ، والناس فى أمس الحاجة إلى علومهم وفضائلهم الجمة ، وأحزنهم فقدهم ، فعبروا عن ذلك بأبيات أنشأوها فى هذا الصدد.

يقول الفقيه أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداوودى البوسنجى ، فى رثاء شيخ الإسلام أبى عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد الصابونى (ت٤٤٩هـ)[3]

---

(١) الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين الأيوبى ، من ملوك الدولة الأيوبية ، كان صاحب حلب واستولى على شيزر ، وكان حسن السيرة ، توفى بحلب انظر ترجمته : النجوم الزاهرة ٢٩٧/٦، شذرات الذهب ١٦٨/٥، الأعلام ٣٢٤/٦.

(٢) عقود الجمان فى شعراء هذا الزمان لكمال الدين ابن الشعار (ت٦٥٤هـ) نقلاً عن وفيات الأعيان ٩٣/٧ (فى ترجمة المحقق لصاحب الكتاب) .

(٣) كان مقدم أهل الحديث فى خراسان ، وكان فصيح اللهجةواسع العلم ، وكان يجيد الفارسية إجادته للعربية ، له كتاب "عقيدة السلف و" الفصول فى الأصول " ولد ومات فى نيسابور . انظر ترجمته: طبقات الشافعية الكبرى ٢٧١/٤-٢٩٢، الأعلام ٣١٧/١، معجم المؤلفين ٢٧٥/٢-٢٧٦.

أوْدَى الإمَــامُ الحَــبْرُ إسْمَــاعِيلُ هَفِـي عَلَيْـهِ فَلَيْــسَ مِنْــهُ بَدِيــلُ
بَكَـتِ السَّمَا والأرْضُ يَـوْمَ وَفَاتِـهِ وبَكَـى عَلَيْـهِ الوَحْــيُ والتَّـنْزِيلُ
والشَّــمْسُ والقَمَـرُ المُنِـيرُ تَنَاوَحَـا حَزَنـاً عَلَيْـهِ ولِلْنُّجُـومِ عَوِيــلُ
والأرْضُ خَاشِـعَةٌ تُبَكِّـي شَـجْوَهَا وَيْلـي تَوَلْــوِلُ أيْـنَ إسْمَــاعِيلُ ؟
إنَّ الإمَـامَ الفَــرْدَ فـــى آدَابِـــهِ ماإنْ لَهُ فى العَالَمِــينَ عَدِيــلُ (١)

ولم يوفق هذا الفقيه ، حينما جعل الوحى والتنزيل ، وكل مظاهر الكون تبكى حزناً على الفقيد الراحل ، وكان يتعين عليه وهو الفقيه العالم ، أن يقتدى بمنهج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فلا يربط بين موت أحد وبين آيات الله تعالى ، ومظاهر عظمته ، - حتى وإن كان ذلك علىسبيل التجوز - كما بين ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله " إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ مِنْ آيَاتِ الله . لا ينْكَسِفَانِ لموتِ أحدٍ ولا لِحَيَاتِهِ..."(٢) .

ورثى الفقيه على بن محمد بن الفرج بن إبراهيم البزار المعروف بابن أخي نصر العكبري ، شيخه أبا يعلى محمد بن الحسين ابن الفراء (ت٤٥٨هـ) (٣) وقد عبر فى رثائه عن حزنه العميق على فراقه ، كما عدد مآثره ، حيث قال :

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢٨٢/٤-٢٨٣.

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الكسوف ٦٣٠/٢.

(٣) من أهل بغداد ، كان شيخ الحنابلة فى عصره ، وعالمهم فى الأصول والفروع وأنواع الفنون تولى بعد امتناع قضاء دار الخلافة والحريم ، وحران وحلوان فى عهد القائم ، له تصانيف كثيرة ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٢٥٦/٢، طبقات الحنابلة ١٩٣/٢-٢٣٠ ، المنهج الأحمد ١٠٥/٢-١١٨، ، شذرات الذهب ٣٠٦/٣، الأعلام ٩٩/٦-١٠٠.

أَسَــفٌ دَائِـــمٌ وحُــزْنٌ مُقِيـــمٌ ... لِمُصَـــابٍ بِــــهِ الهُــــدَى مَهْـــدُومُ
مَــاتَ نَجْـلُ الفَــرَّاءِ أَمْ رُجَّـتْ الأَرْ ... ضُ أمِ البَــدْرُ كَاسِــفٌ والنُّجُــومُ ؟
لَهْفَ نَفْسِي على إِمَامٍ حَوَى الفَضْـ ... ـلَ وَهْــوَ بالمُشْــكِلَاتِ عَلِيـــمُ[1]
خُلُـــقٌ طَــاهِرٌ وَوَجْــهٌ مُنِـيرٌ ... وطَرِيـــقٌ إلى الهُــدَى مُسْـــتَقِيمُ
كانَ للدِّينِ عُــدَّةً ولأهْــلِ الـدْ ... دِيــنِ فـي النَّائِبَاتِ خِـلٌّ حَمِيـمُ[2]

وفى مجال رثاء الأدباء والشعراء ، شارك الفقهاء غيرهم من الشعراء فى رثاء كبار شعراء العربية ، ومن ذلك أن الفقيه أبا القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى كان معاصراً للشاعر المعروف البحتري (٢٠٦-٢٨٤هـ)[3] وحينما مات جادت قريحته بالأبيات التالية ، التى عبر فيها عن حزنه لرحيل هذا الشاعر الكبير، وعد موته فناءً للشعر:

تَعَوَّلَـــتِ البَدَائِـــعُ والقَصِيـــدُ ... وَأوْدَى الشِّعْرُ مُـذْ أوْدَى الوَلِيـدُ
وأظْلَـمَ جَـــانِبُ الدُّنْيَـــا وعَـــادَتْ ... وُجُـوهُ المَكْرُمَـاتِ وَهُــنَّ سُــودُ
فَقُـــلْ لِلدَّهْـــرِ يَجْهَـــدُ في الرَّزَايَـــا ... فَلَيْـــسَ وَرَاءَ فَجْعَتِـــهِ مَزِيـــدُ[4]

وقد كان رثاء الفقهاء لأهلهم وذويهم مؤثراً ، حيث اتسم بشدة اللوعة، وعميق الحزن ، تفيض منه مشاعر الحرقة والألم .

فهذا الفقيه أبو الحسن على بن أحمد الزاوى[5] تموت أمه فيحزن عليها حزناً شديداً ،

---

(١) فى المنهج الأحمد : بصير بالمشكلات.
(٢) طبقات الحنابلة ٢١٧/٢، المنهج الأحمد ١١٣/٢-١١٤.
(٣) أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحي الطائى ، انظر ترجمته : طبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٩٣-٣٩٤، تاريخ بغداد ٤٤٦/١٣،المنتظم ١١/٦-١٤ ، وفيات الأعيان ٢١/٦-٣١ ، الأعلام ١٢١/٨.
(٤) معجم الأدباء ٢٠٢/٧.
(٥) وصفه الباخرزى – وكان معاصراً له وبينهما مكاتبات – بأنه كان فقيها علماً فى العلوم ، ذا فنون ، فصيحاً واعظاً شاعراً وكان خطيباً معروفاً فى نيسابور ، أصيب بالصمم وكان على اتصال بنظام الملك ، انظر دمية القصر ٢٨٥/٢ – ٢٩٠ .

ويتألم لفقدها، إذا برحيلها عن الدنيا ، فقد العطف والحنان [1]، وحينما يزور قبرها يبكيها بكاءً مراً قائلاً :

بمقــبرة الحسـين أزور أمـي " ونـار القلـب تشـتعر اسـتعارا "
أروّي قبرهـا دمعـاً وأزوي : " دَع العَبرات تنهمر انهمـارا "[2]

وقال أيضاً مصوراً فجيعته بفقدها :

وإنـي لآتـي قـبر أمـي وأشـتفي بِرُؤيتـه والوجـد فيّ شـديدُ
كما نظرت حنانـة نحـو بوّهـا تسلّت به والسقب منه بعيدُ[3]

والبيتان كما ترى يفيضان بالشعور الصادق ، الذى يعبر عن نفس ملتاعة ، قد ضعضعها الحزن من الفراق ، ويصوران بدقة متناهية تلهف هذا الشاعر لزيارة قبر أمه ، لعله يجد فيه بعض العزاء والسلوى.

ويموت لهذا الفقيه ولد فى الرابعة من عمره اسمه صاعد ، فيتفطر قلبه حزناً عليه ، لكنه يتجمل بالصبر ، لأنه مؤمن رابط الجأش ، ويدرك أن الموت مصير كل حى ، فهو يقول :

---

(١) انظر رثاء الأم في الشعر العربى من ابن الرومى إلى أبي العلاء المعرى للدكتور محمد إبراهيم حور، بمجلة كلية الآداب ، جامعة الإمارات العدد الثانى ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م ص ٨٩-١٢٧.

(٢) دمية القصر ٢٨٩/٢، وشطر الشاعر فى بيتيه بيت أبى فراس الحمدانى ، وأصله :

دَع العَبَـرات تنهمـر انهمـارا ونـار الوجـد تستعر استعارا

انظر ديوان أبى فراس الحمدانى ص ٧٦.

(٣) دمية القصر ٢٨٩/٢، والحنانة : التى تحن على ولدها من زوجها المفارق لها ، والبو : جلد يحشى تبناً ونحوه لتعطف عليه الناقة إذا مات ولدها ، والسقب : ولد الناقة .

يَاصَـاعِداً فَلَـكَ المنَـا ... يَـا قَبْـلَ وَقْـتِ صُعُـودِه
وُمفَارِقـاً دَارَ النُّحُـوسِ ... إلى مَقِيـلِ سُـعُودِه
لَـوْ كَـانَ مَـوْتُ مُخْلِفـاً ... للحَـيِّ فـي مَوْعُـودِه
أبْقَـى عليـه وَلَـوْ لِجِـدِّ ... تِـهِ وَنَضْـرَةِ عُـودِه
لكـنَّ ذَلِـكَ مَنْهَـلٌ ... لامُكْـثَ دُونَ وُرُودِه [1]

ويعد الشريف المرتضى ، أبرز فقيه تناول الرثاء ، وديوانه يزخر بشعر كثير في هذا الغرض ، قسم منه في رثاء من فقدهم من أهل بيته ، ومن ذلك قوله في رثاء أخته ، التي كانت له بمثابة الأم الحنون ، وترك موتها أثراً عميقاً في نفسه ، وشعوراً بالوحدة:

مَـالِي أرَاكِ وكُنْتِ جِـدَّ حَفِيَّـةٍ ... لا نَلْتَقِـي أبَـداً ولا نَتكلَّـمُ؟ [2]
بَيْنِـي وبَيْنَـكِ شَاسِـعٌ مُتَبَـاعِدٌ ... أوْ حَالُكٌ شَـحِبُ الجَوانِـبِ مُظْلِـمُ
آبَ الرِّجَـالُ الرَّاحِلُـونَ ودُونَنَـا ... سَـفَرٌ طَوِيـلٌ لَيْـسَ مِنْـهُ مَقْـدَمُ
مَـا كَـانَ عِنْـدِي والبَـلَايَا جَمَّـةٌ ... أنِّي أُصَـابُ بِكُـمْ وأُعْـرَى مِنْكُـمُ
وأُذَادُ حَـيْنَ أُذَادُ عَـنْ أمْوَاهِكُـمْ ... وأُصَـدُّ عَـنْ بَـابِ اللِّقَـاءِ وأُحْـرَمُ
كَـانَ ابْتِهَـالُكِ جُنَّـةً فَـإذَا رَمَـى ... جِهَتِي العِـدَا تَزْوَرُّ عَنِّي الأَسْهُمُ [3]
ودُعَاؤُكِ المَرْفُـوعُ مُصْلِـحُ دَائِمـاً ... مَـا أفْسَـدُوا أو نَـاقِضٌ مَـا أبْرَمُـوا
فالآنَ لِي مِـنْ بَعْـدِ فَقْـدِكِ جَانِـبٌ ... عَـارٍ وظُفْـرٌ في العَـدُوِّ مُقَلَّـمُ [4]

(١) المصدر السابق ٢/٢٨٨.
(٢) الحفية : التي تحتفي بالزائر بالسؤال عنه.
(٣) الجنة بالضم : الدرع.
(٤) ديوان الشريف المرتضى ٣/١٨٩.

وقد فت موت أخيه الشاعر المشهور الشريف الرضى(٣٥٩-٤٠٦هـ)[1] فى عضده وبلغ به الجزع أنه لم يشارك في دفنه [2] ، حتى لا يراه وهو يوارى في التراب ،ومما قاله في رثائه :

يَا صَاحِبِي هَلْ نَابَ سَمْعَكَ مِثْلَمَا ... قَدْ نَابَنِي ؟ نَبَأٌ أطَارَ نُعَاسِي
لا أرْتَضِي مِنْهُ وُضُوحَ يَقِينِهِ ... وأوَدُّ أنِّي مِنْهُ فى إلْبَاسِ [3]
أنْحَىَ على كَبِدِي بِوَشْكِ سَمَاعِهِ ... نَاراً تَحُزُّ جُنُوبَهَا بِمَوَاسِي [4]
وظَنَنْتُهُ مِثْلَ الرَّزَايَا قَبْلَهُ ... فَإذَا بِهِ رُزْءاً عَزِيزَ الآسِي[5]
خَطَرٌ أعُطُّ عَلَيْهِ صَبْرِي بَعْدَه ... وأُجِلُّهُ عَنْ أنْ أعُطَّ لِبَاسِي[6]
لا تُنْكِرَا مِنْ فَيْضِ دَمْعِي عَبْرَةً ... فَالدَّمْعُ خَيْرُ مُسَاعِدٍ ومُوَاسِي [7]

وهذه الأبيات تعبر عن حزن عميق ، ولوعة متقدة ، وقد جسد الشاعر شدة انفعاله بمصابه ، ببعض الأساليب الإنشائية ، مثل النداء فى قوله "يا صاحبي" . ثم الاستفهام وكذلك التلهف الذى سيطر على استفهامه ، بالإضافة إلى أن استخدامه لقافية السين زاد من رنة الحزن وإيقاعه فى هذه القصيدة .

ثم يخاطب الشاعر الموت ، الذى انتزع أخاه العزيز قائلاً :

(١) أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الرضا العلوى الحسينى الموسوى ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ١٥٥/٣-١٧٨ ، تاريخ بغداد ٢٤٦/٢، المنتظم ٢٧٩/٧ ، وفيات الأعيان ٤١٤/٤-٤٢٠ ، الأعلام ٩٩/٦.

(٢) انظر وفيات الأعيان ٤١٩/٤.

(٣) الإلباس : الشك.

(٤) أنحى عليه : أقبل عليه ضرباً ، والمعنى هنا صب على كبدي وأفرغ .

(٥) الآسي : الطبيب.

(٦) أعط : أشق ، الإبلاس : الوجوم والسكون من الغم .

(٧) ديوان الشريف المرتضى ١٣٢/٢ - ١٣٣ .

يامَوْتُ كَيْفَ أخَذْتَ نَفْسِي تارِكاً ... نَفْساً عَلَيْهَا جَمَّةُ الأنْفَاسِ ؟
كَيْفَ اجْتَنَبْتَ سِوَى الأكارِعِ عامِداً ... وأصَبْتَ حِيْنَ أصَبْتَ أُمَّ الرَّاسِ؟[1]
ألَّا أخَذْتَ بِمَنْ أخَذْتَ عَصَائِباً ... لَيْسُوا لِمَكْرُمَةٍ مِنَ الأكْيَاسِ [2]

ولا أتفق مع الدكتور عبد الرازق محى الدين فيما ذهب إليه ، من أن الشريف المرتضى لم يوفق هنا ، لأنه افتدى أخاه بقوم ليسوا بمكرمة من الأكياس ، وأنه كان ينبغي عليه أن ينحو منحى الشعراء ، الذين يطالبون الموت بصيغة التحضيض ، أن يأخذ بديلاً عن فقيدهم ، فيقدمون له ما يعز ويكرم، من نفوسهم ونفائسهم [3] لأن الشاعر كان حزيناً موتوراً ، وبلغ به حزنه على أخيه مبلغاً عظيماً ، ونراه من شدة جزعه عليه ، يلوم الموت الذى كان حرياً به أن يختطف قوماً ليسوا أكياساً بدلاً من أخيه ، الذى لايوازيه أحد فى فضائله أو يقاربه ، فهو رأس وغيره هم الأكارع،ثم تأمل كلمة (عامداً) فهى تعبر عن الحالة النفسية ، التى كان يمر بها الشاعر ، إلا أنه يؤخذ على الشريف المرتضى عدم إذعانه ورضاه بقضاء الله وقدره فقد كان يشعر أن الموت قد استهدف أخاه العظيم عمداً ، تاركاً من يستحقون الموت . وهذا يتنافى مع الإيمان بالقضاء والقدر .

وقد تجرع الشريف المرتضى أيضاً ، مرارة فقد الصديق المخلص ، والخل الوفى ، وقد عبر عن ذلك فى رثائه لصديق رحل عنه:

لَمْ تَدَعْ لى نُوَبُ الأيْـ ... ـيَامِ فى الخَلْقِ خَلِيلَا
أنَا صِفْرٌ مِنْ أخِلَّا ... ئِى وَمَا كُنْتُ مَلُولَا
فَمَتَى يَسْمَحُ لي الدَّهْـ ... ـرُ وَقَدْ كَانَ بَخِيلَا
بِخَلِيلٍ جُبْتُ في تَحْصِيـ ... ـلِهِ البُعْدَ الطَّوِيلَا
أخَذَتْهُ مِنِّي الأقْـ ... ـدَارُ صَعْباً وَذَلُولَا [4]

(١) الأكارع : جمع كراع بالضم ، وهو من الإنسان مادون الركبة إلى الكعب ، وأم الرأس : الدماغ.
(٢) المصدر السابق ١٣٣/٢، والعصائب : الجماعات ، والأكياس : العقلاء .
(٣) انظر أدب المرتضى من سيرته وآثاره ص ٢٨٣ .
(٤) ديوان الشريف المرتضى ٧٤/٣.

ومما سبق يتضح لنا أن الفقهاء حرصوا فى مراثيهم ، على الإشادة بمناقب المتوفين، من نقاء من الذنوب والآثام، وطهر وصلاح ، ونصرة للإسلام ، وعلم وفضل...، كما نجد فى بعض مراثيهم التأسي والتجمل بالصبر والجلد، احتساباً لما عند الله تعالى ، والرضا بالقضاء والقدر ، وأن الموت مصير كل حى ، كما أشاروا إلى زوال هذه الحياة، وزيف نعيمها ، وأن ما عند الله خير وأبقى .

أما من حيث العاطفة ، فإنه يمكننا أن نقسم مراثيهم إلى قسمين :

١- القسم الأول : وهى مراثيهم لأسرهم وذويهم ، وقد بثوا فيها لوعاتهم وحسراتهم ، على من فقدوهم ، حتى رأوا فى البكاء وزيارة قبورهم عزاءً وسلوى لنفوسهم الحزينة ، كما وصفوا بؤسهم وشقاءهم بعد رحيل الأحبة عنهم ، وهذا القسم يمتاز بالعاطفة الصادقة ، والشعور العميق بالحزن.

٢- القسم الثانى : وهى مراثيهم العامة ، التى تناولت الخلفاء والعلماء والأدباء ... وهى تمثل شعوراً عاماً بالحزن على شخص له مكانه عظيمة ومؤثرة فى قومه ومجتمعه ، فأعربوا بلسان الجماعة عن حزنهم لفقده ، وامتدحوا صفاته وأشادوا بفضله ، ومراثيهم هنا لاتبلغ من صدق العاطفة ، ومرارة الحزن ، ماتبلغه مراثيهم فى أهلهم وذويهم .

ولم يتعرض فقهاء هذا العصر فى رثائهم ،إلى رثاء المدن والديار.

المبحث الرابع : الهجاء والنقد الاجتماعي

يعد الهجاء من أقدم الأغراض الشعرية في الأدب العربي ، وهو نقيض المدح ، فهو يسلب الصفات التي يمكن أن يمدح بها ، ويعبر عن وجوه القبح واليأس ويجسد ملامح الشر والاختلال والشعور بالنقص والاختلاف (١) .

وقد ترفع كثير من فقهاء هذا العصر عن الهجاء الشخصي ، الذي ينال من المهجوفي عرضه ونسبه وخَلْقِه وخُلُقِه (٢) ، كما حاولوا تسخير الهجاء من أجل الإصلاح ، فتصدوا لهجاء من يتعرض لأمور العقيدة والدين ، وهو ما أسماه الدكتور سامي الدهان بالهجاء الديني (٣) .

واهتم الفقهاء أيضاً بهجاء وذم الظواهر ، والأخلاق الإجتماعية الضارة التي طرأت على المجتمع الإسلامي .

فعن ترفع الفقهاء عن الهجاء ، يضرب لنا الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي ، مثلاً رائعاً عن تحرج الفقهاء وتورعهم ، عن الوقوع في أعراض الناس ، خوفاً من غضب الله عز وجل ، فهو يجيب من هجاه قائلاً :

إنَّ ذِكْـرَ السِّـيَاقِ أَصْلَحَـكَ اللَّـــ ـهُ وَذِكْـرَ المَيْتِ في اللَّحْـدِ وَحْـدِي
حَيَـانِي عِنْـدَ الحَدِيـثِ بِمَـا لَـوْ ذَاعَ لَمْ تَشْـتَغِلْ بِذَمِّـي وحَمْـدِي
فاهْجُنِي بَاطِـلاً فَمَالَـكَ عِنْـدِي أبَداً غَيْرُ مَـا لِغَيْـرِكَ عِنْـدِي (٤)

---

(١) انظر نقد الشعر ص ١١٣ ، فن الهجاء وتطوره عند العرب لإيليا حاوي ص ٨ .
(٢) انظر كتاب " الهجاء " للدكتور سامي الدهان ص ١٠ .
(٣) انظر المرجع السابق ص ١٠ .
(٤) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ٩٣ .

وفي مجال الهجاء الديني ، نجد العديد من الفقهاء ذموا أموراً تتعارض مع الدين وهجوا مرتكبيها . وكان الفقيه منصور التميمي من أبرز أولئك ، فقد حركته غيرته الصادقة على دينه (١) ، ودفاعه عنه إلى التصدي لكل ما يتعارض معه ، وإظهار سخفه ، وها هو يسخر ممن يرى جواز زواج المتعة ، وينبه إلى خطورته ، نظراً لمخالفته لدين الله القويم، ولأنه جعل من الحرائر إماءً ، حيث قال :

يَا مَنْ يَرَى المُتْعَةَ فِي دِيْنِهِ ... حِلاًّ ، وإنْ كانَتْ بِلا مَهْرِ
وَلاَ يَرَى تِسْعِينَ تَطْلِيقَةً ... تَبِينُ مِنْهَا رَبَّةُ الخِدْرِ
مِنْ هَهُنَا طَابَتْ مَوَالِيكُمُ ... فاجْتَهِدوا في الحَمْدِ والشُّكْرِ (٢)

ويرد الفقيه الشاعر أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري الحموي (٥١٥ - ٥٨٥هـ) (٣) ، على الرافضة الذين يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشتمون في الوقت نفسه أعلام الصحابة رضوان الله عليهم ، إذ شبههم بالنصارى في قوله :

قُلْ للرّوافِضِ إنَّكُمْ في سَبِّكُمْ ... أهْلَ الهُدَى في حُبِّكُمْ عَلَمَ الهُدَى
مِثْلُ النَّصَارَى لانَسُبُّ لأجْلِهِمْ ... عِيْسَى وقَدْ سَبُّوا النَّبِيَّ مُحَمَّدا (٤)

أما القاضي ظهير الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر ، فقد تعرض بالنقد الشديد لجماعة من فقراء الصوفية ، كانوا يقيمون في زاوية يتزعمهم شيخ اسمه مكي ،

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ ، ١٠١ .

(٣) فقيه شافعي شاعر ، ولد ونشأ في حماه ، وانتقل إلى دمشق ، ورحل إلى مصر ثم عاد إلى بلاد الشام ، وله شعر في السلطان صلاح الدين الأيوبي ، أسره الفرنج حينما كان مسافراً في البحر ، فخلصه الله منهم ، ثم قتل شهيداً في واقعة مرج عكا ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ٤٦/١٠ ، الوافي بالوفيات ٤١٣/١٢ ، الأعلام ٢٤٢/٢ .

(٤) الوافي بالوفيات ٤١٤/١٢ .

واصفاً ما كان يصدر منهم من أفعال لا تمت للدين بصلة كالغناء والرقص ، حيث قال موجهاً حديثه لشيخهم :

أَلَا قُلْ لِمَكِّيٍّ قَوْلَ النَّصُوحِ ... فَحَقُّ النَّصِيحَةِ أَنْ تُسْتَمَعْ
مَتَى سَمِعَ النَّاسُ فِي دِيْنِهِمْ ... بِأَنَّ الغِنَاسُنَّةٌ تُتَّبَعْ ؟
وأَنْ يَأْكُلَ المَرْءُ أَكْلَ البَعِيرِ ... وَيَرْقُصَ فِي الجَمْعِ حَتَّى يَقَعْ
فَلَوْ كَانَ طَاوِي الحَشَا جَائِعاً ... لَمَا دَارَ مِنْ طَرَبٍ واسْتَمَعْ
وقَالُوا سَكِرْنَا بِحُبِّ الإلَهِ ... ومَا أَسْكَرَ القَوْمَ إلاَّ القِصَعْ
كَذَاكَ الحَمِيرُ إذَا أَخْصَبَتْ ... يُنَقِّزُهَا رَيُّهَا والشَّبَعْ (١)

ولعلك تلحظ معي أن الشاعر كان موفقاً في هجائه ، خاصة في البيت الأخير ، الذي ركز فيه النقد والتعريض ، حيث جسد فيه قبح وشناعة أفعال أولئك القوم ، الخارجين عن جادة الصواب ، وذلك من خلال تشبيه أفعالهم تلك ، من شراهة في الأكل والشرب ، وغناء ورقص ، بفعل الحمير حينما يهزها الشبع والإرتواء ، فتطرب وتنتشي .

وإذا ما انتقلنا إلى النقد الاجتماعي ، نجد أن الفقهاء تطرقوا لكثير من الأوضاع الإجتماعية ، التي كانت سائدة في مجتمعاتهم ، وانتقدوا الضار منها ، ومن ذلك قضية التنجيم ، فقد هاجموا من كان يعتقد بالنجوم ، وبينوا أنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما هي آية من آيات الله عز وجل ، سخرها لعباده .

يقول الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي الشيرازي ساخراً ممن وصفه بحكيم كان يعتقد بالنجوم :

حَكِيمٌ رَأَى أَنَّ النُّجُومَ حَقِيقَةٌ ... وَيَذْهَبُ فِي أَحْكَامِهَا كُلَّ مَذْهَبِ
يُخَبِّرُ عَنْ أَفْلَاكِهَا وبُرُوجِهَا ... وَمَا عِنْدَهُ عِلْمٌ بِمَا فِي المُغَيَّبِ (٢)

(١) وفيات الأعيان ٣٨/١ ، الوافي بالوفيات ١٥٥/٦ ، البداية والنهاية ٦٦/١٣ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٤ / ٢٢٥ ، وانظر مزيداً من الأشعار في النجوم والتنجيم في : المصدر السابق ٣١٩/٣ - ٣٢٠ ، منصور بن إسماعيل الفقيه حياته وشعره ص ٢٨ - ٢٩ .

ومن ذلك أيضاً ما كان يعانيه الكثير من الفقهاء وغيرهم ، من فقر مدقع وحاجة ماسة للقمة العيش حتى إن الفقيه الأديب أبا العباس أحمد بن عبد الغني بن أحمد اللخمي المالكي القطرسي المنعوت بالنفيس (٥٣٣ - ٦٠٣هـ) (١) ، يصرح بأنه لا يسر بالعيد لأنه فقير ، ممزق الثياب رث الهيئة ، بينما السرور من حق الأغنياء فقط ، حيث يقول :

يُسَرُّ بِالْعِيْدِ أقْوَامٌ لَهُمْ سَعَةٌ ... مِنَ الثَّرَاءِ وأمَّا الْمُقْتِرُونَ فَلاَ
هَلْ سَرَّنِي وثِيَابِي فِيهِ قَوْمُ سَبَا ... أوْ رَاقَنِي وعلى رَأْسِي بِهِ ابْنُ جَلا (٢)

وبالإضافة إلى الفقر والعوز الذي لازم الكثير من الفقهاء ، نجد أن العديد منهم تناولوا مجتمعاتهم بالنقد والتقريع ، لأنها لم تقدر مكانتهم العلمية ، ولم تنزهم المكانة التي كانوا يستحقونها . فهذا الفقيه أبو سعد يحيى بن علي بن الحسن الحلواني البزار (٤٥٠- ٥٢٠هـ) (٣) يفاجأ حينما ذهب إلى خباز يطلب منه خبزاً ، بأن عقله الكبير وفطنته

(١) فقيه مالكي من أهل مصر ، وينسب إلى جد له يقال له قطرس ، كان أديباً شاعراً مجيداً ، وكان يجوب البلاد ويمدح الناس ، وذكر ابن خلكان له ديوان شعر ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ١/١٦٤-١٦٧ ، الوافي بالوفيات ٧/٧٢ - ٧٣ ، الأعلام ١/١٥٢ ، معجم المؤلفين ١/٢٧٧ .

(٢) وفيات الأعيان ١/١٦٥ ، الوافي بالوفيات ٧/٧٣ - ٧٤ . ويعني الشاعر قوم سبأ في قول الله تعالى : ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ سورة سبأ الآية ١٩ ، وابن جلا ماله عمامة ، يشير إلى قول الشاعر سحيم بن وثيل الرياحي :

أَنَا ابنُ جَلا وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا ... مَتَى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

انظر المصدرين السابقين ، وكتاب من شوارد الشواهد لعلي الطنطاوي ص ٣٧ ، وللإطلاع على مزيد من الأشعار في هذا المجال انظر : وفيات الأعيان ٣/٢٢٠ - ٢٢١ ، فوات الوفيات ٢/٣٧٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٤٣ .

(٣) فقيه شافعي من أهل العراق ، كان من أئمة الفقهاء ، ولي حسبة بغداد مدة ، ثم عزل عنها ، وولى التدريس بالنظامية ، أرسله الخليفة المسترشد بالله إلى الخاقان محمد بن سليمان صاحب ما وراء النهر ليفيض عليه الخلع ، فتوفى هناك بسمرقند ، انظر ترجمته : طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٣٣ - ٣٣٤ ، كشف الظنون لحاجي خليفة ١/٤٨٢ ، الأعلام ٨/١٥٨ ، معجم المؤلفين ١٣/٢١٢ .

وعلومه الغزيرة ، لا تساوي لقمة من الخبز ، كما بين ذلك بقوله :

مَـرَرْتُ بِخَبَّـازٍ أُحَـاوِلُ حَاجَـةً ... مُـدِلاًّ عَلَيْـهِ أَيْ بِـأَنِّيَ عَـالِمُ
فَلَمَّا رَآنِي قَـالَ : أَهْـلاً وَمَرْحَبـاً ... ظَفِرْتَ بِمَا تَهْوَى فَأَيْنَ الدَّرَاهِـمُ ؟
فَقُلْتُ : مَعِي كَيْسٌ وَنَقْصٌ وَخَاطِرِي ... يَجِيشُ فُضُـولاً كُلُّهـنَّ لَـوَازِمُ (١)
فقال : وَمَنْ هَذِي الذَّخَائِرُ عِنْـدَهُ ... يُحَاوِلُ عِنْدِي حَاجَـةً وَيُسَـاوِمُ
لَعَمْرُكَ لَوْ بِعْتَ الجَمِيـعَ بِلُقْمَـةٍ ... لَمَا كُنْتُ مِمَّنْ فِي الشِّرَاءِ يُخَاصِـمُ (٢)

ويبلغ الألم بالقاضي محمد بن المنجح بن عبد الله أبي شجاع الواعظ (تـ ٥٦٠هـ)(٣) مبلغاً عظيماً ، فعرائس فكره عنست ، لأنها عدمت أكفاء من بين أهل عصره ، فدب الوهن واليأس إلى نفسه ، التي لم ينصفها قومه ، فهو يقول :

عَذِيـرِيَ مِـنْ زَمَـنٍ كُلَّمَـا ... شَـدَدْتُ عُـرَى أَمَلِـي حَلَّهَـا
عَرَائِـسُ فِكْـرِي قَـدْ عَنَسَـتْ ... لِأَنِّـي عَدِمْـتُ لَهَـا أَهْلَهَـا
وَنَفْسِـيَ تَنْهَـلُ مِـنْ مَـوْرِدٍ ... تَـرَى المَوْتَ فِي الـوِرْدِ إِنْ عَلَّهَـا
عَلَيْهَـا مِـنَ الدَّهْـرِ أَثْقَالُـهُ ... وَلَا يَغْلَطُ الدَّهْـرُ يَوْمـاً لَهَـا (٤)

ويعاتب العلامة أبو الفرج ابن الجوزي ، قومه الذين جفوه وتجاهلوا مكانته العلمية لكونه منهم ، لأنهم فتنوا بالغريب وازدروا القريب ، حيث قال :

---

(١) الكيس : العقل

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٤/٧ .

(٣) فقيه فاضل حسن الكلام في المناظرة ، وكان أديباً مليح الشعر لطيفاً ظريفاً ، سافر إلى الشام في سنة (٥٤٠هـ) ووعظ بدمشق وأقام بها مدة ، وخرج إلى بعلبك وولي بها القضاء ثم صرف عنها بعد مدة ، وقدم بغداد ووعظ بها ، وعاد إلى بلاد الجزيرة ثم بغداد وفيها توفي، انظر ترجمته : الوافي بالوفيات ٦٥/٥-٦٦.

(٤) المصدر السابق ٦٦/٥ .

عَذِيرِيَ مِنْ فِتْيَةٍ بِالْعِرَاقِ ... قُلُوبُهُمُ بِالْجَفَا قُلَّبُ
يَرَوْنَ الْعَجِيبَ كَلامَ الْغَرِيبِ ... وقَوْلُ الْقَرِيبِ فَلا يُعْجِبُ
مَيَازِيبُهُمْ إنْ تَنَدَّتْ بِخَيْرٍ ... إلى غَيْرِ جِيرَانِهِمْ تُقْلَبُ
وَعُذْرُهُمُ عِنْدَ تَوْبِيخِهِمْ ... " مُغَنِّيَةُ الحَيِّ مَا تُطْرِبُ " (١)

وكل ذلك أدى إلى أن يفقد العديد من الفقهاء ثقتهم بالناس ، وجعلهم يسيئون الظن بهم ، فهذا الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي ، يتحرق شوقاً إلى الموت ليرتاح من جوار قوم بغضه قربهم حياته ، كما جاء في قوله :

لَوْلَا بَنَاتِي وسَيِّئَاتِي ... لَطِرْتُ شَوْقاً إلى المَمَاتِ
لأنَّنِي في جِوَارِ قَوْمٍ ... بَغَّضَنِي قُرْبُهُمْ حَيَاتِي (٢)

ويرى الفقيه منصور في بيتين آخرين ، أن البعد عن الناس واعتزالهم هو الحل الأمثل ، حيث قال ناصحاً :

النَّاسُ بَحْرٌ عَمِيقٌ ... والبُعْدُ عَنْهُمْ سَفِينَهْ
وَقَدْ نَصَحْتُكَ فَانْظُرْ ... لِنَفْسِكَ الْمُسْتَكِينَهْ (٣)

ويبلغ سوء الظن بالناس منتهاه ، عند القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي ، فكل الناس عنده كلاب دون استثناء ، حيث قال :

---

(١) أدب ابن الجوزي ص ١٢٩ ، والشطر الثاني من البيت الأخير ، مثل اقتبسه ابن الجوزي من الأمثال البغدادية، انظر الأمثال البغدادية المقارنة لعبد الرحمن التكريتي ١٣٥/٤ .
(٢) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ٨٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٥٠ .

كُــلُّ الأَنَــامِ كِــلَابٌ هَــرُّوا بِكُــلِّ طَرِيــقِ
فَــإِنْ ظَفِــرْتَ بِحُــرٍّ فاحْفَظْــهُ فَهْوَ سَلُوقِــي [1]

وهذا أمر مستنكر من القاضي عبد الوهاب ، إذ كيف يبلغ به الكره وسوء الظن ، إلى أن يشتم كل الناس ، ويصفهم بأنهم كلاب ؟ وهو يعلم علم اليقين بأن ذلك يتنافى مع قيم ومثل الإسلام ، التي تحرم التعرض للناس بالشتم وغيره ، مهما كانت الأسباب .

وفي مجال النقد الإجتماعي أيضاً ، كان للفقهاء إسهامات طيبة ، في محاربة كثير من الخصال الضارة ، مثل الكذب ، والنفاق ، والبخل ، والحسد ، والتكبر ... [2]

ونصل في نهاية المطاف إلى الهجاء الشخصي ، إذ نجد لبعض الفقهاء شعراً في هذا المجال ، لم يصرحوا فيه بذكر المهجو تحرجاً ، وتورعوا كذلك عن الفحش والإقذاع في القول ، كما في هجاء القاضي أبي أحمد منصور بن محمد الأزدي الهروي لصاحب له ثقيل الظل ، لم يذكر لنا اسمه أو أية تفاصيل عنه ، حيث قال :

وصَــاحِبٍ لي ثَقِيــلٍ قَــدْ طَــالَ قَــدّاً وقَامَــهْ
فَسَــاعَةٌ مِنْــه عِنْــدِي في طُــولِ يَــوْمِ القِيَامَــهْ
القُــرْبُ مِنْــهُ بَــلاءٌ والبُعْــدُ عَنْــهُ سَلامَــهْ [3]

ويهجو القاضي ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني ، شخصاً ذكر اسمه الأول فقط ، وهو شهاب الدين بقوله :

(١) دمية القصر ٢٢٤/١ ، وسلوق : قرية باليمن تنسب إليها الكلاب السلوقية .
(٢) انظر مبحث الأخلاق والآداب الإسلامية في الفصل الأول .
(٣) دمية القصر ١٠٢/٢ .

مَـازِلْتُ أَسْمَـعُ أَنَّ الشُّــهْبَ ثَاقِبَــةٌ حَتَّى رَأَيْتُ شِــهَاباً وَهْــوَ مَثْقُــوبُ
فِي كَفِّهِ الدَّهْــرُ أَوْ فِي ظَهْــرِهِ قَلَــمٌ فَنِصْفُهُ كَاتِبٌ والنِّصْفُ مَكْتُوبُ (١)

ونظم الخطيب الحصكفي قصيدة طريفة في هجاء مغن لم يسمع مثلها في بابها (٢) ، ومنها قوله :

وَصَــــاحَ صَوْتــــاً نَـــافِراً يَخْــرُجُ عَــــنْ حَـــدِّ البِنَـــا
وَمَــــا دَرَى مَحْضَــــرُهُ مَــــاذَا علــى القَــوْمِ جَنَـــى
فَــــذَا يَسُــــدُّ أَنْفَـــهُ وذَا يَسُـــدُّ الأُذُنَـــــا
ومِنْهُــــمْ جَمَـــاعَـــةٌ تَسْتُـــرُ عَنْــهُ الأَعْيُنَـــا (٣)

ويرسم لنا الفقيه أبو الحسين أحمد بن المبارك بن محمد بن عبد ا لله بـن محمـد البغدادي (٤٨٢-٥٥٢) (٤) صورة ساخرة لشخصية واعظ مزيف يدعى ما لا يعلـم ، إذ صـور أقواله وحركاته ، التي تنم عن كذبه ورغبتـه في التبوء إلى مكـان ليـس هـو أهـلاً لـه ، حيث يقول :

وَمِـنَ الشَّـقَاوَةِ أَنَّهُــمْ رَكَنُــوا إلى نَزَغَــاتِ ذَاكَ الأَحْمَــقِ التَّمْتَــامِ
شَــيْخٌ يُبَهْـرِجُ دِينَـهُ بِنِفَاقِـهِ ونِفَاقُــهُ مِنْهُــمْ علــى أقْــوَامِ
فَــإذَا رَأى الكُرْسِــيَّ تَــاهَ بأَنْفِـهِ أَيْ : إِنَّ هذَا مَوْضِعِــي وَمَقَامِــي

---

(١) ديوان الأرجاني ٢٣٤/١ - ٢٣٥ .
(٢) انظر وفيات الأعيان ٦ / ٢٠٨ .
(٣) المصدر السابق ٦ / ٢٠٨ .
(٤) فقيه فاضل وشاعر ماهر ، ولد ونشأ ببغداد ، ذكره العماد الأصفهاني في الخريدة وأثنى عليه وأورد جانباً من شعره ، وذكره ابن خلكان في ترجمة أخيه محمد بن المبارك المعروف بابن الخل ، انظر ترجمتة : خريدة القصر القسم العراقي الجزء الثالث المجلد الأول ص ٣٨٣ ، وفيات الأعيان ٢٢٧/٤ - ٢٢٨ . شذرات الذهب ١٦٥/٤ ، شعراء بغداد ٣٨٠/١ .

وَيَدُقُّ صَدْراً ما انْطَوَى إلاّ علـى غِـلٍّ يُوَارِيـهِ بِكَـفٍّ عِظَـامِ
وَيقُولُ : أيش أقُولُ ؟ مِنْ حَصَرٍ بِهِ لا لازْدِحَامِ عِبَـارَةٍ وكَـلامِ [1]

بيد أن الهجاء الشخصي عند الفقهاء لا يسير دائماً على تلك الوتيرة ، فقد نظم أحدهم وهو القاضي الأرجاني – عفا الله عنه – أبياتاً أفحش فيها القول ، وأقذع في الهجاء ، وتفوه بألفاظ نابية ، وأنا أذكرها هنا اضطراراً لا اختياراً ، وذلك من أجل الدلالة العلمية في الشاهد فقط ، حيث يقول في هجاء قاضي قضاة الأهواز [2] :

أتيْتُ قَاضِي الأهْوَازِ أطْلُبُهُ وكَانَ قَدْ عطَّلَ القَضَا مُدَّهْ
فقَالَ لي : مَا تُرِيدُ ؟ حَاجِبُهُ وأعْيُنُ الحَاضِرينَ مُمْتَدَّهْ
فَقُلْتُ : قَاضِي القُضَاةِ أبْصِرْهُ ! فَقَالَ : قَاضِي القُضَاةِ في العِدَّهْ
فَقُلْتُ : مِنْ أيِّ ... تُرَى ؟ فَقَالَ : مِمَّنْ وَلِي القَضَا بَعْدَهْ [3]

وأنت ترى أن الشاعر ، قد استباح في هذه الأبيات ، حمى القيم والمثل التي دعا إليها الإسلام ، بهجائه بالفاحشة ، وترويجه للرذيلة والتبذل ، وكان حرياً به وهو العالم الفقيه ، أن يقف عند حدود الإسلام ، فينزه لسانه من الوقوع في أعراض المسلمين بمثل هذا الكلام القبيح ، وأن يعرف للقاضي حرمته ومنزلته ، ولا سيما أنه أحد العاملين في هذا السلك .

وخلاصة القول ، إن معظم هجاء فقهاء هذا العصر ، قد انصرف إلى محاربة من يتعرض لأمور العقيدة والدين الحنيف ، وإلى انتقاد الأوضاع الاجتماعية الخاطئة ، ومحاربة الخصال الفاسدة في المجتمع ، وكان للإسلام أثر عظيم في ترفع الفقهاء عن النيل من أعراض الناس ، وعدم هجاء معين ، وكذلك عدم الفحش في القول ، باستثناء ما نجده في بعض هجاء القاضي الأرجاني وكذلك بعض هجاء القاضي عبدالوهاب المالكي .

(١) وفيات الأعيان ٢٢٨/٤ ، شعراء بغداد ٣٨٢/١ ، والحصر : العي ، انظر الصحاح ٦٣١/٢ .
(٢) الأهواز : اسم عربي أصله الأحواز ، وهي قاعدة إقليم خوزستان ببلاد فارس ، وهي تسمى الآن عربستان .
(٣) ديوان الأرجاني ٥١١/٢ ، وانظر أيضاً ٢٨٥/١ .

المبحث الخامس : الإخوانيات

الشعر الإخواني لون من الشعر ، يصور العلاقات الاجتماعية ، التي تربط الشعراء بأصدقائهم وأحبائهم ، من خلال رسائل شعرية متبادلة ، تعبر عما يجيش في صدورهم من مشاعر الود والصفاء . ونظرة إلى ألوان هذه الرسائل الشعرية ، ترينا أن هناك صلة وثيقة بينها وبين النثر ، من حيث الغرض والباعث ، ولذا صح المزج بين الشعر والنثر في الرسائل الإخوانية (1) ، وقد حفظت لنا العديد من المصادر ، التي ترجمت لفقهاء هذا العصر ، ما كان بينهم وبين أصدقائهم وإخوانهم ، من أشعار تعبر عن أواصر الود والإخاء ، كما تصور ما كان يدور بينهم من عتاب ومؤاخذة .. هذا ويمكننا أن ندرس إخوانيات الفقهاء من خلال المحاور التالية :

١- رسائل الشوق والمودة :

كان لرسائل الشوق والمودة المتبادلة بين الفقهاء وأصدقائهم ، النصيب الأكبر من شعر الإخوانيات ، وقد عبروا من خلالها عن صادق محبتهم ، وخالص مودتهم ، ومن ذلك الرسائل الشعرية والنثرية المتبادلة ، بين القاضي أبي القاسم علي بن محمد ابن داود بن فهم التنوخي ، وبين الوزير أبي محمد الحسن بن محمد بن عبد الله المهلبي، ومنها ما كتبه المهلبي قبل تقلده الوزارة ، قائلاً :

" كتابي – أطال الله بقاء سيدنا القاضي – عن سلامة لا زلت له إلفاً وعليه وقفا:

وَحَمْداً لِمَوْلىً أسْتَمِدُّ بِحَمْدِهِ ... لَهُ الرُّتْبَةُ العَلْيَاءُ والعِزُّ دَائِمَا
وأنْ يُسْخِطَ الأيَّامَ بِالجَمْعِ بَيْنَنَا ... وَتَرْضَى المُنَى حَتَّى يُرِينِيكَ سَالِمَا

فكتب القاضي في الرد على رسالة المهلبي قائلاً : " وصل كتابه – أدام الله عزه – فقمت معظماً له ، وقعدت مشتملاً على السرور به :

---

(1) انظر أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٥٧٨ ، العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص ٤٩١– ٥٠٠ .

وَفَضَضْتُـــــهُ فَوَجَدْتُـــــهُ   لَيْـلاً علـى صَفَحَـاتِ نُـورِ
مِثْـلَ السَّـوَالِفِ والخُـدُو   دِ الْبِيـضِ زِيْنَـتْ بالشُّـعُورِ
بِنِظَـامِ لَفْـظٍ كَـالثُّغُو   رِ وَكَـالَّلآلِيءِ في النُّحُـورِ
أنْزَلْتُـهُ في القَلْـبِ مَنْـ   زِلَةَ القُلُوبِ مِـنَ الصُّـدُورِ (١)

ويجيب الشريف المرتضى ، بأبيات إخوانية رقيقة ، أحد أصحابه ، وقد كتب إليه أبياتاً طلب منه فيها الإجابة بنفس الوزن والقافية والروى ، فكتب إليه الشريف أبياتاً أعرب فيها عن حنينه إلى الأيام الخوالي ، التي كان فيها اجتماع الأصدقاء ، كما أوضح أن الإقبال على الإخوة والأصدقاء يدخل في النفس البهجة والسرور ، وختم هذه الإبيات بالتأكيد على أنه لا يزال على وده بهم ، مهما تبدلت به الأحوال ، ومما جاء فيها قولـه :

حُوشِـيتُ أنْ أسْـلاكُمُ   وأمَلَّكُـمْ أوْ أُعْرِضَـا
أوْ أنْ أُرَى بِسِـوَاكُمُ   مُتبَـدِّلاً مُتَعوِّضَـا
لا حَـالَ وِدٌّ بَيْنَنَـا   عُمْـرَ الزَّمَـانِ ولاَ انْقَضَـى
وخِبَـاءُ مَـا أضْحَـى وأمْـ   ـسَى بَيْنَنَـا مَـا قُوِّضَـا (٢)
وإذَا أقَمْـتَ فَـلاَ أبَـا   لِي مَـنْ يُرَحِّلُـهُ القَضَـا
خُذْهَـا يَسُـوقُ بِهَـا الـودا   دُ إليـكَ سَوْقـاً مُجْهِضَـا (٣)

وهذا الفقيه أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الله ابن البناء البغدادي (٣٩٦ -

---

(١) نشوار المحاضرة ٢/٢٠٣ ، معجم الأدباء ١٤ / ١٧٧ .

(٢) الخباء : الخيمة ،والبيت من الشعر والصوف ، وقوض : هدم .

(٣) ديوان الشريف المرتضى ٢/١٦٦ - ١٦٧ .

٤٧١هـ) (١) ، يكتب إليه أحد أصدقائه مفتقداً إياه ، ومتشوقاً إليه قول الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٠) (٢) :

إنْ كُنْتَ لَسْتَ مَعِي فالذِّكْرُ مِنْكَ مَعِي ... يَرَاكَ قَلْبِي وإنْ غُيِّبْتَ عَنْ نَظَرِي
العَيْنُ تُبْصِرُ مَا تَهْوَى وَتَفْقِدُهُ ... وَبَاطِنُ القَلْبِ لا يَخْلُو مِنَ النَّظَرِ

فارتجل الفقيه أبو علي أبياتاً ، بادله فيها الحب والمودة والشوق ، وبين فيها أنه وإن بعدت أجسامهما ونأت ، فإن أرواحهما تتلاقى وتتواصل ، جاء فيها :

إذَا غُيِّبَتْ أشْبَاحُنَا كَانَ بَيْنَنَا ... رَسَائِلُ صِدْقٍ في الضَّمِيرِ تَرَاسَلُ
وأرْوَاحُنَا في كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ ... تَلاقَى بِإخْلاصِ الوِدَادِ تُوَاصِلُ
وكَمْ غَائِبٍ والقَلْبُ مِنْهُ مُسَالِمٌ ... وكَمْ زَائِرٍ في القَلْبِ مِنْهُ بَلابِلُ (٣) .
فلا تَجْزَعَنْ يَوْماً إذَا غَابَ صَاحِبٌ ... أمِينٌ ، فَمَا غَابَ الصَّدِيقُ المُجَامِلُ (٤).

وتتجلى في هذه الأبيات وما سبقها ، آيات المودة الخالصة ، والأخوة الصادقة ، إذ نرى رقة الشعور ، والشوق والحنين إلى عهود الوصال ، والتلهف إلى التلاقي ، مما يدل على تمازج الأرواح ، وائتلاف القلوب .

---

(١) فقيه حنبلي ، محدث واعظ ، كان شديداً على أهل الأهواء ، وكان متفنناً في العلوم ، أديباً شاعراً ، له مصنفات كثيرة تزيد على مائة وخمسين كتاباً ، منها " شرح الخرقي " في فقه الإمام أحمد بن حنبل ، و " طبقات الفقهاء " انظر ترجمته : طبقات الحنابلة ص ٣٩٧ ، معجم الأدباء ٢٦٥/٧ ، الوافي بالوفيات ٣٨١/١١-٣٨٣ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٣٢/١-٣٣ ، المنهج الأحمد ١٣٩/٢-١٤٠ ، الأعلام ١٨٠/٢.

(٢) أحد أبرز أئمة العربية ، وواضع علم العروض ، انظر ترجمته : إنباه الرواة ٣٤١/١ ، وفيات الأعيان ٢٤٤/٢ - ٢٤٨ ، بغية الوعاة ٥٥٧/١ - ٥٦٠ ، الأعلام ٣١٤/٢ ، معجم المؤلفين ١١٢/٤ .

(٣) في الوافي بالوفيات : وكم غائب في الصدر منه مسلم .

(٤) الوافي بالوفيات ١١ / ٣٨٢ - ٣٨٣ ، وقد انفرد بذكر بيتي الخليل بن أحمد ، الذيل على طبقات الحنابلة ٣٦/١-٣٧ ، المنهج الأحمد ١٤١/٢ . وللإطلاع على مزيد من هذا الشعر يرجى النظر في : يتيمة الدهر ١٢٧/١-١٢٩ ، ٣٨٢/٢ - ٣٨٤ ، ٥ / ٢٤٠ ، تاريخ بغداد ٦ / ٣١٠ ، ترتيب المدارك ٢٨١/٣، وفيات الأعيان ١٦٦/١ .

٢ - العتاب :

ولم تخل علاقات الفقهاء بإخوانهم وأصدقائهم من جفوة تنتابها بين الفينة والأخرى ، أو صدود أو قطيعة ... مثل غيرهم من البشر ، وقد تناول بعض الفقهاء في شعرهم تلك الأمور الطارئة ، حيث عمدوا في عتابهم إلى لون من المؤاخذة الرقيقة، كما حرصوا على تذكير أصدقائهم ، بما يكنونه لهم من ود صاف ، ومن ذلك أن شخصاً يدعى جعفر بن ورقاء ، كانت تربطه بقاضي القضاة أبي عمر محمد بن يوسف ابن يعقوب الأزدي (٢٤٣-٣٢٠هـ) (١) وابنه قاضي القضاة أبي الحسين عمر (٢٩١ - ٣٢٨هـ) (٢) مودة أكيده ، فعن لجعفر هذا وأخيه سفرة ، لم يودع فيها القاضيين ، فلما عاد من سفرته ، لم يقصداه ، فكتب إليهما الأبيات التالية ، يعاتبهما فيها ويستنكر منهما هذا الجفاء ، الذي لا يرى له مبرراً :

أأسْتَجْفِي أبَا عُمَرٍ وأشْكُو ... أمْ أسْتَجْفِي فَتَاهُ أبَا الحُسَيْنِ ؟
بِأيِّ قَضِيَّةٍ وبِأيِّ حُكْمٍ ... ألَحّا في قَطِيعَةِ وَاصِلَيْنِ ؟
فَمَا جَاءَا ولا بَعَثَا رَسُولاً ... ولا كَانَا لِحَقٍّ قَاضِيَيْنِ
وإنَّ مِنَ المُرُوءَةِ أنْ يَكُونَا ... لِمَنْ والاهُمَا مُتَوالِيَيْنِ
فإنْ نَعْتِبْ فَحَقّاً غَيْرَ أنَّا ... نُجِلُّ على العِتَابِ القَاضِيَيْنِ

فوصلت الأبيات إلى أبي عمر ، فأنفذها إلى ابنه أبي الحسين نظراً لانشغاله ، وأمره بالجواب عنها ، فكتب إليه :

تَجَنَّ واظْلِمْ فَلَسْتَ مُنْتَقِلاً ... عَنْ خَالِصِ الوُدِّ أيُّهَا الظَّالِمْ
كَتَبْتَ تَشْكُو قَطِيعَةً سَلَفَتْ ... وخِلْتَ أنِّي لِحَبْلِكُمْ صَارِمْ

---

(١) فقيه وعالم بالحديث ، ولد بالبصرة وتولى القضاء بمدينة المنصور والأعمال المتصلة بها ، وتولى قضاء الكرخ ، كما تقلد مع قضاء الجانب الشرقي ببغداد الشام واليمن ، وصنف مسنداً كبيراً ، وكان يضرب به المثل في العقل والحلم ، وكانت وفاته ببغداد ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٤٠١/٣ ، الأعلام ١٤٨/٧ .

(٢) ولي القضاء بمدينة المنصور في حياة أبيه ، نيابة عنه ، وهو ابن عشرين سنة ، ثم توفي أبوه وهو على القضاء ، فأقر عليها إلى آخر عمره ، وكان حافظاً للقرآن والفقه على مذهب الإمام مالك ، والفرائض والحساب واللغة والنحو والشعر والحديث ، توفي ببغداد شاباً ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٢٢٩/١١ - ٢٣٠ ، ترتيب المدارك ٢٧٨/٣ - ٢٧٩ ، المنتظم ٣٠٥/٦ ، معجم الأدباء ٦٧/١٦-٦٨ ، الأعلام ٥٩/٥ .

تَرَكْتَ حَقَّ الوَدَاعِ مُنْصَرِفاً وَجِئْتَ تَبْغِي زِيَارَةَ القَادِمْ
كَأَنَّ حَقِّي عَلَيْكَ مُطَّرَحٌ وَحَقَّ مَا تَبْتَغِيهِ بِي لَازِمْ
أَمْرَانِ لَمْ يَذْهَبَا على فَطِنٍ وأَنْتَ بِالْحُكْمِ فِيهِمَا عَالِمْ
وَبَعْدَ ذَا فَالْعِتَابُ مِنْ ثِقَةٍ وَصَدْرُهُ مِنْ حَفِيظَةٍ سَالِمْ

فلما وقف جعفر على هذه الأبيات ، ذهب إليهما ، وعاد معهما إلى ما كان عليه من الود والمصافاة (١) .

وحينما مرض القاضي أبو الحسين محمد بن عبيد الله بن أحمد بن معروف (تـ ٣٩٠هـ) (٢) لم يعده أحد أصدقائه المقربين ، فكتب إليه الأبيات التالية معاتباً ، ومصوراً معاناته من الهجر والفراق :

أَصْلَحَ شُرْبَ الدَّوَاءِ جِسْمِي والقَلْبُ مِنْهُ السُّقَامُ بَاقِ
أَظَلَّهُ البَيْنُ فَهْوَ شَاكٍ مِنْ أَلَمِ الهَجْرِ والفِرَاقِ
وَلَسْتُ أَرْجُو لَهُ فِرَاقاً إلاَّ بِأَنْ يَقْرُبَ التَّلاقِي (٣)

وقريب من هذا ما وقع للفقيه الشاعر بهاء الدين أسعد بن يحيى بن موسى السنجاري (٥٣٣-٦٢٢هـ) (٤) ، فقد كان بينه وبين صاحب له صداقة حميمة ، ثم جرى بينهما

---

(١) معجم الأدباء ٦٩/١٦-٧٠ ، وقد جاءت بعض هذه الأبيات بروايات مختلفة في كل من : تاريخ بغداد ٢٣٠/١١-٢٣١ ، ترتيب المدارك ٢٧٩/٣ - ٢٨٠ ، المنتظم ٣٠٦/٦ .

(٢) فقيه فاضل متكلم ، وكان أديباً شاعراً حسن العبارة ، بليغ الألفاظ ، مليح الكتابة ، ولي القضاء بالجانب الشرقي من بغداد نيابة عن والده القاضي أبي محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف - سبقت ترجمته في التمهيد ، انظر ترجمته : الوافي بالوفيات ٦/٤ .

(٣) المصدر السابق ٧/٤ .

(٤) كان فقيهاً شافعياً ، وتكلم في الخلاف إلا أنه غلب عليه الشعر ، واشتهر به ، وطاف البلاد ومدح الأكابر ، وذكر ابن خلكان أنه وجد ديوان شعره في خزانة كتب الأشرفية بدمشق في مجلد كبير ، مولده ووفاته في بلده سنجار وهي بين دجلة والفرات انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٢١٤/١ - ٢١٧ ، الوافي بالوفيات ٣٢/٩ ، البداية والنهاية ١١٠/١٣ ، الأعلام ٣٠٢/١ .

عتاب ، وانقطع ذلك الصاحب عنه ، فعاتبه بهاء الدين ، فكتب إليه بيتي الحريري (٤٤٦-٥١٦هـ) (١) وهما في المقامات :

لا تَزُرْ مَنْ تُحِبُّ في كُلِّ شَهْرٍ ... غَيْرَ يَوْمٍ ولا تَزِدْهُ عَلَيْهِ
فاجْتِلاءُ الهِلَالِ في الشَّهْرِ يَوْمٌ ... ثُمَّ لا تَنْظُرُ العُيُونُ إِلَيْهِ (٢)

فكتب إليه بهاء الدين من نظمه :

إِذَا حَقَّقْتَ مِنْ خِلٍّ وِدَاداً ... فَزُرْهُ ولا تَخَفْ مِنْهُ مَلَالا
وكُنْ كَالشَّمْسِ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ ... ولَا تَكُ في زِيَارَتِهِ هِلَالَا (٣)

أما الفقيه أبو محمد عبدالله بن محمد البخاري الباقي ، فكان له صديق ما طله أمراً وعده به ، فكتب إليه أبياتاً يعاتبه فيها ، ويستنجزه ما وعد ، قال فيها :

تُوَسِّعُ مَطْلِي والزَّمَانُ يَضِيقُ ... وأنْتَ بِتَقْدِيمِ الجَمِيلِ حَقِيقُ
فَإمَّا نَعَمْ يُحْيِي الفُؤَادَ نَجَاحُهَا ... وإمَّا إِيَاسٌ بِالغَرِيبِ رَفِيقُ
فإنَّ مُرَجِّي البِرِّ في الأَسْرِ مُوْثَقٌ ... وإنَّ طَلِيقَ اليَأْسِ مِنْكَ طَلِيقُ (٤)

ويتضح لنا من النماذج السابقة ، أن عتاب الفقهاء كان رقيقاً ، يجيش بالعواطف الزاخرة ، التي يحملونها نحو أصدقائهم وإخوانهم ، كما يعبر بوضوح عن نقاء سريرتهم ، وصدق عواطفهم .

---

(١) أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الأديب المعروف . صاحب مقامات الحريري، انظر ترجمته : المنتظم ٢٤١/٩ ، معجم الأدباء ٢٦١/١٦ ، إنباه الرواة ٢٣/٣ ، وفيات الأعيان ٦٣/٤ - ٦٧ ، بغية الوعاة ٢٥٧/٢-٢٥٩ ، الأعلام ١٧٧/٥-١٧٨ .

(٢) مقامات الحريري ، المقامة الفرضية ص ١٢٨ .

(٣) وفيات الأعيان ١ / ٢١٦ ، الوافي بالوفيات ٩ / ٣٣.

(٤) تاريخ بغداد ١٤٠/١٠ .

٣- التهاني

كان الفقهاء يتبادلون التهاني مع أصدقائهم وأحبائهم في مناسبات معينة ، مثل الإبلال من المرض ، أو لمناسبة عيد من الأعياد ، أو النجاة من مكروه ، أو غير ذلك من المناسبات السعيدة ، ومن ذلك أبيات القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، في تهنئة الصاحب بن عباد بالبرء من المرض ، ومنها قوله :

بِكَ الدَّهْرُ يَنْدَى ظِلُّهُ وَيَطِيبُ ... وَيُقْلِعُ عَمَّا سَاءَنَا ويَتُوبُ
وَنَحْمَدُ آثَارَ الزَّمَانِ ورُبَّمَا ... ظَلَلْنَا وأوْقَاتُ الزَّمَانِ ذُنُوبُ
أفي كُلِّ يَوْمٍ للمَكَارِمِ رَوْعَةٌ ... لهَا في قُلُوبِ المَكْرُمَاتِ وَجِيبُ (١)
تَقَسَّمَتْ العَلْيَاءُ جِسْمَكَ كُلَّهُ ... فَمِنْ أيْنَ فِيهِ للسُّقَامِ نَصِيبُ ؟
إذَا أَلِمَتْ نَفْسُ الأمِيرِ تَأَلَّمَتْ ... لهَا أنْفُسٌ تَحْيَا بِهَا وقُلُوبُ (٢)

وقال الشريف المرتضى مهنئا والده بعيد الفطر :

هَنِيئاً لَكَ العِيدُ المُخَلِّفُ سَعْدُهُ ... عَلَيْكَ مِنَ النَّعْمَاءِ ظِلاًّ مُمَدَّدَا
وَلاَزِلْتَ فِيهِ بَالِغاً كُلَّ إرْبَةٍ ... ولازَالَ مَكْرُوراً عَلَيْكَ مُرَدَّدَا (٣)
تَهُبُّ رِيَاحُ الجَوِّ حَوْلَكَ كُلُّهَا ... نَسِيماً وَيَطْلُعْنَ الكَوَاكِبُ أسْعَدَا (٤)

ويتضح من الأبيات السابقة أن شعر التهنئة لا يختلف كثيراً عن شعر المدح ، اللهم إلا أنه يقال في مناسبات خاصة وبالتالي فإن الشاعر يدور فيه في فلك محدود ، حتى يوفق في إظهار فرحته بتلك المناسبات ، أما المديح فإنه غير مقيد بمناسبة أو زمان .

---

(١) الوجيب : الخفق والارتجاف .
(٢) يتمية الدهر ٤/ ٢٠ .
(٣) الإربة والمأرب : الحاجة يريد الإنسان قضاءها .
(٤) ديون الشريف المرتضى ١/ ٢٣٨ .

٤- التعازي :

وهو لون من ألوان شعر الإخوانيات . يقوم الأصدقاء من خلاله بمواساة إخوانهم وأصدقائهم ، ومشاركتهم في مصابهم الأليم بفقدهم أباً أو إبناً أو أخاً .. ، ولا نكاد نجد لفقهاء العصر العباسي الثاني ، مشاركة في هذا اللون من الشعر الإخواني ، عدا ما نجده عند الشريف المرتضى ، فقد اشتمل ديوانه على شعر ، أنشأه في تعزية ومواساة إخوانه وأصدقائه ، ومن ذلك قوله معزياً أحد أحبته في بنت له :

فَدَعِ التَّذَكُّرَ لِلَّذِينَ تَطَارَحُوا ... بِيَدِ المَنُونِ فَهَالِكٌ لا يُذْكَرُ
وإذَا جَرَى قَدَرٌ بِشيءٍ فارْضَهُ ... فَالمُعْتِبُونَ لَسَاخِطُو مَا يُقْدَرُ (١)
بَاهِ الرِّجالَ بِفَضْلِ حِلْمِكَ فِيهُمُ ... وافْخَرْ بِهِ فَبِمِثْلِ ذَلِكَ يُفْخَرُ
وإذَا أَلَمَّ بِكَ الزَّمَانُ فَلا تَلُمْ ... خُلْسَاتِهِ فَلما خطاهُ أَكْثَرُ
ولَطَالَمَا عَزَّيْتُ غَيْرَكَ في رَدًى ... بالصَّبْرِ والمُعَزَّى بِصَبْرٍ يَصْبِرُ (٢)

وقال أيضاً يعزي أحد أصدقائه في والدته :

دَعِ التَّتَبُّعَ لِلْعُمْرِ الَّذِي قَطَعَتْ ... عَنْهُ الحياةَ المَنَايَا وانْتَهَى الأمَدُ
مَادُمْتَ تَطْمَعُ فِيهِ فاحْزَنَنَّ لَهُ ... فإنْ يَئِسْتَ فلا حُزْنٌ ولا كَمَدُ
واسْتَبْقِ دَمْعَكَ لا تَذْهَبْ بِهِ سَرَفاً ... فَمُسْرِفٌ فِيه يُضْحِي وهو مُقْتَصِدُ
وإنْ جَزِعْتَ لِأَنْ مُدَّتْ إليكَ يَدٌ ... فبالَّذِي عِشْتَ مَامُدَّتْ إليك يَدُ
ومُنْيَةُ الوالِدَيْنِ الدَّهْرَ أجْمَعَهُ ... أنْ يَكْرَعَا الموتَ حتَّى يَسْلَمَ الوَلَدُ (٣)

فالشاعر في الأبيات السابقة ، يقف بجانب هذين الموتورين ، يشد من أزرهما بكلماته الصادقة ، ويحثهما على الحلم والصبر ، لمواجهة ما أصيبا به من فقد عزيز .

---

(١) المعتبون : جمع المعتب وهو طالب العتبى وهي الرضا .

(٢) المصدر السابق ٢/٢٥ - ٢٦ .

(٣) المصدر السابق ٢٢٠/١ ، وانظر أيضاً ٢٠/١ ، ٢٤٥ ، ٢ / ٤٦ ، ١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢٤٩ ، ٣ / ٦٤.

وبعد ، فقد تميز شعر الإخوانيات عند فقهاء هذا العصر ، بالصدق وحرارة العاطفة والتواضع والكياسة ، فهو يعطينا صورة صادقة لتلك العواطف الإنسانية الرفيعة ، التي كان الفقهاء يكنونها ، لإخوانهم وأصدقائهم . أما معانيهم فكانت تقليدية، حيث دارت حول الشوق والمودة والعتاب والتهنئة والتعزية ، ولم يحرص معظم الفقهاء في مساجلاتهم الشعرية ، على أن يتفقوا مع أصحابهم وإخوانهم في البحر والقافية والروى .

المبحث السادس : الغزل

يعد الغزل من أكثر أغراض الشعر تداولاً ، بين فقهاء العصر العباسي الثاني ، على اختلاف أماكنهم ، وتفاوت أزمانهم ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الغزل نتاج ميل الفطرة من الرجل وإحساسه بالمرأة ، مما حدا بالكثير من الفقهاء إلى خوض غماره بشعرهم [1] .

وقد جاء غزل الفقهاء في مجمله يحمل تعبيراً صادقاً عن عفتهم وطهرهم ، وكذلك شوقهم إلى وصل الحبيب ، وحنينهم إلى ذكر أيامه ، وسقمهم من الصدود والهجران ، بالإضافة إلى أحساسهم وافتتانهم بالجمال ، وسوف نتطرق إلى كل ذلك بالتفصيل فيما يلي :

١- الغزل الفني في مطالع القصائد :

دأب بعض الفقهاء على افتتاح شعرهم بمقدمات غزلية تقليدية ، مثل غيرهم من شعراء ذلك العصر ، متأثرين في ذلك بمن قبلهم من شعراء العربية ، مع بعض الحذف والتحوير للعناصر البدوية القديمة ، مثل الأماكن والرؤى الجاهلية في مسيرة الركب ... وابدالها بعناصر أخرى استمدوها من بيئتهم المتحضرة ، وحياتهم المترفة . [2]

---

(١) كان الفقهاء أبرز من تناول موضوع الحب بالدراسة والتحليل في أدبنا العربي ، ومن بينهم اثنان من فقهاء هذا العصر ، وهما أبو بكر محمد بن داود الظاهري الأصفهاني ، في كتابة " الزهرة " وأبو الفرج ابن الجوزي في كتابه " ذم الهوى " ، انظر كتاب دراسة الحب في الأدب العربي للدكتور مصطفى عبد الواحد ١/١١-٣٥ ، كتاب الحب في التراث العربي للدكتور محمد حسن عبد الله ص ٤٨ - ٥٠ .

(٢) انظر مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني ص ٣٩١ ، ٣٩٧ - ٣٩٨ .

وكان من أبرزهم القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني ، الذي كان يستهل قصائده المدحية بالنسيب الرقيق ، ثم يتخلص منه ببراعة إلى المدح ، وهذه البراعة جعلت الثعالبي يفرد مبحثاً صغيراً في كتابه ، جمع فيه لمعاً من شعره في حسن التخلص[1] .

ومن ذلك قوله في مقدمة قصيدة في مدح الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير (ت ٤٠٣هـ)[2] :

وَلَمَّا تَدَاعَتْ لِلْغُرُوبِ شُمُوسُهُمْ ... وَقُمْنَا لِتَوْدِيعِ الفَرِيقِ المُغَرِّبِ
تَلَقَّيْنَ أطْرَافَ السُّجُوفِ بِمُشْرِقٍ ... لَهُنَّ وأعْطَافَ الخُدُورِ بِمُغْرِبِ[3] .
فَمَا سِرْنَ إلاَّ بَيْنَ دَمْعٍ مُضَيَّعٍ ... ولاَ قُمْنَ إلاَّ بَيْنَ قَلْبٍ مُعَذَّبِ
كَأَنَّ فُؤَادِي قِرْنُ قَابُوسَ رَاعَهُ ... تَلاَعُبُهُ بِالفَيْلَقِ المُتَأَشِّبِ[4] .

ثم يمضى بعد ذلك في مدح الأمير قابوس .

(١) انظر يتيمة الدهر ٤ / ١٥ - ١٧ .

(٢) ديلمي الأصل مستعرب ، كان أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان ، نفر منه شعبه لبأسه وسطوته على معارضيه ، فخلعه قواده وولوا ابناً له ، وحبسوه في إحدى القلاع حتى مات ، فدفن بظاهر جرجان ، وكان نابغة في الأدب والإنشاء ، وقد أشاد به الثعالبي ، وذكر جانباً من إنشائه ، وله شعر بالعربية والفارسية ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٦٧/٤ - ٧٠ ، المنتظم ٢٦٤/٧ ، معجم الأدباء ٢١٩/١٦ ، وفيات الأعيان ٧٩/٤-٨١ ، الأعلام ١٧٠/٥.

(٣) شرح هذا البيت الأستاذ عبد الخالق عمر - رحمه الله - في معجم الأدباء ٣٠/١٤ ، فقال " السجوف : الستائر ، والمشرق : صفة لمحذوف ، أي دمع مشرق ، من أشرقه بمعنى أغصه ، ومغرب صفة لمحذوف : أي قلب مبالغ في الحزن ، يريد أنهن عند الصعود ، وتلقي السجوف بكين ، فلما صرن في أعطاف الخدور حزنت قلوبهن ، فهي معذبة ، والبيت بعده يوضح ما قلناه " أ ، هـ .

(٤) يتيمة الدهر ١٧/٤ ، معجم الأدباء ٣٠/١٤ ، وقال الاستاذ عبد الخالق في شرح هذا البيت أيضاً : " القرن : المنازل ، والقرين : الصاحب ، الفيلق : الجيش ، المتأشب : المختلط ، فهو يصف فؤاده المضطرب إذ يشتد خفقانه بقرن قابوس ومنازله ، إذا راعه ما يفعله قابوس بفيلقه المختلط الكثير ، فإن قلبه يشتد اضطرابه " .

ويفتتح القاضي أبو بكر ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني ، قصيدته المدحية بمقدمة غزلية ، يعاتب فيها الحبيب على مطله وصدوده ، ويدعوه للإنصاف ، ثم يوجه لومه إلى عاذله ، حيث يقول :

حَيْثُ انْتَهَيْتَ مِنَ الهِجْرَانِ بِي فَقِفِ ... ومِنْ ورَاءِ دَمِي سُمْرَ القَنَا فَخَفِ

يَا عَابِثاً بِعِدَاتِ الوَصْلِ يُخْلِفُهَا ... حَتَّى إذا جَاءَ مِيعَادُ الفِرَاقِ يَفِي

اِعْدِلْ كَفَاتِنِ قَدٍّ مِنْكَ مُعْتَدِلٍ ... واعْطِفْ كَسَائِلِ صِدْغٍ مِنْكَ مُنْعَطِفِ

ويَا عَذُولِي ومَنْ يُصْغِي إلى عَذَلٍ ... إذَا رَنَا أحْوَرُ العَيْنَيْنِ ذُو هَيَفِ

تَلُومُ قَلْبِيَ أنْ أصْمَاهُ نَاظِرُهُ ... فِيمَ اعتراضُكَ بَيْنَ السَّهْمِ والهَدَفِ (١)

وقال الفقيه الشاعر بهاء الدين أسعد بن يحيى بن موسى السنجاري ، في مطلع قصيدة مدح فيها القاضي أبا الفضل كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري (٤٩٢-٥٧٢هـ) (٢) ، أبياتاً غزلية رقيقة ، جمع فيها بين حلاوة اللفظ ، وبراعة المعنى، وحسن الأسلوب (٣) ، إذ وجه حديثه إلى المحبوب قائلاً :

وهَوَاكَ مَا خَطَرَ السُّلُوُّ بِبَالِهِ ... ولأنْتَ أعْلَمُ في الغَرَامِ بِحَالِهِ

ومَتَى وشَى وَاشٍ إليكَ بأنَّهُ ... سَالٍ هَوَاكَ فَذَاكَ مِنْ عُذَّالِهِ

أوَ لَيْسَ للكَلِفِ المُعَنَّى شَاهِدٌ ... مِنْ حَالِهِ يُغْنِيكَ عَنْ تَسْآلِهِ

جَدَّدْتَ ثَوْبَ سَقامِهِ وهَتَكْتَ سِتْـ ... ـرَ غَرامِهِ وصَرَمْتَ حَبْلَ وِصَالِهِ (٤)

---

(١) ديوان الأرجاني – طبعة بيروت – ص ٢٦٧ .

(٢) فقيه أديب ، ولد بالموصل وتولى قضاءها ، وبنى بها مدرسة للشافعية ، ثم انتقل إلى دمشق ، وترقى إلى درجة الوزارة وحكم بلاد الشام ، فكان له الحل والعقد ، في زمن نور الدين محمود والسلطان صلاح الدين الأيوبي ، انظر ترجمته ، وفيات الأعيان ٢٤١/٤ – ٢٤٤ ، الوافي بالوفيات ٣٣١/٣ ، طبقات الشافعية الكبرى ١١٧/٦ – ١٢١ ، الأعلام ٢٣١/٦ .

(٣) انظر من غزل الفقهاء ص ١٢ .

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٢١٤ ، الوافي بالوفيات ٩ / ٣٢ .

وعلى عادة شعراء العربية ، تعرض الفقهاء في أشعارهم الغزلية لذكر أسماء اللائي يكنون لهن المودة والحب ، وأغلب الظن أن هذه الأسماء وهمية لا وجود لها في حياتهم، وإنما ذكروها في أشعارهم ، لكونها تقليداً شعرياً موروثاً عن القدماء .

يقول الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي ، مخاطباً محبوبته التي أسماها " خلوب "

قَدْ قُلْتُ لَمَّا أنْ شَكَتْ ... تَرْكِي زِيارَتَهَا " خَلُوبْ "
إنَّ التَّبَاعُدَ لا يَضُرُّ ... إذَا تَقَارَبَتِ القُلُوبْ (١)

ثم يختفي هذا الاسم من شعره فلا نراه في مقطعاته الباقية (٢) ، ولو كان هذا الفقيه يكن لصاحبة هذا الاسم مودة حقيقية ، لاستحقت منه أكثر من هذين البيتين !!! ، ولعل في تسمية المحبوبه بـ " خلوب " دليلاً على رمزيته ، لأنها تخلب لبه وعقله وحسه .

أما الفقيه أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ، فقد تحدث عن فؤاده الذي تنقل بين علوة وسليمى وسعاد ، ومع ذلك لم يجد فيهن بغيته ، حيث قال :

تَمَكَّنَ حُبُّ عَلْوَةَ مِنْ فُؤادِي ... وَمُلِّكَ أمْرُ غَيِّي والرَّشَادِ
فَوَالَى بَيْنَ دَمْعِي والمَآقِي ... وعَادَى بَيْنَ جَفْنِيَ والرُّقَادِ
وَقَدْ طَلَبَ السَّلامَةَ في سُلَيْمَى ... زَمَاناً والسَّعادَةَ في سُعَادِ
فَلا هَاتِيكَ أحْمَدَهَا وِصَالاً ... وَلا هَذِي ارْتَضَاهَا في الوِدَادِ (٣)

وهذا الفقيه أبو القاسم زين الإسلام عبد الكريم بن هوازن القشيري ، يتغزل غزلاً رقيقاً بامرأة تدعى " بثينة " فيقول :

---

(١) منصور بن اسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ٧١ .
(٢) انظر المصدر السابق ص ٤٤ .
(٣) معجم الأدباء ٧/٢٠٣ .

قَـالُوا: بُثَيْنَـةُ لا تَفِـي بِعِدَاتِهَـا   رُوحِـي فِـدَاءُ عِدَاتِها ومِطَالِهَـا
إنْ كانَ نَجْـزُ عِدَاتِهَـا مُسْتأخِـراً   فَلَقَدْ تَشَرَّفْنَـا بِنَقْـدِ مَقَالِـهَا (١)

ثم يعود في بيتين آخرين فيتغزل بأخرى ، تدعى " ليلى " قائلاً :

ومَنْ كَانَ في طُولِ الهوَى ذَاقَ سَلْوةً   فـإنِّيَ مِـنْ لَيْلَـى لَهَـا غَـيْرُ ذَائِـقِ
وأكْثَرُ شيءٍ نِلْتُـهُ مِـنْ وِصَالِهَـا   أمَانِيُّ لَمْ تَصْدُقْ كَخَطْفَـةِ بَـارِقِ (٢)

وتعرض القاضي أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر بن علي بن القاسم الشهرزوري المنعوت بالمرتضى (٤٦٥ – ٥١١هـ) (٣) في مقدمة قصيدته الرائعة – التي وصفها ابن خلكان بأنها قليلة الوجود (٤) – وسار فيها على طريقة الصوفية لذكر اسم " ليلى " حيث قال :

لَمَعَتْ نَـارُهُمْ وَقَـدْ عَسْعَسَ اللَّيْـ   لُ وَمَـلَّ الحَـادِي وحَـارَ الدَّلِيـلُ
فتأمَّلْتُهَـا وَفِكْـرِي مِـن البَيْـ   نِ عَلِيـلٌ ولَحْـظُ عَيْـنِي كَلِيـلُ
وفُـؤادِي ذَاكَ الفُـؤادُ المُعَنَّـى   وغَرَامِـي ذَاكَ الغَـرَامُ الدَّخِيـلُ
ثُـمَّ قَابَلْتُهَـا وقُلْـتُ لِصَحْـبِي :   هـذه النَّـارُ نَـارُ لَيْلَـى فَمِيلُـوا
فَرَمَـوْا نَحْوَهـا لِحَاظـاً صَحِيحَـا   تٍ فَعَـادَتْ خَواسِئاً وهْـيَ حُـولُ
ثُـمَّ مَـالُوا إلى المَـلامِ وقَـالُوا: خُلَّـبٌ مَـا رَأيْـتَ أمْ تَخْيِيـلُ ؟
فَتَجَنَّبْـتُهُمْ ومِلْـتُ إليهـا   والهَـوى مَرْكَبِي وشَوْقِي الزَّمِيلُ (٥)

---

(١) دمية القصر ٢/٢٤٧ .

(٢) وفيات الأعيان ٣/٢٠٧ ، البداية والنهاية ١٢/١٠٧ .

(٣) فقيه مشهور بالفضل والدين ، كان مليح الوعظ ، أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه ، ثم رحل إلى الموصل فولي فيها القضاء ، إلى أن توفي بها ، له شعر رائق ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٣/٤٩ – ٥٣ ، الوافي بالوفيات ١٧/٤٠٣ – ٤٠٤ ، طبقات الشافعية الكبرى ٧/١٢٦ ، النجوم الزاهرة ٥/٢٣١ ، الأعلام ٤/١١٤ .

(٤) انظر وفيات الأعيان ٣/٥١ .

(٥) وفيات الأعيان ٣/٤٩ ، الوافي بالوفيات ١٧/٤٠٤ .

وبطبيعة الحال لم يقصد الشاعر هنا امرأة بعينها ، إنما جعلها رمزاً لعاطفة دينية (١) .

ويتضح لنا من النماذج السابقة ، أن أكثر الفقهاء قد استوحوا معانيهم الغزلية من شعراء الجاهلية ، وذلك من خلال استهلال قصائدهم بالمقدمات الغزلية ، وكذلك تغزلهم بأسماء نسائية وهمية ، مما يجعلنا نؤكد أن دافع أولئك الفقهاء في هذا الغزل ، إنما هو التقليد والمحاكاة الفنية ، إذ ليس للعاطفة الصادقة أثر في كثير من هذا الغزل .

٢- الغزل العذري

عبر الكثير من الفقهاء في مقطوعات منفردة ، عما يجول في أعماقهم من عواطف وأحاسيس تجاه من يحبون ، وصوروا حالتهم النفسية ، ومن ذلك حرص بعضهم على تأكيد عفتهم وطهرهم وبعدهم عن الريب ، فهذا الفقيه أبو بكر محمد بن داود الظاهري الأصفهاني ، يصف لنا حاله مع من يحب ، حينما يلتئم شملهما ويجمعهما لقاء قائلاً :

لَوْ كُنْتَ شَاهِدَنا والدَّارُ جَامِعةٌ ... والشَّمْلُ مُلْتَئِمٌ والوِدُّ مُقْتَرِبُ
لابَلْ مُساواةُ وِدِّي وِدَّهُ بِهَوىً ... كأنَّهُ نَسَبٌ بَلْ دُونَهُ النَّسَبُ
مُسْتأنِسِيَنَ بِمَا تُخْفِي ضَمَائِرُنَا ... على العَفَافِ ورَعى الوِدِّ نَصْطَحِبُ
فإنْ محَا الشَّوْقُ فَرطَ الأُنْسِ أوْحَشَنا ... أُنْسُ العَوَاذِلِ إنْ جَدُّوا وإنْ لَعِبُوا
فَمَا نُدَافِعُ بالهِجْرَانِ فهو على ... أنْ لا يَزُولَ هَواناً مُشْفِقٌ حَدِبُ
عَايَنْتَ منزلَةً في الظَّرْفِ عَالِيَةً ... ورُتْبَةً قَصَّرَتْ عَنْ شَأْوِهَا الرُّتَبُ
في عِفَّةٍ نَتَحامَى أنْ يُلِمَّ بِهَا ... سُوءُ الظُّنونِ وأنْ تَغْتَاهَا الرِّيَبُ (٢)

---

(١) انظر عصر الدول والإمارات ص ٤١٢ - ٤١٣ .

(٢) أوراق من ديوان محمد بن داود الأصفهاني ص ٣٣ ، وانظر : أبياتاً أخرى ص ٦٦ - ٨٢ ، وانظر التمهيد.

ويحدثنا العلامة كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي الحلبي المعروف بابن العديم (٥٨٦-٦٦٠هـ) (١) ، كيف خلا بمن يحب بمعزل عن أهله ، والليل له ستر من الأعين ، فقام عنه ولم يحلل إزاره لإثم ، وكان أقصى مانالـه منه هو العناق ، حيث يقول :

خَلَوْتُ بِهِ مِنْ بَعْدِ مَا نَامَ أَهْلُهُ ... وَقَدْ غَارَتِ الجَوْزَاءُ واللَّيْلُ سَاتِرُ
فوسَّدْتُهُ كَفِّي وبَاتَ مُعَانِقِي ... إلى أنْ بَدَا ضَوْءٌ مِن الصُّبْحِ سَافِرُ
فَقَامَ يَجُرُّ البُرْدَ مِنْهُ على تُقىً ... وقُمْتُ ولم تُحَلَّلْ لإثْمٍ مَآزِرُ
كذلكَ أحْلَى الحُبِّ ما كانَ فَرْجُهُ ... عَفِيفاً وَوَصْلاً لم تَشُبْهُ الجَرائِرُ (٢)

وهذه الأبيات متأثرة بمعاني الشاعر الجاهلي امرئ القيس وغيره من شعراء العشق (٣) ، بيد أن البيت الأخير ، أخرج غزل هذا الفقيه من إطارهم ، وخلع عليه فهماً وطعماً جديداً ، إلا أنه يؤخذ على هذا الفقيه ذكره للفرج وهو في مجال الحديث عن الحب .

ومن المعاني الغزلية التي تناولها الفقهاء في أشعارهم الوفاء للحبيب ، وصون عهوده ومواثيقه ، فهذا القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي يرحل عن ديار الحبيب ، تاركاً فؤاده وديعة عنده ،كما عبر عن ذلك بقوله :

رَحَلْتُ وخَلَّيْتُ الفُؤادَ لَدَيْكُمْ ... رَهِيناً وإنْ لم تَخْلُ مِنْهُ الأضَالِعُ
فإنْ أنْتُمْ ضَيَّعْتُمُوهُ أسأتُمُ ... وما الحقُّ إلَّا أنْ تُصَانَ الوَدائِعُ (٤)

---

(١) رئيس الشام في عصره ، كانت له مشاركة في كثير من العلوم ، حيث كان محدثاً ومؤرخاً وفقيهاً مفتياً وكاتباً وشاعراً ، درس وأفتى ، وصنف العديد من المصنفات ، ولي قضاء حلب خمسة من آبائه على التوالي ، وكانت ولادته بحلب وتوفي بالقاهرة ، وفي تاريخ وفاته اختلاف ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ٥/١٦ ، فوات الوفيات ١٢٦/٣ ، الجواهر المضية ٦٣٤/٢ - ٦٣٦ ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ٤٩٥/١ ، الأعلام ٤٠/٥ ، معجم المؤلفين ٢٧٥/٧ - ٢٧٦ .

(٢) فوات الوفيات ١٢٨/٣ .

(٣) انظر تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام للدكتور شكري فيصل ص ٣٧٧ - ٣٩٤ .

(٤) الذخيرة القسم الرابع - المجلد الثاني ص ٥٢٦ .

وفي قوله : " وما الحق إلا ... " يتجلى لنا التأثر بمصطلحات الفقهاء ، الدال على صاحبه واتجاهه . أما الأديب الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الغني بن أحمد اللخمي المالكي القطرسي المنعوت بالنفيس ، فيعاتب حبيبه على صدوده وجفائه ، مؤكداً له بأنه باق على عهوده، وإن نقض هو تلك العهود ، حيث يقول :

قُلْ لِلْحَبِيبِ أطَلْتَ صَدَّكْ ... وَجَعَلْتَ قَتْلِي فِيكَ وُكْدَكْ
إنْ شِئْتَ أنْ أسْلُو فَرُدَّ ... علىَّ قَلْبِي فَهْو عِنْدَكْ
أخْلَفْتَ حَتَّى فِي زِيَا ... رَتِنَا بِطَيْفٍ مِنْكَ وَعْدَكْ
وأنَا عَلَيْكَ كَمَا عَهِدْ ... تَ وإنْ نَقَضْتَ علىَّ عَهْدَكْ (1)

وتطرق العديد من الفقهاء أيضاً إلى وصال الحبيب ، وما فيه من لذة وسعادة وهناء ، وإلى هجره وما يسفر عنه من ألم ولوعة وحسرة ، فالخطيب البغدادي يلخص فلسفته في الحب ، وعلمه بأحوال المحبين في كلمتين هما : سعد الوصل أو شقوة الهجر ، إذ ترجع إليهما أوصاف الهوى ونعوته ، كما جاء في قوله :

خُمَارُ الهوَى يُرْبِي علـى نَشْوَةِ الخَمْرِ ... وذُو الحَزْمِ فيه لَيْسَ يَصْحُو من السُّكْرِ
ولِلْحُبِّ في الأحْشَاءِ حَرٌّ أقَلُّهُ ... وأبْرَدُهُ يُوفِي علـى لَهَبِ الجَمْرِ
أُخَبِّرُكُمْ يَأيُّهَا النَّاسُ أنَّنِي ... عَلِيمٌ بأحْوَالِ المُحِبِّينَ ذُو خُبْرِ (2)
سَبِيلُ الهَوى سَهْلٌ يَسِيرٌ سُلُوكُهُ ... وَلَكِنَّهُ يُفْضِي إلى مَسْلَكٍ وَعْرِ
وَتَرْجِعُ أوْصَافُ الهَوى وَنُعُوتُهُ ... لِحَرْفَيْنِ سَعْدِ الوَصْلِ أو شِقْوَةِ الهَجْرِ (3)

وذهب الفقيه الشاعر أبو على الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري الحموي ، إلى أن الهوى سبب في سعادة صاحبه ، فإن كان وصل من الحبيب فهو المنى ، أما إن كان الهجر والجفاء ، فهذا يعني الموت والشهادة ، حيث قال :

---

(1) وفيات الأعيان ١٦٤/١ ، الوافي بالوفيات ٧٣/٧ .

(2) الخبر : العلم والاختيار .

(3) معجم الأدباء ٤٠/٤ - ٤١ ، شعر بغداد ٣٥٦/١ .

لامُـــوا عَلَيْـــكَ ومَــــا دَرَوْا ... أنَّ الهَــوَى سَــبَبُ السَّـــعَادَةْ
إنْ كـــانَ وَصْـــلٌ فالمُنَـــى ... أوْ كَـــانَ هَجْـرٌ فالشَّهـــادَةْ (١)

بيد أنه استدرك وعكس هذا المعنى في بيتين آخرين ، حذر فيهما قلبه من الهوى ، فبهجران الحبيب تضيع الدنيا ، وبوصله تضيع الآخرة ، إذ يقول :

يَا قَلْـبُ دَعْ عَنْـكَ الهَـوَى قَسْـراً ... مَـا أنْـتَ مِنْـهُ حَـامِدٌ أمْـرَا
أضَعْـــتَ دُنْيَـــاكَ بِهِجْرانِـــهِ ... إنْ نِلْتَ وَصْلاً ضَاعَتِ الأُخْرَى (٢)

ويستعذب الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي هجران محبوبته وصدودها ، ويفضله على سعادته في وصالها ، إذا كان ذلك يدخل السرور في قلبها ، فهو يقول :

سُـرِرْتُ بِهَجْـرِكِ لَمَّـا عَلِمْـتُ ... بـأنَّ لِقَلْبِـكِ فيـه سُـرُورَا
وَلَـوْلا سُـرُورُكِ مَـا سَـرَّني ... ومَـا كُنْتُ يَوْمـاً عَلَيْـهِ صَبُـورَا
لأنِّـي أرَى كُـلَّ مَـا سَاءَنِـي ... إذَا كانَ يُرْضِيكِ سَهْـلا يَسِيـرَا (٣)

أما الفقيه أبو الحسن عبيد الله بن الحسين بن دلال بن دلهم الكرخي (٢٦٠-٣٤٠هـ)(٤) ، فعلاقته بمن يحب تختلف عما عرفناه ، من علاقات المحبين بمعشوقيهم ، فهو يرفض الظلم والخضوع في علاقته بحبيبه ، حتى إنه ليفضل الجفاء والصدود على الرضا ، إن كان فيه هوان له ، إذا يقول :

---

(١) معجم الأدباء ٥٥/١٠ ، الوافي بالوفيات ٤١٤/١٢ ، فوات الوفيات ٣٧٧/١ .
(٢) معجم الأدباء ٥٥/١٠ ، الوافي بالوفيات ٤١٣/١٢ ، فوات الوفيات ٣٧٧/١ .
(٣) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ٩٦ .
(٤) فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بالعراق ، ولد بالكرخ ومات في بغداد ، له العديد من المؤلفات منها المختصر ، وشرح الجامع الكبير ، وشرح الجامع الصغير وكلها في فروع الفقه الحنفي ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٣٥٣/١٠-٣٥٥ ، كشف الظنون لحاجي خليفة ٥٦٣/١ ، ٥٧٠ ، الأعلام ١٩٣/٤ ، معجم المؤلفين ٢٣٩/٦ .

حَسْبِي سُمُوّاً في الهَوَى أنْ تَعْلَمَا   أنْ لَيْسَ حَقّ مَوَدَّتِي أنْ أُظْلَمَا
ثُمَّ أمْضِ في ظُلْمِي على عِلْمٍ بِهِ   لا مُقْصِراً عَنْهُ ولا مُتَلَوِّمَا
فوَحقّ ما أخَذَ الهَوَى من مُقْلَتِي   وأذَابَ من جِسْمِي عليكَ وأسْقَمَا
لجفَاكَ – عَنْ عِلْمٍ – بما ألقَى به   أحْظَى لَدىَّ من الرِّضَى مُتَهَجِّمَا (١)

وتحدث الفقهاء عن الشوق وتباريحه ، والحنين إلى الحبيب ولوعاته ، ومن ذلك قول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، مناجياً محبوبه وواصفاً شوقه إليه :

قَدْ بَرَّحَ الشَّوْقُ بمُشْتَاقِكْ   فَأوْلِهِ أحْسَنَ أخْلَاقِكْ
لا تَجْفُهُ وارْعَ لَهُ حَقَّهُ   فَإنَّهُ خَاتَمُ عُشَّاقِكْ (٢)

ويبث الفقيه أبو الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الشافعي الواسطي أشواقه وما يعتلج في نفسه ، من مشاعر الحب الصادقة إلى حبيبه بأبيات رقيقة ، عمد فيها إلى أسلوب الحوار ، حيث يقول :

وحُرْمَةِ الوُدِّ مَالي عَنْكُمْ عِوَضُ   لأنَّنِي لَيْسَ لي في غَيْرِكُمْ غَرَضُ
أشْتَاقُكُمْ وَبِوُدِّي أنْ يُوَاصِلَنِي   لَكُمْ خَيالٌ ولَكِنْ لَسْتُ أغْتَمِضُ (٣)
وقَدْ شَرَطْتُ على قَوْمٍ صَحِبْتُهُمُ   بأنَّ قَلْبِي لكم مِنْ دُونِهِمْ وَرَضُوا (٤)
وَمِنْ حَدِيثِي بِكُمْ ، قَالُوا : بِهِ مَرَضُ   فَقُلْتُ : لازَالَ عَنِّي ذَلِكَ المَرَضُ (٥)

(١) تاريخ بغداد ٣٥٤/١٠ .
(٢) يتيمة الدهر ١١/٤ ، دمية القصر ١٥٦/١ ،معجم الأدباء ١٤ / ١٩ .
(٣) في معجم الأدباء ووفيات الأعيان : لو يواصلني .
(٤) في معجم الأدباء : صحب بدلاً من قوم ، فرضوا بدلاً من رضوا .
(٥) خريدة القصر ، الجزء الرابع ، المجلد الأول ص ٣١٦ – ٣١٧ ، معجم الأدباء ١٨ /٢٥٩ – ٢٦٠ وفيات الأعيان ٤٥٠/٤ – ٤٥١ .

ويصف الفقيه الشاعر أبو الفرج مهذب الدين عبد الله بن أسعد بن علي المعروف بابن الدهان ، ليلة قضاها متلظياً بنار الشوق ، يترقب بزوغ الفجر من أجل لقاء الحبيب ، فيقول :

مَوْلايَ لابِتَّ في ضُرِّي وفي سَهَرِي ... ولا لَقِيتَ الَّذِي أَلْقَى مِنَ الفِكْرِ
بَاتَتْ لِوَعْدِكَ عَيْنِي غَيْرَ رَاقِدَةٍ ... واللَّيْلُ حيٌّ الدَّيَاجِي مَيِّتُ السَّحَرِ
أَوَدُّ مِنْ قَمَرٍ في الأَرْضِ غَيْبَتَهُ ... وأَرْقُبُ الشَّمْسَ مِنْ شَوْقي إلى القَمَرِ
هَذَا وَقَدْ بِتُّ مِنْ وَصْلٍ على ثِقَةٍ ... فكيفَ لو بِتُّ مِنْ هَجْرٍ على خَطَرِ؟! (١)

وأطنب الفقهاء في الحديث عن الفراق والبين ، ووصفوا لحظاته المؤلمة ، وما يحدثه في النفس من حزن ولوعة ، ومن ذلك قول القاضي أبي جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان التنوخي الأنباري ، عن الحرقة التي يحدثها الفراق في نفس الحبيب :

وَحُرْقَةٍ أَوْرَثَتْهَا فُرْقَةٌ دَنِفاً ... حَيْرَانَ لا يَهْتَدِي إلَّا إلى الحَزَنِ
في جِسْمِهِ شُغُلٌ عَنْ قَلْبِهِ وَلَهُ ... في قَلْبِهِ شُغُلٌ عَنْ سَائِرِ البَدَنِ (٢)

ويصور القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي ، حزنه العميق ، وبكاءه المؤثر ، حين حان وقت الفراق ، وحدا الحادي بعيس أحبته ، فيقول :

ولَمَّا حَدَا الحَادِي بِعِيسِ أَحِبَّتِي ... ونَادَى غُرَابُ البَيْنِ بِالبَيْنِ يَهْتِفُ
بَكيتُ دماً حتَّى لَقَدْ قَالَ قَائِلٌ : ... تَرَى ذَا الفَتَى مِنْ جَفْنِ عَيْنَيْهِ يُرْعَفُ (٣)

---

(١) ديوان ابن الدهان ص ٢٠ .

(٢) معجم الأدباء ٢/١٦٠ ، الوافي بالوفيات ٦/٢٣٧ ، شعر بغداد ١/٢٢٨ .

(٣) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الثاني ، ص ٥٢٨ .

وقد انتهج الشاعر هنا أسلوب القدماء ، في التعبير عن حزنه وبكائه دماً من الفراق .. وهو مما تطرق إليه شعراء الجاهلية والإسلام في مطالع قصائدهم (١) .

ويبين القاضي أبو حامد محي الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري (تـ ٥٨٦هـ) (٢) ، أن امتناعه عن البكاء حين الوداع ، لم يكن تجلداً منه وصبراً ، وإنما يعود السبب إلى امتلاء عينيه بالدموع ، التي حالت بينه وبين النظر إلى الحبيب ، كما جاء في قوله :

لا تَحْسَبُوا أنِّي امْتَنَعْتُ مِنَ البُكَا ... عِنْدَ الوداعِ تَجَلُّداً وتَصَبُّرَا
لَكِنَّنِي زَوَّدْتُ عَيْنِي نَظْرَةً ... والدَّمْعُ يَمْنَعُ لَحْظَهَا أنْ يَنْظُرَا
إنْ كانَ مَا فَاضَتْ فَقُلْتُ : أَلْزَمْتُهَا ... صِلَةَ السُّهَادِ وسُمْتُهَا هَجْرَ الكَرَى (٣)

وهذا لون من حسن التعليل ، لجأ إليه الشاعر لبيان شدة حزنه ، وتأثره برحيل الحبيب، بيد أنه لم يوفق فيه .

ويودع الأديب الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الغني بن أحمد اللخمي المالكي القطرسي المنعوت بالنفيس ، محبوبه ببيتين رقيقين عبر له فيهما عن حبه الشديد ، وألمه البالغ لارتحاله ، حيث يقول :

---

(١) انظر الوقوف على الأطلال للدكتور مصطفى عبد الواحد ص ٨ وما بعدها ، مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية للدكتور عبد الحليم حفني ص ١١٨-١١٩

(٢) من بيت مشهور في الموصل بالفضل والرياسة والقضاء ، وقد سبقت ترجمه والده وجده ، رحل إلى بغداد في صباه ، فتفقه على المذهب الشافعي ثم سافر إلى الشام وتولى قضاء دمشق وحلب ، ثم انتقل إلى الموصل فولى قضاءها ، وكان جواداً كريم الأخلاق ، وكانت له مشاركة في الأدب ، وله أشعار جيدة ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٢٤٦/٤ - ٢٤٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٨٥/٦-١٨٦ ، البداية والنهاية ٣٤١/١٢ ، الأعلام ٢٥/٧-٢٦ .

(٣) الوافي بالوفيات ٢١١/١ - ٢١٢

يَـا رَاحِـلاً وَجَمِيـلُ الصَّـبْرِ يَتْبَعُـهُ   هَـلْ مِـنْ سَـبِيلٍ إلى لُقْيَـاكَ يَتَّفِـقُ
مَا أنْصَفَتْـكَ جُفُونِي وهي دَامِيَــةٌ   ولا وَفَى لَكَ قَلْبِي وَهـو مُحْتَـرِقُ (١)

ومن المعاني الغزلية الجميلة التي تعرض لها الفقهاء في أشعارهم ، الشكوى من الهوى وغلوائه ، ومن محاسن الحبيب وآثاره ، ومن صدوده وجفائه ... ومن ذلك الأبيات الرقيقة للقاضي أبي جعفر محمد بن الحسين بن سليمان البحاث (تـ ٣٧٠هـ) (٢) ، التي عبر فيها عن مر شكواه ، وحزنه البالغ لموقف حبيبته منه ، ومن حبه لها ، إذ قال مخاطباً إياها :

ألا فَـاصْرِ في عَـنِّي مَلامَـكِ إنَّـنِي   سُقِيتُ بِكَأْسٍ مِنْ جَوًى خَالِصٍ صِرْفِ
وَحُـقَّ لِمِثْلِـي أنْ يُسَـاوِرَ قَلْبَـهُ   لَوافِـحُ حُـزْنٍ مَـا لِجَاحِمِهَـا مُطْفِـي
كأنَّ ثَرَاءَ المَـالِ عَـذْرَاءُ أبْصَـرَتْ   بِكَفِّي مَشِيباً فهي تَنْفِرُ مِـنْ كَفِّـي (٣)

أما الخطيب الحصكفي ، فيشكو إلى الله مفاتن محبوبه التي أشعلت ضرام الحب في جوفه ، وما يكابده من ألم وسقم في سبيله ، حيث قال :

أشْكُو إلى اللهِ مِنْ نَارَيْنِ : واحِـدَةٍ   في وَجْنَتَيْهِ وأُخْرَى مِنْـهُ في كَبِـدِي
وَمِنْ سَقامَيْنِ : سُـقْمٍ قَـدْ أحَـلَّ دَمِـي   مِنَ الجُفُونِ وسُـقْمٍ حَـلَّ في جَسَـدِي
وَمِنْ نَمُومَيْنِ : دَمْعِي حِيْنَ أذْكُـرُهُ   يُذِيـعُ سِـرِّي وَوَاشٍ فيـه بـالرَّصَدِ
وَمِنْ ضَعِيفَيْنِ : صَبْرِي حِيْنَ أنْدُبُـهُ   وَوُدِّهِ وَيَرَاهُ النَّاسُ طَـوْعَ يَـدِي (٤)

وهي أبيات جميلة تطرق الشاعر فيها إلى الحديث ، عن الإذاعة وكتمان السر والوشاة، وهي أبواب يلذ للعشاق التحدث عنها .

---

(١) وفيات الأعيان ١٦٥/١ ، الوافي بالوفيات ٧٤/٧ ، وفيه يحترق بدلاً من محترق .

(٢) من زوزن إحدى كور نيسابور ، كان أحد الفقهاء المبرزين ، تولى القضاء بنواحي خراسان وما وراء النهر ، وكان مشهوراً بالأدب والعلم بالإضافة إلى الشعر ، ذكر أن مصنفاته في التفسير والحديث والفقه وأنواع الأدب تربو على المائة ، توفي ببخارى وإليه ينسب البحاثيون ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ٥١١/٤ ، دمية القصر ٤٢٧/٢ - ٤٢٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٤٣/٣ - ١٤٥ .

(٣) دمية القصر ٤٣٠/٢ .

(٤) وفيات الأعيان ٢٠٦/٦-٢٠٧ وفيه أذكره بدلاً من أندبه ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٣٠/٧-٣٣١ .

وبعد ، فإن الفقهاء قد عبروا في غزلهم العذري ، عن عواطفهم ومشاعرهم التي اتسم بعضها بالحرارة وشدة الانفعال ، فتطرقوا إلى الكثير من المعاني الغزلية ، مثل الوفاء وصون العهود ، ووصال الحبيب وصدوده ، والشوق والحنين والشكوى ... وقد كان للإسلام أثر واضح في غزلهم ، إذ تساموا عن الغرائز ، وكانت نزعة العفة واضحة جلية في شعرهم ، على نحو ما نجده عند الشعراء العذريين . [1]

٣- الغزل الحسي :

لم يقتصر حديث الفقهاء في غزلهم عن العواطف والأحاسيس فحسب ، بل تعدى ذلك إلى جانب الوصف الحسي ، فقد تناول كثير منهم محاسن المرأة وأعضاء جسدها بالوصف والتصوير .

يقول أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي الأبيات التالية ، في وصف بهاء طلعة المحبوبة ، وخجلها ووجلها حينما أحدق بهما الوشاة ، وما نجم عن ذلك من توهج جمال وجهها واحمراره :

لَمْ أَنْسَ شَمْسَ الضُّحَى تُطَالِعُنِي ... ونَحْنُ مِنْ رِقْبَةٍ على فَرَقِ [2]
وَجَفْنُ عَيْنِي بِدَمْعِهِ شَرِقٌ ... لَمَّا بَدَتْ في مُعَصْفَرٍ شَرَقِ [3]
كأنَّهُ أدْمُعِي وَوَجْنَتُهَا ... لَمَّا رَمَتْنَا الوُشَاةُ بِالحَدَقِ
ثُمَّ تَغَطَّتْ بِكُمِّهَا خَجَلاً ... كالشَّمْسِ غَابَتْ في حُمْرَةِ الشَّفَقِ [4]

---

(١) انظر تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص ٢٨٦ - ٢٨٩ .

(٢) الرقبة : التحفظ والحراسة .

(٣) الشرق بكسر الراء : الجفن غمر بالدمع ، وبفتحها : الثوب الذي زيد صبغه حتى صار مشرقاً .

(٤) معجم الأدباء ١٤/١٧٣ .

ويصف القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، مليحاً فاتناً مورد الخد ، أهيف القد ، فاتر الطرف ، فيقول :

أُنْثُرْ على خَدِّي مِنْ وَرْدِكْ أوْ دَعْ فَمِي يَقْطِفْهُ مِنْ خَدِّكْ
اِرْحَمْ قَضِيبَ البَانِ وارْفُقْ بِهْ قَدْ خِفْتُ أنْ يَنْقَدَّ مِنْ قَدِّكْ (١)
وَقُلْ لِعَيْنَيْكَ - بِنَفْسِي هُمَا - يُخَفِّفَانِ السُّقْمَ عَنْ عَبْدِكْ (٢)

ويتلهف في البيتين التاليين للثم وجنة الحبيب الموردة ، فيقول :

أفْدِي الَّذِي قَالَ ، وفي كَفِّهِ مِثْلُ الَّذِي أشْرَبُ مِنْ فِيهِ
الوَرْدُ قَدْ أيْنَعَ في وَجْنَتِي قُلْتُ : فَمِي بِاللَّثْمِ يَجْنِيهِ (٣)

وقال القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي ، يصف جمال محبوبته ، وحسن تكوينها ، ونعومة أعضائها :

وَمَخْطُوطَةِ المَتْنَيْنِ مَهْضُومَةِ الحَشَا مُنَعَّمَةِ الأطْرَافِ تَدْمَى مِنَ اللَّمْسِ
إذَا مَا دُخَانُ النَّدِّ مِنْ طِيبِهَا عَلَا على وَجْهِهَا أبْصَرْتَ غَيْماً على الشَّمْسِ (٤)

ويلاحظ أن الشاعر قد اتكأ في البيت الأول على موروث الغزل ، في وصف مفاتن المرأة ، وصور في البيت الثاني وجه المحبوبة وقد علاه دخان الند ، وكأنه شمس تحجبها الغيوم ، وهي كما ترى صورة متصيدة بتكلف .

ووصف القاضي عبد الوهاب في أبيات أخرى طول شعرها ، وطيب رائحته ، وتشعبه حتى أعيا المواشط ، حيث قال :

---

(١) ينقد : ينشق .
(٢) يتمية الدهر ٤/١٠ ، معجم الأدباء ١٤/٢٥ .
(٣) يتيمة الدهر ٤/١٠ ، معجم الأدباء ١٤/٢٦ .
(٤) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الثاني ص ٥٢١ .

لَمَّا نَشَرْنَ على عَمْدٍ ذَوائِبَهَا يَكَادُ مِنْهَا فَتِيتُ المِسْكِ يَنْتَشِرُ
تَقُولُ يَا عَمَّتَا كُفِّي ذَوائِبَهُ وَيْحِي ضَنِيتُ وأخْفَى جِيدَى الشَّعْرُ
مِثْلَ الأسَاوِدِ قَدْ أعْيَا مَواشِطَهَا فِيهِ تَضِلُّ مَدَارِيهَا وَتَنْكَسِرُ (١)
تَدْعُو على شَعْرِهَا لَمَّا أضَرَّ بِهَا يَالَيْتَهُ كَانَ فِيهِ الجَعْدُ والقِصَرُ (٢)

وتطرق العلامة كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة ا لله بن أبي جرادة العقيلي الحلبي المعروف بابن العديم إلى وصف ريق المحبوب ، في قوله :

فَواعَجَباً مِنْ رِيقِهِ وهو طَاهِرٌ حَلالٌ وَقَدْ أضْحَى علَيَّ مُحَرَّمَا
هو الخَمْرُ لكنْ أيْنَ لِلْخَمْرِ طَعْمُهُ ولذَّتُهُ مع أنَّنِي لَمْ أذُقْهُمَا (٣)

ويلاحظ في هذين البيتين تأثر الشاعر بمصطلحات الفقه ، مثل قوله " طاهر " " حلال" كما ختم البيت الثاني باحتراس ، يدل على توجهه ومشربه الفقهي .

ويظهر لنا مما سبق أن الفقهاء كانوا متأثرين في أوصافهم الحسية للمرأة ، بمن كان قبلهم من الشعراء ، فمعظم أوصافهم وصورهم شائعة ، بيد أنهم حرصوا على أن تكون مما يقبله ذوق العصر والبيئة .

وقام بعض الفقهاء بذكر أوصاف طيف خيال الحبيب في شعرهم ، وتحدثوا عن طروقه وزياراته في المنام ، وتصرفوا في ذلك وتفننوا ، ويعود السبب في شيوع هذه الظاهرة في غزل الفقهاء ، لأنها لون من الاحتراس عن الاتهام ، كما أوضح ذلك الشريف المرتضى – الذي عرف بالإجادة في هذه الفن(٤) – في قوله :

---

(١) السواد : الشخص ، والجمع أسودة ثم الأساود جمع الجمع ، انظر الصحاح ٢/٤٩٢ ، اللسان ٣/٢٢٥-٢٢٦.
(٢) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الثاني ص ٥٢٦ .
(٣) فوات الوفيات ٢/ ١٢٨ .
(٤) انظر الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الثاني ص ٤٦٦ ، وفيات الأعيان ٣/٣١٣ ، وانظر التمهيد .

" إنه لقاء واجتماع لا يشعر الرقباء بهما ، ولا يخشى منع منهما ، ولا اطلاع عليهما، والتهمة بهما زائلة ، والريبة عنهما عادلة ، وإنه تمتع ولكن ذا لا يتعلق بهما تحريم ، ولا يدنو إليهما تأثيم ، ولا عيب فيهما ولا عار " (١) . ومن شعرالشريف المرتضى البديع ، في طيف الخيال ، الذي لا يزوره إلا في جنح الليل قوله :

زَارَتْ وِسَادِي في الظَّلامِ خَرِيدَةٌ أَرَاهَا الكَرَى عَيْنِي ولَسْتُ أَرَاهَا (٢)
تُمَانِعُ صُبْحاً أَنْ أَرَاهَا بِنَاظِرِي وتَبْذُلُ جُنْحاً أَنْ أُقَبِّلَ فَاهَا
ولَمَّا سَرَتْ لَمْ تَخْشَ وَهْنًا ضَلالَةً ولا عَرَفَ العُذَّالُ كَيْفَ سُرَاهَا
فَمَنْ ذَا الَّذِي مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ أَتَى بِهَا وَمَنْ ذَا على تُرْبِ المَزَارِ هَدَاهَا (٣)
وَقَالُوا : عَسَاهَا بَعْدَ زَوْرَةِ بَاطِلٍ تَزُورُ بِلا رَيْبٍ فَقُلْتُ : عَسَاهَا (٤)

وقال عن سعادته بزيارة خيال الحبيب في الكرى :

فَدَيْتُهُ مِنْ زَائِرٍ زَارَنِي وَاللَّيْلُ مُسْوَدُّ الجَلابِيبِ
زَارَ وَفِيهِ كُلُّ مَا نَبْتَغِي فِي النَّاسِ مِنْ حُسْنٍ وِمِنْ طِيبِ (٥)
وَمَا يَضُرُّهَا أَنَّهَا زَوْرَةٌ لِعَازِبِ الآرَاءِ مَكْذُوبِ (٦)
بَاطِلَةٌ رَوَّتْ لَنَا غُلَّةً والحَقُّ لم يَأْتِ بِمَطْلُوبِ
لَوْلَا الكَرَى مَاجَادَ لِي بِالْمُنَى مُعَشَّقٌ يَعْشَقُ تَعْذِيبِي
وَكَيْفَ لا أَهْوَى لَذِيذَ الكَرَى مُحَبَّباً جَاءَ بِمَحْبُوبِ ؟!! (٧)

(١) طيف الخيال ص ٢٧ .
(٢) في ديوان الشريف المرتضى : وزارت .
(٣) في الديوان : فماذا بدلاً من (فمن ذا) ، وماذا بدلاً من (ومن ذا) ، وبعد بدلاً من ترب .
(٤) ديوان الشريف المرتضى ٣/٣٦٥ ، طيف الخيال ص ١٢٣ .
(٥) في الديوان : ما ينبغي .
(٦) في الديوان : لم يضرها .
(٧) ديوان الشريف المرتضى ١/١٢٠-١٢١ ، طيف الخيال ص ١٣١ .

وقال معاتباً :

أيَا زَائِراً بِـاللَّيْلِ مِـنْ غَـيْرِ أنْ تَسْـرِي ... وَهَلْ زَائِرٌ باللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ أنْ يَسْـرِي (١)
ويَامُشْـبِهًا بـالفَجْرِ ضَـوْءَ جَبِينِـهِ ... أبِنْ لي قَلِيلاً كَيْفَ رَوَّعْتَ بِـالفَجْرِ ؟
تَجُـودُ عَلَيْنَـا والمَعَـاذِيرُ جَمَّـةٌ ... وَتَبْخَـلُ بـالجَدْوَى وأنْـتَ بِـلا عُـذْرِ
ولَمَّا تَعَاتَبْنَا على الهَجْـرِ صُغْـتَ لي ... دُنَوَّكَ مِنْ بُعْدٍ ووصْلَـكَ مِـنْ هَجْـرِ
وأوْلَيْتَ بِرّاً لمْ يَكُنْ عِنْدَ وَاصِلٍ ... إليهِ وإنْ أغْنَى نَصِيبٌ مِنَ الشُّكْـرِ (٢)

وممن أجاد في وصف طروق خيال الحبيب الخطيب الحصكفي ، الذي وصف جمال خيال المحبوبة ، ودقة خصرها ، وما جرى بينهما من حوار رقيق ، حيث قال :

وإنْسِيَّةٍ زَارَتْ مع النَّوْمِ مَضْجَعِـي ... فَعَانَقْتُ غُصْنَ البَـانِ مِنْهَـا إلى الفَجْـرِ
أُسَائِلُهَا أيْـنَ الوِشَـاحُ ؟ وَقَـدْ سَرَتْ ... مُعَطَّلَـةً مِنْـهُ مُعَطَّـرَةَ النَّشْـرِ
فَقَالَتْ وأوْمَـتْ لِلسِّـوَارِ نَقَلْتُـهُ ... إلى مِعْصَمِي لَمَّا تَقَلْقَلَ في خَصْرِي (٣)

وقال القاضي أبو حامد محي الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، عن وصل الحبيب له في الرقاد ، وصدوده في حالة اليقظة :

جَـادَ لي في الرُّقَـادِ وَهْنَـا بِوَصْـلٍ ... أنْشَـطَ القَلْبَ مِنْ عِقَـالِ الهُمُـومِ
وَجَفَانِـي لَمَّـا انْتَبَهْـتُ فَمَـا أقْـ ... ـرَبَ مَابَيْنَ شِقْوتِـي ونَعِيمِـي (٤)

ويظهر من الأبيات السابقة ، كيف تحرر الفقهاء من القيـود ، على خـلاف عـادتهم في الغزل ، وانطلقوا يصفون طيف خيال الأحبة ، ووصف لقائهم بهم ، ومـا دار في تلك

---

(١) تسري : المشي في الليل .
(٢) ديوان الشريف المرتضى ٩٨/٢ وفيه " نصيباً " في موضع " نصيب " ، طيف الخيال ص ١٣٧ .
(٣) معجم الأدباء ١٩/٢٠ .
(٤) الوافي بالوفيات ٢١١/١ .

اللقاءات ، لأنهم أمنوا التهمة ، فجاء شعرهم رقيقاً معبراً عن عواطفهم الجامحة ، ولا سيما الشريف المرتضى ، الذي أظهر مقدرة في هذا الفن ، وقد أعانه على ذلك وقوفه على ما قاله السابقون في موضوع " الطيف " [1]

٤- من طرائف الغزل عند الفقهاء :

تميز بعض فقهاء هذا العصر بلون من ألوان الغزل ، وهو الغزل بلغة الفقه [2] ، أو ما أطلق عليه صاحب الذخيرة : " الفقهيات " [3] ، أتوا فيه بقواعد ومصطلحات فقهية في معرض غزلهم ، وأحسنوا استخدامها ، وكذا الاستنباط منها ، فجاءوا بالطريف الممتع من الشعر ، الذي امتزج فيه الفقه بالغزل في قالب فني بديع .

ومن أبرزهم القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي ، الذي وصف في مقطوعة شعرية جميلة – نهج فيها أسلوب القصة – كيف أنه قبل امرأة نائمة، فتنبهت مذعورة وصاحت : تعالوا أمسكوا اللص ، وأقيموا عليه الحد ، فبين لها بكل هدوء ، أن ما فعله يدخل في حكم الغصب ، وإن هي أرادت القصاص فما عليها سوى رد قبلته إليه ، ثم يستمر في سرد أبياته الرائعة ، التي تحكي قصته الطريفة معها ، وقد بدأها بقوله :

وَنائِمَةٍ قَبَّلْتُهَا فَتَنَبَّهَتْ ... فَقالَتْ : تَعالَوْا واطْلُبوا اللِّصَّ بِالحَدِّ
فَقُلْتُ لها: إنِّي فَدَيْتُكِ غَاصِبٌ ... وَما حَكَمُوا في غَاصِبٍ بِسِوَى الرَّدِّ
خُذِيهَا وكُفِّي عَنْ أثِيمٍ ظُلامَةً ... وإنْ أنْتِ لَمْ تَرْضَي فَألْفًا على العَدِّ
فَقالَتْ : قِصَاصٌ يَشْهَدُ العَقْلُ أنَّهُ ... على كَبِدِ الجَانِي ألَذُّ مِنَ الشَّهْدِ
فَباتَتْ يَمِيني وهي هِمْيانُ خصْرِهَا ... وباتَتْ يَسَارِي وهي وَاسِطَةُ العِقْدِ

(١) انظر طيف الخيال ص ٢٥ – ٢٧ .
(٢) انظر من غزل الفقهاء ص ١٥ .
(٣) انظر القسم الرابع – المجلد الأول ص ٣٥٤ .

فَقالَتْ : ألم أُخْبَرْ بأنَّـكَ زَاهِــدٌ   فَقُلْتُ : بَلَى مَازِلْتُ أزْهَدُ في الزُّهْدِ[1]

وقريب من هذه الأبيات ما قاله القاضي أبو أحمد منصور بن محمد الأزدي الهروي ، حين قبل من يحب ، فأعرض عنه ذلك الحبيب مغضبا ، فهدأ الشاعر من روعه ، وعرض عليه أن يقتص لنفسه منه ، وذلك بأن يقبل الحبيب فم الشاعر ، لأن الجروح قصاص ، كما بين ذلك بقوله :

وَمُنْتَقِبٍ بالوَرْدِ قَبَّلْتُ خَدَّهُ   وَمَا لِفُؤادِي مِنْ هَواهُ خَلاصُ

فأعْرَضَ عَنِّي مُغْضَباً ، قُلْتُ : لا تَجُرْ   وقَبِّلْ فَمِي ، إنَّ الجُرُوحَ قِصَاصُ[2]

وهذا الفقيه أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله التميمي البغدادي ، يطلب من حبيبه زكاة حسن ، فيجيبه بأنه ليس عليه زكاة ، في مذهب إمام أهل العراق أبي حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ)[3] ، فيجيبه الشاعر بأن الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ)[4] هو إمامه ، وقد فرض الزكاة على الصبي ، حيث قال :

---

(١) وفيات الأعيان ٣/٢٢٠ - ٢٢١ ، وقد وردت المقطوعة في العديد من المصادر مع اختلاف في رواية بعض الألفاظ ، وكذلك مع تقديم وتأخير ، انظر : الذخيرة ، القسم الرابع - المجلد الثاني ص ٥١٨ ، فوات الوفيات ٢/٤٢٠-٤٢١ ، البداية والنهاية ١٢/٣٣ .

(٢) دمية القصر ٢/١٠١ .

(٣) الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه التيمي بالولاء الكوفي ، أصله من أبناء فارس ، ولد بالكوفه وتوفي ببغداد ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ١٣/٣٢٣-٤٢٣ ، وفيات الأعيان ٥/٤٠٥-٤١٥ ، الجواهر المضية ١/٤٩-٦٣ ، الأعلام ٨/٣٦ ، معجم المؤلفين ١٣/١٠٤ .

(٤) الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي المطلبي الشافعي ، ولد في غزة بفلسطين وتوفى بمصر ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٢/٥٦-٧٣ ، طبقات الفقهاء ص ٧١ - ٧٣ ، معجم الأدباء ١٧/٢٨١-٣٢٧ ، وفيات الأعيان ٤/١٦٣-١٦٩، الأعلام ٦/٢٦-٢٧ ، معجم المؤلفين ٩/٣٢ .

طَلَبْتُ مِنَ الحَبِيبِ زَكَاةَ حُسْنٍ ... على صِغَرٍ مِنَ القَدِّ البَهِيِّ [1]
فَقَالَ : وَهَلْ على مِثْلِي زَكَاةٌ ... على قَوْلِ العِرَاقِيِّ الكَمِيِّ ؟ [2]
فَقُلْتُ : الشَّافِعِيُّ لنَا إمَامٌ ... وقَدْ فَرَضَ الزَّكاةَ على الصَّبِيِّ [3]

ويرد القاضي أبو إسحاق ظهير الدين إبراهيم بن نصر بن عسكر ، على حبيبه الذي منعه الوصل ، خوفاً من الوقوع في الحرام ، بأن هذا المنع أشد حرمة ، لأن فيه قتله ، وقتل المسلم يعد من أعظم الآثام ، فهو يقول :

أقُولُ لَهُ : صِلْنِي فَيَصْرِفُ وَجْهَهُ ... كَأنِّيَ أدْعُوهُ لِفِعْلٍ مُحَرَّمِ
فإنْ كانَ خَوْفَ الإثْمِ يَكْرَهُ وَصْلَتِي ... فَمِنْ أعْظَمِ الآثَامِ قَتْلَةُ مُسْلِمِ [4]

ويلاحظ فيما سبق من الأبيات ، أنها تنتهج الأسلوب القصصي ، وذلك من خلال الحوار وتسلسل الأحداث ، مما جعلها تتسم بطابع الطرافة والظرف ، ويبدو أن باعث الفقهاء في نظمها هو التظرف ، وذلك باختبار معلوماتهم الفقهية وتضمينها في شعرهم الغزلي .

وكان لبعض الفقهاء فتاوى وأجوبة شعرية طريفة ، على ما يرد إليهم من مسائل العشاق الشعرية ، وكان يقتضيهم الرد أحياناً ارتجال الشعر ، وبنفس وزن وقافية السائل ، وقد أظهروا في تلك الأجوبة قدرات شعرية جيدة ، تنم عن سرعة بديهية عالية .

---

(١) في فوات الوفيات : الحسن البهي .
(٢) في فوات الوفيات : العراقي الزكي .
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٤٢ ، فوات الوفيات ٢/٣٧١ .
(٤) وفيات الأعيان ١/٣٨ ، الوافي بالوفيات ٦/١٥٥ .

ومن هؤلاء الفقيه أبو بكر محمد بن داود الظاهري الأصفهاني ، فقد حضر في أحد الأيام إلى مجلسه الشاعر المعروف علي بن العباس المعروف بابن الرومي (٢٢١-٢٨٣هـ) (١) ، وأعطاه رقعة فأخذها الظاهري وتأملها طويلاً ، حتى ظن تلامذته أنها مسألة ، ثم قلبها وكتب على ظهرها ، وردها إلى صاحبها ، فإذا في الرقعة :

يَا ابنَ داودَ يَا فَقِيهَ العِرَاقِ ... أفْتِنَا في قَواتِلِ الأحْدَاقِ

هَلْ عليهِنَّ في الجُرُوحِ قِصَاصٌ ... أمْ مُبَاحٌ لهَا دَمُ العُشَّاقِ

وإذا بجواب الظاهري :

كَيْفَ يُفْتِيكُمُ قَتِيلٌ صَرِيعٌ ... بِسِهَامِ الفِرَاقِ والإشْتِيَاقِ

وقَتِيلُ التَّلاقِ أحْسَنُ حَالاً ... عِنْدَ داودَ مِنْ قَتِيلِ الفِرَاقِ (٢)

وإذا كان الظاهري قد حاول التنصل في جوابه ، عن جوهر السؤال بالحديث عن لوعاته ، فإن غيره من الفقهاء حرصوا في أجوبتهم ، على بيان الأحكام الشرعية ، ونصح السائل وإرشاده إلى الصراط المستقيم .

فهذا القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري ، جاءته رقعة مكتوب عليها خمسة أبيات شعرية ، يسأل صاحبها فيها عن حكم تقبيل الحبيب ومعانقته حيث قال :

---

(١) انظر ترجمته : تاريخ بغداد ١٢/٢٣-٢٦ ، معجم الشعراء للمرزباني ص١٤٥-١٤٧ ، وفيات الأعيان ٣/٣٥٨-٣٦٢ ، الأعلام ٤/٢٩٧ ، معجم المؤلفين ٧/١١٤-١١٥ .

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٦١ ، الوافي بالوفيات ٣/٦٠ ، أوراق من ديوان محمد بن داود الأصفهاني ص ٨ ، وورد الخبر بصورة أخرى مع اختلاف في رواية الأبيات في : تاريخ بغداد ٥/٢٥٧ ، المحمدون من الشعراء ص ٤٣٢ .

يَـا أيُّهَـا العَـالِمُ مَـاذَا تَـرَى | في عَاشِـقٍ ذَابَ مِـنَ الوَجْـدِ
مِـنْ حُـبِّ ظَـبْيٍ أهْيَـفٍ أغْيَـدٍ | سَـهْلِ المُحَيَّـا حَسَـنِ القَـدِّ
فَهَـلْ تَـرَى تَقْبِيلَـهُ جَـائِزاً | في النَّحْـرِ والعَيْنَـيْنِ والخَـدِّ
مِـنْ غَـيْرِ مَـا فُحْـشٍ ولا رِيْبَـةٍ | بَـلْ بِعِنَـاقٍ جَـائِزِ الحَـدِّ
إنْ أنْـتَ لم تُفْـتِ فإنِّـي إذاً | أصِيحُ مِنْ وَجْدِي وأسْتَعْـدِي [1]

فأجابه القاضي بقوله :

يَـا أيُّهَـا السَّائِـلُ إنِّـي أرَى | تَقْبِيلَـكَ المَعْشُـوقَ في الخَـدِّ
يُفْضِـي إلى مَـا بَعْـدَهُ فـاجْتَنِبْ | قُبْلَتَـهُ بـالجِدِّ والجُهْـدِ
فـإنَّ مَـنْ يَرْتَـعُ حَـوْلَ الحِمَـى | يُوْشِـكُ أنْ يَجْـنِي مِـنَ الـوَرْدِ
تُغْنِيـكَ عَنْـهُ كَـاعِبٌ نَـاهِدٌ | تَحْضُـرُ بـالمِلْكِ أوْ العَقْـدِ
تَنَـالَ مِنْهَـا كُـلَّ مَـا تَشْـتَهِي | مِـنْ غَـيْرِ مَـا فُحْـشٍ ولَا صَـدِّ
هـذَا جَوابِـي لِقَتِيـلِ الهَـوَى | فَلا تَكُـنْ في ذَاكَ تَسْتَعْـدِي [2]

وورد إلى الفقيه أبى الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني البغدادي (٤٣٢ - ٥١٠هـ) [3] بيتان من الشعر ، يتضمنان السؤال في حكم من شغلته عن الصلاة خريدة ، جاء فيهما :

(١) وقد سئل فيما بعد بهذه الأبيات العلامة أبو الفرج ابن الجوزي ، فأجاب عنها بأحد عشر بيتاً ، انظر أدب ابن الجوزي ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٦-١٧ ، وانظر أخبار القضاة للقاضي وكيع ٢/٣٥٢-٣٥٣ .

(٣) أحد أئمة المذهب الحنبلي وأعيانه ، أصله من كلواذي من ضواحي بغداد ، له العديد من المصنفات في العقيدة والفقه وأصول الفقه ، وكانت له يد في الأدب وكان يقول الشعر اللطيف ، ولد ومات في بغداد ، انظر ترجمته : المنتظم ٩/١٩٠ ، الذيل على طبقات الحنابلة ١/١١٦-١١٧ ، المنهج الأحمد ٢/١٩٩ ، شذرات الذهب ٤/٢٨ ، الأعلام ٥/٢٩١ ، معجم المولفين ٨/١٨٨ .

قُلْ للإمَامِ أبي الخَطَّابِ مَسْألةً ... جَاءَتْ إلَيْكَ وما يُرْجَى سِواكَ لَهَا
ماذَا على رَجُلٍ رَامَ الصَّلاةَ فَمُذْ ... لاحَتْ لِنَاظِرِهِ ذَاتُ الجَمَالِ لَهَا

فكتب عليهما أبو الخطاب ناصحاً ومعلماً :

قُلْ للأديبِ الَّذِي وافَى بمَسْألةٍ ... سَرَّتْ فُؤادِيَ لَمَّا أنْ أصَخْتُ لَهَا
إنَّ الَّذِي فَتَنَتْهُ عَنْ عِبادَتِهِ ... خَرِيدَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ فانْثَنَى وَلِهَا
إنْ تَابَ ثُمَّ قَضَى عَنْهُ عِبادَتَهُ ... فَرَحْمَةُ اللهِ تَغْشَى مَنْ عَصَى وَلَهَا (١)

وأنت ترى في أجوبة الفقهاء الشعرية ، وضوح شخصيتهم ومشربهم الفقهي ، وذلك من خلال فهمهم العميق للأحكام الشرعية المستمدة من كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وكذلك حرصهم على إرشاد العشاق ونصحهم، لما يعود عليهم بالخير في دنياهم وآخرتهم .

٥- الغزل بالغلمان :

انساق بعض الفقهاء إلى ظاهرة خطيرة ، انتشرت في ذلك العصر ، وهي التغزل بالغلمان (٢) ، ويبدو لي أن الذي دفعهم إلى اقتحام هذا المجال هو المجاراة لأدباء وشعراء عصرهم ، الذين كثر عندهم هذا اللون من الغزل الماجن – وإن نظرة في كتاب يتيمة الدهر ، تبين لنا مدى استفحاله في تلك الحقب – ورغبة الفقهاء في الخوض في ميدان الغزل بكل صوره وألوانه بألسنتهم ، بما فيه التغزل بالمذكر باعتباره تقليداً شعرياً محضاً ، وتجربة فنية .

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ١/١١٧-١١٨ ، المنهج الأحمد ٢/٢٠٢ .

(٢) انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري للدكتور نبيل خليل أبو حلتم ص ١٦٥ ، كتاب القاضي الجرجاني الأديب الناقد ص ٩٢ .

وهناك علة أخرى ترتبط بالتصوف ، وحب الجمال وحب المردان ، كما أوضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) [١] رحمه الله في قوله بأن هناك من المتصوفة من " يتدين بحب الصور الجميلة ، من النساء الأجانب والمردان وغير ذلك ، ويرى هذا من الجمال الذي يحبه الله ويحبه هو ، ويلبس المحبة الطبيعية المحرمة بالمحبة الدينية " [٢] .

وهو ما يفسر لنا وجود فئة قليلة من الفقهاء ، ابتلوا بعشق الغلمان ، فأوقفوا كل شعرهم أو معظمه ، في وصف وبيان ما يعتلج في نفوسهم ، من شوق عارم للنظر إلى الحبيب ، وسعادة غامرة بلقائه ، وحزن عميق من هجره وصدوده ، ومما يؤكد هذا الرأي ، أن بعض المصادر ذكرت أن عشقهم كان طاهراً عفيفاً ، كما سنرى ذلك حينما نأتي على ذكرهم .

ولعله كان لبعض الفقهاء ، صولات وجولات مع هذا اللون من الغزل وغيره من المجون ، في زمن الشباب ، ثم خلعوا كل ذلك ، حينما خلعوا عن مناكبهم رداء الشباب ، وعكفوا على دراسة الدين ، والتفقه فيه .

ومن أبرز من عرف بهذا النوع من الغزل الفقيه أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري ، الذي كان يهوى فتى حدثاً من أهل أصبهان ، يقال له محمد بن جامع ، وقيل ابن زخرف [٣] ، وبسببه عمل كتاب الزهرة [٤] .

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي ، أبو العباس تقي الدين ، الإمام المشهور صاحب التصانيف السائرة في الآفاق ، انظر ترجمته : فوات الوفيات ٧٤/١-٨٠ ، البداية والنهاية ١٣٥/١٤ ، الأعلام ١٤٤/١ ، معجم المؤلفين ٢٦١/١-٢٦٢ .

(٢) كتاب الإستقامة لابن تيمية ٤٢٥/١ .

(٣) انظر المنتظم ٩٤/٦ ، الوافي بالوفيات ٥٩/٣ .

(٤) انظر تاريخ بغداد ٢٦٠/٥ ، مقدمة كتاب الزهرة ٩/١ .

وقد ذكرت العديد من المصادر أنه كان طاهراً عفيفاً في عشقه [1] ، ويؤكد ذلك شعره الذي بين أيدينا ، فلا نجد فيه ما يثلم الدين ، أو يخدش الحياء . وقد وصف الدكتور نوري حمودي القيسي ، محقق ديوان الظاهري علاقته بحبيبه قائلاً : " كان يمثل الحب في أسمى معانيه ، وأرفع أشكاله ، وأعلى مراتبه ، فهو حب صوفي إذا صح هذا المفهوم ، أو حب مجرد تحيطه العفة وتملك ناصيته الفضيلة ، ويتحكم في حدوده العقل ... " [2]

ويفهم من كل ما سبق أن علاقة الظاهري بفتاه ، كانت بعيدة كل البعد عن رغبات الجسد ، فهي علاقة روحية أكثر منها جسدية ، كما أشار إلى ذلك الدكتور القيسي [3] ، ومما قاله الظاهري في فتاه :

انْظُرْ إلى السِّحْرِ يَجْرِي في لَوَاحِظِهِ ... وانْظُرْ إلى دَعَجٍ في طَرْفِهِ السَّاجِي
وانْظُرْ إلى شَعَرَاتٍ فَوْقَ عَارِضِهِ ... كأنَّهُنَّ نِمَالٌ دَبَّ في عَاجِ [4]

وقال أيضاً يرد على الذين عابوا ظهور الشعر في خد فتاه :

مَا لَهُمْ أنْكَرُوا سَوَاداً بِخَدَّيْـ ... ـهِ ولا يُنْكِرُونَ وَرْدَ الغُصُونِ
إنْ يكُنْ عَيْبُ خَدِّهِ بَدَدَ الشَّعْـ ... ـرِ فَعَيْبُ العُيونِ شَعْرُ الجُفُونِ [5]

وتحدث عن معاناته ، من صدود فتاه فقال :

---

(١) انظر مصارع العشاق لجعفر بن أحمد السراج ٢/٢٢٤ ، المنتظم ٦/٩٤ ، الوافي بالوفيات ٣/٥٩ .
(٢) أوراق من ديوان محمد بن داود الأصفهاني ص ١٤ - ١٥ .
(٣) المصدر السابق ص ١٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٧٨ .
(٥) المصدر السابق ص ٨٤ .

أهيمُ بِذِكْـرِ الكَـرْخِ مِـنِّي صَبابـةً ... ومَـابِي إلاَّ حُبَّ مَـنْ حَـلَّ بـالكَرْخِ
تَجرَّعْـتُ كَأساً مِـنْ صُـدُودِ محمـدٍ ... فَقَدْ أوْهَنَتْ عَظْمِي وجَازَتْ على المُخِّ
فَلَسْتُ أُبَالِي بالرَّدَى بَعْــدَ فَقْـدِهِ ... وهَلْ يَجزَعُ المَذْبُوحُ مِنْ ألَمِ السَّلْخِ (١)

ويصف الظاهري في أبيات أخرى فتاه بالقسوة ، لأنه لم يأبه به ، على الرغم من تفانيه في حبه ، حيث يقول :

لَقَـدْ بَـاعَدْتَ عَنْـكَ أخـاً شَـفِيقاً ... عَلَيْكَ فلا يَغُرُّكَ حُسْـنَ صَـبْرِي
فَلَـوْ جُمِـعَ الآنَـامُ لكُنْـتَ فَـرْداً ... أحَبَّهُــمُ إليَّ بِكُــلِّ سِــعْرِ
فــلا تَحْسَــبْ رَعَــاكَ اللهُ أنِّــي ... غَـدَرْتُ ولا هَمَمْـتُ لَكُـمْ بِغَـدْرِ
فَـوَاللهِ العَظِيــمِ لَــوْ أنَّ قَلْــبِي ... أحَبَّ سِـواكَ لمْ أُسْكِنْهُ صَـدْرِي
وأعْظَــمُ مَا أُلاقِــي مِنْــكَ أنِّي ... أدُومُ على الوَفَاءِ ولَسْتَ تَدْرِي (٢)

ونلمح في هذه الأبيات العلاقة الروحية ، التي كانت تربط الشاعر بفتاه ، فهو يعد نفسه أخاً شفيقاً دائم الوفاء لهذا الفتى ، وهذا الأمر لا نجده عند معظم المتغزلين بالغلمان .

وكان القاضي أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي أيضاً ، ممن نظموا أشعاراً في التغزل بالغلمان ، ومن ذلك قوله في أمرد ضخم الجسم :

قَالُوا : عَشِقْتَ عَظِيمَ الجِسْمِ قُلْتُ لَهُمْ : ... الشَّمْسُ أعْظَمُ جُـرْمٍ حَـازَهُ الفَلَـكُ
مِنْ أيْنَ أسْتُرُ وَجْــدِي وهــو مُنْهَتِـكٌ ... مَا لِلْمُتَيَّمِ في قَتْلِ الهَــوَى دَرَكٌ (٣)

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٠ .
(٣) يتيمة الدهر ٢/ ٤٠٤ ، معجم الأدباء ١٤/ ١٧٠ ، وجاء فيه البيت الثاني متقدماً على الأول .

وعقد في مقطوعة أخرى مقارنة بين غلامين ، أحدهما نحيف والآخر ضخم الجسم ، وفي نهاية الأمر فضل صاحب اللحم المكتنز على صاحب القوام الرشيق (١) .

وهذا القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي ، ينظم أبياتاً في التغزل بغلام ديلمي ، صرح له في خاتمتها أنه لا يريد به ريبة أو سوءًا ، يقول فيها :

يَا مَنْ لِصَبٍّ قَلِقٍ ... بَاتَ يُرَاعِي الفَلَكَا
جَارَ بِهِ مُسَلَّطٌ ... يَجُورُ فِيمَنْ مَلَكَا
يَهْزَأُ مِنْ عَاشِقِهِ ... يَضْحَكُ مِنْهُ إنْ بَكَى
مَرَّ بِنَا يَخْطُرُ فِي ... سَرِيحَةٍ دَلَّلَكَا
كَشَادِنٍ رِيعَ مِنَ الصْ ... صَيَّادِ أبْدَى شَرَكَا
فَقُلْتُ : يَا أحْسَنَ مَنْ ... تُبْصِرُ عَيْنِي ، مَنْ لَكَا ؟
فَقَالَ لِي بِغُنَّةٍ : ... إلَيْكَ لا أجْرَحُكَا
تَبًّا لِقَاضٍ يَبْتَغِي ... مِنَ المَعَاصِي دَرَكَا
فَقُلْتُ : وَاللهِ الَّذِي ... صَيَّرَنِي عَبْدًا لَكَا
مَا إنْ أرَدْتُ رِيبَةً ... وَلَمْ أُرِدْ سُوءًا بِكَا (٢)

ويقول الفقيه الشاعر أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري ، في مليح اسمه " مبارك " .

وأغْيَدَ لا تَحْكِي الأسِنَّةُ لَحْظَهُ ... ولا يَمْلِكُ الخَطِّيُّ لِينًا بِقَدِّهِ
تَألَّفَنِي قُرْبُ السّقَامِ لِبُعْدِهِ ... وخَالَفَنِي وَصْلُ الغَرَامِ بِصَدِّهِ

---

(١) انظر يتيمة الدهر ٢/٤٠٤ ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ص ١٦٥-١٦٦ .

(٢) يتمية الدهر ٣/٤٩٢ .

صَبَاحِـــي إذَا ما زَارَني فيـه مِثْلُـــهُ   وعَيْشِي إذا مَا صَدَّ عَنِّي بِضِدِّهِ [1]

أما قاضي القضاة ابن خلكان ، فكان يهوى ابن صاحب حماة ، وتيمه حبه ، وقـال فيـه أشعاراً رائقة [2] ولكن دون أن ينال ذلك من دينه وخلقه [3] ، ولما فشا أمـره وعلـم بـه أهل الفتى ، منعوه من الركوب والسير في الموكب ، فشـق ذلـك علـى ابـن خلكـان ، فكان مماقاله :

إنْ لم تَجُـودُوا بالوِصَـــالِ تَعَطُّفـــاً   ورَأيْتُـمُ هَجْـرِي وفَـرْطَ تَجَنُّبِي
لا تَمْنَعُـوا عَيْـنِي القَرِيحَـةَ أنْ تَـرَى   يَوْمَ الخميسِ جَمَالَكُمْ في المَوْكِبِ
لَـوْ كُنْتَ تَعْلَـمُ يَا حَبِيبِي مَـا الّـذِي   ألْقَــاهُ مِـــنْ ألمٍ إذَا لَمْ تَرْكَـــبِ
لَرَحِمْتَنِي ورَثَيْـــتَ لي مِــنْ حَالَـــةٍ   لَوْلاَكَ لَمْ يَكُ حِمْلُهَا مِنْ مَذْهَبِـــي

إلى أن يقول :

لَـوْ لَمْ أكُـنْ في رُتْبَـةٍ أرْعَـى لَهَـا الــ   عَهْـدَ القَدِيـمَ صِيَانَـةً لِلْمَنْصِـبِ
لهتَكْتُ سِتْـرِي في هَـوَاكَ ولَـذَّ لي   خَلْـعُ العِـذَارِ ولَـوْ ألَحَّ مُؤَنِّـبِي
لَكِـنْ خَشِيتُ بـأنْ تَقُولَ عَـوَاذِلي: قَدْ جُنَّ هَذَا الشَّيْخُ في هـذَا الصَّبِي
فـارْحَمْ فَدَيْتُـكَ حُرْقَـةً قَـدْ قَـارَبَتْ   كَشْـفَ القِنَـاعِ بِحَـقِّ ذَيَّـاكَ النَّبِي
لا تَفْضَحَنَّ مُحِبَّكَ الصَّـبَّ الّـــذِي   جَرَّعْتَهُ في الحُبِّ أكْدَرَ مَشْرَبِ [4]

---

(١) الوافي بالوفيات ١٢/٤١٤-٤١٥ .

(٢) المصدر السابق ٧/٣١١ ، فوات الوفيات ١/١١٢ .

(٣) انظر وفيات الأعيان ٧/٥٨ (ترجمة المحقق لصاحب الكتاب) ، من غزل الفقهاء ص ١٩ .

(٤) الوافي بالوفيات ٧/٣١١ - ٣١٢ ، وانظر الأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية في : فوات الوفيات ١/١١٢-١١٣.

وبلغ من تعلق ابن خلكان بهذا الغلام ، ما رواه أحد معاصريه ، الذي قال عنه : " كنت أنام عنده في العادلية ، فتحدثنا في بعض الليالي إلى أن راح الناس من عنده ، فقال لي : نم أنت ، وألقى على فروة وقام يدور حول البركة في بيت العادلية ، ويكرر هذين البيتين ، إلى أن أصبح وتوضأ وصلينا ، والبيتان المذكوران :

أَنَـا واللهِ هَـالِكٌ ... آيِسٌ مِنْ سَلَامَتِي

أَوْ أَرَى القَامَةَ الَّتِي ... قَدْ أَقَامَتْ قِيَامَتِي [1]

ويتضح لنا مما سبق ، أن انسياق فقهاء هذا العصر إلى التغزل بالغلمان ، إنما يرجع بعضه إلى التصوف وحب الجمال ، على نحو ما رأيناه في غزل الظاهري وابن خلاد الرامهرمزي وابن خلكان ، في حين جارى بعض الفقهاء أمثال القاضي التنوخي والحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري وغيرهما ، شعراء عصرهم في مجونهم وتغزلهم بالمردان تقليداً ومحاكاة ، أو لعل ذلك كان في مطلع شبابهم ، ثم أقلعوا عنه بعد ذلك.

وينبغي التنبيه إلى قضية مهمة في غزل الفقهاء ، فليس كل غزل يوجه للمذكر، هو بالضرورة من الغزل بالغلمان ، إذ أن الشعراء استخدموا منذ القدم ضمائر المذكر لكونها أخف وأيسر من ضمائر المؤنث [2] ، لذا فليس بمستبعد أن بعض الفقهاء ، قد استعملوا ضمائر المذكر مع أنهم في الواقع كانوا يوجهون شعرهم إلى نساء .

وهكذا نجد أن فقهاء العصر العباسي الثاني ، قد أكثروا من النظم في غرض الغزل ، وجالوا في معظم ميادينه ، فقد تغزلوا في مطالع قصائدهم على نمط القدماء

(١) الوافي بالوفيات ٣١٢/٧ ، فوات الوفيات ١١٣/١ .

(٢) انظر تاريخ الشعر العربي للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي ١٣٢/٣ .

كما كان لهم غزل عذري رقيق ، تغنوا فيه بالعواطف والمشاعر ، وتطرقوا أيضاً إلى الغزل الحسي المتمثل في وصف محاسن المرأة ، بالإضافة إلى وصف طيف الخيال .

وقد تميز فقهاء هذا العصر بلون طريف من الغزل ، وذلك باستخدامهم للمصطلحات الفقهية في مجال الغزل ، إلى جانب فتاويهم وأجوبتهم الشعرية ، على ما يرد إليهم من أسئلة العشاق ، وأدى شيوع التغزل بالغلمان في ذلك العصر ، إلى انسياق بعض الفقهاء إليه .

وكان غزل الفقهاء بصورة عامة عفيفاً متحفظاً ، صور لنا عفة العاشق واحتشامه ، وعدم انتهاكه للحرمات - باستثناء الغزل بالغلمان - واهتم بالمشاعر والأحاسيس أكثر من اهتمامه بالوصف الحسي لأعضاء الجسد .

المبحث السابع : الوصف

يعد الوصف من أقدم أغراض الشعر ، فقد عرفه الشاعر العربي منذ الجاهلية ، فرسم وصور ووصف بالكلمات ، ما رآه وما أحسه في بيئته ، من حيوان ونبات وجماد ، مما لا سبيل إلى حصره واستقصائه ، كما أوضح ذلك ابن رشيق ، الذي أرجع الشعر – إلا أقله – إلى باب الوصف [1] .

وأخذ الوصف ينمو ويتطور شيئاً فشيئاً ، بتأثير اختلاف البيئة والثقافة والمعطيات الحضارية ولاسيما في العصر العباسي .

وقد استهوى غرض الوصف ، فقهاء العصر العباسي الثاني ، فصوروا ما كل ما وقع تحت حسهم ، من طبيعة متحركة – حية – ، وطبيعة ساكنة مثل مظاهر الكون من ليل ونهار ونجوم ... ، وكذلك مظاهر الطبيعة الساحرة من رياض وأزهار وثمار .. بالإضافة إلى مظاهر حياتهم العلمية والاجتماعية ...

الحيوان :

وصف بعض الفقهاء الحيوان ، بيد أنه قليل في شعرهم لا يعدو أن يكون لمحات خاطفة ، عن أعضاء الحيوانات ووصف حركاتها وأفعالها ، ومن ذلك وصف الإبل ، التي أعجب الشعراء منذ القدم بخلقها وتركيبها ، وعرفوا طباعها وأحوالها ، فصوروا في أشعارهم أعضاءها وهيئاتها .. [2] ، إذ يقول القاضي علي بن عبد العزيز

---

(١) انظر العمدة ٢/٢٩٤ .

(٢) انظر الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول للدكتور أنور عليان أبو سويلم ص١١٤ .

الجرجاني، واصفاً الإبل في معرض مدحه للصاحب بن عباد ، حيث اتخذها طلاب العلا والباحثون عن المجد مطايا ، توصلهم إلى ابن عباد :

يُقَرِّبْنَ طُلَّابَ العُلَا مِنْ سَمَائِهَا ... وَيَهْدِينَ رُوَّادَ النَّدَى لِجَوَادِهَا
فَلاقَيْنَ مَوْلَانَا وَقَدْ صَنَعَ السُّرَى ... بِهِنَّ صَنِيعَ كَفِّهِ بِتِلَادِهَا (١)

وكان الشريف المرتضى ممن تعرضوا لوصف الحيوان في شعرهم ، حيث وصف الاسد والحية ، ومما قاله في وصف الأسد وتصوير سطوته وقوته ، قوله :

وَوَثْبَةِ مَفْتُولِ الذِّرَاعِ قُصَاقِصٍ ... يُسَاعِدُ ظُفراً في الصَّرِيعِ بِنَابِ (٢)
هَجُومٍ على الأَقْرَانِ لم يَثْنِ كَيْدَهُ ... كَمِيٌّ بِإِقْدَامٍ ولا بِهِبَابِ (٣)
تَبُوعٍ لِحُوقٍ في يديه طِلَابُهُ ... ومَا كُلُّ بَاغٍ فَائِزاً بِطِلَابِ
ثَوَى الغَابَ مَرْهُوبَ المَكَانِ ومَا الرَّدَى ... يُلاقِيهِ إلاَّ في خَبِيئَةِ غَابِ
تَرَى حَوْلَهُ أَسْلَابَ قَوْمٍ ولَمْ يكنْ ... لِيَحْفِلَ في مَنْ بَزَّهُ بِسِلَابِ (٤)

وأنت ترى أن الشاعر قد حرص في وصفه للأسد ، على إبراز صفات القوة والصلابة والغلظة ، وكذلك السرعة والنشاط ، التي مكنته من الهيمنة والتغلب على حيوانات الغاب .

---

(١) يتيمة الدهر ٤/١٧ .
(٢) قصاقص : نعت يطلق على الشجاع أو القصير المتين والمراد الأول
(٣) الكمي : المدجج بالسلاح ، والهباب بالكسر : النشاط والسرعة .
(٤) ديوان الشريف المرتضى ١/٨١ ، البزه بالكسر : السلاح وبالفتح : السلب وبغيرتاء : الثوب ، وبزه : غلبه .

ومما جاء في شعره في وصف الحية ، قوله :

تَــرَاهُ لَصُوقـــاً بِالــتُّرَابِ كأنَّـــهُ   قَطِيعُ طَرِيحٌ أوْ سَقِيطُ حِقَابِ (١)
لَــهُ مَلْمَــسٌ لَــيْنٌ وحَشْــوُ أدِيمِــهِ   خُشُــونَةُ فَــرَّاءٍ لكــلِّ إهــابِ (٢)
يَسُــدُّ على السَّارِي الطريــقَ مَجَرُّهُ   وآثــازُهُ يَحْمِــينَ كُــلَّ نِقَــابِ (٣)
كــأنَّ عَلَيْــهِ جُبَّــةً وهــو صَــائِفٌ   وفي القُــرِّ عُرْيَــانٌ بِغَــيْرِ ثِيَــابِ
يَــمُجُّ سِمَامــاً في اللَّدِيــغِ كأنَّــهُ   لُغامُ نِيَــاقٍ أو نَضِيحُ حُبَــابِ (٤)

ويعرض لنا الشاعر في هذه الأبيات وصفاً دقيقاً مفصلاً للحية ، من لصوقها بالــتراب ، وملمسها اللين الناعم ، وجلدها المتجدد ، وتربصها وترصدها للناس ، ثم فتكها بهــم بسمها القاتل .

ووصــف القــاضي أبــو حــامد محي الديــن محمــد بــن محمــد بــن عبــد ا لله بــن القاســم الشهرزوري الجرادة وصفاً طريفاً ، حيث قال :

لَهَــا فَخِـــذَا بَكْـــرٍ وسَـــاقَا نَعامَـــةٍ   وقَادِمتَــا نَسْــرٍ وجُؤْجُــؤُ ضَيْغَــمِ (٥)
حَبَتْهَــا أفَاعِي الرَّمْلِ بَطْناً وأنْعَمَــتْ   عَلَيْهَا جِيَادُ الخَيْلِ بالرَّأْسِ والفَمِ (٦)

---

(١) القطيع : السوط المنقع طرفه ، والحقاب : مثل الحزام تشده المرأة على وسطها .

(٢) الإهاب : الجلد .

(٣) مجره : موضع جره أي زحفه ، والنقاب : جمع النقب وهو الطريق في الجبل .

(٤) ديوان الشريف المرتضى ٨١/١ ، اللغام : الزبد يخرج من أفواه الإبـل ، والحبـاب : جمـع الحـب بـالضم وهـو الجرة الكبيرة أو الخابية .

(٥) البكر : الفتى من الإبل ، وقوادم الطير : مقاديم ريشه وهي عشر في كـل جنـاح الواحـدة قادمـة ، وجؤجـؤ الضيغم : صدر الأسد ، انظر الصحاح ٣٩/١ ، ٥٩٥/٢ ، ١٩٧٢/٥ ، ٢٠٠٧ .

(٦) وفيات الأعيان ٢٤٧/٤ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٨٦/٦ .

ويلاحظ هنا أن الشاعر قد عقد مقارنات وعلاقات تشبيهية ، بين الجرادة وبعض الحيوانات الصلبة والغليظة مثل الإبل والأسد ... من أجل إضفاء صفات القوة والصلابة على الجرادة ، وذلك على نحو ما نجده عند القدماء (١) .

وهكذا فإن فقهاء هذا العصر ، حرصوا في وصف الحيوان ، على تصوير أعضائه وحركاته وأفعاله ، وقد تميز وصفهم بالدقة والحيوية ، ووضح فيه تأثرهم بمن سبقهم من الشعراء .

مظاهر الكون :

تطرق الفقهاء في وصفهم إلى مظاهر الكون وأسراره ، من ليل بهيم ونهار مشرق ، ونجوم مضيئة وسحب وكواكب ..

ففي مجال وصف الليل أطنب العديد منهم ، في تصوير طوله وشدة سواده ، وما يحدثه في النفس من شوق وخوف ولوعه ..

فهذا الفقيه أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي – الذي يعد من أبرز الفقهاء الذين نظموا في غرض الوصف – يحدثنا عن ليلة مشتاق على عادة الشعراء منذ عصور الجاهلية والإسلام (٢) ، صور فيها نجومها المتلألئة وعيون الساهرين، التي كانت ترقب رحيلها ، وبزوغ الفجر الذي أسدل عليها الستار ، حيث يقول :

---

(١) انظر الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول ص ١١٧ .

(٢) انظر شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني للدكتور رشدي على حسن ص ١٠٨ – ١٠٩ .

وَلَيْلَةِ مُشْتَاقٍ كَأَنَّ نُجُومَهَا قَدْ اغْتَصَبَتْ عَيْنَ الكَرَى فَهْيَ نُوَّمُ
كَأَنَّ عُيُونَ السَّاهِرِينَ لِطُولِهَا إذَا شَخَصَتْ للأَنْجُمِ الزُّهْرِ أَنْجُمُ
كأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ والفَجْرُ ضَاحِكٌ[1] يَلُوحُ وَيَخْفَى أَسْوَدٌ يَتَبَسَّمُ[2]

وصور في بيتين آخرين جمال النجوم ، التي أحالت ظلام الليل نوراً ، وكذلك بطء قدوم الصباح واشراقته ، حيث قال :

كأَنَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ في غَلَسِ الدُّجَى سَنَا أَوْجُهِ العَافِينَ في سَنَةِ الرَّدِّ[3]
وقَدْ أَبْطَأَتْ خَيْلُ الصَّبَاحِ كأَنَّهَا بَخِيلٌ تَباطَا حِيْنَ سِيلَ عَنِ الرِّفْدِ[4]

ويصف أيضاً القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ليلة قضاها مشتاقاً وركب فيها الأهوال للقاء من يحب ، مصوراً نجومها التي كانت تطارد الظلام ، وكذلك الفجر الذي كان لا يزال وهماً في ضمير المشرق ، إذ يقول :

وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ والنُّجُومُ رَواصِدٌ والفَجْرُ وَهْمٌ في ضَمِيرِ المَشْرِقِ
ورَكِبْتُ لِلأَهْوَالِ كُلَّ عَظِيمَةٍ شَوْقاً إليكَ لَعَلَّنَا أنْ نَلْتَقِي[5]

فإذا ما انتقلنا إلى ماقيل في وصف النهار ، نجد القاضي أبا المجد محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ، يصف يوماً غائماً صور فيه ببراعة ، الصراع

(١) أي مسفر ظاهر .
(٢) يتيمة الدهر ٣٩٥/٢-٣٩٦ ، معجم الأدباء ١٦٨/١٤ .
(٣) سنة الرد : سنة الدخل والريع ، أي السنة المخصبة .
(٤) يتيمة الدهر ٣٩٥/٢ ، والرفد : العطاء ، وانظر مزيداً من شعره في وصف مظاهر الكون في المصدر السابق ٣٩٤/٢-٣٩٦ .
(٥) وفيات الأعيان ٢٤٣/٤ ، الوافي بالوفيات ٣٣١/٣ .

الذي احتدم بين الشمس والرذاذ ، دون أن يكون لأحدهما الغلبة على الآخر ، حيث يقول :

وَيَـــوْمَ دَجْـــنٍ خَانَتْـــهُ أَنْجُمُـــهُ ... في الصَّحْوِ والغَيْمِ فهـو مُشْـتَرِكُ
كَأَنَّمَــا الشَّمْـــسُ والـــرَّذَاذُ مَعـــاً ... فيه بُكاءٌ يَشُوبُـــهُ ضَحِـــكُ [1]

وبينما كان الفقيه الواعظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي (٤٨١ – ٥٢٨هـ) [2] متجهاً في آخر النهار إلى المدرسة التاجية ببغداد للوعظ ، وكان يوماً مغيماً ، جادت قريحته فارتجل في الطريق أبياتاً ، أنشدها في نهاية وعظه ، وصف فيها السحب البيضاء والرعد والبرق ، وصور حال الشمس حين ظهورها وحين اختفائها قائلاً :

قَضِيَّـــةٌ أَعْجِـــبْ بِهَـــا قَضِيَّـــهْ ... جُلُوسُـــنَا اللَّيْلَـــةَ في التَّاجِيَّـــهْ
والجَـــوُّ في حِلْيَتِـــهِ الفِضِّيَّـــهْ ... صِقَاهُـــا قَعْقَعَـــةُ الرَّعْدِيَّـــهْ
أَعْلَامُهَـــا شَعْشَـــعَةٌ بَرْقِيَّـــهْ ... تَنْشُرُ مِـــنْ أَرْدَانِهَـــا العِطْرِيَّـــهْ
ذَائِـــبَ تِـــبْرٍ يَنْشُـــرُ البَرِّيَّـــهْ ... والشَّـــمْسُ تَبْـــدُو تَـــارَةً خَفِيَّـــهْ
ثُـــمَّ تَراهَـــا مَـــرَّةً جَلِيَّـــهْ ... كَأَنَّهَـــا جَارِيَـــةٌ حَيِيَّـــهْ
حَتَّـــى إذا حَـــانَتْ لنَـــا العَشِـــيَّهْ ... فَضَّـــتْ لِبَـــاسَ الغَيْـــمِ بالكُلِّيَّـــهْ
وأَسْفَـــرَتْ في الجِهَـــةِ الغَرْبِيَّـــهْ ... صَفْرَاءَ في مِلْحَفَـــةٍ وَرْسِيَّـــهْ [3]

---

(١) الوافي بالوفيات ٣/٣٣٥ .

(٢) تفقه على أبيه أبي بكر فخر الإسلام الشاشي ، فبرع في المذهب والخلاف ، وناظر وأفتى وتكلم بلسان الوعظ ، وكان فاضلاً ظريف الشمائل مليح المحاورة ، حسن العبارة حلو الإشارة كثير المحفوظ ، انظر ترجمته: المنتظم ١٠/٣٧ – ٣٨، الوافي بالوفيات ١٧/٤٢٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ٧/١٢٧ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٧/١٢٧ ، وانظر الأبيات أيضاً مع اختلاف في رواية بعض الكلمات في : المنتظم ١٠/٣٨ ، الوافي بالوفيات ١٧/٤٢٩ .

وعلى هذا النحو جاء وصف الفقهاء لمظاهر الكون ، وهو وصف ليس فيه ما يميز الفقهاء عن غيرهم فهو وصف حسي ، ليس فيه عطف إلى التصور الإسلامي ، يظهر فيه الفقيه قدرة الخالق عز وجل وإبداعه ، ودلالة الليل والنهار على التعاقب ، والقدرة المنضبطة المتوازنة .

وصف الربيع :

لم يحظ فصل من الفصول من اهتمام الشعراء به ، مثلما حظي فصل الربيع ، وقد وصف الفقهاء الربيع ، أسوة بشعراء عصرهم الذين أكثروا من وصفه (١) ، فصوروا ما يحدثه في الطبيعة من سحر وجمال ، إذ تكتسي الأشجار حلة خضراء ، وتتفتح الأزهار ، ويملأ أريجها الآفاق .

يقول القاضي أبو جعفر محمد بن الحسين بن سليمان البحاث ، في وصف الربيع وبهائه ، وما أضفاه على الطبيعة من بهجة وسرور بعد طول عبوس ، في مستهل قصيدة مدحية

اِكْتَسَتِ الأَرْضُ وهي عُرْيَانَهْ ... مِنْ نَشْرِ نَوْرِ الرَّبِيعِ أَلْوَانَهْ

واكْتَنَزَتْ بالنَّبَاتِ وانْتَشَرَتْ ... حِيْنَ سَقَاهَا السَّحَابُ أَلْبَانَهْ

تَضَاحَكَتْ بَعْدَ طُولِ عَبْسَتِهَا ... ضِحْكَ عَجُوزٍ تَعُودُ بَهْنَانَهْ (٢)

فَالرَّوْضُ يَخْتَالُ في ملابِسِهِ ... مُرْتَدِياً وَرْدَهُ وريحانَهْ

يُعَانِقُ الأُقْحُوانُ تَوْأَمَهُ ... إنْ زَارَ رَوْحُ النَّسِيمِ قُضْبَانَهْ (٣)

---

(١) انظر شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني ص ٤٥ .

(٢) بهنانة : الضحاكة المتهللة ، والطيبة النفس والرائحة ، انظر الصحاح ٢٠٨٢/٥ .

(٣) دمية القصر ٤٢٨/٢ ، وانظر بعض هذه الأبيات مع شيء من الاختلاف في : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٤/٣ .

لقد أصبحت الأرض رائعة ، وأخذت زينتها وزخرفها ، وازدانت برياضها وتفتحت أزهارها ، وقد حرص الشاعر في رسم هذه اللوحة على التشخيص الحي البديع ، الذي منحها الحياة ، فإذا الأرض تضحك فرحاً بقدوم الربيع بعد طول عبوس ، وإذا الروض يرتدي أبهى زينة ، ويختال في ملابسه الزاهية وإذا الأزهار تعانق بعضها البعض ...

ونظراً لارتباط الخمر ومجالسه بالربيع ، عند الكثير من الشعراء (1) ، فقد نظم بعض الفقهاء في ذلك ، مجاراة للاتجاهات الشعرية السائدة ، فهذا القاضي أبو أحمد منصور بن محمد الأزدي الهروي ، يصف مجلس خمر أقيم في فصل الربيع ، فيقول :

أدِرِ المُدَامَةَ يَا غُلامُ فإنَّنَا ... في مَجْلِسٍ بِيَدِ الرَّبِيعِ مُنَضَّدِ (2)
والوَرْدُ أصْفَرُهُ يَلُوحُ كأنَّهُ ... أقْدَاحُ تِبْرٍ كُفِّتَتْ بِزَبَرْجَدِ (3)

وتحدث الخطيب الحصكفي أيضاً عن ارتباط الخمر بالربيع وزهوره وطيوره وبهجته فقال :

لَمْ يَضْحَكِ الوَرْدُ إلاَّ حِيْنَ أعْجَبَهُ ... زَهْرُ الرَّبِيعِ وَصَوْتُ الطَّائِرِ الغَرِدِ
بَدَا فأبْدَى لنَا البُسْتَانُ بَهْجَتَهُ ... وَرَاحَتِ الرَّاحُ في أثْوَابِهَا الجُدُدِ (4)

أما القاضي أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي ، فقد تطرق في معرض وصفه للخمر ، إلى الساقي الذي انتشى بقدوم الربيع ، واتخذ لنفسه حللاً من أزهاره، حيث قال عنه :

كَأنَّ المُدِيرَ لَهَا بِاليَمِينِ ... إذَا مَالَ للسَّقْيِ أو باليَسَارِ
تَدَرَّعَ ثَوْباً مِنَ اليَاسَمِينِ ... لَهُ فَرْدُكُمٌّ مِنَ الجُلَّنَارِ (5)

(1) انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع ص ٢٤٨ ، الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول ص ٣٢٩ ، ٣٣٦ - ٣٣٧ .
(2) في طبقات الشافعية الكبرى : منجد بدلاً من منضد .
(3) معجم الأدباء ١٩٢/١٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٧/٥ ، وكفتت : قلبت .
(4) معجم الأدباء ١٩/٢٠ .
(5) يتيمة الدهر ٣٩٧/٢ ، وفيات الأعيان ٣٦٧/٣ .

وقد تعرض الفقهاء بالوصف والتصوير ، للآثار التي يخلفها الربيع في الأرض ، من رياض نضرة ، وأزهار متنوعة ، وثمار يانعة ... كما سنرى فيما يلي :

الروضيات :

حركت مناظر الرياض الخلابة مخيلة الفقهاء ، وأثارت مشاعرهم فصاغوا في وصفها شعراً رقيقاً بهيجاً ، يقول القاضي أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي ، في وصف روضة اهتزت طرباً بنزول الغيث ، فدبت فيها الحياة ، وتفتحت الأزهار من أكمامها وتعانقت :

وَرِيَاضٍ حَاكَتْ لَهُنَّ الثُّرَيَّا حُلَلاً كَانَ غَزْلُهَا لِلرُّعُودِ
نَثَرَ الغَيْثُ دُرَّ دَمْعٍ عَلَيْهَا فَتَحَلَّتْ بِمِثْلِ دُرِّ العُقُودِ
أُقْحُوانٌ مُعَانِقٌ لِشَقِيقٍ كَثُغُورٍ تَعَضُّ وَرْدَ الخُدُودِ
وعُيُونٌ مِنْ نَرْجِسٍ تَتَرَاءَى كَعُيُونٍ مَوْصُولَةِ التَّسْهِيدِ
وكأنَّ الشَّقِيقَ حِينَ تَبَدَّى ظُلْمَةُ الصُّدْغِ في خُدُودِ الغِيدِ
وكأنَّ النَّدَى عليها دُمُوعٌ في جُفُونٍ مَفْجُوعَةٍ بِفَقِيدِ (١)

ويصور لنا القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، روضة غناء ، بدت أزهارها المتنوعة، سعيدة باسمة ، كأنما يغازل بعضها بعضاً ، حيث يقول :

إِذَا اسْتَشْرَفَتْ عَيْنَاكَ جَانِبَ تَلْعَةٍ جَلَتْ لكَ أُخْرى مِنْ رُبَاهَا جَوَانِبَا (٢)
يُضَاحِكُنَا نُوَّارُهَا ، فَكَأَنَّمَا يُغَازِلُ بَيْنَ الرَّوْضِ مِنْهَا حَبَائِبَا
تَبَسَّمَ فِيهَا الأُقْحُوانُ فَخِلْتُهُ تَلَقَّاكَ مُرْتَاحاً إِلَيْكَ مُدَاعِبَا
وَحَلَّ نِقَابُ الوَرْدِ فاهْتَزَّ يَدَّعِي بِوَادِيهِ في وَرْدِ الخُدُودِ مُنَاسِبَا (٣)

---

(١) يتيمة الدهر ٢/٣٩٧-٣٩٨ .

(٢) استشرف الشيء : رفع بصره لينظر إليه ، والتلعة : ما علا من الأرض .

(٣) يتيمة الدهر ١٦/٤ ، وانظر مزيداً من وصف الرياض في المصدر السابق ٣٩٦/٤ .

وهكذا استطاع هذان الفقيهان ، أن ينقلا إلينا صورة جميلة لتلك الرياض ، باعتمادهما على التشخيص الحي والمشاركة الوجدانية ، بالإضافة إلى الاهتمام بالصنعة وكثرة التشبيهات ، فأسبغوا على تلك الرياض الروح ، حتى سرت فيها الحركة وامتلأت نشاطاً وحيوية ، على نحو ما نجده عند ابن الرومي والبحتري والصنوبري (ت٣٣٤هـ) (١) وغيرهم من شعراء الطبيعة في الأدب العربي (٢) .

الزهريات :

اهتم فقهاء العصر العباسي الثاني بوصف الأزهار ، وتغنوا بجمالها وأشكالها وألوانها وأريجها الفواح ، إذ غدا الحديث عنها في ذلك العصر مستقلاً ، وقصد الشعراء وصفها قصداً ، وأفردوا لها باباً خاصاً .. (٣)

فهذا القاضي أبو بكر عبد الله بن محمد البستي (٤) ، يصف ورداً امتزج فيه لونان ، أما الأول فهو لون تورد خد الحبيب ، وأما الثاني فاصفرار لونه حينما جفاه ذاك الحبيب ، إذ يقول :

---

(١) أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبى الحلبي الأنطاكي ، شاعر اقتصر أكثر شعره على وصف الرياض والأزهار ، وكان ممن يحضر مجالس سيف الدولة الحمداني ، انظر ترجمته : البداية والنهاية ١١٩/١١ ، شذرات الذهب ٣٣٥/٣ ، الأعلام ٢٠٧/١ ، معجم المؤلفين ٩١/٢ .

(٢) انظر فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين للدكتور مصطفى الشكعة ص ٣٣٩ - ٣٤٣ ، الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول ص ٣٣٠ - ٣٣٢ ، شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني ص ٤٨ - ٥٢ .

(٣) انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ص ٢٤٩ ، شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني ص٥٥.

(٤) قال عنه الثعالبي وكان معاصراً له : " آدب قضاة نيسابور وأشعرهم ، ولما تقلد قضاءها في أيام شبيبته مضافاً إلى ما كان يليه من قضاء كورة نسا لقب بالكامل ، وله شعر كثير كتب لي بخطه صدراً منه ، وأنشدني بعضه " يتيمة الدهر ٤٨٩/٤ .

حَبَانِي بِوَرْدٍ جَامِعٍ بَيْنَ وَصْفِهِ وَوَصْفِيَ لَمَّا زُرْتُهُمْ وَجَفَوْنِي
على جَانِبٍ مِنْهُ تَوَرُّدُ خَدِّهِ وفي جَانِبٍ مِنْهُ تَلَوُّنُ لَوْنِي (١)

وتناول القاضي أبو أحمد منصور بن محمد الأزدي الهروي ، بالوصف والتصوير وردة صفراء رائقة اللون وكأنها سبكت من الذهب ، قائلاً :

أَنَسِيتَ إذْ نَبَّهْتَ مَنْ نَبَّهْتَهُ والفَجْرُ مِنْ خُلَلِ الدُّجَى يَتَنَفَّسُ
يَسْعَى إليْكَ مع المُدَامِ بِوَرْدَةٍ صَفْرَاءَ يَحْكِيهَا لِمَنْ يَتَفَرَّسُ
كَعْبٌ من المِينَاءِ رُكِّبَ فَوْقَهُ جَامٌ من الذَّهَبِ السَّبِيكِ مُسَدَّسُ (٢)

وتغنى القاضي الهروي أيضاً بتفتح البنفسج من أكمامه ، ووفوده على الدنيا ، فسر القلوب وامتع الأبصار ، حيث يقول :

طَلَعَ البَنَفْسَجُ زَائِراً أهْلاً بِهِ مِنْ وَافِدٍ سَرَّ القُلُوبَ وَزَائِرِ
فَكَأَنَّمَا النَّقَّاشُ قَطَّعَ لِيَ بِهِ مِنْ أزْرَقِ الدِّيبَاجِ صُورَةَ طَائِرِ (٣)

وله أيضاً أبيات جميلة في وصف طاقة نرجس قدمها إليه مليح ، حتى خيل إليه من روعة هذا المنظر ، أن بدراً قدم إليه كوكبا ، يقول فيها :

ومُهَفْهَفٍ لَمَّا تَثَنَّى خِلْتُهُ غُصْناً يَجِدُّ بِهِ النَّسِيمُ ويَلْعَبُ
أوْمَى إلَيَّ بِكَاسِهِ فَشَرِبْتُهَا وحَسِبْتُنِي مِنْ وَجْنَتَيْهِ أشْرَبُ
وَدَنَا إلَيَّ بِطَاقَةٍ مِنْ نَرْجِسٍ فَحَسِبْتُ بَدْراً في يَدَيْهِ كَوْكَبُ (٤)

---

(١) المصدر السابق ٤٩٠/٤ .

(٢) تتمة يتيمة الدهر ٢٣٨/٥ ، والجام : إناء يتخذ للطعام والشراب .

(٣) المصدر السابق ٢٣٨/٥ ، معجم الأدباء ١٩٢/١٩ وفيه جاء الشطر الأول من البيت الثاني : فكأنما النقاش صور وسطه ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٦/٥ .

(٤) تتمة يتيمة الدهر ٢٣٧/٥ .

أما القاضي أبو الفتح نصر بن سيار الهروي (ت٥٧٢هـ) [1] ، فيصف النرجس وصفاً مغايراً لوصف القاضي الهروي ، فصل فيه بعض الشيء ، فهو يصوره وكأنه طبق من فضة ، عليه كأس من ذهب ، كما جاء ذلك في قوله :

وَنَرْجِسٍ غَادَرَنِي ... مَا بَيْنَ عُجْبٍ وعَجَبْ
كَطَبَقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... عَلَيْهِ كَأْسٌ مِنْ ذَهَبْ [2]

وتفنن القاضي أبو بكر عبد الله بن محمد البستي في وصف البهار [3] ، فقد أقام حواراً طريفاً بينه وبين البهار ، استفهم فيه عن أسباب شحوب لونه ، وكانت المفاجئة الطريفة في إجابة البهار ، إذ لم يتعلق السبب بذاته ، وإنما باسمه ، فهو يقول :

حَكَانِي بَهارُ الرَّوْضِ حَتَّى أَلِفْتُهُ ... وَكُلُّ مَشُوقٍ للبَهَارِ مُصَاحِبُ
وقُلْتُ لَهُ : مَابَالُ لَوْنِكَ شَاحِباً ... فَقَالَ : لأنِّي حينَ أُقْلَبُ رَاهِبُ [4]

وهكذا نرى أن الفقهاء ، تفننوا في وصف الأزهار ، وأضافوا عليها من خلجات أنفسهم ، ومن فيض عواطفهم الحياة والحركة ، وظهرت في بعض أوصافهم وصورهم آثار عصرهم وبيئتهم المتحضرة .

الثمار :

ولما كانت معظم الأزهار تصير في نهاية الأمر إلى فاكهة ، فقد عنى العديد من فقهاء هذا العصر بوصف بعض أنواع الفاكهة ، تطرقوا فيه إلى أشكالها وألوانها ....

---

(١) تولي القضاء والزعامة بهراة ، وكان ذا كفايتها ، ثم ساءت علاقته بحاكمها الأمير بيغو فأمر بنقله إلى سجستان معتقلا ، وحينما حاول الهرب قتل ، وكان أديباً شاعراً ، وذكر الباخرزي أنه اطلع على ديوان شعره ، انظر ترجمته : دمية القصر ٢/١٦٥-١٦٨، شذرات الذهب ٤/٢٤٤ .

(٢) دمية القصر ٢/١٦٩ .

(٣) البهار : هو نبت جعد له فقاحة صفراء تنبت أيام الربيع ، ويقال لها العرارة ، انظر الصحاح ٢/٥٩٩.

(٤) يتيمة الدهر ٤/٤٩٠ .

ففيما يتعلق بالتفاح – وهـو أكـثر الفواكـه وروداً علـى ألسـنة الفقهـاء – نجـد الفقيه أبا محمد عبد ا لله بن محمد بن يحيى الداودي الهروي (١) ، يصف تفاحـة منقطـة ، أجاد في تصويرها ، فكأن تلك النقط على التفاحة ، دموعه ممزوجـة بدمـه تنحـدر مـن صفحة خد محبوبته ، الذي تورد حياءً ، حيث يقول :

نَــــاوَلَتْنِي تُفَّاحَـــــةً وَسْمَتُهَـــــا دَائِـرَاتٍ بِحُسْـنِ نَقْـطٍ عَجِيـبِ (٢)
كَدُمُوعِـي مَمْزُوجَـــةٌ بِدِمَـــــاءٍ قَاطِراتٍ فِي صَحْنِ خَدِّ حَبِيبِي (٣)

ويصف القاضي أبو الفتح نصر بن سيار الهروي ، تفاحـة معضوضـة ، عضتهـا حسـناء منضدة الأسنان ، ينبعث من ريقها المسك ، وقد صور أثـر العضـة تصويـراً دقيقـاً شمـل شكلها ولونها ورائحتها ، فهو يقول :

تُفَّاحَـــةٌ قَـــدْ عَضَّهَـــا قَمَـــرٌ عَمْـداً وَمَسَّـكَ مَوْضِـعَ العَضَّـــهْ
وكَــأَنَّ عَضَّتَـــهُ مُمَسَّـــكَةً صُـدْغٌ أَحَـاطَ بِوَجْنَــةٍ غَضَّـــهْ
وكَأَنَّهَـــا نُونَـــانِ قَـــدْ كُتِبَـــا بِالْمِسْكِ فِي كُـرَةٍ مِـنَ الفِضَّـهْ (٤)

وقد تأثر القاضي الهروي كثيراً في وصـف تفاحتـه هـذه ، بأبيـات عبـد ا لله بـن المعتـز (٢٤٧–٢٩٦هـ) (٥) التي وصف فيها تفاحة معضوضة ، وجاء فيها قوله :

---

(١) لم يترجم له الثعالبي ، واكتفى بوصفه بالفقيه وأورد له نماذج مـن شعره ، انظر يتيمـة الدهـر ٣٩٦/٤ ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر .

(٢) وسمتها : علمتها .

(٣) المصدر السابق ٣٩٦/٤ .

(٤) دمية القصر ١٦٦/٢ .

(٥) عبد ا لله بن محمد المعتز بـا لله ابـن المتوكـل ابـن المعتصـم ابـن الرشيد العباسـي ، الشـاعر المبـدع ، صـاحب التصانيف المشهورة ، ولد في بغداد وأولع في الأدب ، كانت خلافته يوماً وليلة ، انظر ترجمته : تاريخ بغـداد ٩٥/١٠ ، المنتظم ٨٤/٦ ، وفيـات الأعيـان ٧٦/٣–٧٩ ، شـذرات الذهـب ٢٢١/٢ ، الأعـلام ١١٨/٤–١١٩، معجم المؤلفين ١٥٤/٦ .

تُفّاحَـــــةٌ مَعْضُوضَـــــــةٌ كَـــانَتْ رَسُـــولَ القُبَــــلِ
كَـــأنَّ فِيهـــــا وَجْنَـــــةً تَنَقَّبَــــــتْ بِـــــالخَجَلِ
تَنَـــاولَتْ كَفِّـــــي بِهَــــا نَاحِيَــــةً مِــــنْ أَمَلِـــي
لَسْـــتُ أُرجِّـــي غَيْـــرَ ذَا يَـــا لَيْتَــــهُ دَامَ لِـــي [1]

وأنت ترى أن صورة الشاعرين للتفاح المعضـوض ، لا تكـاد تخـرج عـن دائـرة الخدود ، على الرغم من حرص القاضي الهروي على توسيع صورته وتعميقها .

وكان الفقيه أبو الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الشافعي الواسـطي ، مـن الذين اغرموا بوصف التفاح ، فقد وصف تفاحة حمراء أهداها إياه حبيـب طال شـوقه إليه ، بين فيه شدة فرحه بهذه الهدية الغالية ، ثم تساءل مندهشاً عن مصدر لـون تلـك التفاحة ، هل هو من نفسه الذي تأجج ناراً شـوقاً إلى مـن يحـب ؟ أم أن هـذه التفاحـة حملت وزر سفك دمه ؟ ، فهو يقول :

أهْـــدَى لِقَلْـــبِي قَمَـــرٌ طَـــالَ إليـــهِ قَرَمِـــي [2]
تُفَّاحَـــةً أحْيَـــى بِهَـــا قَلْــبِي وكَفِّـــي وَفَمِـــي
فَلَسْـــتُ أدْرِي إذْ بَـــدَتْ وَلَوْنُهَـــا كَـــالْعَنْدَمِ [3]
مِــنْ نَفَسِـــي تَـــوَرَّدَتْ ؟ أمْ حَمَلَـــتْ وِزْرَ دَمِـــي ؟ [4]

ثم ننتقل بعد ذلك إلى وصف نوع آخر من أنواع الفاكهة ، وهو السـفرجل ، فللفقيـه أبي محمد عبد الله بن محمد بن يحيى الداودي الهروي ، بيتان في وصفه تطرق فيهما إلى غصونه الملتفة ، ولونه الأصفر ، قال فيهما :

---

(١) ديوان ابن المعتز صنعة أبي بكر محمد بن يحيى الصولي ٣٢٧/١ .
(٢) اشتدت رغبته إليه من قرم اللحم ، اشتدت شهوته إليه .
(٣) العندم : شجر أحمر .
(٤) خريدة القصر – الجزء الرابع – المجلد الأول ص ٣٢٢ .

غُصُونُ السَّفَرْجَلِ مُلْتَفَّةٌ ... فَمُعْتَدِلُ القَدِّ أو مُنْثَنِي
وَقَدْ لَاحَ في زئبرٍ شَامِلٍ ... كَصَفْرَاءَ في مَعْجَرٍ أدْكَنِ (١)

ووصف القاضي أبو الفتح نصر بن سيار الهروي ، رمانة سوداء لما تنضج ، وصفاً طريفاً ، إذ شبهها بثدي فتاة زنجية حديثة البلوغ ، حيث قال :

وَشَادِنٍ نَاوَلَني بِغُنْجِ ... ظَبْي فِرَاشٍ وهِزَبْرِ سَرْجِ
غُصْنٌ على دِعْصِ نَقَا مُرْتَجِ ... رُمَّانَةً سَوْدَاءَ قَبْلَ النُّضْجِ
كَثَدْيِ بِكْرٍ مِنْ بَنَاتِ الزَّنْجِ (٢)

واستهوى القاضي أبا بكر عبد الله بن محمد البستي ، نوع من أنواع النقل التي تستخدم للتسلية ، وتؤكل في أوقات الراحة والفراغ ، ألا وهو البندق (٣) ، فتغنى به وبلغ من اعجابه به أن شبهه بلؤلؤة ضمخت مسكا ، إذ يقول :

وَبُنْدُقٍ لُبُّهُ عَجِيبُ ... لِلدُّرِّ والمِسْكِ فيه شِرْكَهْ
أشْبَهُ شَيءٍ بِهِ يَقِيناً ... لُؤلُؤةٌ ضُمِّخَتْ بِمِسْكَهْ (٤)

وعلى هذا النحو سار وصف الفقهاء للثمار ، من تغن بجمالها ، وتصوير دقيق لأشكالها وألوانها ، ولا سيما التفاح الذي استحوذ على اهتمام الفقهاء ، مثل غيرهم من الشعراء ، فأكثروا من الحديث عنه ، وأعجبهم منه لونه ومنظره البهيج وطعمه ونكهته اللذيذه (٥) .

---

(١) يتيمة الدهر ٣٩٦/٤ ، والزئبر : ما يعلو الثوب الجديد من وبر أو نحوه ، والمعجر : ثوب تشده المرأة على رأسها ، والأدكن : المائل إلى السواد .

(٢) دمية القصر ١٦٨/٢ .

(٣) انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ص ٢٥٥ .

(٤) يتيمة الدهر ٤٩٠/٤ .

(٥) انظر الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .

المائيات :

زخرت بيئة العراق – حاضرة الخلافة العباسية – بالعديد من الأنهار ، مثل دجلة والفرات وغيرهما من الفروع والجداول ، مما حدا ببعض الفقهاء إلى وصفها وتصويرها والتغني بجمال مياهها ، ومن ذلك قصيدة القاضي أبي القاسم علي بن محمد ابن داود بن فهم التنوخي التي وصف فيها نهراً يسمى نهر معقل وصفاً جميلاً ، من حيث تشبيهاته الراقية ، وصوره الفنية الممتعة ، ومعانيه المبتكرة (١) ، وقد حظيت هذه القصيدة بشهادة الوزير الناقد الصاحب بن عباد ، الذي كان يرى أنها من أمهات قلائده (٢) ، ومما جاء في هذه القصيدة قوله في مقدمتها :

أَحْبِبْ إليَّ بِنَهْرِ مَعْقَلٍ الَّذِي ... فِيهِ لِقَلْبِي مِنْ هُمُومِي مَعْقِلُ
عَذْبٌ إذَا مَا عَبَّ فِيهِ نَاهِلٌ ... فكأنَّهُ في رِيقِ حِبٍّ يَنْهَلُ
مُتَسَلْسِلٌ وكأنَّهُ لِصَفَائِهِ ... دَمْعٌ بِخَدَّيْ كَاعِبٍ يَتَسَلْسَلُ
وإذَا الرِّيَاحُ جَرَيْنَ فَوْقَ مُتُونِهِ ... فكأنَّهُ دِرْعٌ جَلاهَا صَيْقَلُ
وكأنَّ دِجْلَةَ إذْ يُغَطْمِطُ مَوْجُهَا ... مَلِكٌ يُعَظَّمُ خِيفَةً ويُبَجَّلُ (٣)
وكأنَّهَا يَاقُوتَةٌ أوْ أعْيُنٌ ... زُرْقٌ تُلاثِمُ بَيْنَهَا وتُوَصِّلُ
عَذُبَتْ فَمَا تَدْرِي أمَاءٌ مَاؤُهَا ... عِنْدَ المَذَاقَةِ أمْ رَحِيقٌ سَلْسَلُ
وَلَهَا بِمَدٍّ بَعْدَ جَزْرٍ ذَاهِبٍ ... جَيْشَانِ يُدْبِرُ ذَا وهذَا يُقْبِلُ (٤)

وهكذا تستمر هذه القصيدة في سلاسة عجيبة ، فلا يخلو بيت من تشبيه رائع ، أو خيال فتان ، أو صور فنية بديعة ، وهاهو يتحدث عن مظاهر الروعة والجمال ، التي

---

(١) انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ص ٢٦٠ .
(٢) انظر يتيمة الدهر ٢/٣٩٨ .
(٣) يغطمط : يموج ويضطرب .
(٤) المصدر السابق ٢/٣٩٨ – ٣٩٩ .

كانت تحف بالنهر من قصور تشبه العرائس الفاتنة ، ورياض تضم في جوانبها أغصاناً كثيفة متعانقة ، وطيوراً مغردة تشدو بأجمل الألحان ، فيقول :

كَـمْ مَـنْزِلٍ في نَهْرِهَـا آلَىَ السُّـرو ... رُ بأنَّـهُ في غَـيْرِهِ لا يَـنْزِلُ
وكأنَّمَا تلـكَ القُصُـورُ عَرائِـسُ ... والرَّوْضُ فيه حُلِـيُّ خُـودٍ تَرْفُـلُ
غَنَّـتْ قِيَـانُ الطَّـيْرِ في أرْجَائِهَـا ... هَزَجـاً يَقِـلُّ لـه الثَّقِيـلُ الأوَّلُ
وتَعَانَقَتْ تلكَ الغُصُـونُ فأذْكَـرَتْ ... يومَ الوَدَاعِ وغيرُهُمْ يترَحَّـلُ (١)

وللقاضي التنوخي ايضاً بيتان جميلان في وصف ناعورة ، إذ بث فيها الروح ، ومنحها فيضاً من الجمال ، من خلال مشاركته الوجدانية لها ، فقد شبه ماء الناعورة الذي يتدفق ليسقي الرياض ويحيها ، بدموعه التي تجري على خده حتى أقرحته فهو يقول :

بَـاتَتْ تَئِـنُّ وَمَـا بِهَـا وَجْـدِي ... وَتَحِـنُّ مِـنْ وَجْـدٍ إلى نَجْـدِ
فَدُمُوعُهَـا تُحْيَـا الرِّيَـاضُ بِهَـا ... ودُمُوعُ عَيْنِـي أقْرَحَـتْ خَدِّي (٢)

ويبدو أن القاضي أبا على المحسن بن علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي ، قد تأثر بأبيه وحذا حذوه في هذا المجال ، حيث نجد لـه أبياتاً في وصـف جسر بغداد ، الـذي يقوم على نهر دجلة ، إذ قال مصوراً هيئة النهر والجسر فوقه :

يَـوْمٌ سَـرَقْنَا العَيْـشَ فيـه خِلْسَـةً ... في مَجْلِـسٍ بِفِنَـاءِ دِجْلَـةَ مُفْـرَدِ
رَقَّ الهَـوَاءُ بِرِقَّـةٍ قُدَّامَـهُ ... فَغَـدَوْتُ رِقـاًّ للزَّمَـانِ المُسْـعِدِ
فكـأنَّ دِجْلَـةَ طَيْلَسَـانٌ أبْيَـضٌ ... والجِسْرَ فِيهـا كالطِّرازِ الأسْوَدِ (٣)

---

(١) المصدر السابق ٣٩٩/٢ .

(٢) معجم الأدباء ١٨٠/١٤ .

(٣) تاريخ بغداد ١١٧/١ ، والطيلسان كساء أسود اللون ، والطراز علم الثوب ، وكلاهما فارسي معرب ، انظر لسان العرب ٣٦٨/٥ ، ١٢٥/٦ .

وعلى الرغم من توفر البيئة النهرية ، فإن فقهاء العصر العباسي الثاني ، لم ينوعوا في وصف الأنهار والجداول والغدران ، ولم يتطرقوا في وصفهم إلى السفن والرحلات النهرية ...

وصف مظاهر من حياتهم العامة :

حرص بعض الفقهاء على وصف وتصوير مظاهر وأنماط من حياتهم ، سواء كانت دينية أو علمية أو اجتماعية .

ففي المجال الديني وصف الشريف المرتضى الحج وطريقه بقصيدة بديعة قل نظيرها في موضوعها ، وفي دقة نسجها وحسن سبكها وطرافة معانيها [1] . ومنها قوله عن جانب من نسك الحج :

مِنْ بَعْدِ مَا طَوَّفُوا بِالبَيْتِ واعْتَمَرُوا ... واسْتَسْلَمُوا مِنْهُ أحْجَاراً وأرْكَانَا
وَرَدَّدُوا السَّعْيَ بَيْنَ المَرْوَتَيْنِ تُقىً ... حِيناً عُجَالاً وفَوْقَ الرَّيْثِ أحْيَانَا
وَعَقَّرُوا بِمِنَىً مِنْ بَعْدِ حَلْقِهِمُ ... كُومَ المطيِّ مُسِنَّاتٍ وَثُنْيَانَا [2]
واسْتَمْطَرُوا بِعِرَاصِ المَوْقِفَيْنِ وَقَدْ ... غَامَتْ عليهِمْ سَمَاءُ اللهِ رِضْوَانَا
أرْضٌ تَرَاهَا طِوَالَ الدَّهْرِ مُقْفِرَةً ... والحَجُّ يُنبِتُهَا شِيباً وشُبَّانَا
مُسَلِّينَ كَأنَّ البَعْثَ أعْجَلَهُمْ ... فاسْتَصْحَبُوا مِن بُطُونِ الأرْضِ أكْفَانَا [3]

وعلى هذا النحو تراه يصف الحج في عرض شعري رائع ، يمكنك من تمثل هذه الفريضة وأدائها ، وأنت في منزلك [4] .

---

(١) انظر أدب المرتضى من سيرته وآثاره ص ٢٣٨ .

(٢) الكوم : جمع الأكوم ، والكوماء وهي من الإبل الضخمة السنام ، والثنيان : جمع الثني وهو من الإبل ما بلغ السادسة .

(٣) ديوان الشريف المرتضى ٣/٢٩٨-٢٩٩ .

(٤) انظر أدب المرتضى من سيرته وآثاره ص ٢٤٢ .

وقد شارك بعض الفقهاء شعراء عصرهم في وصف جانب من حياتهم الثقافية والأدبية ، وما كانوا يستخدمونه في الكتابة ، ولاسيما القلم الذي حظي باهتمامهم أكثر من غيره من أدوات الكتابة الأخرى [1] .

فهذا الفقيه منصور بن اسماعيل التميمي يصور مقلة القلم وأجفانه وعبراته قائلاً :

وَسَوْدَاءُ مُقْلَتُهَا مِثْلُهَا ... وأجْفَانُهَا مِنْ لُجَيْنٍ صَقِيلْ

إذَا أذْرَفَتْ عَبْرَةً خِلْتَهَا ... كَغَالِيَةٍ فَوْقَ خَدٍّ أسِيلْ [2]

وتحدث القاضي أبو محمد نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم بن هبة ا لله بن المسلم الجهني الحموي الشافعي المعروف بابن البارزي (٦٠٨ - ٦٨٣هـ) [3] عن فعل القلم الذي يحاكي فعل الرماح ، وأن جريانه على الأوراق يعني الموت للأعداء ، حيث قال:

وَمُثَقَّفٍ للخَطِّ يَحْكِي فِعْلَ سُمْـ ... ـرِ الخَطِّ إلاَّ أنَّ هَذَا أصْفَرُ

في رَأسِهِ المُسْوَدِّ إنْ أجْرَوه في الـ ... ـبيضِ للأعْدَاءِ مَوْتٌ أحْمَرُ [4]

وعلى الرغم من ملامح الجمال في صور هذين الفقيهين للقلم ، وحسن تناولهما للموضوع فإن وصفهما لم يزل قاصراً عن اللحاق بوصف أبي تمام الطائي (١٨٨-٢٣١هـ) [5] البديع للقلم ، الذي استوفى أطراف موضوعه ، واستوعب معانيه ، معتمداً على البراعة في التصوير ، وحسن التشبيه ، ومما جاء فيه قوله :

---

(١) انظر فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص ٣٦٦ - ٣٦٧ ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ص ٣١٣-٣١٤.

(٢) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ١١٩ .

(٣) قاضي حماة وابن قاضيها وأبو قاضيها ، ولد بها ، ومات وهو متجه إلى الحج بقرب المدينة ، فحمل إليها ودفن في البقيع ، كان إماماً فاضلاً فقيهاً أصولياً حبراً ، وكان مشكور الأحكام ، وافر الديانة درس وأفتى وصنف كتباً ، قيل إنه لم يأخذ على القضاء رزقاً ، انظر ترجمته : فوات الوفيات ٣٠٦/٢-٣٠٧ ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ٤٠٨/١ ، النجوم الزاهرة ٣٦٢/٧ ، شذرات الذهب ٣٨٢/٥ ، الأعلام ٣٤٣/٣.

(٤) فوات الوفيات ٣٠٧/٢ .

(٥) حبيب بن أوس بن الحارث الطائي ، الشاعر العباسي المعروف ، انظر ترجمته : طبقات الشعراء لابن المعتز ص٢٨٢-٢٨٦ ، تاريخ بغداد ٢٤٨/٨ ، وفيات الأعيان ١١/٢-٢٦ ، شذرات الذهب ٧٢/٢ ، الأعلام ١٦٥/٢ ، معجم المؤلفين ١٨٣/٣ .

لُعَابُ الأفَاعِي القَاتِلاتِ لُعَابُهُ ... وأرْيُ الجَنَى اشْتَارَتْهُ أيْدٍ عَواسِلُ (١)
لَهُ رِيقَةٌ طَلٌّ ولكِنَّ وَقْعَهَا ... بآثارِهِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ وَابِلُ (٢)
فَصِيحٌ إذا اسْتَنْطَقْتَهُ وهُوَ رَاكِبٌ ... وأعْجَمُ إنْ خَاطَبْتَهُ وهُوَ رَاجِلُ (٣)
إذا ما امْتَطَى الخَمْسَ اللِّطَافَ وأُفْرِغَتْ ... عليه شِعَابُ الفِكْرِ وهي حَوافِلُ
أطَاعَتْهُ أطْرَافُ هَا وتَقَوَّضَتْ ... لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضَ الخِيَامِ الجَحَافِلُ (٤)

ومن المظاهر الحضارية ، وأدوات الترف ، التي تعرض لها الفقهاء في أشعارهم ، الشمعة التي استهوت الكثير من شعراء ذلك العصر ، وأثارت مشاعرهم ببكائها ونحيبها ودموعها العسجدية (٥) ، ولقد حظيت باهتمام واضح من العديد من الفقهاء ، الذين حاولوا استيفاء صفاتها ، ولهم فيها صور وتشبيهات جميلة .

يقول الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الدوغي (تـ ٤٥٩هـ) (٦) في وصف بكاء الشمعة ودموعها وضوئها الذي يحيل الليل نهاراً :

وبَاكِيَاتٍ قِصَرَ الأعْمَارِ ... بأدْمُعٍ صُفْرٍ لها جَوارِ
إذَا امْتَطَتْ مَرَاكِبَ النُّظَّارِ ... وبَرَزَتْ لأعْيُنِ النُّظَّارِ
عاد ظلام الليل كالنهار (٧)

(١) لعاب الأفاعي : سمها ، والأرى ، العسل ، واشتاره : جناه

(٢) الطل : المطر والندى الخفيف ، والوابل : المطر الغزير .

(٣) راجل : ضد راكب ، ويريد بركوبه إمساك الأصابع به للكتابة .

(٤) ديوان أبي تمام ١٢٣/٣ - ١٢٤ .

(٥) انظر فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ص٣٠٢-٣٠٥.

(٦) فقيه نيسابوري عاصر صاحب الدمية والتقى به ، كما أوضح ذلك في كتابه ، وقد وصفه بحسن العشرة ، ولين الجانب ، وسلامة الناحية ، ولزوم العافية ، وذكر نماذج من شعره ، كما أورد الثعالبي بعضاً من شعره ، والدوغي نسبة إلى الدوغ وهو اللبن الحامض ، الذي أخذ منه السمن ، انظر ترجمته : تتمة يتيمة الدهر ٢٠٨/٥-٢٠٩ ، دمية القصر ٢٥١/٢-٢٥٣ ، اللباب ٤٢٩/١ .

(٧) دمية القصر ٢٥١/٢ - ٢٥٢ .

وعقد القاضي أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر بن علي بن القاسم الشهرزوري المنعوت بالمرتضى صداقة حميمة مع الشمعة ، فكان كل واحد منهما يشارك الآخر وجدانياً سواءً في الهموم أو الأحزان ، وقد صور لنا حالة نفسه الحزينة من خلال وصف دقيق لبكاء الشمعة ونحيبها ودموعها وزفراتها ، وكيف أن النار أودت بكليهما ، حيث قال :

نَادَيْتُهَا ودُموعُهَا تَحْكِي سَوابِقَ عَبْرَتي

والنَّارُ مِنْ زَفَراتِهَا تَحْكِي تَلَهُّبُ زَفْرَتِي

مَاذَا التَّنَحُّبُ والبُكَا ءُ فَأعْرَبَتْ عن قِصَّتِي

قَالَتْ : فُجِعْتُ بِمَنْ هَوِيتُ فَمِحْنَتِي مِنْ مِنْحَتِي

بالنَّارِ فَرَّقَ بَيْنَنَا وبِهَا أفَرِّق جُمْلَتِي (١)

وللقاضي أبي بكر ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني ، قصيدة جميلة في وصف الشمعة ، وقد ذكر الصفدي أن الأرجاني استغرق في قصيدته هذه سائر صفات الشمعة ، حتى لم يترك لمن بعده فضلا (٢) ، ومما جاء فيها قوله في وصف احتراقها ودموعها :

نَمَّتْ بأسْرَارِ لَيْلٍ كَادَ يُخْفِيهَا وأطْلَعَتْ قَلْبَهَا للنَّاسِ مِنْ فِيهَا

قَلْبٌ لَهَا لَمْ يَرُعْنَا وهو مكتمنٌ إلاَّ تَرَقِّيهِ نَاراً في تَرَاقِيهَا

سَفِيهَةٌ لَمْ يَزَلْ طُولُ اللِّسَانِ لَهَا في الحيِّ يَجْنِي عليها ضَرْبَ هَادِيهَا

غَرِيقَةٌ في دُموعٍ وهي تَحْرُقُهَا أنْفَاسُهَا بِدَوامٍ مِن تَلظِّيهَا

تَنَفَّسَتْ نَفَسَ المهجورَةِ ادَّكَرَتْ عَهْدَ الخَلِيطِ فباتَ الوَجْدُ يُبْكِيهَا (٣)

---

(١) الوافي بالوفيات ١٧/٤٠٤-٤٠٥ .

(٢) المصدر السابق ٧/٣٧٥ .

(٣) ديوان الأرجاني - طبعة بيروت ص ٤٢٥ .

وخلاصة القول ، إن معظم موضوعات الوصف عند فقهاء العصر العباسي الثاني ، كانت تقليدية طرقها الشعراء من قبل ، وقد أفاد الفقهاء كثيراً مما قاله أسلافهم في هذا الفن ، من خلال اعتمادهم في الوصف على التشخيص الحي والمشاركة الوجدانية ، وبراعة التصوير وحسن التشبيه .. إلا أنهم لم يزيدوا عليهم في معظم الأحيان .

ومن ناحية أخرى بقي الوصف عند الفقهاء ، وهم أهل الرؤية الإسلامية ، في إطار الإباحة ، فلم يعطفوه إلى التصور الإسلامي ، بالتنويه بقدرة الخالق عز وجل ، وذكر عجائب قدرته ، والتأمل والنظر في بدائع صنعه ، ولم يهتموا بتصوير تسبيح الكائنات ... لذا لم يتميز الوصف عندهم برؤية جديدة عما عند معاصريهم .

الفصل الثالث

الأغراض التعليمية

المبحث الأول : الشعر التعليمي

المبحث الثاني : الألغاز

المبحث الأول : الشعر التعليمي

هو نمط جديد من الفنون الشعرية ، التي ظهرت في العصر العباسي الأول [1] ، وهو عبارة عن منظومات شعرية ، تهدف إلى تعليم الناس ، أمور دنياهم وآخرتهم ، وتزويدهم بالحقائق المتعلقة بحياة الفرد والجماعة ، وأسرار الكون [2] .

ويعود السبب في اهتمام فقهاء هذا العصر بهذا الفن ونظمهم فيه ، إلى أنهم اتخذوا الشعر وسيلة للتعبير عن مذاهبهم وعلومهم وآرائهم ، ورغبتهم في نشر ذلك بين الناس .

وقد تناول الفقهاء في شعرهم التعليمي ، العديد من القضايا والعلوم تسهيلاً لحفظها واستيعابها من قبل طلبة العلم ، مثل القضايا المتعلقة بالعقيدة والفقه والنحو وغير ذلك .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، راعوا في منظوماتهم ، وضوح المعنى وسهولة الألفاظ .

ففي مجال العقيدة نظم بعض الفقهاء أشعاراً ، توخوا فيها ذكر العقيدة الإسلامية الصحيحة [3] ، ومنهم الفقيه أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري ، الذي نظم قصيدة نونية طويلة مشهورة ، ذكر فيها أصول السنة ، ومدح الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – ومنها قوله عن مذهبه :

---

(١) انظر الحديث عن نشأة هذا الفن ، وأصوله في : التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٣١٧ – ٣٢٤ ، فصول في الشعر ونقده ص ٦٤ – ٦٥ ، وكلاهما للدكتور شوقي ضيف ، التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٤٦٨ – ٤٦٩ ، الثقافات الأجنبية في العصر العباسي للدكتور صالح آدم بيلو ص ٢٧٠ – ٢٧٤ .

(٢) انظر الثقافات الأجنبية في العصر العباسي ص ٢٦٩ .

(٣) وممن نظموا في هذا المجال أيضا الصرصري انظر ديوانه المخطوط الورقه (٩٢) ، (٩٥)

أنَـاحَنْبَلِيٌّ مَـا حَيِيـتُ وإنْ أمُـتْ فَوَصِيَّتِي ذَاكُـمْ إلى إخْوَانِـي
إذْ دِيْنُـهُ دِيْنِـي ودِينِـي دِيْنُـهُ مَا كُنْتُ إمَّعَـةً لَـهُ دِينَـانِ (١)

وللفقيه أبي الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني البغدادي ، قصيدة دالية في السنة ، تعرض فيها لبعض أمور العقيدة ، ومنها قوله في ذات الجلالة تبارك وتعالى :

قَالُوا : بِمَا عَرفَ المُكَلَّفُ رَبَّهُ ؟ فَأجَبْتُ بِالنَّظَرِ الصَّحِيحِ المُرْشِدِ
قَالُوا : فَهَلْ رَبُّ الخَلائِقِ وَاحِدٌ ؟ قُلْتُ : الكَمَالُ لِرَبِّنَا المُتَفَرِّدِ
قَالُوا : فَهَلْ للهِ عَنْدَكَ مُشْبِهٌ ؟ قُلْتُ : المُشَبِّهُ فِي الجَحِيمِ المُوْصَدِ
قَالُوا : فَهَلْ تَصِفُ الإلهَ ؟ أبِنْ لنَا ؟ قُلْتُ : الصِّفَاتُ لِذِي الجَلالِ السَّرْمَدِي
قَالُوا : فَهَلْ تلك الصِّفَاتُ قَدِيمَةٌ كَالذَّاتِ ؟ قُلْتُ : كَذَاكَ لَمْ تَتَجَدَّدِ
قَالُوا : فَأنْتَ تَرَاهُ جِسْماً مِثْلَنَا ؟ قُلْتُ : المُجَسِّمُ عِنْدَنَا كَالمُلْحِدِ (٢)

وقال عن القرآن الكريم :

قَالُوا : فَمَا القرآنُ ؟ قُلْتُ : كَلامُهُ مِنْ غَيْرِ مَا حَدَثٍ وغَيْرِ تَجَدُّدِ
قَالُوا : الَّذِي نَتْلُوهُ ؟ قُلْتُ : كَلامُهُ لا رَيْبَ فِيهِ عِنْدَ كُلِّ مُسَدَّدِ (٣)

أما القاضي أبو حامد محي الدين محمد بن محمد بن عبد ا لله بن القاسم الشهرزوري ، فقد تحدث عن إثبات الصفات لله عز وجل ، من غير تشبيه أو تمثيل أو تعطيل ، حيث قال :

---

(١) طبقات الحنابلة ٢/٢٤٨ ، الذيل على طبقات الحنابلة ١/٥٣ ، المنهج الأحمد ٢/١٥٤ .

(٢) المنتظم ٩/١٩١ ، المنهج الأحمد ٢/٢٠٠ وجاءت الأبيات فيه مختلفة في الترتيب .

(٣) المنتظم ٩/١٩٢ ، المنهج الأحمد ٢/٢٠٠ وفيه ورد البيت الثاني :
قَالُوا : فما نَتْلُوهُ ؟ قُلْتُ : كَلامُهُ لا رَيْبَ فيه عِنْدَ كُلِّ مُوَحِّدِ

قَـامَتْ بِإثْبَـاتِ الصِّفَـاتِ أدِلَّـةٌ قَصَمَتْ ظُهُورَ جَمَاعَـةِ التَّعْطِيـلِ
وطَلائِـعُ التَّنْزِيـهِ لَمَّـا أقْبَلَـتْ هَزَمَتْ ذَوِي التَّشْبِيهِ والتَّمْثِيـلِ
فَـالحَقُّ مَـا صِرْنَـا إليـهِ جَمِيعُنَـا بأدِلَّـةِ الأخْبَـارِ والتَّـنْزِيلِ
مَـنْ لَمْ يَكُـنْ بالشَّـرْعِ مُقْتَدِياً فَقَدْ ألْقَاهُ فَرْطُ الجَهْـلِ بالتَّضْلِيـلِ (١)

ونظم الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمـر بـن الحسين بـن الحسـن بـن علـي الرازي قصيدة تعليمية في التوحيد سماها " الهادية للتقليد المؤدية إلى التوحيـد " جـاء في أولها قوله :

يَـا طَـالِبَ التَّوْحِيـدِ والإيمَـانِ أبْشِـرْ بِكُـلِّ كَرَامَـةٍ وأمَـانِ
واعْلَمْ بأنَّ أجَـلَّ أبْـوَابِ الهُـدَى تَقْرِيـرُ دِيـنِ اللهِ بالبُرْهَـانِ (٢)

فإذا ما انتقلنا إلى المنظومات الشعرية ، في مجال الفقه نجد للفقيه أبي بكر بن محمد العبسي (تـ ٥٦٧هـ) (٣) ، قصيدة في بطلان طلاق التنـافي (٤) ، إذ يرى فيـه حيلة من أجل رفع الطلاق بعد وقوعه ، فهو يقول :

طَلاقُ التَّنَـافِي قَدْ نَفَى الحَقَّ ظَاهِرًا وإنِّي لَـهُ واللهُ يَشْـهَدُ لي أنْفَـى
إذَا طَلَّقَ الزَّوْجُ المُكَلَّـفُ زَوْجَـهُ وَلَيْسَ بِمَجْبُورٍ ثَلاثًا فَقَدْ أوْفَـى

---

(١) البداية والنهاية ٣٤١/١٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ١٨٦/٦ .

(٢) الوافي بالوفيات ٢٥٨/٤ .

(٣) ذكر صاحب طبقات فقهاء اليمن ، بأنه كان فقيهاً مجتهداً ورعاً أديباً شاعراً ، مات في قرية وعـل من بلد صهبان باليمن ، والعبسي نسبة إلى فخذ من مذحج ، يقال لهم العبس ، انظر ص ٢٠٥ – ٢٠٨ ، وانظر طبقات الشافعية الكبرى ١١٦/٧ .

(٤) وقد صنف الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير كتاباً ، في الرد على هذه القصيدة وكذلك القصيدة الأخـرى الخاصة ببطلان حيلة الربا ، سماه " الاحتجاج الشافي على المعـاند في طـلاق التنـافي " نظراً لأن القصيدتـين اشتهرتا واستهوتا كثيراً من الناس ، انظر طبقات فقهاء اليمن ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ١١٦/٧.

وَلَيْسَتْ حَلالاً دُونَ تَنْكِحُ غَيْرَهُ بِشَرْطِ كِتَابِ اللهِ مَا قُلْتُهُ حَيْفَا
نُصَحِّحُ شَرْطَ اللهِ دُونَ اشْتِرَاطِكُمْ وَنَنْفِيهِ نَفْياً ثُمَّ نَصْرِفُهُ صَرْفَا
فَكُلُّ اشْتِرَاطٍ لَيْسَ فِي الشَّرْعِ بَاطِلٌ وَشَرْطُ كِتَابِ اللهِ حَقٌّ فَلا يَخْفَى
ولا يَنْتَفِي حُكْمُ الطَّلاقِ بِحِيلَةٍ وحِيلَتُكُمْ فيه أَحَقُّ بأَنْ تُنْفَى (١)

ولهذا الفقيه أيضاً قصيدة تعليمية أخرى ، في بطلان حيلة الربا ، ومما جاء فيها قوله :

أَضْحَى الرِّبَا قَدْ فَشَا مِنْ أَجْلِ حِيْلَتِهِمْ في كُلِّ أَرْضٍ سِوَى أَرْضٍ بِهَا فُقِدُوا
واللهُ حَرَّمَ مَعْنَاهُ وَبَاطِنَهُ ومَاهُمْ فِيهِ بُرْهَانٌ ولا سَنَدُ
يَا بَائِعًا ثَوْبَهُ حَتَّى يُعَادَ لَهُ أَلَيْسَ يَعْلَمُ هَذَا الوَاحِدُ الصَّمَدُ
سُبْحَانَهُ مِنْ حَلِيمٍ بَعْدَ قُدْرَتِهِ وعَالِمٍ مَا أَرَادُوه ومَا قَصَدُوا (٢)

وكان لبعض فقهاء هذا العصر جهود ، في تيسير بعض قواعد اللغة والنحو ، من خلال نظمها في قصائد ومنظومات شعرية تعليمية ، ومن ذلك قول القاضي أبي زكريا يحيى ابن القاسم بن مفرج الثعلبي التكريتي الشافعي (٥٣١ - ٦١٦هـ) (٣) في شرح ألف الأمر :

لِأَلِفِ الأَمْرِ ضُرُوبٌ تَنْحَصِرْ في الفَتْحِ والضَّمِّ وأُخْرَى تَنْكَسِرْ
فَالفَتْحُ فِيمَا كَانَ مِنْ رُبَاعِي نَحْوَ أَجِبْ يَا زَيْدُ صَوْتَ الدَّاعِي
والضَّمُّ فِيمَا ضُمَّ بَعْدَ الثَّانِي مِنْ فِعْلِهِ المُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ
والكَسْرُ فِيمَا مِنْهُمَا تَخَلَّى إِنْ زَادَ عَنْ أَرْبَعَةٍ أَوْ قَلَّا (٤)

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ٢٠٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ١١٦/٧ .
(٢) طبقات فقهاء اليمن ص٢٠٧ - ٢٠٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ١١٧/٧-١١٨ .
(٣) من كبار الفقهاء المشار إليهم في المذهب الشافعي ، ولد بتكريت وولي قضاءها ، ثم انتقل إلى بغداد ، حيث تولى النظر والتدريس في المدرسة النظامية ، وكان أديباً فاضلاً ، صنف في المذاهب والخلاف والأدب ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ٢٩/٢٠-٣٠ ، بغية الوعاة ٣٣٩/٢ ، الأعلام ١٦٢/٨-١٦٣ ، معجم المؤلفين ٢٢٠/١٣ .
(٤) بغية الوعاة ٣٣٩/٢ .

وذكـــر صاحب الذيل على طبقات الحنابلة ، أن الفقيه عبد الرزاق بـن رزق ا لله بـن أبي بكر بن خلف بن أبي الهجاء الرسعني (٥٨٩-٦٦١هـ) [١] نظـم قصيـدة نونيـة في الفرق بين الظاء والضاد ، بيد أنه لم يورد من هذه القصيدة شيئاً [٢] .

وكان للفقيه أبي الفرج محمد بن عبد الواحـد بـن محمـد بـن عمـر بـن ميمـون الدارمي ، مشاركة في علم الحساب ، وكان يتكلم في دقائق مسائله ، وقد صنف كتاباً سماه " الدور الحكمي " ونظم أبياتاً في الحديث عنه ، قال فيها :

فِي الشَّـــرْعِ دَوْرَانِ غَـــيْرُ وَهْـــمِ   دَوْرُ حِسَـــابٍ وَدَوْرُ حُكْـــمِ
وَقَـــدْ شَـــرَحْتُ الْحُكْمِـــيَّ مِنْـــهُ   فاشْـــتَمِعُوهُ اسْـــتِمَاعَ فَهْـــمِ
فَلِلْفَتَـــى الدَّارِمِـــيِّ فِيـــهِ   صِحَّةُ مَعْنَىً وَحُسْـــنُ وَسْـــمِ [٣]

وقام بعض الفقهاء بذكر الأئمة والعلماء الأعلام ، وما تميزوا بـه مـن علـوم في أبيـات شعرية تسهيلاً لطلبة العلم ، ومنهم الخطيب الحصكفي الذي جمع أسمـاء القـراء السـبعة في بيت ، والأئمة الستة في بيت آخر ، حيث قال :

جَمَعْـــتُ لَـــكَ الْقُـــرَّاءَ لَمَّا أَرَدْتَهُـــمْ   بِبَيْتٍ تَـــرَاهُ للأَئِمَـــةِ جَامِعَـــا

---

(١) فقيه من علماء الحنابلة ، كان عالم الجزيرة الفراتية في عصره وكان مفسراً محدثـاً ، ولـد بـرأس عـين الخـابور ورحل إلى بغداد ودمشق وحلب في طلب الحديث ، وتولى مشيخة دار الحديث بالموصل ، صنف العديد مـن الكتب ، انظر ترجمته : الذيل على طبقـات الحنابلـة ٢٧٤/٢ - ٢٧٦ ، شـذرات الذهـب ٣٠٥/٥-٣٠٦ ، الأعلام ٢٩٢/٣ ، معجم المؤلفين ٢١٧/٥ - ٢١٨ .

(٢) انظر ٢٧٥/٢ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٨٤/٤ .

أبو عمرو(١) عَبْدُ اللهِ(٢) حَمْزَةُ(٣) عَاصِمٌ(٤) عَلِيٌّ(٥) ولا تَنْسَ المَدِينِيَّ نَافِعًا(٦)

وإنْ شِئْتَ أركانَ الشَّرِيعَةِ فاسْتَمِــــعْ لِتَعْرِفَهُمْ واحْفَظْ إذا كُنْتَ سَامِعًا

---

(١) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان التميمي المازني البصري ، اختلف في اسمه واسم والده ، كان أعلم الناس بالغريب والعربية والقرآن والشعر وأيام العرب ، نشأ بالبصرة ومات بالكوفة سنة (١٥٤هـ) وقيل غير ذلك ، انظر ترجمته : كتاب الإقناع في القراءات السبع لابن الباذش ١/٩٢-٩٤ ، وفيات الأعيان ٣/٤٦٦-٤٦٩ ، بغية الوعاة ٢/٢٣١ ، مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ١/٤٥٩ ، الأعلام ٣/٤١ .

(٢) هما اثنان أما أحدهما فهو عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي ، نسبة إلى يحصب وهو فخذ من حمير ، تابعي أخذ عن العديد من الصحابة ، كان قاضي دمشق في أيام الوليد بن عبد الملك وإمام مسجدها وبها توفي سنة (١١٨هـ) انظر ترجمته : كتاب الإقناع ١/١٠٣-١٠٥ ، مناهل العرفان ١/٤٥٦ - ٤٥٧ ، الأعلام ٤/٥٩.
أما الآخر فهو عبد الله بن كثير المكي الداري ، نسب إلى دارين لأنه كان عطاراً ، وهو موضع العطر ، فارسي الأصل ، كان قاضي الجماعة بمكة وهو من الطبقة الثانية من التابعين ، ولد بمكة سنة (٤٥هـ) وبها مات سنة (١٢٠هـ) انظر ترجمته : كتاب الإقناع ١/٧٧-٧٩ ، وفيات الأعيان ٣/٤١-٤٢ ، مناهل العرفان ١/٤٥٧ ، الأعلام ٤/١١٥ .

(٣) أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة الكوفي الزيات الفرضي التيمي ، كان من موالي بني تيم فنسب إليهم ، ولقب بالزيات لأنه كان يجلب الزيت ، كان عالماً بكتاب الله مجوداً له ، وكان عارفاً بالفرائض والعربية حافظاً للحديث ، مات بحلوان بالعراق سنة (١٥٦هـ) انظر ترجمته : كتاب الإقناع ١/١٢٥-١٢٦ ، وفيات الأعيان ٢/٢١٦ ، مناهل العرفان ١/٤٦٠-٤٦١ ، الأعلام ٢/ ٢٧٧ .

(٤) أبو بكر عاصم بن أبي النجود بهدلة الكوفي الأسدي بالولاء قيل اسم أبيه عبد وبهدلة اسم أمه ، تابعي من أهل الكوفة وبها توفي سنة (١٢٧هـ) ، كان قارئاً متقناً آية في الإتقان والفصاحة وحسن الصوت ، انظر ترجمته كتاب الإقناع ١/١١٥ ، وفيات الأعيان ٣/٩ ، مناهل العرفان ١/٤٥٨ ، الأعلام ٣/٢٤٨ .

(٥) أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الكسائي الأسدي بالولاء ، كان أعلم الناس بالقرآن والعربية واللغة وكان شيخ أهل الكوفة وعمدتهم في الإقراء والنحو ، مات بالرى سنة (١٨٩هـ) وله العديد من التصانيف ، انظر ترجمته : كتاب الإقناع ١/١٣٨ ، وفيات الأعيان ٣/٢٩٥-٢٩٧ ، بغية الوعاة ٢/١٦٢-١٦٤ ، مناهل العرفان ١/٤٦٢ ، الأعلام ٤/٢٨٣ ، معجم المؤلفين ٧/٨٤ .

(٦) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي بالولاء المدني ، إمام أهل المدينة ، والذي صاروا إلى قراءته كان أسود اللون ، صبيح الوجه ، أصله من أصبهان ، توفي بالمدينة سنة (١٦٩هـ) انظر ترجمته ، كتاب الإقناع ١/٥٥-٥٦ ، وفيات الأعيان ٥/٣٦٨-٣٦٩ ، مناهل العرفان ١/٤٦١ ، الأعلام ٨/٥ .

مُحَمَّدٌ (١) والنُّعْمَانُ (٢) مَالِكُ (٣) أَحْمَدُ (٤) وسُفْيَانُ (٥) واذْكُرْ بَعْدُ داودَ (٦) تَابِعَا(٧)

وقريب من هذا ما فعله إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني النيسابوري ، الذي قيد مقومات طلب العلم في ستة أمور ، جمعها في بيت واحد ، حيث قال :

أَصِخْ لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إلاَّ بِسِتَّةٍ سَأُنْبِئُكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وافْتِقَارٌ وغُرْبَةٌ وَتَلْقِينُ أُسْتَاذٍ وطُولُ زَمَانِ (٨)

ويتضح لنا مما سبق ، أن الفقهاء أسهموا بقصائد ومنظومات تعليمية ، من أجل نقل العلم والمعرفة للآخرين ، في مجالات العقيدة والفقه والنحو ، والحث على طلب العلم، والتعرف على أبرز أئمته وأعلامه .

---

(١) الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ) ، سبقت ترجمته في الفصل الثاني في مبحث الغزل .

(٢) الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠ - ١٥٠هـ) سبقت ترجمته أيضاً في مبحث الغزل .

(٣) الإمام مالك بن أنس (٩٥ - ١٧٩هـ) ، سبقت ترجمته في التمهيد .

(٤) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) ، سبقت ترجمته في الفصل الثاني في مبحث المدح .

(٥) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ، من بني ثور بن عبد مناة ، أحد الأئمة المجتهدين ، كان إماماً في علم الحديث وغيره من العلوم ، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته ، ولد في الكوفة سنة (٩٧هـ) ومات بالبصرة سنة (١٦١هـ) ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ١٥١/٩-١٧٤ ، طبقات الفقهاء ص٨٤-٨٥ ، وفيات الأعيان ٣٨٦/٢-٣٩١ ، الجواهر المضية ٢٢٧/٢ ، الأعلام ١٠٤/٣-١٠٥ ، معجم المؤلفين ٢٣٤/٤ .

(٦) الإمام أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصفهاني المعروف بالظاهري ، أحد الأئمة المجتهدين ، ينسب إليه المذهب الظاهري ، وانتهت إليه رياسة العلم ببغداد ، ولدبالكوفة سنة (٢٠٢هـ) ، ومات في بغداد سنة (٢٧٠هـ) ، انظر ترجمته : تاريخ بغداد ٣٦٩/٨ ، طبقات الفقهاء ص ١٧٥ ، وفيات الأعيان ٢٥٥/٢-٢٥٧ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢٨٤/٢ -٢٩٣ ، الأعلام ٣٣٣/٢، وقد خلفه ابنه الفقيه أبو بكر محمد بن داود - أحد أبرز الفقهاء الشعراء في هذه الدراسة - على مذهبه بعد وفاته .

(٧) طبقات الشافعية الكبرى ٣٣١/٧ .

(٨) المصدر السابق ٢٠٨/٥ .

وقد جسد بعض الفقهاء ، العلاقة الوثيقة التي بين الشعر التعليمي ، وبين شعر الأخلاق والآداب الإسلامية [1] ، وذلك من خلال استخدامهم لمعارفهم وعلومهم ، من أجل الحث على طلب العلم ، ووجوب تعلمه لشرفه ومنزلته الرفيعة ، كما في أبيات الخطيب الحصكفي ، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني النيسابورى .

---

(1) انظر التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٤٦٩ .

المبحث الثاني : الألغاز [1]

الألغاز فن شعري قديم [2] ، يعتمد على الغموض والإشكال ، وهي " أن يأتي المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة ، من غير ذكر الموصوف ، ويأتي بعبارات يدل ظاهرها على غيره ، وباطنها عليه " [3] .

وهي تدل على مدى قدرة الشاعر وتمكنه ، وسعة فكره ، وقوة ملاحظته ، وإحاطته بالحقائق ، وقدرته على المماثلة ، بالإضافة إلى تمكنه من ناصية اللغة ... [4]

وقد كلف بها الشعراء المتأخرون ، منذ القرن السابع الهجري واستخدموها في تراسلهم ، وتفكههم ورياضتهم الذهنية [5] .

وقد ظهر هذا الفن عند بعض فقهاء هذا العصر ، خاصة المتأخرين منهم ، وتختلف دوافع أولئك الفقهاء في إيراد الألغاز في أشعارهم ، فمنهم من أراد بها الوعظ، ومنهم من أراد بها التعليم وإعمال العقل ، ومنهم من جاء بها من أجل الترفيه وقضاء الوقت ، كما سيتضح لنا ذلك من خلال الأمثلة .

ويعد الفقيه أبو الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الشافعي الواسطي ، من أبرز الفقهاء ، الذين تناولوا الألغاز في شعرهم ، إذ أوقف جانباً من شعره لهذا الغرض، ومن ذلك قوله في الدينار :

---

(١) اشتقاق اللغز من ألغز اليربوع ولغز ، إذ حفر لنفسه مستقيماً ، ثم أخذه يمنة ويسره ، يورى بذلك ويعمي على طالبه ، انظر الصحاح ٨٩٤/٣ - ٨٩٥ ، العمدة ٣٠٧/١ .

(٢) انظر الألغاز عند ذي الرمه في العمدة ١ / ٣٠٧ .

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ٣٤٢/٢ .

(٤) انظر الأدب في العصر الأيوبي للدكتور محمد زغلول سلام ص ٢٤٣ ، منظوم الدرر للحافظ ابن حجر العسقلاني (الديوان الكبير) تحقيق ودراسة يحيى محمد حسان ، وهو رسالة ماجستير تقدم بها الباحث إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، ١ / ١٩٩ .

(٥) انظر مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني للدكتور بكري شيخ أمين ص ١٧٦ - ١٨٠ .

وأيُّ شَــيءٍ طولُــهُ عَرْضُــهُ أضْحَى لــه عِنْـدَكَ مِقْـدَارُ ؟
دَلَّ عليــه حُسْــنُ طَبْــعٍ لَــهُ فَفِيـــهِ للعَـــالِمِ أوْطَـــارُ
تُمْسِكُــهُ الكَــفُّ ولا تَشْتَكِــي مِنْهُ اِحْتِرَاقاً ، وَبِــهِ نَــارُ (١)

وقال في المحجمة :

مَــاذَاتُ رَأْسٍ وفَــمٍ واسَــعٍ بِغَــيْرِ أضْــرَاسٍ وأسْــنَانِ ؟
لا تَلْقُــطُ الحَــبَّ ، وَمِنْقَارُهَــا أطْـوَلُ مِـنْ مِنْقَـارِ حَصَّـانِيِّ (٢)
كأنَّهَــا الهُدْهُــدُ ، مِنْقَارُهَــا فِيـهِ كِتَـابٌ مِـنْ سُـلَيْمَانِ (٣)
تَرْضَــعُ كَــالطِّفْلِ ، وَلَــوْ أنَّهَــا مَضَــى لَهَــا عُمــرٌ وعُمْــرَانِ
لا تَكْتُمُ السِّــرَّ ، وسِــرُّ الَّــذِي يُودِعُهَــا السِّــرَّ كإعْــلانِ (٤)

وقال في المسمار :

وَمَاشَــيءٌ بِفَلْــسٍ تَشْــتَرِيهِ الــ ـكِرَامُ أُولُو المُـروءَةِ والشِّـحَاحُ
وفي بَــابِ الخَلِيفَــةِ كُــلَّ وَقْــتٍ تَــرَاهُ ، ومَالَــهُ عِلَــلٌ تُــزَاحُ
وَسَائِــرُ جِسْمِــهِ ذَنَــبٌ ورَأْسٌ وهذَا وَصْفُهُ المَحْضُ الصَّـرَاحُ (٥)

وكان للخطيب الحصكفي مشاركة في هذا الفن ، حيث نظم أبياتاً ملغزاً في نعش الموتى، جاء فيه :

---

(١) خريدة القصر ، الجزء الرابع – المجلد الأول ص ٣٣٤ .
(٢) حصاني بتحريك الحاء بالفتحة وإهمال الصاد : نوع من الطير .
(٣) يشير الشاعر إلى خبر الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام ، انظر الخبر في سورة النمل .
(٤) خريدة القصر ، الجزء الرابع – المجلد الأول ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .
(٥) المصدر السابق ص ٣٤١ ، وانظر مزيداً من الألغاز في المصدر السابق ص ٣٣٤ – ٣٤٢ .

أتَعْـرِفُ شَـيْئاً في السَّـمَاءِ يَطِـيرُ إذا سَارَ صَاحَ النَّاسُ حَيْثُ يَسِـيرُ
فَتَلْقَـاهُ مَرْكُوبـاً وتَلْقَـاهُ رَاكِبـاً وكُـلُّ أمِـيرٍ يَعْتَلِيـهِ أسِـيرُ
يَحُضُّ على التَّقْوَى ويُكْـرَهُ قُرْبُـهُ وَتَنْفِرُ مِنْـهُ النَّفْـسُ وهـو نَذِيـرُ
ولم يُسْتَزَرْ عن رَغْبَـةٍ في زِيَـارةٍ ولكنْ على رَغْمِ المَـزُورِ يَزُورُ [١]

وأنت ترى في هذه الأبيات ، أن اختيار الشاعر لنعش الموت ، ليكون موضوع لغزه ، هو من باب الوعظ والحض على التقوى ، وعدم الركون إلى الدنيا ، والاستعداد ليوم الرحيل عنها ، ويظهر ذلك جلياً أيضاً ، في عباراته التي صاغ بها هذا اللغز .

وقال القاضي زين الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور ابن خلف الأنصاري الكفرطابي المعروف بابن الرفاء ، ملغزاً في بيضة :

هَـا أنَـا السَّـابِقُ أوْ واضِعَـتِي خَـبِّرُوا سَـابِقَنَا بالتَّبْدِيَـه
إنْ تَكُـنْ مِنِّـي فَمِنْ أيْنَ أنَـا ؟ أوْ أكُنْ مِنْهَا فَمِنْ أيْـنَ هِيَـه ؟ [٢]

وقال القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن منصور الحراني الحنبلي (٦١٠-٦٧٥هـ) [٣] ، ملغزاً في شبابة [٤] .

مُنَقَّبَةٌ مَهْمَـا خَلَـتْ مع مُحِبِّهَـا يُزَوِّدُهَـا لَثْمـاً ويُوسِعُهَـا شَـزْرَا [٥]

---

(١) وفيات الأعيان ٤/٧٢ .
(٢) الوافي بالوفيات ٤/٢٧ .
(٣) من كبار الأئمة في الفقه والأصول والخلاف في عصره ، وكان أديباً فاضلاً وشاعراً مجيداً ، وكان من أذكياء الناس ، ولد بحران ، ودخل مصر ولازم درس الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وتولى القضاء نيابة ، انظر ترجمته : الوافي بالوفيات ٤/٧٥-٧٦ ، فوات الوفيات ٣/٤٢٨ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٢٨٧-٢٨٩ وفيه أن وفاته سنة (٦٧٠هـ) ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ٢/٦٥١ .
(٤) هي قصبة الزمر المعروفة ، انظر شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجي ص١٥٦ .
(٥) في فوات الوفيات : وينظرها شزرا .

وَتَصْحِيفُهَا في كَفٍّ مَنْ شِئْتَ فَلْتَقُلْ: إذَا شِئْتَ في اليُمْنَى وإنْ شِئْتَ في اليُسْرَى[1]

وكتب قاضي القضاة ابن خلكان ، إلى أحد معاصريه لغزاً في سراج ، قال فيه :

أيُّهَا العَالِمُ الَّذِي صَارَ حَبْراً مُمَارِسَا
والَّذِي موضِحَاتُهُ يَجْتَلِيهَا عَرَائِسَا
أيُّ شَيءٍ تَرَى جَمِيعَ الوَرَى مِنْهُ قَابِسَا
إنَّ في السِّرْبِ نِصْفُهُ حَيْثُمَا كَانَ كَانِسَا
ثُمَّ صَحِّفْ تَمَامَهُ تَلْقَ ضَوْءاً مُؤْنِسَا
واحْذِفَنْ مِنْهُ ثَالِثاً تَنْظُرَنْ فِيهِ فَارِسَا
مَنْ يُصَحِّفْهُ عَاكِساً يَلْفَ في اللَّيْلِ حَارِسَا[2]

وهكذا فالألغاز صناعة عقلية ، مرتبطة باتقاد الذهن وشغله بما يفيده ، بعيدة عن الشعور والعاطفة ، لذلك فهي قريبة من الشعر التعليمي ، وصياغتها تتوسط بين الإشارة إلى الشيء الملغز ، وبين التعمية عنه .

وقد كانت اسهامات الفقهاء في هذا المجال جيدة ، على الرغم من ضآلتها ، وذلك من حيث حسن الصياغة ، وجودة الأداء ، وكذلك الاهتمام بمضمون الألغاز ودلالتها ، إذ نجد بين الفقهاء من يستثمر اللغز ، من أجل الوعظ وتنبيه الناس من غفلتهم .

(١) الوافي بالوفيات ٧٦/٤ ، فوات الوفيات ٤٢٨/٣ - ٤٢٩ .
(٢) ذيل مرآة الزمان لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني ٣٩٣/٢ .

الباب الثاني

الخصائص الفنية

الفصل الأول : الخصائص الفكرية والمعنوية .

الفصل الثاني : الخصائص الأسلوبية .

الفصل الثالث : من قضايا الإسلام والشعر .

الفصل الأول

الخصائص الفكرية والمعنوية

المبحث الأول : الأفكار .

المبحث الثاني : المعاني .

المبحث الأول : الأفكار

حفل شعر فقهاء العصر العباسي الثاني بالأفكار والمضامين السامية ، التي حث عليها الإسلام ، وحرص على نشرها وإشاعتها بين الناس . فعلى الرغم من تنوع الموضوعات ، التي نظم فيها الفقهاء وكثرتها – كما رأينا في الباب الأول – فقد استوحوا معظمها من الإسلام ومثله العظيمة ، وأعانهم على ذلك ثقافتهم الدينية العالية .

وقد حاول الفقهاء جعل هذه المضامين في قوالب فنية جميلة ، واستنفذوا في سبيل ذلك كل طاقاتهم وإمكاناتهم الأدبية .

وقد كان قربهم من خالقهم تبارك وتعالى في السراء والضراء ، وتعلقهم الشديد به ، وإقبالهم عليه ، هو الذي دفعهم إلى مناجاته عز وجل شعراً ، فكانوا يتضرعون إليه ، ولاسيما في ساعات الصفاء ، ولحظات التوبة والندم مما اقترفته أيديهم من الذنوب والأثام ، يرجون عفوه وغفرانه ، ويخشون عذابه ، وكانوا في أثناء ذلك يذكرون نعمه العظيمة التي تترى على عباده ، ويثنون عليه بما هو أهل له .

وكان الوعظ الديني والزهد ، أثيراً لدى الفقهاء ، قريباً إلى نفوسهم ، فأكثروا من النظم فيه ، إذ رأوا لزاماً عليهم تنبيه الناس من غفلتهم وإرشادهم ، إلى ما يعود عليهم بالخير في دنياهم وآخرتهم .

وأشعارهم فيه تدل على فهم عميق لفقه الزهد في الإسلام ، وأنه ترك الدنيا بعد امتلاك نواصيها ، رغبة فيما عند الله تعالى ، من عظيم الأجر ، وهو زهد مخالف لزهد القصور عن الوصول ...

ونظرة الفقهاء إلى الحياة مستمدة من مفهوم الفكر الإسلامي للحياة ، فالسلوك الإنساني فيها ضابط للحياة الأخرى ، ولذلك كانت معبراً للآخرة .

أما الموت فهو أمر محتوم على كل حي ، لا مناص منه ، ولا نجاة لأحد منه ، وقد توقف الفقهاء عنده طويلاً ، واستخلصوا منه العبر والعظات ، لأنه أول منازل الآخرة ، وكثيراً ما جعلوا الشيب منذراً ينذر بقرب وقوع الموت .

ثم الدار الآخرة ، وفيها توفى جميع أعمال العباد بالقسطاس المستقيم ، خيراً كانت أم شراً ، في يوم تشخص فيه الأبصار ، وتذهل من هوله المرضعات عن أولادهن ، وتضع أولات الأحمال حملهن ، ثم إلى جنة أو نار .

وكان لمكارم الأخلاق منزلة عظيمة في نفوس الفقهاء ، لذلك سعوا في شعر الأخلاق والآداب الإسلامية ، إلى ترسيخ القيم والمثل التي حث عليها الإسلام في نفوس الناس ، مثل القناعة ، والصبر ، وعزة النفس ، والإباء ، والأنفة ، وعلو الهمة ، والصدق والجود ، وغير ذلك من فضائل الأخلاق ، كما تطرقوا إلى شرف العلم وأهميته ، ووجوب التأدب مع العلماء وتقديرهم ، كما تحدثوا عن آداب الصحبة والصداقة وحقوقها وواجباتها ، حيث أشادوا بالأخوة الصادقة والصحبة الصالحة ،

التي تعتمد على وشائج متينة من المودة والمحبة الخالصة ، ويأتي في أعلاها الأخوة في ا لله.

وقد خاض الفقهاء معارك كثيرة ، في سبيل القضاء على بعض الأمراض الإجتماعية ، التي طرأت على المجتمع الإسلامي ، مثل الكذب ، والنفاق ، والكبر ، والحسد ، والذل ، والمهانة ...

ولا تختلف كثيراً أفكار ومضامين الفقهاء في مجال الحكمة ، عن شعر الأخلاق والآداب الإسلامية ، إذ أخذت حكمهم طابع الإرشاد والنصح ، فيما يعود على الناس بالخير في دينهم ودنياهم .

وإذا ما انتقلنا إلى ما نظمه الفقهاء من أشعار ، في مجال الأغراض التقليدية ، نجد أن معظمهم ينطلقون من قيم ومثل الإسلام الرفيعة ، وخلاله السامية أيضاً .

ففي مجال المدح نجد الفقهاء يترفعون عن التكسب بالشعر ، وإنما كان دافع أكثرهم فيه هو التقدير والإعجاب والإكبار ، لذلك نراهم يمتدحون ويجلون رجالات الإسلام ، وفي مقدمتهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، وآل بيته الأطهار ، وصحابته الكرام ، رضوان ا لله عليهم ، وعلماء الأمة ، والخلفاء والوزراء ... بيد أننا لا نجد مفهوم القدوة بالنموذج – الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ... – واضحاً في فكر الفقهاء ، إذ لم يحاولوا أن يؤكدوا الصلات بين اللاحق والسابق ، لذا كان مدحهم تقليدياً ، ليس فيه عمق الفكر والتصور .

وفي ميدان الفخر ، لم يسر شعر الفقهاء في فلك الفخر التقليدي ، الذي يتضمن الإدعاءات الفارغة ، وكذلك التطاول الذي لا حد له [1] ، وإنما غلب عليهم الاعتزاز بالشخصية الإسلامية ، من خلال اعتزازهم بخصالهم الأخلاقية -السلوكية -، وكذلك بإمكاناتهم ومواهبهم العلمية والفكرية .

وفي مجال الهجاء ترفع معظم الفقهاء ، بتأثير الوازع الديني عن هجاء الناس ، والنيل منهم ، والوقوع في أعراضهم وأنسابهم وأخلاقهم ...

وقد اتجه هجاء الفقهاء في كثير من الأحيان ، إلى هجاء الأمور التي تخالف الدين الحنيف ، وبيان زيفها ، وذم أصحابها ، وكذلك إلى النقد الاجتماعي ، من خلال ذم مظاهر الفساد التي ظهرت في المجتمع الإسلامي ، بسبب بعد بعض أفراده عن منهج الدين القويم ، ومن أبرز المظاهر التي ناقشوها في أشعارهم ، اختلال الموازين وانعدام المقاييس ، التي تميز العلماء عن غيرهم من عامة الناس ، مما نجم عنه نتائج وخيمة .

وقد تجلى استيحاء الفقهاء لآداب الإسلام ، في مجال الرثاء باهتمامهم بذكر وإبراز محامد الميت ، ومناقبه وسجاياه الطيبة ، مثل العدل ، والتقوى ، والزهد ، والصلاح ... كما كانوا يتطرقون إلى ذكر فضل وجهود من يرثونه - خاصة العلماء والفقهاء - في خدمة الدين ، كما تعرضوا في مراثيهم إلى الاحتساب والصبر على

---

(١) انظر أدب الفقهاء ص ١٠٢ .

قضاء ا لله تعالى ، فكل نفس ذائقة الموت ، وكل ما على الدنيا فان ، ولا يبقى إلا وجه ا لله عز وجل .

وعكس لنا الكثير من الفقهاء في ميدان الغزل ، المفهوم الإسلامي لعاطفة الحب، وموقفه من توجيهها الوجهة السليمة ، فقد كان أولئك الفقهاء الشعراء مثالاً للعفة والالتزام في غزلهم ، ولم يمنع ذلك من ظهور فئة محدودة من الفقهاء ، استجازت لنفسها الخوض في موضوعات غزلية ، تتنافى مع الدين والأخلاق والفطرة السليمة ، باعتبار ذلك من قبيل التجربة الفنية المحضة ...

أما شعر الوصف ، فقد تناول الفقهاء ما في الكون من مظاهر وأسرار عجيبة ، أبدع الخالق عز وجل صنعها ، من ليل مظلم ، ونهار مشرق ، وسحب ، وكواكب ، ونجوم ، ومروج خضراء ، وحدائق غناء ، وأشجار ، وأزهار ، وثمار ... ولكن يؤخذ على الفقهاء في هذا الغرض أن وصفهم توقف عند المظاهر الخارجية ، أو الصورة الظاهرة ، دون غوص في كل أسرار الصورة الباطنة ، وما تتضمنه من دلائل عظمة ا لله عز وجل وقدرته ، الذي كان سيضفي على شعرهم بعداً عظيماً .

وسعى فقهاء هذا العصر ، من خلال الشعر التعليمي ، إلى تقريب وتسهيل العديد من القضايا المهمة في حياة الناس ، ولاسيما طلاب العلم منهم ، مثل أمور العقيدة ، وأبرزها ما يتصل بذات الجلالة تبارك وتعالى ، وإثبات الصفات له عز وجل ، من غير تعطيل أو تشبيه أو تمثيل ، كذلك بعض القضايا الفقهية واللغوية،

كما حثوا من خلال منظوماتهم التعليمية تلك ، على طلب العلم النافع ، ومعرفة أعلامه في شتى الفنون .

ومن الملاحظ أن أفكار الفقهاء في أشعارهم ، كانت سهلة واضحة شائعة قريبة المأخذ ، لا تكد العقل ، ليس فيها عمق أو غموض ، ولا تميل إلى الفلسفة ، لأنهم كانوا يخاطبون عامة الناس ، فحرصوا على توضيح أفكارهم وتعميقها .

المبحث الثاني : المعاني

وبعد هذه الوقفة التي تناولنا فيها أفكار ومضامين الفقهاء ، ننتقل إلى معانيهم الشعرية ، التي تنتظم داخل تلك الأفكار والمضامين ، وتكون لبناتها .

وكما سبق أن رأينا في أغراضهم الشعرية وكذلك أفكارهم ، فإن معظم المعاني التي طرقوها ، كانت نابعة من مصادر الشريعة الإسلامية ، وفي مقدمتها كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، بالإضافة إلى تراث الشعر العربي القديم ، وحتى تتضح الصورة أكثر ، سنقف على نماذج من معانيهم ، التي استوحوها من تلك المصادر .

فنظراً لأن الفقهاء كانوا على صلة وطيدة بالقرآن الكريم ، وتفسيره وعلومه فقد تأثر كثير منهم به في أشعارهم ، خاصة في مجال الزهد ، وكذلك الأخلاق والآداب الإسلامية ، حيث أفادوا كثيراً من منهجه القويم ، في الدعوة إلى الله تعالى ، وذلك بحض الناس على الزهد في هذه الدنيا الفانية ، والترغيب في طاعة الله ، والترهيب من عقابه ، والتذكير بالموت والدار الآخرة ، وكذلك بحث الناس على التحلي بمكارم الأخلاق ، والبعد عن السيء منها .

وأفاد الفقهاء في أشعارهم أيضاً ، من قصص القرآن ، وما تحويه من معاني العبر والعظات ... الخ ، فهذا العلامة أبو الفرج ابن الجوزي يشير إلى قصتي يوسف وآدم عليهما السلام ، وهو في صدد الوعظ ، فيقول :

اِغْنَمْ مَدِيحَةَ يُوسُفَ فِي صَبْرِهِ   واحْذَرْ تَعَجُّلَ آدمَ في المُبْتَدَى (١)

ومن ذلك أيضاً تشبيه الفقيه أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي ياسر السري الدوري أبي العباس بن عون (ت ٥٩٨هـ) (٢) فرحته بوفود رسالة تلميذه إسماعيل ،

---

(١) أدب ابن الجوزي ص ١٤٦ .

(٢) من الدور – بضم الدال وسكون الواو – الأسفل بين سامرا وتكريت ، كان فقيهاً فاضلاً ، وأديباً شاعراً ، وكاتباً منشئاً ، توفي ببغداد ، انظر ترجمته : طبقات الشافعية الكبرى ٦/٤٨ – ٤٩ .

بفرح خليل ا لله إبراهيم عليه السلام بالكبش ، الذي افتدى به ا لله ابنه إسماعيل عليه السلام ، حيث قال :

فَكِتابُ إسماعِيلَ أَفْرَاحِي بِهِ ... فَرَحَ الخَلِيلِ بِكَبْشِ إسماعِيلاَ [1]

وفي مجال الاقتباس والتضمين لمعاني القرآن الكريم ، نجد أن الكثير من الفقهاء أبرزوا تلك المعاني القرآنية ، وضمنوها في أشعارهم ، فالفقيه أبو عبد الرحمن عمر بن محمد بن محمد المعروف بالأشقر يبتهل إلى خالقه عز وجل ، راجياً منه أن يحط عنه ذنوبه قائلاً :

إلَهِي حَاجَتِي إليكَ كَثِيرَةٌ ... وأنْتَ بِحَالِي عَالِمٌ وخَبِيرُ
وأنْتَ رَحِيمٌ بالبَرِيَّةِ فاقْضِهَا ... جَمِيعاً وذَا سَهْلٌ عَلَيْكَ يَسِيرُ
ذُنُوبِي ذُنُوبِي حُطَّ عَنِّيَ ثِقْلَهَا ... فَقَدْ أنْقَضَتْ ظَهْرِي وأنْتَ غَفُورُ [2]

والبيت الأخير واضح العلاقة ، بقول ا لله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [3] .

وهذا الفقيه أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد ا لله التميمي البغدادي ، يحذر من الركون إلى الدنيا ، والاغترار بها لأنها وديعة ، وما ينال منها إلا سراب خادع ، حيث قال :

ألَا إنَّ دُنْيَاكَ مِثْلُ الوَدِيعَةْ ... جَمِيعُ أمَانِيكَ فِيهَا خَدِيعَةْ
فَلَا تَغْتَرِرْ بالَّذِي نِلْتَ مِنْهَا ... فَمَا هُو إلاَّ سَرَابٌ بِقِيعَةْ [4]

والمعنى أخذه من قول ا لله تعالى : ﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا أعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ

---

(1) المصدر السابق ٦/٤٩ .

(2) دمية القصر ٢/٢٦٤ - ٢٦٥ .

(3) سورة الانشراح ، الآية ٢-٣ .

(4) يتيمة الدهر ٤/٤٧٧ .

بِقِيعَةٍ ... ﴾ (١) .

ويحث القاضي أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد المروروذي ، على مواجهة نكبات الدهر بالصبر ، لأن الله تعالى سيعقب بعد العسر يسرا ، إذ يقول :

إذَا مَا رَمَاكَ الدَّهْرُ يَوْماً بِنَكْبَةٍ فَأَوْسِعْ لها صَدْراً وأحْسِنْ لَها صَبْرَا
فإنَّ إلهَ العالَمِينَ بِفَضْلِهِ سَيُعْقِبُ بَعْدَ العُسْرِ مِنْ فَضْلِهِ يُسْرَا (٢)

والبيت الثاني استمده الشاعر من قول الله تعالى : ﴿ فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَا * إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ﴾ (٣) .

وكذلك حال القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن النضر المعروف بالأديب ، الذي حذر نفسه من اليأس والقنوط من روح الله قائلاً :

لا تَيْأسِي مِنْ رَوْحِ رَبِّكِ واحْذَرِي أنْ تَسْتَقِرِّي بالقُنُوطِ فَتُخْذَلِي (٤)

وقد أخذ معنى هذا البيت من قول الله تعالى : ﴿ ولا تَيْأسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إنَّهُ لا يَيْأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الكافِرُونَ ﴾ (٥) .

ويلاحظ مما سبق أن اقتباس الفقهاء مباشر ، تطل فيه الآيات بألفاظها فلا نجد عندهم الاقتباس غير المباشر ، الذي يقوم على الإشارة ، ولاشك أن الاقتباس الإشاري أجود ، إذ تظهر فيه مقدرة الشاعر ، وتمكنه من ناصية اللغة .

(١) سورة النور ، الآية ٣٩ .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣٥٨/٤ .
(٣) سورة الانشراح ، الآية ٥-٦ .
(٤) خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ٩٣/٢ .
(٥) سورة يوسف ، الآية ٨٧ .

وكانت أحاديث النبي الكريم صلى ا لله عليه وسلم ، معيناً لا ينضب ، ومنهلاً لا ينفذ ، استمد منه الفقهاء الكثير من المعاني السامية ، وضمنوها أشعارهم ، خاصة في مجال الزهد والأخلاق .

فمن ذلك [1] ، قول الفقيه أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري ، في عدم هجر الصديق بغير ذنب :

فَلا تَهْجُرْ أخَاكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ... فَإنَّ الهَجْرَ مِفْتَاحُ السُّلُوِّ [2]

والشطر الأول أخذه من التوجيه النبوي الكريم : " ... ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخَاهُ فَوْقَ ثَلاث " [3] .

ويوجه الفقيه أبو القاسم على بن المظفر بن حمزة العلوي الحسيني الدبوسي ، النصح بوجوب اغتنام وقت اليسر من أجل فعل الخير ، قائلاً :

أقُولُ بِنُصْحٍ يا ابْنَ دُنْيَاكَ لا تَنَمْ ... عَنِ الخَيْرِ مَادَامَتْ فَإنَّكَ عَادِمُ
وإنَّ الَّذِي لَمْ يَصْنَعِ العُرْفَ في غِنَىً ... إذْ مَا عَلاَهُ الفَقْرُ لاشَكَّ نَادِمُ
فَقَدِّمْ صَنِيعاً عِنْدَ يُسْرِكَ واغْتَنِمْ ... فأنْتَ عَلَيْهِ عِنْدَ عُسْرِكَ قَادِمُ [4]

ومعنى هذه الأبيات استمده الشاعر ، من جزء من حديث الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، الذي جاء فيه : " اغتنم خمساً قبل خمس : شبابَك قبل هرَمِك ، وصحتَك قبل سَقَمِك ، وغناءَك قبل فَقرِك ، وفراغَك قبل شُغلِك ، وحياتَك قبل مَوْتِك " [5] .

---

(١) سبقت الإشارة إلى أخذ الفقيه أبي الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الواسطي ، لمعنى حديث شريف في شعره ، انظر مبحث الأخلاق والآداب الإسلامية في الفصل الأول من الباب الأول .

(٢) أوراق من ديوان أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني ص ٦٧ .

(٣) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، كتاب الأدب ٤٩٢/١٠ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٢٩٦/٥ - ٢٩٧ .

(٥) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه انظر ٣٠٦/٤ .

وهذا القاضي زين الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور ابن خلف الأنصاري الكفرطابي المعروف بابن الرفاء ، يحذر من الاطمئنان إلى الدنيا لأنها دار الغرور ، حيث يقول :

يَـا مُولَعـاً بالأمَـانِي غَـيْرَ مُعْتَـبِرِ ... كَيْـفَ الإقَامَـةُ والدُّنْيَـا علـى سَـفَرِ
لا تَرْكُنَـنَّ إلى دَارِ الغُـرُورِ ولَا ... تَسْكُنْ إلى وَطَـنٍ فِيهَا وَلَا وَطَرِ (١)

ومعنى البيتين قوي الصلة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، عن حاله في هذه الدنيا : " ما أنَا والدُّنْيَا ! إنَّمَا أنَا والدُّنْيَا كَراكِبٍ اسْتَظَلَّ تحت شَجَرةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا " (٢) .

وقد رأينا من قبل ، أن العديد من الفقهاء ، عمدوا إلى بعض الأحكام والمصطلحات الفقهية ، فأفادوا منها في بعض معانيهم الشعرية ، خاصة في غرض الغزل ، من خلال الرمز والإشارة ، وذلك لما فيها من حيوية بالإثارة والتنبيه على المعاني ، ومن ذلك قول الفقيه أبي عبد الله الحسين بن هداب بن محمد بن ثابت الديري النوري الضرير (ت ٥٦٢هـ) (٣) مستعيراً لمصطلحي " ليلة الشك " و " صبح اليقين أو الفجر الصادق " لبيان اشتعال شيب رأسه ، إذ قال :

قَـالَ لِي مَـنْ رَأَى صَبَـاحَ مَشِـيبِي ... عَـنْ شِمَـالٍ مِـنْ لِمَّـتِي وَيَمِـينِ
أيُّ شَـيْءٍ هَـذَا ؟ فَقُلْتُ مُجِيباً : ... لَيْلُ شَـكٍّ مَحَـاهُ صُبْحُ يَقِينِ (٤)

---

(١) الوافي بالوفيات ٢٧/٤ .

(٢) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد / ١٣٧٦ .

(٣) كان فقيهاً شاعراً متفنناً ، نحوياً لغوياً ، سكن بغداد وعكف فيها على نشر العلم والإقراء ، وكان كثير الإفادة والعبادة ، عفيفاً ديناً ، وترك شعراً جيداً ، نسبته إلى الدير قرية من قرى النعمانية ، ويعرف بالنوري قرية من قرى الحلة السيفية من سيفي الفرات ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ١٠/١٨٠-١٨١ ، بغية الوعاة ٥٤٢/١ .

(٤) معجم الأدباء ١٠/١٨٢ .

وهذا القاضي أبو المعالي موفق الدين أحمد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن حسين بن أبي الحديد (٥٩٠ - ٦٥٦هـ) [١] يستخدم عبارة " الفسق " لوصف عينيه لأنهما شهدا بعشقه ، فهو يقول :

قَمَرٌ عَدِمْتُ عَواذِلي في عِشْقِهِ بَلْ مَا عَدِمْتُ تَزَاحُمَ العُشَّاقِ
يَبْدُو فَتَسْبِقُهُ العُيُونُ وإنَّهَا مَأْمُورَةٌ بِالغَضِّ والإطْرَاقِ
عَيْنَايَ قَدْ شَهِدَا بِعِشْقِكَ إنَّمَا لكَ أنْ تَقُولَ هُمَا مِنَ الفُسَّاقِ [٢]

وتبدو ملامح التكلف ظاهرة ، على استخدام الشاعر " للفسق " في أبياته الغزلية هذه .

وكان للنهضة العلمية ، التي شهدها العصر العباسي الثاني أثر في شعر فقهاء هذا العصر ، إذ كان العديد منهم ، يستوحون معانيهم من تلك العلوم ، التي كانت زاهية في ذلك العصر ، وكأنهم أرادوا أن يبينوا لنا من خلال أشعارهم ، ثقافتهم المتنوعة ، وأن يزينوا بها معانيهم الشعرية ، بيد أن ذلك كان له تأثير سلبي ، على صدق عواطفهم ، وانسياب مشاعرهم ، نظراً لأنهم استنفذوا طاقاتهم الفنية ، وشحذوا عقولهم ، في سبيل إبراز تفوقهم الفكري ، من خلال تفننهم في التوليد الذهني ، وإقامة وبسط الحجج الناجعة .

فمن الفقهاء من أفاد من رموز المصطلحات العلمية في مجال علوم العربية وذلك في بناء المعنى الذي يريده ، مثل الفقيه إبراهيم بن نصر بن طاقة المصري الحموي المعروف بابن الفقيه نصر ، الذي استعان بأسماء بحور الشعر العربي : " المديد " و " البسيط " و" الوافر " و " الطويل " ، لوصف ما في قلبه من هموم ، حيث قال :

---

(١) ولد بالمدائن ، وكان فقيهاً فاضلاً ، وأديباً شاعراً ، ومشاركاً في الكثير من العلوم ، تولى قضاء المدائن ، كما تولى كتابة الإنشاء ، صنف كتاباً سماه " الحاكم في اصطلاح الخراسانيين والعراقيين ، في معرفة الجدل والمناظرة " وهو أخو عبد الحميد بن هبة الله ، الذي سبقت ترجمته ، انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٣٩١/٥ - ٣٩٢ ، الوافي بالوفيات ٢٢٥/٨-٢٢٦ ، فوات الوفيات ١٥٤/١ ، شعراء بغداد ٦٩/٢ .

(٢) الوافي بالوفيات ٢٢٦/٨ ، فوات الوفيات ١٥٥/١ ، شعراء بغداد ٧٠/٢ .

وَبِقَلْبِي مِنَ الهُمُومِ مَدِيدٌ وبَسِيطٌ وَوَافِرٌ وطَوِيلُ
لم أكُنْ عَالِماً بِذاكَ إلى أنْ قَطَعَ القَلْبَ بِالفِرَاقِ الخَلِيلُ (١)

ويبدو أن الشاعر رأى في دلالة أسماء هذه البحور ، تعبيراً دقيقاً عن حجم همومه ، أكثر من غيرها من البحور الشعرية .

وهذا الفقيه أحمد بن محمد بن هبة الله بن قدس ، شمس الدين الأرمنتي (ت ٦٦٢هـ) (٢) ، يوظف بعض قواعد النحو ، في شرح حاله للقاضي الذي أمر بعزله ، من عمله في حكم قوص ، حيث قال مخاطباً إياه :

حَاشَاكُمُ أنْ تَقْطَعُوا صِلَةَ الَّذِي أوْ تَصْرِفُوا عَلَمَ المعَارِفِ أحْمَدَا
هو مُبْتَدَا بِخَباءِ أبنا جِنْسِهِ والله يَأْبَى غَيْرَ رَفْعِ المُبْتَدَا
أغْرَيْتُمُ الزَّمَنَ المُشِتَّ بِشَمْلِهِ وحَذَفْتُمُوه كأنَّهُ حَرْفُ النِّدَا (٣)

ويلاحظ في المثالين السابقين ، عدم مقدرة الفقيهين على الإفادة من رموز المصطلحات العلمية ، في مجال العروض والنحو ، بصورة فنية إشارية ، ذات ملمح شعري بديع ، إذ جاءت تلك المصطلحات في شعرهما ، جامدة ذات دلالة علمية بحتة ، مما أدى إلى هبوط مستوى شعرهما ، واتسامه بالتكلف .

وأفاد بعض الفقهاء في شعرهم ، من بعض القضايا والبراهين الكونية ، وكذلك المنطق العقلي ، فبدأوا بمقدمات انتهت بهم إلى نتائج محددة ، خاصة في مجال الوعظ .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/١٢٥ ، والشاعر ورى في البيت الأخير بالخليل بن أحمد الفراهيدي وأراد الحبيب.

(٢) كان فقيهاً أديباً شاعراً ، ولي الحكم مدة وناب فيه بقوص ، توجه من قوص إلى أرمنت لزيارة ابنته ، فتوفي بها ، وهي كورة بصعيد مصر ، بينها وبين قوص مرحلتان كما في معجم البلدان ١/١٥٨ - ١٥٩ انظر ترجمته : الوافي بالوفيات ٨/١٠٠-١٠١ ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ١/٨٦ .

(٣) الوافي بالوفيات ٨/١٠٠ .

يقول الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي ، في هجاء الذين عابوا التفقه مستدلاً بآية كونية ، أوجدها الله تبارك وتعالى ، لا يختلف على وجودها اثنان ، ألا وهي الشمس ونورها الساطع ، حيث يقول :

عَابَ التَفَقُّهَ قَوْمٌ لا عُقُولَ لَهُمْ ... ومَا عَلَيْهِ إذَا عَابُوه مِنْ ضَرَرِ
مَاضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى والشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... أنْ لا يَرَى ضَوْءَهَا مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَرِ (١)

وتستوقف الفقيه أبا محمد إسماعيل بن علي بن الحسين البغدادي الأزجي المأموني المعروف بغلام ابن المني وبابن الوفاء وبابن الماشطة (٥٤٩ – ٦١٠هـ) (٢) ظاهرة انقباض كف الإنسان حين ولادته ، وبسطها عند وفاته ، فيخلص من ذلك إلى نتيجة مؤداها : أن الإنسان يميل بطبعه إلى الحرص على الدنيا ، حتى إذا ما أدركه المنون ، رحل عنها خاوي الوفاض ، كما عبر عن ذلك بقوله :

دَليلٌ على حِرْصِ ابنِ آدمَ أنَّهُ ... تَرَى كَفَّهُ مَضْمُومَةً وَقْتَ وَضْعِهِ
وَيَبْسُطُهَا عِنْدَ المَمَاتِ إشارةً ... إلى صِفْرِهَا مِمَّا حَوى بَعْدَ جَمْعِهِ (٣)

وفي مجال تأثر معاني الفقهاء ، بموروث الشعر العربي القديم ، نلاحظ أن الكثير منهم قد استدعوا معانيهم من السابقين ، إذ كانوا يتمثلون معانيهم عند نظمهم للأشعار .

ففي غرض الرثاء استمر الفقهاء يرددون ما قاله السابقون ، من أن الظواهر الكونية تبكى حزناً على الميت ، كما جاء في قوله الفقيه أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي البوسنجي :

---

(١) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ١٠٣ ، وانظر التمهيد .

(٢) فقيه حنبلي أصولي متكلم ، كانت له حلقة بجامع القصر ببغداد للمناظرة ، صنف تعليقة في الخلاف ، مات قتيلاً في بغداد ، انظر ترجمته : الوافي بالوفيات ١٥٧/٩-١٥٨ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٦٦/٢-٦٨ ، شذرات الذهب ٤٠/٥-٤١ ، شعراء بغداد ١٤٦/٢ ، معجم المؤلفين ٢٨٠/٢ .

(٣) الوافي بالوفيات ١٥٩/٩ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٦٧/٢-٦٨ ، شعراء بغداد ١٤٧/٢ .

بَكَتِ السَّمَا والأَرْضُ يَوْمَ وَفَاتِهِ وبَكَى عَلَيْهِ الوَحْيُ والتَّنْزِيلُ
والشَّمْسُ والقَمَرُ المُنِيرُ تَنَاوَحَا حَزَناً عَلَيْهِ وللنُّجُومِ عَوِيلُ (١)

وظل الممدوح غيثاً ينهمر بالخير ، كما كان من قبل ، يقول الفقيه الشاعر أبو الفرج مهذب الدين عبد الله بن أسعد بن علي المعروف بابن الدهان الموصلي الحمصي في ذلك :

لا تَجْزَعِي بانْحِبَاسِ الغَيْثِ عَنْكِ فَقَدْ سَأَلْتُ نَوْءَ الثُّرَيَّا جَوْدَ مَغْنَاكِ (٢)

وظلت صورة المرأة كما كانت عند القدماء ، محطوطة المتنين ، مهضومة الحشا ، ناعمة لينة ، كأنها غصن البان ، فلم يتغير ذوق الفقهاء الجمالي في المرأة ، من الاعجاب بسمنتها ، وجسدها الغض .

يقول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في هذا الصدد :

اِرْحَمْ قَضِيبَ البَانِ وارْفُقْ بِهِ قَدْ خِفْتُ أنْ يَنْقَدَّ مِنْ قَدِّكْ (٣)

وقال القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي أيضاً :

ومَحْطُوطَةِ المَتْنَيْنِ مَهْضُومَةِ الحَشَا مُنَعَّمَةِ الأَطْرَافِ تَدْمَى مِنَ اللَّمْسِ (٤)

وهنالك أمثلة كثيرة على أخذ الفقهاء ، لمعاني غيرهم من الشعراء ، سنكتفي بذكر بعض النماذج منها (٥) .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢٨٢/٤ – ٢٨٣ ، وانظر ما قيل عن هذين البيتين في مبحث الرثاء في الفصل الثاني، من الباب الأول .

(٢) ديوان ابن الدهان ص ١٨٢ .

(٣) يتيمة الدهر ١٠/٤ ، معجم الأدباء ٢٥/١٤ .

(٤) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الثاني ص ٥٢١ .

(٥) سبقت الإشارة في الباب الأول ، إلى تأثر العديد من الفقهاء بغيرهم من الشعراء ، وانظر تأثر الشريف المرتضى في وصفه لطاق كسرى بوصف البحتري للإيوان في : أدب المرتضى من سيرته وآثاره ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .

فالفقيه أبو عبد الرحمن عمر بن محمد بن محمد المعروف بالأشقر ، في قوله :

عِلْمِـي إذَا مَـا نَشِـطْتُ أَهْـانِي ... وهـو مَتَـى مَـا اغْتَمَمْـتُ أسْـلاَنِي
وَدفْتَـرِي والجَلِيـسُ يَخْذُلُنِـي ... خَيْـرُ جَلِيـسٍ وخَيْـرُ نَدْمَانِـي [1]

استمد معناه من بيت أبي الطيب المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤هـ) [2] المشهور :

أعَزُّ مَكَانٍ في الدُّنَى سَـرْجُ سَابِـحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ في الزَّمَـانِ كِتَـابُ [3]

وأخذ الفقيه أبو عثمان خمار تاش بن عبد الله التركي الهيتي أيضاً ، معنى بيت المتنبي :

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَحَلْتُ إلى الصِّبَـا ... لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ القَلْبِ بَاكِيَـا [4]

في قوله :

ولي قَلْـبٌ لِشِـقْوَتِهِ أَلُـوفٌ ... يُنَغِّـصُ عِيشَـتِي أُخْـرَى اللَّيَـالِي
فَلَوْ أنِّي أَلِفْـتُ الهَجْـرَ يَوْمـاً ... بَكَيتُ عليـه في زَمَـنِ الوِصَـالِ [5]

ولا يخفى أن للفقيه المتأخر أثراً لا ينكـر ، في إضفـاء المعنـى وتوجيهـه وجهـة جديـدة ، وهذه ظاهرة براعة .

وكان بيتا الشاعر بكير بن الأخنس

---

(١) دمية القصر ٢٦٦/٢ .

(٢) أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي ، الشاعر المعروف ، انظر ترجمته : يتيمة الدهر ١٣٩/١ - ٢٧٩ ، تاريخ بغداد ١٠٢/٤ ، المنتظم ٢٤/٧ ، وفيات الأعيان ١٢٠/١ - ١٢٥ ، الأعلام ١١٥/١ .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ١٩٣/١ .

(٤) المصدر السابق ٢٨٤/٤ .

(٥) الوافي بالوفيات ٤١٩/١٣ .

نَزَلْتُ على آل المُهَلَّبِ شَاتِياً غَرِيباً عَنِ الأَوْطَانِ في زَمَنٍ مَحْلِ
فَمَا زَالَ بي إكْرَامُهُمْ وافْتِقَادُهُمْ وإلْطَافُهُمْ حتَّى حَسِبْتُهُمُ أَهْلِي [1]

هما أصل بيتي القاضي أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني الأسواني المصري الملقب بالرشيد :

وَلَمَّا نَزَلْنَا في ظِلَالِ بُيوتِهِمْ أمِنَّا ونِلْنَا الخَصْبَ في زَمَنٍ مَحْلِ
ولَوْ لَمْ يَزِدْ إحْسَانُهُمْ وجَمِيلُهُمْ على البِرِّ مِنْ أهْلِي حَسِبْتُهُمُ أهْلِي [2]

ونلاحظ هنا تقصيراً في التناول ، خاصة أنه أعاد معظم عجز البيت الثاني بنصه .

ويغلب في ظني أن تأثر الفقهاء بمعاني غيرهم من الشعراء ، يدخل في باب النظر والإلمام بالمعاني التي طرقها السابقون ، نظراً لشهرة معظم تلك المعاني التي تأثروا بها ، مما يجعلنا نستبعد السرقات الشعرية .

وكان للبيئات التي عاش فيها الفقهاء ، وكذلك لحياتهم الاجتماعية ، أثر في معانيهم الشعرية ، إذ وجدوا في بيئاتهم ، وما كان يدرو في حياتهم اليومية من أمور ، مادة غنية ، زودتهم بالكثير من المعاني ، خاصة في مجال الوصف ، وغيره من الأغراض، كما سبق أن رأينا في النماذج الشعرية في الباب الأول ، ومنها في غرض المدح أبيات القاضي أبي روح ظفر بن عبد الله الهروي في مدح الطفيلي ، وفي غرض الهجاء أبيات الخطيب الحصكفي في هجاء مغن ، وفي غرض الرثاء أبيات القاضي علي ابن عبد العزيز الجرجاني ، في رثاء برذون أبي عيسى بن المنجم [3] وغيرها .

(١) هناك خلاف في نسبة هذين البيتين ، فقد ورد البيتان في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣٠٣/١ ، البيان والتبيين ٣/ ٢٣٣ ، منسوبين إلى بكير بن الأخنس ، ووردا في بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ٢٩٤/١ منسوبين لأبي الهندي.

(٢) الوافي بالوفيات ٢٢١/٧ .

(٣) انظر التمهيد .

ولم تخل بعض معاني الفقهاء في نتاجهم الشعري من الجدة والأصالة ، إذ عكفوا فيها على ذاتهم ، وقدحوا زناد شاعريتهم ، فأتوا بالجيد من الشعر ، ومن ذلك أوصاف الشريف المرتضى للطيف ، التي أولع بها ، وأتى فيها بالمعاني الطريفة ،كقوله:

وَسَّدَنِي كَفُّهُ وعَانَقَنِي ... ونَحْنُ في سَكْرَةٍ مِنَ الوَسَنِ (1)
وَباتَ عِنْدِي إلى الصَّباحِ ومَا ... شَاعَ الْتِقَاءٌ لَنَا ولَمْ يَبِنِ
خَادَعَنِي ثُمَّ عَدَّ خُدْعَتَهُ ... لِمُقْلَتِي مِنَّةً مِنَ المِنَنِ
فَلَيْتَ ذَاكَ اللِّقَاءَ مَا زالَ أوْ ... لَيْتَ خَيَالاً في النَّوْمِ لمْ يَكُنِ
وَزَارَنِي زَوْرَةً بِلا عِدَةٍ ... ومَا أتَى وَقْتُهَا ولَمْ يَحِنِ
فَإنْ تَكُنْ زَوْرَةً مُوهِمَةً ... فَقَدْ أمِنَّا فِيهَا مِنَ الظِّنَنِ (2)
وإنْ تَكُنْ بَاطِلاً فَكَمْ بَاطِلٍ ... عاشَ بِهِ مَيِّتٌ مِنَ الحَزَنِ (3)

فالشاعر هنا انطلق مع نفسه ، وتحرر من القيود التي كانت تحول بينه ، وبين التعبير عن خلجات نفسه في الغزل ، فأطلق لمشاعره العنان ، لأنه أمن الظنون ، فجاء بأرق معاني الغزل ، من زيارة فلقاء فعناق تم في الخيال ، ثم تأمل جمال التعبير ودقته ، والتناغم بين الألفاظ في قوله " سكرة من الوسن " .

وقد تطرق الشاعر في البيت الأخير إلى الحديث ، عن جانب من خفايا النفس البشرية ، وعبر عن مشاعرها وأحاسيسها ، من خلال تصويره لحالة العاشق الذي يكاد يقتله الحزن ، على فراق الحبيب ، فيجد في زيارته الوهمية له في الخيال ، زاداً يعينه على الاستمرار في الحياة .

والإجادة تبدو في معجم الشاعر ، الذي أداره على مادة الخيال : الوسن – الوهم – الخيال – الخداع – الباطل .

---

(1) الوسن : النعاس والنوم الخفيف .
(2) الظنن : جمع الظنة وهي التهمة ، وفي طيف الخيال : مموهة بدلاً من موهمة .
(3) ديوان الشريف المرتضى ٣/٣٤٢ ، طيف الخيال ص ١٣٨ – ١٣٩ .

كما كان الشريف المرتضى مجيداً في أوصافه للشيب والمشيب ، إذ اتخذ منه موضوعاً مستقلاً للنظم ، وحرص على استيفاء القول فيه (١) ، ومن ذلك قوله موجهاً حديثه إلى من عابت اشتعال الشيب في رأسه :

تَضَاحَكْتِ لَمَّا رَأيْتِ المَشِيبَ ... ولم أرَ مِنْ ذَلِكَ مَا يُضْحِكُ (٢)
ومَا زَالَ دَفْعُ مَشِيبِ العِذَارِ لا يُسْتَطَاعُ ولا يُمْلَكُ (٣)
وقَالَ لِيَ الدَّهْرُ لَمَّا بَقِيتُ : إمَّا المَشِيبُ أوْ المَهْلَكُ
فَقُولِي وأنْتِ تَعِيبِينَهُ ... لأيِّ طَرِيقَيْهِمَا أسْلُكُ ؟ (٤)

فالشاعر يحاول في هذه الأبيات ، أن يبين لهذه المرأة ، أنه بين أمرين أحلاهما مر ، إما المشيب – الذي تستنكف منه – أو الموت والهلاك ، وكيف أن المشيب هو أهون هذين الأمرين .

ومن معانيهم الجيدة أيضاً اهتمامهم بتصوير الخواطر والمشاعر ، والتغلغل في أعماق النفس الإنسانية ، وسبر أغوارها ، والتعبير عن الروح والوجدان ، وقد مر بنا جانب من ذلك في شعر المناجاة ، وكذلك الغزل العذري ، ولعل قصيدة القاضي أبي محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر بن علي بن القاسم الشهرزوري المنعوت بالمرتضى – وقد ذكرنا جانباً منها – خير مثال على ما نقول ، فها هو الشاعر يصور لنا أثر الوجد والحب الظاهر في النحول والشفافية ، قائلاً :

فَحَطَطْنَا إلى مَنَازِلِ قَوْمٍ ... صَرَعَتْهُمْ قَبْلَ المَذَاقِ الشَّمُولُ
دَرَسَ الوَجْدُ مِنْهُمُ كُلَّ رَسْمٍ ... فهو رَسْمٌ والقَوْمُ فِيهِ حُلُولُ
مِنْهُمُ مَنْ عَفَا ولم يَبْقَ للشَّكْوَى ولا للدُّمُوعِ فيهِ مَقِيلُ
لَيْسَ إلاَّ الأنْفَاسُ تُخْبِرُ عَنْهُ ... وهو عَنْهَا مُبَرَّأٌ مَعْزُولُ
ومِنَ القَوْمِ مَنْ يُشِيرُ إلى وَجْدٍ تَبَقَّى عَلَيْهِ مِنْهُ القَلِيلُ (٥)

---

(١) انظر أدب المرتضى من سيرته وآثاره ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٢) في الشهاب في الشيب والشباب : في ذلك .

(٣) العذار : الشعر النابت على صفحة الخد مما يلي الأذن .

(٤) ديوان الشريف المرتضى ٢/٣٦١ ، الشهاب في الشيب والشباب ص ٢١٧ وفيه : تعيبيني .

(٥) وفيات الأعيان ٣/٥٠ .

ومن المعاني الطريفة التي ابتكرها فقهاء هذا العصر ، قول القاضي أبى علي المحسن بن علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي ، وقد خرجوا ليستسقوا في يوم غامت سماؤه ، فزالت تلك الغيوب ، عند دعاء شخص كان معهم :

خَرَجْنَا لِنَسْتَسْقِي بِيُمْنِ دُعَائِهِ ... وَقَدْ كادَ هُدْبُ الغَيْمِ أنْ يَبْلُغَ الأرْضَا (١)
فَلَمَّا ابْتَدَا يَدْعُو تَقَشَّعَتِ السَّمَا ... فَما تَمَّ إلاَّ والغَمَامُ قَدِ انْفَضَّا (٢)

ومن كل ما تقدم ، يتبين لنا أن فقهاء العصر العباسي الثاني استوحوا أكثر معانيهم من الإسلام ، ومثله وقيمه العظيمه ، وقد غلب على جانب من معانيهم التقليد والمحاكاة ، لكونهم نظروا إلى موروث الشعر العربي القديم ، نظرتهم إلى مثال يجب أن يحتذى ، كما ظهر على بعض معانيهم آثار الكد الذهني ، بالإضافة إلى أثر البيئة ومظاهر الحياة الاجتماعية كذلك .

ومن الظواهر الفنية التي تثير الانتباه في هذا الصدد ، قدرة الفقهاء الفنية الجيدة، التي مكنتهم من تضمين المعاني المستوحاه في شعرهم ، ولاسيما المعاني التي استمدوها من القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والفقه .

وقد كانت لبعض الفقهاء معان شعرية جميلة ، اتسمت بالجدة ووضوح الرؤية ، بالإضافة إلى حسن التناول ، مثل القاضي أبي القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي ، والشريف المرتضى وغيرهما.

---

(١) هدب الغيم : كناية عن ظلامه كالهدب وشعر العين ، وفي الوافي بالوفيات : يلبس الأرض .

(٢) معجم الأدباء ١٧ / ٩٤ ، الوافي بالوفيات ١٥ / ٤٢٣ .

الفصل الثاني

الخصائص الأسلوبية

المبحث الأول : بناء القصيدة وأسلوبها .

المبحث الثاني : الألفاظ والتراكيب .

المبحث الثالث : موسيقى الشعر .

المبحث الرابع : الصورة الفنية .

المبحث الأول : بناء القصيدة وأسلوبها

لم يلتزم فقهاء العصر العباسي الثاني ، أسلوباً معيناً في نظمهم للشعر ، فأغلبهم نظموا مقطوعات قصيرة ، وقام بعضهم بإنشاء قصائد طويلة ، كما حاولت فئة أخرى من الفقهاء ، محاكاة نظام القصيدة التقليدية ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى اختلاف وتنوع أغراضهم الشعرية .

فالمقطعات القصيرة جاءت في الكثير من الأغرض ، ولاسيما في شعر الزهد ، والأخلاق والأداب الإسلامية ، والحكمة ، والإخوانيات . ويبدو أن كثيراً من الفقهاء ، وجدوا في المقطعات مجالاً جيداً للتعبير ، عما يجيش في صدورهم ، من مشاعر وخواطر وأفكار ، خاصة أنهم حرصوا أن تكون مقطعاتهم سهلة سلسة ، قريبة إلى عامة الناس ، الذين كانوا يسعون لمخاطبتهم والتأثير عليهم ، لذلك رأى أولئك الفقهاء الابتعاد عن أجواء القصائد الطويلة ، وما تثيره في السامع من ضيق وملل وسأم .

ولأن مقام الوعظ والنصح والتوجيه ، يقتضي الإيجاز والتركيز لا الإطالة ، فقد رأينا كثيراً من مقطوعات الزهد والأخلاق ، مقتصرة على البيتين أو أكثر من ذلك قليلاً .

فإذا ما انتقلنا إلى الأغراض التقليدية ، خاصة المدح والرثاء ، فإننا نجد القصائد الطويلة النفس ، الكثيرة الأبيات .

أما الغزل ، وهو من أكبر أغراض الفقهاء ، إذ خلفوا فيه مادة شعرية غزيرة ، فإننا نجد أن معظمهم آثروا فيه المقطعات الصغيرة ، على القصائد الطويلة ، ولنا أن نتسآل عن أسباب ذلك ، هل يعود ذلك إلى غرض الغزل ؟ أم أن أولئك الفقهاء لم يكونوا على قدر من الشاعرية ، تمكنهم من الغوص والاسترسال في معانيهم وصورهم؟ وفيما يظهر أن لكلا الأمرين أثر في كثرة المقطعات ، فلعل لطبيعة غرض الغزل وما يقتضيه من سرعة التعبير عن العواطف والتعبير والأحاسيس ، أثراً في ميل

الفقهاء إلى المقطعات ، لكونها أكثر سهولة وانسياباً ، في نقل تلك المشاعر الجياشة ، دون أن يبذلوا جهداً كبيراً ، في حين أن بناء القصائد يتطلب عناءً وصبراً كبيرين ، قد لا يتاحان لكثير منهم .

بالإضافة إلى ارتباط الغزل بالغناء (١) – على الرغم من أن الكثير من الفقهاء لم يهدفوا إلى ذلك من شعرهم ، خشية الوقوع في المحرمات – خاصة إذا علمنا أن قصر أبيات المقطعات وخفتها ، جعلت المغنين يحبذونها ويفضلونها على القصائد الطوال .

وأشير هنا إلى حادثة وقعت للفقيه أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري ، تبين هذا الارتباط الوثيق بين الغزل والغناء ، فبينما كان يسير مع أحد إخوانه ، إذا بجارية تغني مقطوعة غزلية من شعره ، جاء فيها :

أشْكُو عَليلَ فُؤادٍ أنْتَ مُتْلِفُهُ ... شَكْوَى عَلِيلٍ إلى إلْفٍ يُعَلِّلُهُ
سَقِمي تَزِيدُ مع الأيّامِ كَثْرَتُهُ ... وأنْتَ في عِظَمِ مَا ألْقَى تُقَلِّلُهُ
اللهُ حَرَّمَ قَتْلِي في الهَوَى سَفَهاً ... وأنْتَ يَا قَاتِلِي ظُلْماً تُحَلِّلُهُ (٢)

فبهت الظاهري من سماع شعره وهو يغنى ، وكم كان بوده لو انتزع أبياته هذه من في تلك المغنية ، ومحاها من صدرها ، وقال لمن كان معه متسائلاً : كيف السبيل إلى استرجاع ذلك ، بيد أن هذا الصديق بين له استحالة ذلك ، إذ قال له مجيباً : هيهات سارت به الركبان (٣) .

أما فيما يتعلق بالفقهاء ، فكما كان منهم صاحب النفس الطويل ، الذي يغوص في أعماق نفسه ، ويسهب في الحديث عنها ، ويفرع صوره ومعانيه ، مثل

(١) انظر كتابي التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٢٢١ ، العصر الإسلامي ص ١٤٤ للدكتور شوقي ضيف.
(٢) أوراق من ديوان أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني ص ٨٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٥ .

الشريف المرتضى ، والقاضي أبي بكر ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني وغيرهما ، كان منهم أيضاً من كان قصيراً في نفسه الشعري ، وجد في الشعر متنفساً له ، فاكتفى بالتعبير عن خواطره السريعة ، وما يعتمل في داخله من مشاعر وأحاسيس باقتضاب ، لذلك أضحت المقطعات سمة بارزة ، في أشعار هذا الفريق من الفقهاء ، ليس في الغزل فحسب بل في مختلف الأغراض ، لعل من أبرزهم الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي ، والقاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي ، والفقيه أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله التميمي البغدادي ، والقاضي أبو أحمد منصور بن محمد الأزدي الهروي ، وغيرهم .

وينبغي الإشارة إلى أن عدم تفرغ الفقهاء لغرض الشعر ، وانشغالهم عنه بعلومهم وتصانيفهم وأعمالهم الكثيرة ، جعلهم يستصعبون إنشاء القصائد الطويلة ، مما أدى إلى احجام الكثيرين منهم عنها ، وفضلوا المقطعات القصيرة السهلة ، ذات الإيقاعات الخفيفة .

وقد عنى الفقهاء في معظم قصائدهم ومقطعاتهم ، بالتناسق والارتباط بين أبيات القصيدة ، بحيث تكون معانيها متناسبة منسجمة ، في وحدة موضوعية .

بيد أنه لا يمكننا القول بأن هذه الوحدة المتحققة – ولا سيما في قصائدهم – هي وحدة عضوية (١) ، إذ في مقدورنا أن نسقط بعض أبيات القصيدة ، من غير أن يخل ذلك بمعانيها أو مبانيها ، كما أنه يمكننا أن نقدم أو نؤخر فيها ، وهذا ما لا يكون في القصيدة ذات الوحدة العضوية (٢) .

ولعل أبيات القاضي أبى بكر ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني التالية توضح ما نقول ، حيث قال موجهاً حديثه لمن طلب منه قرضا فامتنع :

---

(١) انظر الحديث عن الوحدة العضوية في : العمدة ١١٧/٢ ، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث للدكتور محمد زكي العشماوي ص ١٢٢ – ٢٣٦ ، أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٣١٩ – ٣٢٨ .

(٢) انظر الشريف المرتضى شاعريته وخصائص شعره للدكتور محمد إبراهيم المطرودي ص ٥٥ .

قَـدْ طَلَبْنَـا قَرْضـاً مِـن المَـالِ نَـزْراً ... مَـا طَلَبْنَـا قَرْضـاً مِـنَ الأعْضَـاءِ

فَلِمَـاذَا ، وَقَـدْ أعَـدْتَ رَسُـولي ... بانْكِسَـارٍ يَمْشِـي علـى اسْـتِحْيَاءِ

وَمَطَلْـتَ المَطْـلَ الشَّـدِيدَ وآنَيْـ ... ـتَ وآذَيْـتَ أيَّمَـا إيـذَاءِ ؟

كُنْـتَ تَجْـزِي مِثْـلاً بِمِثْـلٍ مِـنَ المَـا ... لِ ، وَيَبْقَـى عَلَيْـكَ رِبْـحُ الثَّنَـاءِ !

عَجَبـاً مِنْـكَ مَـا نَشِـطْتَ لِهَـذَا ... وهو ، أيْضاً مِنْ نَفْسِ بَابِ الرِّبَاءِ (١)

قَـالَ : لمْ آمَـنِ الحَـوادِثَ فيـهِ ... فَـتَرَاني مُخَـاطِراً بـالثَّرَاءِ

صَدَقَ الشَّيْخُ : دونَ أنْ يُخْرِجَ الفِلْـ ... ـسَيْنِ مِـن كَفِّـهِ سُـقُوطَ السَّـماءِ

فاسْتُرِ الرُّقْعَـةَ الرَّقِيعَـةَ : إمَّـا ... " لا " وإلَّا فَرُدَّهَـا في خَفَـاءِ (٢)

فأنت ترى ، أنه لو سقط بيت من هذه الأبيات ، لما نتج عن ذلك اضطراب في المعنى أو فساده ، وغاية ما يحدث أن هذه القصيدة ينقصها معنى بمقدار هذا البيت الذي سقط (٣) .

وقد ظلت بعض قصائد الفقهاء المدحية ، على نمط قصيدة المدح التقليدية حيث التزموا فيها بمنهج القصيدة العربية القديمة ، ووضح فيها تكامل المعاني وتصاعدها ، عن طريق أدوات الربط من حسن الابتداء ثم حسن التخلص والدخول في الموضوع ، وحسن المقطع – الخاتمة – ، وما في ذلك من تعدد لأغراض القصيدة ، في وحدة متصلة الأجزاء ، يسلم الواحد منها إلى صاحبه ، ويتقدم بعضه بعضاً ، بتأثير الوحدة الشعورية والنفسية (٤) ، كما رأينا ذلك عند القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (٥).

---

(١) الرباء : النماء والزيادة ، وأراد الشاعر الربا ، وقد مدت الربا على الضرورة .

(٢) ديوان الأرجاني ١/٩٦ – ٩٧ .

(٣) انظر الحديث عن الوحدة الموضوعية في شعر الشريف المرتضى في كتاب الشريف المرتضى شاعريته وخصائص شعره ص٥٥-٥٩ .

(٤) انظر قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ص٢٠٠- ٢١٨، أسس النقد الأدبي عند العرب ص٣١٩- ٣٢٤ .

(٥) انظر مبحث الغزل في الفصل الثاني من الباب الأول .

وقد تفاوتت مطالع قصائد الفقهاء ، من حيث تأثرها بمقدمات القدماء، فمنها ما كان يسير على نهجهم في وصف الرحلة ، وذكر الأطلال ... كما في قول العلامة أبي الفرج ابن الجوزي .

في شُغْلٍ عَنِ الرُّقَادِ شَاغِلِ مَنْ هَاجَهُ البَرْقُ بِسَفْحِ عَاقِلِ
يَا صَاحِبي هَذِي رِيَاحُ رَبْعِهِمْ قَدْ أخْبَرَتْ شَمَائِلَ الشَّمَائِلِ
نَسِيمُهُمْ سُحَيْرِي الرِّيحِ فَمَا تُشْبِهُهُ رَوَايِحُ الأصَائِلِ (١)

وقد بلغ من تأثر الشاعر في هذه الأبيات بالأقدمين ، أنه انتهج أسلوبهم في اتخاذ الرفيق في السفر ، وهو الأمر الذي يتكرر كثيراً في أشعارهم (٢) .

ومن الفقهاء من اكتفى بمقدمة غزلية ، فلم يتابع الأقدمين في ظعنهم ووصف رحلاتهم ، كما رأينا في مطلع القصيدة المدحية للفقيه الشاعر بهاء الدين أسعد بن يحيى بن موسى السنجاري ، التي يقول فيها :

وَهَوَاكَ مَا خَطَرَ السُّلُوُّ بِبَالِهِ ولأنْتَ أعْلَمُ في الغَرَامِ بِحَالِهِ
وَمتَى وشَى واشٍ إليكَ بأنَّهُ سَالٍ هَوَاكَ فَذَاكَ مِنْ عُذَّالِهِ
أوَ لَيْسَ لِلْكَلِفِ المُعَنَّى شَاهِدٌ مِنْ حَالِهِ يُغْنِيكَ عَنْ تَسْآلِهِ
جَدَّدْتَ ثَوْبَ سَقامِهِ وهَتَكْتَ سِتْرَ غَرَامِهِ وصَرَمْتَ حَبْلَ وِصَالِهِ (٣)

وأبيات هذا المطلع ، وإن كانت استهلالاً لغرض آخر ، فإن الشاعر لم ينح فيها منحى القدماء في ألفاظهم وتراكيبهم وصورهم البدوية ، بل اقتصر على مهمة المقدمة ووظيفتها ، التي حددها ابن قتيبة ، في كونها مفتتحاً نفسياً (٤) .

---

(١) أدب ابن الجوزي ص ١٨٢ .

(٢) انظر الوقوف على الأطلال ص ٧ ، ١٩ ، ٨٢ ، مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ص ٨٢ – ٨٣ .

(٣) وفيات الأعيان ١/٢١٤ ، الوافي بالوفيات ٩/٣٢ ، انظر مبحث الغزل .

(٤) انظر الشعر والشعراء ١/ ٧٤ – ٧٥ .

وقد جاءت هذه الأبيات رقيقة ، تنم عن شفافية ورقة في الشعور ، واتسمت بطابع العصر وذوقه المتحضر .

ولم تقتصر مقدمات الفقهاء على الغزل فحسب ، فهناك أيضاً المقدمة الروضية وهي ظاهرة بديلة للمقدمة الطللية ، شاعت في العصر العباسي ، كما في بعض مقدمات أبي تمام والبحتري (١) .

وقد سبق أن رأينا ذلك ، في مقدمة قصيدة القاضي أبي جعفر محمد بن الحسين ابن سليمان البحاث ، التي جعلها في وصف الربيع ، وظهر فيها تأثره ببيئته الساحرة ، ومجتمعه المتحضر ، حيث قال فيها :

اِكْتَسَتِ الأرْضُ وهي عُرْيَانَهْ ... مِنْ نَشْرِ نَوْرِ الرَّبِيعِ ألْوَانَهْ

وفيها يقول عن أزهار الربيع :

فَالرَّوضُ يَخْتَالُ في مَلابِسِهِ ... مُرْتَدِياً وَرْدَهُ ورَيْحَانَهْ
يُعَانِقُ الأُقْحُوَانُ تَوْأمَهُ ... إنْ زَارَ رَوْحُ النَّسِيمِ قُضْبانَهْ (٢)

ومن الفقهاء من لم يلتفت إلى المقدمات في قصائده ، وآثر الدخول في صلب الموضوع مباشرة ، فجعل قصيدته ذات غرض واحد ، كما في الكثير من قصائد الشريف المرتضى ، ومن ذلك قصيدته في مدح والده ، التي استهلها بقوله :

ضَمِنَتْ مَجْدَكَ العُلا والمَسَاعِي ... وضَمَانُ العُلا حَرْبُ الضَّيَاعِ (٣)
آنَ أنْ تُقْتَضَى حُقُوقٌ تَرَاخَتْ ... آذَنَتْ بَعْدَ فُرْقَةٍ باجْتِمَاعِ
زَاوَلُوهَا وأنْتَ تَرْغَبُ عَنْهَا ... والأَحَاظِي نَتَائِجُ الإمْتِنَاعِ (٤)

---

(١) انظر مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني ص ١٣٨ .

(٢) دمية القصر ٤٢٨/٢ ، وانظر طبقات الشافعية الكبرى ١٤٤/٣ ، وانظر مبحث الوصف .

(٣) الضياع : الهلاك .

(٤) الأحاظي : جمع الحظوة وهي المنزلة والمكانة .

ظَعَنَتْ لم تُراعِها باشْتِياقٍ   وأنَابَتْ لم تَدْعُها بِزَماعِ [1]
رَبعَتْ مُذْ نَفَضْتَ كَفَّكَ مِنْها   بَيْنَ حَقٍّ ثاوٍ وحَقٍّ مُضَاعِ [2]

وكان المنتظر أن يلتفت الفقهاء في قصائدهم ، إلى المقدمات الإسلامية التي جاءت في حمد الله عز وجل والثناء عليه ، كما هي الحال عند لبيد بن ربيعة العامري (ت ٤١هـ)[3] ، والرجاز أمثال أبي النجم العجلي (ت ١٣٠هـ) [4] ، ورؤبة بن العجاج (ت ١٤٥هـ) [5] وغيرهما [6] .

لكن الفقهاء لم يفعلوا ذلك ، ولعل السبب يعود إلى أن الشعر عندهم ، لم يكن عن تصور واعٍ لأثر الإسلام ومنهجه ، بل مشايعة للظواهر الأدبية المعاصرة .

وهكذا يتبين لنا أن الفقهاء لم يسيروا على وتيرة واحدة ، في إنشاء أشعارهم ، فمنهم من نظم القصائد الطويلة ، بيد أن معظم الفقهاء فضلوا المقطعات القصيرة ، لخفتها وسهولتها .

وقد حرص الفقهاء في بناء قصائدهم ومقطعاتهم ، على التناسق والارتباط بين أبيات القصيدة .

---

(١) ظعنت : رحلت وذهبت ، وأنابت والزماع : المضاء في الأمر والعزم .

(٢) ديوان الشريف المرتضى ٢/٢١٢ ، وربعت : أقامت ، والثاوي : المقيم .

(٣) أحد الشعراء الفرسان ، وهو أحد أصحاب المعلقات في الجاهلية ، أدرك الإسلام ووفد على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان كريماً ، وعاش عمراً طويلاً ، انظر ترجمته : طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ١/١٣٥-١٣٦ ، الشعر والشعراء ١/٢٧٤-٢٨٥ ، الأعلام ٥/٢٤٠ ، وانظر العصر الإسلامي ص ٩٠ - ٩٥ .

(٤) من رجاز الإسلام الفحول المقدمين ، وفي الطبقة الأولى منهم ، نبغ في العصر الأموي ، وكان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان وولده هشام ، انظر ترجمته : طبقات فحول الشعراء ٢/٧٣٧ - ٧٣٨ ، الشعر والشعراء ٢/٦٠٣ ، الأعلام ٥/١٥١ .

(٥) راجز ، من الفصحاء المشهورين ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كان أكثر مقامه في البصرة وأخذ عنه أهل اللغة ، فكانوا يحتجون بشعره ، ولما مات قال الخليل بن أحمد : دفنا الشعر واللغة والفصاحة، انظر ترجمته : الشعر والشعراء ٢/٥٩٤ ، وفيات الأعيان ٢/٣٠٣-٣٠٥ ، الأعلام ٣/٣٤ .

(٦) انظر الرجز نشأته ، أشهر شعرائه لجمال نجم العبيدي ص ١٤٨ - ١٥٤ .

ونوع الفقهاء مطالع قصائدهم ، التي جاءت متناسبة مع المضامين التي طرقوها، فمنهم من تابع الأقدمين في مطالعهم ، ومنهم من جاء بمقدمة روضية – وهم قلة – ، وآثر بعض الفقهاء الدخول في صلب أغراضهم ، دون مقدمات في الكثير من القصائد. ويؤخذ على الفقهاء في هذا المجال ، عدم التفاتهم للمقدمات الإسلامية .

المبحث الثاني : الألفاظ والتراكيب

عني العرب بلغتهم الشعرية عناية كبيرة ، واهتموا بألفاظهم وعباراتهم ، وقد اشترط النقاد القدماء ، أن يكون لفظ الشاعر سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة [1] ، وأن يكون شريفاً عذباً وفخماً وسهلاً [2] ، وكرهوا أن يكون اللفظ وحشياً بدوياً ، ومبتذلاً سوقياً [3] ، كما نبهوا إلى قضية ارتباط اللفظ بالمعنى ، فليس المعنى وحده الذي يؤثر في النفس ، بل اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته [4] .

أما فيما يتصل بالتراكيب ، فقد اشترطوا فيها التجانس والانسجام ، بحيث تكون كل كلمة موضوعة مع أختها ، ومقرونة بلفقها ، ومرتبة ترتيباً صحيحاً ، يقدم منها ما يحسن تقديمه ، ويؤخر منها ما يحسن تأخيره [5] .

ومن خلال استقراء وتتبع شعر فقهاء العصر العباسي الثاني ، نجد كثيراً منهم قد أجادوا في التعامل مع لغتهم الشعرية ، إذ عنوا بجمال اللغة وحسن الصياغة ، وجمال الأسلوب .

وقد حرص الفقهاء على وضوح وسهولة لغتهم الشعرية ، إذ جنحوا في ألفاظهم وتراكيبهم وأساليبهم نحو السهولة ، وابتعدوا عن الغموض والغرابة والتعقيد في التعبير ، ولعل السبب الذي دعاهم إلى ذلك ، هو تأثرهم بذوق العصر ، الذي نفر

---

(١) انظر نقد الشعر ص ٧٤ .
(٢) انظر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٥٢ .
(٣) انظر المصدر السابق ص ١٦٦ – ١٦٧ .
(٤) انظر العمدة ١٢٤/١ .
(٥) انظر كتاب الصناعتين ص ١٦٠ ، ١٦٩ .

من لغة الشعر القديمة ، ذات الألفاظ الجزلة القوية ، ومال إلى الألفاظ والتراكيب الرقيقة (١) ، وكذلك رغبتهم في أن تكون لغتهم الشعرية ، قريبة من لغة الحياة اليومية ، لأن موضوعات شعرهم كانت تحفل بالقيم والمثل الدينية والخلقية والاجتماعية ، التي عنوا بتوصيلها إلى عقول وأفئدة الناس .

بيد أن تلك السهولة ، أفقدت النص الشعري جماله وحيويته في بعض الأحيان ، خاصة في مجالي الزهد والأخلاق ، إذ جاء ليناً أقرب ما يكون إلى الصياغة النثرية ، كما في قول القاضي أبي جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي واعظاً نفسه :

أَبَعْدَ الثَّمَانِينَ أَفْنَيْتَهَا ... وخَمْساً وسَادِسُهَا قَدْ نَمَا
تُرَجِّي الحَيَاةَ وتَسْعَى لَهَا ؟ ... لَقَدْ كَادَ دِينُكَ أَنْ يُكْلَمَا (٢)

وكذلك قول الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي محذراً من العجب :

قُلْتُ لِلْمُعْجَبِ لَمَّا ... قَالَ : مِثْلِي لا يُرَاجَعْ
يَا قَرِيبَ العَهْدِ بالمَخْـ ... ـرَجِ لِمْ لا تَتَوَاضَعْ ؟ ! (٣)

وعذر هؤلاء الفقهاء أن همهم الأكبر ، كان منصرفاً نحو توصيل معانيهم إلى القراء والسامعين بأيسر السبل ، لذلك لم يشغلوا أنفسهم كثيراً بجانب الإبداع الفني لشعرهم.

وتلتقي الأغراض التقليدية ، في ألفاظها وتراكيبها وأسلوبها ، بشعر الزهد والأخلاق ، من حيث الوضوح والسهولة ، لا سيما غرض الغزل الذي تقتضي طبيعته، رقة الألفاظ وعذوبتها وسلاسة التراكيب (٤) .

---

(١) انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري للدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٥٥٣ .

(٢) معجم الأدباء ١٦٠/٢ ، بغية الوعاة ٢٩٦/١ ، الطبقات السنية ٣١٧/١ ، شعراء بغداد ٢٢٨/١ .

(٣) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ١٠٧ .

(٤) انظر نقد الشعر ص ١٩١ ، الوساطة ص ١٨ ، العمدة ١١٦/٢ .

ويلاحظ أن بعض الفقهاء آثروا السهولة ، في الأغراض الشعرية التي كانت تقتضي منهم اختيار الألفاظ والتراكيب الجزلة القوية ، مثل الفخر والمدح ، ومن أمثلة ذلك أبيات القاضي أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد ا لله بن أحمد الهاشمي الرشيدي ، التي افتخر فيها بجوده الذي ورثه عن آبائه وأجداده ، جاء فيها :

قَالُوا : اِقْتَصِدْ في الجُودِ ، إنَّكَ مُنْصِفٌ — عَدْلٌ وذُو الإنْصَافِ لَيْسَ يَجُورُ

فَأَجَبْتُهُمْ : إنِّي سُلاَلَةُ مَعْشَرٍ — لَهُمُ لِوَاءٌ في النَّدَى مَنْشُورُ (١)

تَا للهِ إنِّي شَائِدٌ مَا قَدْ بَنَى — جَدِّي الرَّشِيدُ وقَبْلَهُ المَنْصُورُ (٢)

حيث نجد بعض الألفاظ الرقيقة ، مثل " الإنصاف " و " ويجور " وكذلك الأساليب السهلة ، التي تسللت إلى هذه الأبيات ، مثل " قالوا : اقتصد " ، " فأجبتهم إني .. "، وكان على الشاعر اختيار الألفاظ الجزلة الفخمة ، وكذلك الأسلوب الرصين ، الذي يتلاءم مع هذا الغرض .

وفي مجال المدح تستوقفنا أبيات القاضي أبي جعفر محمد بن الحسين بن سليمان البحاث ، التي قال فيها :

إنَّ الخَزَائِنَ لِلْمُلُوكِ ذَخَائِرٌ — ولَكَ المودَّةُ في القُلُوبِ ذَخَائِرُ

أنْتَ الزَّمَانُ فإنْ رَضِيتَ فَخِصْبُهُ — وإذا غَضِبْتَ فَجَدْبُهُ المُتَعَاسِرُ (٣)

فَإذَا رَضِيتَ فَكُلُّ شيءٍ نَافِعٌ — وإذَا غَضِبْتَ فَكُلُّ شيءٍ ضَائِرُ (٤)

---

(١) في تتمة يتيمة الدهر : العلى بدلاً من الندى .

(٢) تتمة يتيمة الدهر ٥/٢٦٩ ، تاريخ بغداد ٥/٥٠ ، المنتظم ٨/١٣٢ ، الوافي بالوفيات ٨/٣٦ ، وانظر مبحث الفخر .

(٣) في الدمية : فإن رضيت فحسبه .

(٤) دمية القصر ٢/٤٢٩-٤٣٠ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٤٤ .

إذ نرى الألفاظ والأساليب تسيل رقة وعذوبة ، حتى خلت أن الشاعر يناجي حبيباً أثيراً لا ممدوحاً عظيماً .

ويلاحظ في هذه الأبيات أيضاً ، أن الشاعر واقع تحت تأثير الصنعة ، وذلك في جمعه بين " ذخائر " في صدر البيت الأول ، و " ذخائر " في عجزه ، وهو ما يسمى برد العجز على الصدر [1] .

ولم يختف الشعر الجزل بألفاظه الجزلة القوية ، وتراكيبه الرصينة ، وأساليبه الفخمة بين فقهاء هذا العصر ، إذ نجده عند بعضهم ، خاصة الشريف المرتضى ، الذي تميز معظم شعره بذلك [2] ، وكان موفقاً في استخدامه في غرضي الفخر والحماسة ، ومن ذلك قوله مفتخراً :

وَمَلْمومَةٍ يَغْشَى النَّهارَ غُبارُهَا ... لَهَا لَجَبٌ كالرِّيحِ هَايَجَهَا القَطْرُ
حَمَلْنَا إليهَا الموتَ والبِيضَ والقَنَا ... بأيدٍ ، دَمُ الأبْطَالِ في وَقْعِهَا هَدْرُ
شَبَبْنَا بِهَا نَارَ الطِّعَانِ بِفِتْيَةٍ ... مَسَاعِيرَ يَخْبُو مِنْ تَلَظِّيهِمُ الجَمْرُ
إذ انْتَقَمُوا لم يُطْمَعِ العَفْوُ فِيهِمُ ... وإنْ صَفَحُوا لم يَسْتَفِزُّهُمْ الغِمْرُ [3]

فالشاعر وفق هنا في التعبير عن فخره ، بما توافر لديه من ملكة لغوية ، أعانته على ذلك ، فقد رأينا في هذه الأبيات ألفاظاً وتراكيب ، تتدفق قوة ، فلاءمت مقام الفخر ، مثل " لجب " " البيض " " القنا " " هدر " " شببنا " " نار الطعان " " مساعير " .

ومما يلاحظ في شعر الفقهاء ، تأثرهم الواضح بالقرآن الكريم ، مما أكسب لغتهم الشعرية دقة التعبير والقدرة على التأثير ، حيث أفاد كثير من الفقهاء من ألفاظ

---

(١) انظر كتاب البديع لعبد الله بن المعتز ص ٤٧ – ٥٣ ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها تأليف الدكتور أحمد مطلوب ٢/٢٢٨-٢٣٨ .

(٢) انظر الشريف المرتضى شاعريته ، وخصائص شعره ص ٦٩ .

(٣) ديوان الشريف المرتضى ٢/١٠-١١ ، والغمر بالكسر : الحقد .

القرآن الكريم ، وضمنوها في أشعارهم ، كما في قول الفقيه أبي بكر عبد الله بن علي ابن صائن بن عبد الجليل بن الخليل ابن أبي بكر الفرغاني :

تَحَرَّ فَدَيْتُكَ صِدْقَ الحَدِيثِ ... ولا تَحْسَبِ الكِذْبَ أمْراً يَسِيرَا
فَمَنْ آثَرَ الصِّدْقَ في قَوْلِهِ ... سَيلقَى سُروراً وَيرْقَى سَرِيرَا
ومَنْ كَانَ بالكِذْبِ مُسْتَهْتِراً ... سَيَدْعُو ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيرَا (1)

ونلاحظ في هذه الأبيات تأثر الشاعر بمفردات القرآن الكريم ، مثل : " يسيرا " "سيلقى" " سرورا " ، كما ضمن الشطر الثاني من البيت الثالث قول الله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورا . وَيَصْلَى سَعِيرا﴾ (2) ، وأفاد الفقهاء كذلك ، من منهج القرآن الكريم في استخدام الأساليب الإنشائية ، في مجال الدعوة والوعظ حيث استخدموا العديد منها ، مثل أساليب الأمر ، والنهي ، والخطاب ، والاستفهام ، والتكرار ... ، في مجال الزهد وكذلك في مجال الأخلاق والآداب الإسلامية ، نظراً لما تتميز به هذه الأساليب في هذين المجالين ، بإثارة المشاعر والأحاسيس وتنبيهها .

فمما جاء في شعرهم من قبيل أسلوب الأمر ، الذي استعانوا به في الحث على أداء الطاعات ، والتحلي بفضائل الأخلاق ، قول القاضي الرئيس أبي عمر محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي النسوي ، حاثاً على طاعة الله واجتناب الفواحش والآثام:

اتَّخِذْ طَاعَةَ الإلهِ سَبِيلَا ... تَجِدِ الفَوْزَ بالجِنَانِ وتَنْجُو
واتْرُكِ الإثْمَ والفَوَاحِشَ طُرّاً ... يُؤْتِكَ اللهُ مَا تَرُومُ وتَرْجُو (3)

---

(1) الوافي بالوفيات ٣٣٣/١٧ ، وانظر مبحث الأخلاق والآداب الإسلامية .
(2) سورة الانشقاق ، الآية ١١-١٢ .
(3) طبقات الشافعية الكبرى ١٧٧/٤ .

ومن أمثلة أساليب النهي ، التي عمدوا إليها في تحذير الناس من المعاصي والآثام ، قول الخطيب البغدادي محذراً من الدنيا وزخرفها :

لا تَغْبِطَنَّ أخَا الدُّنْيَا بِزُخْرُفِهَا ... وَلَا لِلَذَّةِ وَقْتٍ عَجَّلَتْ فَرَحَا [1]

وجاء أسلوب الاستفهام في شعر الفقهاء منبهاً وملفتاً لحواس السامع ، كما في قول القاضي المعافى بن زكريا بن يحيى بن حماد بن داود النهرواني ، عن حاسده الذي أساء أدبه مع الخالق عز وجل :

ألَا قُلْ لِمَنْ كَانَ لي حَاسِداً ... أتَدْرِي على مَنْ أسَأْتَ الأدَبْ ؟ [2]

وعمد الفقهاء أيضاً إلى أسلوب التكرار ، لتناسبه مع الوعظ والتوجيه والإرشاد [3] ، حيث استخدموه من أجل تأكيد مواعظهم ، وما يقتضي ذلك من تهويل للذنوب والمعاصي ، وتخويف من عذاب الله ، فهذا العلامة أبو الفرج ابن الجوزي يلجأ إلى التكرار في موعظته . التي وجهها إلى نفسه ، ومما جاء فيها قوله :

كَمْ مِنْ ذُنُوبٍ لَكَ قَدْ سَتَرَهَا ... وَعَادَ بِالفَضْلِ وبِالتَّكَرُّمِ
وكَمْ لَهُ مِنْ نِعْمَةٍ جَادَ بِهَا ... وَكَمْ وَكَمْ أوْلَاكَ طِيبَ أنْعُمِ
وَكَمْ وَاعِظٍ في كُلِّ يَوْمٍ زَاجِرٍ ... وَكَمْ نَذِيرٍ زَائِرٍ مُسَلِّمِ
وكَمْ يُنَادِيكَ لِسَانُ عِبْرَةٍ ... وأنْتِ عَنْ قَوْلِ الهُدَى في صَمَمِ [4]

وكما نلاحظ فإن تكرار (كم) جاء هنا مناسباً لحال المخاطب ، إذ كانت في كل مرة تعطينا معنى جديداً يثير في النفس ، شعور التأمل والتفكر في نعم الله العظيمة ، لإدراك كثرتها وتعددها ، وكذلك الخوف من عقابه عز وجل .

---

(١) معجم الأدباء ٤/٢٥ ، شعراء بغداد ١/٣٥٦ .

(٢) إنباه الرواة ٣/٢٩٦ ، المنتظم ٧/٢١٤ ، البداية والنهاية ١١/٣٢٨ .

(٣) انظر التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٧٣٣ .

(٤) أدب ابن الجوزي ص ٢٠٢ .

وكان من البدهي أن نجد في أشعار الفقهاء ، ألفاظاً ومصطلحات فقهية نظراً لارتباطهم بالفقه – وقد مر جانب منها فيما سبق – إلا أننا نجد تفاوتاً بينهم في استخدامها ، فمنهم من لم يوفق في جعلها تنبض بالحياة ، والجمال الفني ، واكتفى بدلالتها الفقهية ، كما جاء في قول ابن الجوزي مجيباً سائله :

وكُلُّ مَا تَذْكُرُ مُسْتَفْتِياً حَرَّمَهُ اللهُ على العَبْدِ
إلاَّ لِمَا حَلَّلَهُ رَبُّنَا في الشَّرْعِ بالإبْرَامِ والعَقْدِ (١)

فالشاعر أتى بالعديد من الألفاظ الفقهية وهي : " الشرع " و " الإبرام " و "العقد".. على سبيل التقرير ففقدت قيمتها الفنية .

ووفق فريق آخر من الفقهاء ، في إضفاء الجمال الفني على تلك الألفاظ والمصطلحات الفقهية ، التي استخدموها في شعرهم ، ومن أولئك القاضي أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي ، الذي أنشأ أبياتاً في وصف ليلة موحشة ، أنفقها في تأليف الكتب التي تفحم الأعداء والمبغضين ، ومما جاء فيها قوله :

وكأنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهُ سُنَنٌ لاَحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ
مُشْرِقَاتٌ كأنَّهُنَّ حِجَاجٌ تَقْطَعُ الخَصْمَ والظَّلاَمُ انْقِطَاعُ (٢)

فقد ذكر الشاعر مصطلحات : " السنة " و " البدعة " و " الحجة " في شعره ، وأجاد في صياغتها فنياً ، فجعلها تنبض بالحياة ، من خلال لجوئه إلى التشبيه المناسب ، فالنجوم المضيئة مثل السنن ، والدجى مثل البدعة وهكذا .

وأنت ترى أن الشاعر قد عكس التشبيه هنا مبالغة بما يريد ، إذ الأصل تشبيه السنن بالنجوم ، والبدعة بالدجى .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٣ .
(٢) يتمية الدهر ٢/٣٩٥ .

وقد تسربت بعض الألفاظ العامية في شعر الفقهاء ، من تأثير اختلاط العرب بغيرهم من الأجناس في تلك العصور ، مما أدى إلى إضعاف الملكة اللغوية عند بعض الفقهاء ، حتى رأينا في أشعار بعضهم ألفاظاً لم يعهدها العرب من قبل ، كما في قول الفقيه أبى الحسن على بن محمد بن مهدي الطبري :

إنَّ الزَّمَانَ زَمَانُ سَوْ وجَمِيعُ هَذَا الخَلْقِ بَوْ
ذهبَ الكِرَامُ بأسْرِهِمْ وَبقِيتُ في لَيْتٍ وَلَوْ
فَإذَا سألْتُ عَنِ النَّدَى فَجَوَا بُهُمْ عَنْ ذَاكَ وَوْ [1]

حيث نجد بعض الألفاظ العامية ، مثل " بو " و " وو " ... ولعل الشاعر أتى بهذين اللفظين على حكاية قولهم – أي العوام – ، ولكن ذلك لا ينفي وجود هذه الظاهرة في شعر الفقهاء [2] .

كما ظهر في شعر فقهاء هذا العصر ، الأسلوب المنطقي ، والنزعة العقلية ومرد ذلك يرجع إلى طبيعة حياتهم العلمية ، وكذلك عملهم الذي يقتضي منهم ، اللجوء إلى مثل هذه الأساليب باستمرار ، لذلك اتسم بعض شعرهم بهذا الطابع ، ومن ذلك قول الفقيه أبى الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الشافعي الواسطي ، في الحث على الصبر :

عَلَيْكَ بِحُسْنِ الصَّبْرِ في كُلِّ ما يَطْرَا وَقِفْ وقفةَ المَظْلُومِ وانْتَظِرِ الدَّهْرَا [3]
وإنْ لم تَنَلْ في هَذِهِ اللَّيْلَةِ المُنَى سَرِيعاً ، فَبِتْهَا وانْتَظِرْ لَيْلَةً أُخْرَى
فَلَوْ أنَّ في النَّاسِ امرأيْنِ تَمَنَّيَا جَمِيعاً مُنًى لَمْ تَعْدُ مَنْ أحْسَنِ الصَّبْرا [4]

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٤٦٨/٣ .
(٢) انظر مزيداً من الأمثلة في أدب ابن الجوزي ص ١٣٤ ، ١٧٩ – ١٨٠ .
(٣) يطرا : مخفف يطرأ
(٤) خريدة القصر الجزء الرابع – المجلد الأول ص ٣١٨ .

فالشاعر هنا يطرح معنى جميلا ، وهو التحلي بالصبر ، ومن أجل تعميقه وترسيخه في النفوس ، استخدم الدليل العقلي ، من خلال الدقة في التحليل وكذلك التفصيل.

فهو يريد أن يقول إنه لا مناص من الصبر ، في كل الأحوال ، وانتظار قضاء الله ، ثم عقب على ذلك بذكر ما يبعث في النفس الأمل ، وهو أن ما لا يدرك اليوم ، يمكن أن يدرك غداً ، ثم ختم أبياته ببيان أن الصبر خير من السعي وراء الأماني ، والجري وراء الأحلام .

وقد أجاد الكثير من الفقهاء ، في صياغة لغتهم الشعرية ، من خلال اختيارهم للألفاظ الرقيقة ، والتراكيب الجيدة ، والأساليب الجميلة المعبرة ، ومن هؤلاء القاضي أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي ، الذي سبق أن رأينا له أبياتاً شعرية جميلة ، ولا سيما في غرض الوصف ، ومن أبياته الرقيقة في الغزل ، قوله في مستهل قصيدة بعثها إلى أحد أصدقائه :

أَسِيرٌ وَقَلْبِي فِي هَوَاكَ أَسِيرٌ   وحَادِي رِكَابِي لَوْعَةٌ وزَفِيرُ
ولِي أَدْمُعٌ غُزْرٌ تَفِيضُ كأنَّهَا   جَداً فاضَ في العَافِينَ مِنْكَ غَزِيرُ [1]
وطَرْفٌ طَرِيفٌ بالسُّهَادِ كأنَّهُ   هُاكَ وجَيْشُ الجُودِ فيهِ مُغِيرُ [2]

فهذه الأبيات توحي بشاعرية جيدة ، إذ تنم صياغتها عن ذوق مرهف ، وفنية خصبة ، وحس أدبي رفيع ، فقد نجح الشاعر في تسخير الصنعة البديعية ، التي تجلت في هذه الأبيات – فأسير وأسير جناس تام . وغزر وغزير رد العجز على الصدر ، وطرف وطريف جناس ناقص – لتعميق المعنى الذي يريده ، دون أن يؤثر ذلك في انسياب ألفاظه وتراكيبه أو تسلسلها .

---

(١) الجداء : العطاء

(٢) يتيمة الدهر ٤٠٢/٢ – ٤٠٣ .

وكذلك القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي ، الذي أجاد في الكثير من غزلياته ، ولا سيما أبياته التي وظف فيها المعاني الفقهية في مجال الغزل ، ومن ذلك قوله في الشوق :

رَحَلْتُمْ فَكَمْ مِنْ أنَّةٍ بَعْدَ زَفْرَةٍ ... مُبَيِّنَةٍ للنَّاسِ شَوْقِي إليكُمُ
فإنْ كُنْتُ أعْتَقْتُ الجُفُونَ مِنَ البُكَا ... فَقَدْ رَدَّهَا في الرِّقِ حُزْني عَلَيْكُمُ (١)

وهذان البيتان يدلان على مهارة فنية مواتية ، وقدرة فائقة على التصرف في وجوه القول ، والتمكن من نواصي الكلام ، فقد استطاع توظيف مصطلحي " العتق " و " الرق " في تصوير شوقه للمحبوب وحزنه على فراقه .

وممن أجادوا في صياغة لغتهم الشعرية أيضاً ، الفقيه أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري ، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، والشريف المرتضى ، والخطيب الحصكفي ، وقاضي القضاة ابن خلكان وغيرهم .

ولم يخل شعر الفقهاء بطبيعة الحال من العيوب ، التي يعود بعضها ، إلى قصور أو خلل في الصياغة الفنية ، مما يؤثر في هبوط مستوى النص الشعري ، وتدني قيمته الفنية ، ومن ذلك قول الفقيه المحدث أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي ، حاثاً على المداراة :

مَا دُمْتَ حَيّاً فَدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... فإنَّمَا أنْتَ في دَارِ المُدَارَاةِ
مَنْ يَدْرِ دَارَى وَمَنْ لَمْ يَدْرِ سَوْفَ يُرَى ... عَمَّا قَليلٍ نَدِيماً للنَّدَامَاتِ (٢)

---

(١) الذخيرة ، القسم الرابع – المجلد الثاني ص ٥٢٢ .

(٢) يتيمة الدهر ٣٨٣/٤ – ٣٨٤ ، معجم الأدباء ٢٧٢/١٠ ، وفيات الأعيان ٢١٦/٢ ، البداية والنهاية ٢٣٧/١١ .

ولعلك تلحظ معي أن تتابع الألفاظ المشتقة من مادتين متقاربتين هما مادة " درى " ومادة " دارى " ، كانت سبباً في الثقل الذي يحسه السامع لهذين البيتين .

ونجد الضعف في التركيب ، والخلل في التقسيم ، في قول الشريف المرتضى :

وَلِلْخَيْلِ إمَّا بِالْجُسُومِ طَرِيحَةً عِثَارٌ وإمَّا بِالصَّعِيدِ بِهَامِ (١)

لأن الشاعر يريد أن يقول : وللخيل عثار إما بالجسوم حال كونها طريحة ، وإما بالهام حين تكون في الصعيد ، لكنه لم يوفق في ذلك (٢) .

ومن الفقهاء من لم يكن دقيقاً في اختيار ألفاظه وعباراته ، لذلك جاءت غير منسجمة مع ما يريده من المعاني ، كما جاء في قول القاضي أبي بكر ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني :

عَضَلْتُ ابنةَ الفِكْرِ المَصُونَةَ خَوْفَ أنْ تُزَفَّ إلى مَنْ لَيْسَ كُفْؤَ ثَنَائِي (٣)

فالشاعر عقد في ذهنه الزواج والكفاءة فيه ، وحاول أن يناسب بين ذلك ، وبين التناسب والجدارة ، في طرح ما لديه من أفكار ، فجاءت عباراته مثقلة بالمعاني ، تنوء الألفاظ بحملها ، ولذلك كانت ألفاظه مستعارة من مفهوم الزواج للمناظرة في الفهم ، مثل " المصون " و " تزف " و " كفوء " .

أما كلمة " عضلت " (٤) فتوحي بالظلم والقهر ، في حين أن مراد الشاعر هو أن يربأ بابنة فكره أن ينالها من لا يستحقها ، ثم تأمل كلمة " الخوف " بعدها !!!

---

(١) ديوان الشريف المرتضى ٣/٢٥١ ، والصعيد : التراب ، والهام : الرؤس .

(٢) انظر أدب المرتضى من سيرته وآثاره ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، الشريف المرتضى شاعريته وخصائص شعره ص٤٩ .

(٣) ديوان الأرجاني ١/٥٠ .

(٤) انظر الصحاح ٥/١٧٦٧ .

فكيف يصح قهره لابنة فكره خوف أن تزف إلى من ليس لها أهلاً ؟!! .

فإذا ما تأملنا بيتي أبى تمام الطائي ، اللذين كانا مصدر القاضي الأرجاني في بيته السابق ، نجده قد تعامل فيهما مع لغته الشعرية بدقة متناهية ، وحس فني مرهف ، فجاء شعره متناغماً منسجماً ، لا تجد فيه اضطراباً أو خللاً ، انظر كيف وفق في استخدام كلمة "عضلت" في قوله :

وَلَوْ عَضَلْتَ عَنِ الأَكْفَاءِ أَيِّمَهَا ... وَلَمْ يَكُنْ لَكَ في أَطْهَارِهَا أَرَبُ
كَانَتْ بَنَاتِ نُصَيْبٍ حِيْنَ ضَنَّ بِهَا ... عَنِ المَوَالي ولَمْ تَحْفِلْ بِهَا العَرَبُ (١)

وبعد ، فإن السمة الغالبة في ألفاظ وتراكيب فقهاء هذا العصر ، هي السهولة والوضوح ، وكان تأثرهم كبيراً بألفاظ وأساليب القرآن الكريم ، وجاءت في بعض أشعارهم الألفاظ الفقهية والعامية ، وكذلك الأساليب المنطقية .

(١) ديوان أبى تمام ٢٥٣/١ .

المبحث الثالث : موسيقى الشعر

أولاً : الأوزان

تعد الأوزان من أبرز صفات الشعر ، فهي أهم ما يميزه عن النثر ، وهي التي تبعث فيه روح الحياة بنغماتها ، وإيقاعاتها المتوازنة .

وقد نظم العرب في بحور الشعر جميعها ، ولم يخصصوا وزناً لموضوع بعينه ، بيد أن بعض النقاد القدامى لاحظوا وجود علاقة بين الأوزان وبين الموضوعات الشعرية ، ومن أبرز أولئك حازم القرطاجني ، الذي ذهب إلى أن لكل غرض وزناً يناسبه : " فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه ، بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة ، وإذ قصد في موضع قصداً هزلياً أو استخفافياً ، وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء ، وكذلك في كل مقصد " (١)

وليس هذا فحسب ، بل استطاع حازم بما توافر له من ذوق ، وتبصر في الشعر، من وضع يده على خصائص كل وزن ، فللطويل بهاء وقوة ، وللبسيط سباطة وطلاوة ، وللكامل جزالة وحسن إطراد ، وللخفيف جزالة ورشاقة ، وللمتقارب سباطة وسهولة ... (٢)

وقد أكد بعض النقاد المحدثين هذه العلاقة الوثيقة ، بين الوزن والموضوع (٣) . ويقيم الدكتور ابراهيم أنيس علاقة أخرى بين الوزن وبين العاطفه ودرجة الانفعال ، فهو يرى أن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزناً طويلاً كثير المقاطع ، فإذا قال الشاعر وقت المصيبة والهلع ، تأثر بانفعاله النفسي ، وتطلب بحراً قصيراً . أما تلك

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٢٦٦ ، وانظر الوساطة ص ١٨ .

(٢) انظر منهاج البلغاء ص ٢٦٩ .

(٣) انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب للدكتور عبد الله الطيب ١/٧٢-٧٥ ، أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب ص٣٢٢.

المراثي الطويلة ، فيغلب في ظنه أنها نظمت بعد أن هدأت ثورة الفزع ، واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر [1] .

وعلى كل حال فليست هذه العلاقة النسبية ، بين الأوزان من جهة ، وبين الموضوعات والعواطف من جهة أخرى ، كل ما في النص الشعري ، فهناك العديد من العناصر التي تتصل به [2] .

وعند دراسة شعر فقهاء العصر العباسي الثاني ، نجد أنهم قد نظموا في معظم البحور ، ولكنهم مالوا إلى البحور القصيرة ، ذات التفعيلات الخفيفة والإيقاع المطرب، مثل المتقارب والمجتث ، وكذلك البحور المجزوءة ذات الإيقاع السريع ، مثل مجزوء الكامل والرمل .

ويمكننا أن نلاحظ التلاؤم والتآلف الواضح ، بين ميل الكثير من الفقهاء إلى المقطوعات القصيرة ، مع وضوح وسهولة ألفاظهم وتراكيبهم ، وجنوحهم للأوزان الخفيفة والمجزوءة ، خاصة في موضوعات الزهد والأخلاق ، كل هذا منح الكثير من أشعارهم إحساساً موسيقياً مؤثراً ، إذ أن ظاهرة سهولة الألفاظ وخفة الأوزان ، ذات علاقة وثيقة بسيرورة الشعر ، وتداول روايته .

وإذا أردنا أن نقف قليلاً عند بعض النصوص ، من أجل إلقاء الضوء على بعض الظواهر الموسيقية ، نجد الكثير من النصوص التي توافرت فيها مقومات الجمال الفني ، في شعرهم ، فهذا القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ينشئ بيتين في الغزل ، من بحر السريع ، وهو بحر سريع الإيقاع ، حتى يواكب تدفق مشاعره ، وقد استخدم الشاعر

(١) انظر موسيقى الشعر ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٥٣٩ .

توالي الحركات والسكنات ، مع تكرار حرف بعينه وهو الشين ، من أجل إحداث الموسيقى الخارجية ، حيث يقول :

قَــدْ بَـــرَّحَ الشَّـــوْقُ بِمُشْـــتَاقِكْ   فَأوْلِـــهِ أحْسَـــنَ أخْلَاقِـــكْ
لا تَجْفُــــهُ وارْعَ لَـــهُ حَقَّــــهُ   فإنَّـــهُ خَاتَـــمُ عُشَّاقِـــكْ (١)

ويعمد الفقيه أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد ا لله التميمي البغدادي إلى توالي حروف المد ، والتقطيع الصوتي المعتمد على العبارات القصيرة ، وكذلك الجناس الناقص حتى يحدث الموسيقى الخارجية ، فهو يقول :

يَـــا سَـــائِلي عَـــنْ قِصَّـــتِي   دَعْـــنِي أمُـــتْ في غُصَّـــتِي
المَـــالُ في أيْـــدِي الــــوَرَى   واليَـــأْسُ مِنْـــهُ حِصَّتِـــي (٢)

فحركة المد اللين بالإسناد إلى ضمير المتكلم ، في عدة ألفاظ متعاقبة هي : " يا سائلي " و " قصتي " و " دعني " و " في غصتي " أعطى رنة حزينة ، بالإضافة إلى الجناس الناقص في " قصتي " و " غصتي " وكذلك قصر العبارات ، الأمر الذي أعطى المعنى عمقاً بهذا الايقاع الممتد .

ويستغل الفقيه أبو عبد الرحمن عمر بن محمد بن محمد المعروف بالأشقر ، الايقاعات المتشابهة استغلالاً بارعاً في تأليف موسيقاه ، من خلال التكرار مع توالي حركات المد المنتظمة في قوله :

عِلْمِـــي إذَا مَـــا نَشِـــطْتُ أهْـــاني   وهُوَ مَتَـى مَـا اغْتَمَمْـتُ أسْـلاني
وَدَفْتَـــرِي والجَلِيـــسُ يَخْذُلُنِـــي   خَيْرُ جَلِيسٍ وَخَيْـــرُ نَدْمَانِـــي (٣)

(١) يتيمة الدهر ٤/١١ ، دمية القصر ١/١٥٦ ، معجم الأدباء ١٤/١٩ ، وانظر مبحث الغزل .
(٢) فوات الوفيات ٢/٣٧٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٤٣ .
(٣) دمينة القصر ٢/٢٦٦ ، وانظر الفصل السابق .

فقد كرر الشاعر لفظتي " الجليس " و " خير " ، وجانس بين " أهاني " و " أسلاني " مع تشابه إيقاعات الألفاظ .

ويلجأ الفقيه أبو القاسم زين الإسلام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري النيسابوري ، إلى التقطيع الصوتي المتوازن أو الترصيع (١) ، الذي يعتمد على العبارات القصيرة المتوازنة ، لإحداث الموسيقى الخارجية المؤثرة ، إذ يقول :

يَا مَنْ تَقَاصَرَ شُكْرِي عَنْ أَيَادِيهِ | وَكَلَّ كُلُّ لِسَانٍ عَنْ مَعَالِيهِ
وَجُودُهُ لَمْ يَزَلْ فَرْداً بِلَا شَبَهٍ | عَلا عَنِ الوَقْتِ مَاضِيهِ وآتِيهِ
لا دَهْرَ يُخْلِقُهُ لا قَهْرَ يَلْحَقُهُ | لاكَشْفَ يُظْهِرُهُ لاسِتْرَ يُخْفِيهِ
لا عَدَّ يَجْمَعُهُ لاضِدَّ يَمْنَعُهُ | لاحَدَّ يَقْطَعُهُ لا قُطْرَ يَحْوِيهِ (٢)

حيث نجد حسن التقسيم والتوازن الدقيق ، في داخل البيتين الثالث والرابع من هذه المقطوعة ، إذ يمكننا أن نقسم كل بيت منهما ، من الناحية الموسيقية إلى أربعة أقسام متساوية .

فالبيت الثالث مثلاً يمكن تقسيمه على النحو التالي : لا دهر يخلقه ، لا قهر يلحقه ، لا كشف يظهره ، لا ستر يخفيه ، وهكذا في البيت الرابع .

وقد جاء الإيقاع في هذه الأبيات موزعاً بين التماثل والتقابل وكذلك التصعيد الصوتي ، فقد عمد الشاعر إلى الإيقاع المتماثل بالجناس الناقص ، في قوله :

---

(١) عرف قدامة بن جعفر الترصيع بقوله : " وهو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت ، على سجع أوشبيه به أو من جنس واحد في التصريف " انظر نقد الشعر ص ٨٠ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٦٠ .

" يخلقه " و " يلحقه " فأفاد التجانس والتماثل تنبيهاً للنفوس ، وعمد إلى الإيقاع المتقابل بالطباق في قوله : " يظهره " و " يخفيه " فأفاد التقرير والتأكيد ثم تأمل تكرار القافية بالتصريع [1] في كل الأبيات ، مما صعد الإيقاع الموسيقي لهذه الأبيات ، في وحدة صوتية متناسقة بتناسق المعنى .

ورغبة من بعض الفقهاء في مسايرة روح العصر ، وأذواقه التي مالت إلى السهولة ، واتجهت صوب العامية ، فقد نظموا في بعض الأوزان المولدة ، التي استحدثت في ذلك العصر ، من تأثير الثقافات الوافدة مثل الدوبيت [2] ، والمواليا[3] ، وغيرهما .

ومما جاء في شعرهم من وزن الدوبيت ، قول قاضي القضاة ابن خلكان :

فِي هَامِشِ خَدِّكَ البَدِيعِ القَانِي ... أَسْرَارُ هَوًى لِكُلِّ صَبٍّ عَانِ
قَدْ خَرَّجَها البَارِي فَمَا أَحْسَنَهَا ... مِنْ حَاشِيَةٍ بِالْقَلَمِ الرَّيْحَانِي [4]

(١) التصريع في الشعر : تقفية المصراع الأول ، مأخوذ من مصراع الباب . انظر معجم المصطلحات البلاغيه وتطورها ٢/٢٤٥ .

(٢) الدوبيت : قالب شعري دخل العربية من الفارسية ، ولفظ " دوبيت " مركب من كلمتين ، معنى الأولى منهما اثنان ، والثانية جاءت بمعناها العربي . انظر " رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت " لأبي الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل المالقي السبتي (٦٠٤-٦٩٩هـ) " المقدمة " ص ١٥٩ ، مجلة المورد - المجلد الثالث - العدد الرابع ١٩٧٤م ، ميزان الذهب في صناعة شعر العرب لأحمد الهاشمي ص ١٤٤-١٤٥ ، موسيقى الشعر ص ٢١٦ - ٢١٨ .

(٣) المواليا : فن من فنون الشعر وضع للغناء ، وكان يتغنى به العبيد والغلمان لسهولته وكانوا يقولون في آخر كل صوت : يا مواليا ، إشارة إلى أسيادهم ، ثم طوره البغداديون وقيل إن أول من قال فيه هم بعض أتباع البرامكة بعد نكبتهم ، ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أن المواليا هي نفس النوع المعروف في الشعر العامي بالموال ، انظر تاريخ الموصل لسليمان صائغ الموصلي ٢/٨٢ ، ميزان الذهب ص ١٥٢ - ١٥٣ ، موسيقى الشعر ٢١٠ - ٢٢٢ .

(٤) الوافي بالوفيات ٧/٣١٦ ، وانظر البيتين مع شيء من الاختلاف في بعض الألفاظ في فوات الوفيات ١/١١٨.

ونلاحظ في هذين البيتين أربعة أشطر من وزن واحد ، وقد حرص الشاعر أن تكون القافية موحدة ، في الشطر الأول والثاني والرابع ، وهو الأمر الذي ينبغي أن يراعيه كل من ينظم في هذا الوزن على أقل تقدير [1] أما فيما يتصل بالمواليا ، فيقول العلامة أبو الفرج ابن الجوزي في الأبيات التي بعثها إلى بغداد ، في أثناء المحنة التي مرت به في أواخر عمره :

مَالي وَمَالي   تَغَيَّرَتْ أحْوَالي
لَقِيتُ مَا لا يَكِيفْ   ولَا يَدُورُ بِبَالِي

* * *

يَا بَيْتَ عَبْدِ القَادِرْ   كُنْتُمْ نَتِيجِي في القَضَا [2]
مَا مِثْلُهُمْ يَحْسُدُنِي   ولاهُمْ أمْثَالِي [3]

ونرى في هذا النص أن الشاعر جاء بألفاظ غير فصيحة مثل : " لا يكيف " و "نتيجي" ، وعمد إلى تسكين أواخر بعض ألفاظه ، على غير التقاليد النحوية في الإعراب ، كما نوع في القافية ورويها .

وينبغي التنبيه هنا ، إلى أن فقهاء هذا العصر كانوا مع الثوابت من الأوزان الشعرية – أي أوزان الخليل – كما تدل على ذلك معظم أشعارهم ، أما نظمهم في تلك الأوزان المولدة – التي كان ينظم فيها دعاة الشعوبية والمجون والإلحاد [4] – فلا يعدو أن يكون نزعة فردية نادرة .

---

(١) انظر ميزان الذهب ص ١٥٣

(٢) يقصد بيت الركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي ، الذي تسبب في محنته ، انظر ذلك بالتفصيل في أدب ابن الجوزي ص ٢٧ – ٣٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٤) انظر الثقافات الأجنبية في العصر العباسي ص ١٢٩ – ٢٤١ .

ويتضح لنا مما سبق ، أن الفقهاء نظموا في معظم الأوزان الشعرية ، وإن كانوا قد مالوا إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة ، كما جاء في شعر بعضهم بعض الأوزان المولدة مثل " الدوبيت " و " المواليا " وغيرهما . ويلاحظ أنهم لم يخصصوا وزناً لموضوع بعينه .

وقد وفق الفقهاء في معظم أشعارهم ، في توفير العنصر الموسيقي المؤثر لأشعارهم ، سواء أكان ذلك في القصائد أم في المقطوعات ، التي أنشأوها من البحور الطويلة أو القصيرة .

ثانياً : القافية :

ارتبطت القافية بالشعر العربي منذ نشأته ، فهي من أهم لوازمه وجزء من موسيقاه ، بها تتم وحدة القصيدة ، وتتحقق الملاءمة بين أواخر أبياتها (١) .

وقد عنى العرب بالقافية عناية كبيرة ، فكانوا يقدمون الشاعر الذي يحسن الإتيان بها (٢) ، لذلك حرص النقاد القدماء على إرشاد الشعراء إلى كيفية اختيار القافية الملائمة ، والوقت المناسب لتصيدها (٣) .

وقد نظم فقهاء هذا العصر على أغلب حروف الهجاء ، وذلك بحسب عطائها الموسيقي ، وانسجامها مع ذاتهم ، وتآلفها مع موضوعاتهم ، وكان لحروف الراء ، والباء ، واللام ، والميم ، والدال ، والنون ، النصيب الأوفى في أشعارهم ، وهي حروف تجيء روياً بكثرة ، وإن اختلفت نسبة شيوعها في أشعار الشعراء (٤) .

ويذهب الدكتور إبراهيم أنيس إلى أن كثرة شيوع حروف بعينها أو قلتها ، لا تعزى إلى ثقل في الأصوات أو خفة ، بقدر ما تعزى إلى نسبة ورودها في أواخر كلمات اللغة ، فالدال مثلاً تجئ في أواخر كلمات اللغة العربية بكثرة ، ولكن شيوعها

---

(١) انظر أصول النقد الأدبي ص ٣٢٤ – ٣٢٥ ، موسيقى الشعر ص ٢٧٩

(٢) انظر القافية والأصوات اللغوية للدكتور محمد عوني عبد الرؤف ص ٧٩ ، ٨٨ .

(٣) انظر البيان والتبيين ١/١٣٧ – ١٣٨ ، كتاب الصناعتين ص ١٥٧ ، القافية والأصوات اللغوية ص ٨٨ – ٩٠ .

(٤) انظر موسيقى الشعر ص ٢٤٨ .

في اللغة عامة ليس بالكثير ، بل ربما قل عن العين والفاء ، ومع هذا فمجئ الدال روياً يزيد كثيراً عن مجئ كل من العين والفاء (١) .

وقد حرص الفقهاء مثل غيرهم من الشعراء ، على اختيار القوافي الجيدة ، وتجنب النافر منها ، ومن أمثلة ذلك قول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، في وصف الشعر :

وَمَا الشِّعْرُ إِلَّا مَا اسْتَفَزَّ مُمَدَّحاً ... وأَطْرَبَ مُشْتَاقاً ، وأرْضَى مُغَاضِبَا
أطَاعَ ، فَلَمْ تُوجَدْ قَوَافِيهِ نُفَّراً ... ولمْ تَأْتِهِ الأَلْفَاظُ حَسْرَى لواغِبَا (٢)

وقول القاضي أبي العباس أحمد بن بختيار بن علي بن محمد بن جعفر بن إبراهيم الواسطي المعروف بابن المندائي ، في تصوير خلق أعجبه :

خُلُقٌ أَرَقُّ مِنَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى ... سَحَراً على رَوْضِ الرَّبِيعِ الزَّاهِرِ
لَوْ خَالَطَ البَحْرَ الأُجَاجَ أعَادَهُ ... عَذْباً يَرُوقُ صَفَاؤُهُ للنَّاظِرِ (٣)

فقد جاءت القافية في هذين النموذجين طواعية دون قسر ، واتسمت بالسلاسة والعذوبة ، وكانت خفيفة على اللسان ، ملائمة السمع .

ومن مظاهر عناية الفقهاء بالنظم ، التزامهم في القافية أكثر من حرف واحد ، وهو ما يسمى بـ " لزوم ما لا يلزم " (٤) ، على نحو ما نرى في أبيات الأديب الفقيه

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٤٨ .

(٢) يتمية الدهر ٤/٢١ ، وحسرى : متعبة ، واللغب : الإعياء الشديد .

(٣) الوافي بالوفيات ٦ / ٢٦٢ .

(٤) انظر موسيقى الشعر ص ٢٧٤-٢٧٨ ، القافية والأصوات اللغوية ص ٩٦ - ١٠٥ .

أبي العباس أحمد بن عبد الغني بن أحمد اللخمي المالكي القطرسي المنعوت بالنفيس ، التي التزم فيها حرفي الدال والكاف :

قُلْ لِلْحَبِيبِ أَطَلْتَ صَدَّكْ ... وَجَعَلْتَ قَتْلِي فِيكَ وُكْدَكْ
إنْ شِئْتَ أَنْ أَسْلُو فَرُدَّ ... عَلَيَّ قَلْبِي فَهْوَ عِنْدَكْ
أَخْلَفْتَ حَتَّى فِي زِيَا ... رَتِنَا بِطَيْفٍ مِنْكَ وَعْدَكْ
وأَنَا عَلَيْكَ كَمَا عَهِدْ ... تَ وإنْ نَقَضْتَ عَلَيَّ عَهْدَكْ (١)

ونظم بعض الفقهاء المزدوج ، وهو الذي يتحد فيه شطرا كل بيت في قافية واحدة ، بينما تختلف الأبيات في قوافيها ، تخالفاً يتيح للشاعر أن يطيل أرجوزته ، دون أن يصيبه جهد أو مشقة ، لذلك استخدم في نظم الشعر التعليمي (٢) ، فهذا القاضي أبو زكريا يحيى بن القاسم بن مفرج الثعلبي التكريتي الشافعي ، يستخدم المزدوج في شرح ألف الأمر ، حيث قال :

لِأَلِفِ الأَمْرِ ضُرُوبٌ تَنْحَصِرْ ... في الفَتْحِ والضَّمِّ وأُخْرَى تَنْكَسِرْ
فَالفَتْحُ فِيمَا كَانَ مِنْ رُبَاعِي ... نَحْوَ أَجِبْ يَا زَيْدُ صَوْتَ الدَّاعِي
والضَّمُّ فِيمَا ضُمَّ بَعْدَ الثَّانِي ... مِنْ فِعْلِهِ المُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ
والكَسْرُ فِيمَا مِنْهُمَا تَخَلَّى ... إنْ زَادَ عَنْ أَرْبَعَةٍ أَوْ قَلَّا (٣)

ومن الظواهر الفنية التي نلاحظها في قوافي الفقهاء ، اتيانهم بالقافية المتصلة التي تربط البيت بلاحقه ، وهي التي عرف الشاعر أبي العتاهية باصطناعها (٤) ، الذي كان ذا

(١) وفيات الأعيان ١٦٤/١ ، الوافي بالوفيات ٧٣/٧ ، وانظر مبحث الغزل .
(٢) انظر موسيقى الشعر ص ٣٠٠ - ٣٠٢ ، القافية والأصوات اللغوية ص ١٧٦-١٨٨ .
(٣) بغية الوعاة ٣٣٩/٢ ، وانظر مبحث الشعر التعليمي .
(٤) انظر معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول للدكتور محمد نبيه حجاب ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ص ٥٥٠ ، كما وجدت هذه القافية عند غيره من الشعراء انظر القافية والأصوات اللغوية ص ١٧٠ - ١٧٥ .

قدرة كبيرة في التصرف بالأوزان والقوافي ، حتى عد أبرز المجددين في نظام القوافي [1]، وكان يقول عن نفسه : " أنا أكبر من العروض " [2] .

إذ نجد العلامة أبا الفرج ابن الجوزي يحتـذي بـه ، حيث أنشأ أبياتاً أتى فيها بالقافية المتصلة ، ومنها قوله :

أشْـــكُو إلَيْهِـــمُ مِنْهُـــمُ	كُلْمَـــا يَزِيـــدُ وَكُلَّمَـــا
هَجَـــرُوا تَفَـــاقَمَ أمْرُهُـــمْ	يَـــالَيْتَهُمْ دَاوُوا كَمَـــا
جَرَحُـــوا فَلَـــوْ طَبُّـــوا شَـــفَوا	هَيْهَـــاتَ لَوْلاَهُـــمْ لَمَـــا
ذَهَـــبَ الزَّمَـــانُ بَـــأنْ أقُـــو	لَ عَسَـــى وأرْجُـــو رُبَّمَـــا [3]

وخلاصة القول إن الفقهاء حافظوا على وحدة قوافيهم ، وعنوا بها عناية فائقة ، وقد جاءت معظم قوافيهم مطلقة سهلة غير نافرة ولا مستكرهة .

---

(1) انظر التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٧٥٦ – ٧٥٧ ، شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة ص ٣٣٥ – ٣٣٦ .

(2) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٣/٤ .

(3) أدب ابن الجوزي ص ٢٠٠ .

ثالثاً : المحسنات البديعية

وجدت المحسنات البديعية في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، ولكنها كانت خفيفة لا يتعمدها الشاعر لإحداث الموسيقى في أبياته ، على عكس الشعراء المحدثين ، الذين شغفوا بهذه الزخارف ، وأولوها عنايتهم في شعرهم (١) .

وقد جارى فقهاء العصر العباسي الثاني معاصريهم ، في الاهتمام بهذه المحسنات البديعية إذ استخدموا بعض ألوان البديع ، ويعد الجناس – وهو تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى (٢) – بقسميه التام والناقص من أكثر المحسنات وروداً في أشعارهم ، ومن أمثلة الجناس التام في شعرهم ، قول العلامة أبى الفرج ابن الجوزي :

إذَا جُــزْتَ بالغَــوْرِ عَــرِّجْ يَمِيْنَــا   فَقَدْ أخَذَ الشَّــوْقُ مِنَّــا يَمِينَــا (٣)

فالشاعر جانس بين لفظتين متطابقتين في الشكل ، ولكنهما مختلفتان في المعنى ، فقد جاءت اليمين الثانية بمعنى القسم ، وقد بدا التكلف واضحاً في هذا الجناس .

ومما جاء في شعرهم من قبيل الجناس الناقص ، قول الفقيه الأديب أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي :

أيُّهَـــا القَـــرْمُ الَّـــذِي   أعْوَزَنَـــا فِيـــه النَّدِيـــدُ (٤)
وأعَانَتْـــهُ علـــى المَجْـــدِ   مَسَـــاعٍ وَجُـــدُودُ (٥)

---

(١) انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٥٦٨ .
(٢) انظر كتاب البديع ص ٢٥ ، الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٢/٥٣٥ ، علم البديع للدكتور عبد العزيز عتيق ص ١٨٦-١٨٧ .
(٣) أدب ابن الجوزي ص ٢١٦ .
(٤) القرم : السيد المعظم ، النديد : الند والشبيه والضريب .
(٥) الجدود : جمع جد .

عَجِّــلِ النُّجْــحَ فــإنَّ المَطْــلَ بالوَعْــــدِ وَعِيــــدُ [1]

فقد جانس الشاعر بين لفظتين مختلفتين في عدد الحروف وهما : الوعد والوعيد .

كما اعتنى الفقهاء بالطباق ، وهو الجمع بين الشيء وضده في الكلام [2] ، وسماه قدامة بن جعفر التكافؤ [3] ، ومن أمثلة استخدامهم له قول الفقيه منصور بن إسماعيل التميمي :

إحْـــذَرْ مَــوَدَّةَ مَــاذِقٍ مَــزَجَ المَــرَارَةَ بِــالحَلاوهْ
يُحْصِــي الذُّنُــوبَ عَلَيْــهِ أيّــامَ الصَّدَاقَــةِ لِلْعَــدَاوَهْ [4]

فنحن نلاحظ في كل بيت طباقاً ، ففي البيت الأول طابق الشاعر بين المرارة والحلاوة ، وطابق في البيت الثاني بين الصداقة والعداوة ، وقد بدت آثار الصنعة وكد الذهن واضحة في هذين الطباقين .

وتناول الفقهاء في أشعارهم أيضاً المقابلة ، " وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب " [5] ومن ذلك قول قاضي القضاة الرئيس أبي بشر الفضل بن محمد الجرجاني :

قَدْ يَكْرَهُ المَــرْءُ مَا فِيــهِ سَلامَتُــهُ وَرُبَّمَا عَشِقَ الإنْسَانُ مَــا قَتَــلا [6]

---

(١) معجم الأدباء ٢٠٣/٧ ، الوافي بالوفيات ١٤٠/١١ .

(٢) انظر العمدة ٥/٢ .

(٣) انظر نقد الشعر ص ١٦٢ .

(٤) منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ص ١٥٥ .

(٥) علم البديع ص ٧٦ ، وانظر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٢٨٤/٣-٢٩٣ .

(٦) دمية القصر ٨/٢ .

حيث قابل الشاعر بين الكره والسلامة ، بالعشق والقتل .

ومن المحسنات البديعية التي جاءت في شعر فقهاء هذا العصر أيضاً التورية ، وهي أن يؤتى بلفظ يدل على معنيين أحدهما ظاهر قريب ، وهو غير مقصود ، والآخر خفي بعيد ، وهو المراد المطلوب [1] .

وقد وصلت التورية لدى بعض الفقهاء إلى حد الألغاز ، ولعل سبب ذلك يعود إلى تأثرهم بالظواهر الأدبية ، التي كانت سائدة في عصرهم ، من اهتمام شديد بالبديع، وطغيان للصنعة المتكلفة .

ومن أمثلة ذلك قول القاضي أبي بكر ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني:

قُلْ لِمَنْ صَارَ جَاهُهُ ذَا نِصَابٍ ... كَامِلٍ وَهْوَ وَاجِبُ الِالْتِفَاتِ :
واجِبٌ أنْ تَخَافَ جَيْشَ أبي بَكْرٍ إذَا كُنْتَ مَانِعاً للزَّكَاةِ [2]

فالشاعر ورى بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حينما قاتل المرتدين ومانعي الزكاة ، وأراد نفسه ، نظراً لاشتراكه مع الصديق في الكنية .

وقد تفاوت الفقهاء في استخدامهم لتلك المحسنات ، فمنهم من وفق في استخدامها ، وأجاد التعامل معها ، وبين أبعادها الجمالية ، فوشى بها شعره ، مما أكسبه رونقاً وبهاءً ، ومن هؤلاء الشريف المرتضى ، ومن نماذج شعره في ذلك قوله :

---

(١) انظر خزانة الأدب للحموي ٣٩/١ ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٣٨٣/٢ .
(٢) ديوان الأرجاني ٢٤٦/٢ .

إيَابــــاً أيُّهَـــا المَــوْلَى إيَابـــا فَعبْــدٌ إنْ أسَــاءَ فقَــدْ أنَابـــا
أطَاعَـــكَ والشَّبَـــابُ لـــه رِدَاءٌ فَكَيْفَ نَــرَاهُ إذْ خَلَــعَ الشَّبَابَــا ؟
وكانَ على الهُــدَى حَدَثــاً فأنَّـــى تُظَنُّ به الضَّلالَــةُ حِيْــنَ شَابَــا ؟
أبَعْــدَ نَصِيحَــةٍ في الغَيْــبِ غِــشٌّ ؟ أحَــوْراً بَعْــدَ كَــوْرٍ وانْقِلابَــا ؟ (١)
ألا قُــلْ لِـــلأُلى زَمُّـــوا المَطَايَـــا وعَالَوهَـــا الهَـــوادِجَ والقِبَابَـــا
وَقَــادُوا الخَيْــلَ عَارِيَـــةَ الهَــوَادِي ومَا أوْكَوْا مِن العَجَـلِ العِيَابَـا (٢)
خُـــذُوا مِنَّـــا التَّحِيَّـــةَ واقْرَؤهَـــا وإنْ لَمْ تَسْـــمَعُوا عَنْهَـــا جَوَابَــــا
علـــى مَلِـــكٍ تَـــنَزَّهَ أنْ يُحَـــابِي وأغْنَتْـــهُ المَحَـــامِدُ أنْ يُحَـــابَى
ولَمَّـا أنْ تَحَجَّـــبَ بِالمَعَالِـــــــي على أعْدَائِـــهِ رَفَــعَ الحِجَابَـا (٣)

وأنت ترى في هذه الأبيات ، أن الشاعر أتى بالعديد من المحسنات ، فقد جاء بالجناس في قوله : " إيابا – أنابا " و " يحابي – يحابى " ، وجاء بالطباق في قوله : " حدثاً – شاباً " و " نصيحة – غش " و " تحجب – رفع " ...

وقد جاءت تلك المحسنات عفو الخاطر ، جادت بها قريحة الشاعر من غير تكلف ، وقد أسهمت في تشكيل الإيقاع الداخلي ، وبناء الموسيقى الشعرية ، مما جعلها تهز النفس ، وتثير انتباه القارئ والمتلقي (٤) .

(١) الحور : الرجوع والنقصان بعد الزيادة ، والكور : الزيادة .
(٢) الهوادي من الخيل : أعناقها ، وأوكوا العياب : شدوا على رأسها بالوكاء ، وهو حبل تشد به القربة وغيرها، والعياب : جمع العيبة وهي وعاء من جلد يوضع فيه المتاع كالجراب .
(٣) ديوان الشريف المرتضى ٦٢/١-٦٣ .
(٤) انظر الشريف المرتضى شاعريته وخصائص شعره ص ٦٣ – ٦٤ ، وللمزيد من الأمثلة انظر أبيات الفقيه أبي القاسم القشيري التي سبق ذكرها في بداية هذا المبحث ، عند الحديث عن الأوزان .

ومن الفقهاء من بلغت عنايته بهذه المحسنات البديعية حد الإفراط ، حتى اتسم شعره بالتكلف والتصنع الذي أفقده روح الفن ، ولعل القاضي أبا الحسن علي بن النعمان بن منصور بن أحمد بن حيون ، خير من يمثل هذه الفئة ، يقول في إحدى مقطوعاته واصفاً صديقه :

وَلِي صَدِيقٌ مَا مَسَّنِي عَدَمٌ ... مُذْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى عَدَمِي
أَغْنَى وَأَقْنَى وَمَا يُكَلِّفُنِي ... تَقْبِيلَ كَفٍّ لَهُ وَلَا قَدَمِ (١)
قَامَ بِأَمْرِي لَمَّا قَعَدْتُ بِهِ ... وَنِمْتُ عَنْ حَاجَتِي وَلَمْ يَنَمِ (٢)

فالشاعر حشد مجموعة من المحسنات ، حيث جاء بالجناس في قوله : " عدم – عدمي " و " أغنى – أقنى " وجاء بالطباق في قوله " قام – قعدت " و " نمت – لم ينم " وجاء بمراعاة النظير (٣) ، في قوله " كف – قدم " .

ويظهر التكلف والتصنع جلياً في الأبيات السابقة ، إذ أن إصرار الشاعر على الإتيان بتلك المحسنات أوقعه في عدد من المحظورات ، فقد جاء بـ " أغنى وأقنى " من أجل الجناس ، وهو تعبير قرآني منسوب فعله إلى ا لله عزل وجل (٤) ، كما لم يوفق في قوله : " تقبيل كف له ولا قدم " لأنه أقرب إلى النثرية من جهة ، وإلى الابتذال في

(١) القنى : الرضا ، ويقال : أغناه ا لله وأقناه ، أي أعطاه ا لله ما يسكن إليه . انظر الصحاح ٤٦٨/٦ .
(٢) يتيمة الدهر ٤٦٥/١ ، وفيات الأعيان ٤١٨/٥ .
(٣) وهو أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، ويسمى أيضاً الائتلاف والتلفيق والتناسب والتوفيق والمؤاخاة ، انظر الإيضاح في علوم البلاغة ٤٨٨/٢ ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٢٤٣/٣ .
(٤) انظر سورة النجم ، الآية ٤٨ .

معناه من جهة أخرى ، ويبدو التكلف في الصياغة على أشده في البيت الثالث بشطريه، مما يؤدي إلى نفور السامع ، نظراً لما يحدثه في النفس من الملل والسأم .

وهكذا فقد عنى الفقهاء مثل غيرهم من شعراء عصرهم بالمحسنات البديعية ، خاصة الجناس والطباق ، إذ كانا أكثر الألوان البديعية وروداً في أشعارهم ، ولعل سبب ذلك يعود إلى علاقتهما الوثيقة بالإيقاع والموسيقى الشعرية .

وقد تفاوت الفقهاء في تعاملهم مع تلك المحسنات ، فمنهم من استخدمها استخداماً جيداً ، حتى أسهمت في تجلية المعنى وتأكيده ، كما اشتركت في تشكيل الإيقاع الداخلي في بناء موسيقاهم الشعرية ، ومنهم من أفرط في استخدامها ، فجاء شعره مثقلاً بها ، ينوء بالتكلف والتصنع الذي أفقده بهاءه وجماله .

المبحث الرابع : الصورة الفنية

من المقومات الرئيسة التي تدخل في بناء النص الشعري الصورة الفنية ، فهي التي تمده بالحيوية والتأثير ، بما تضفيه عليه من عناصر التخييل والإبداع الفني ، ودور الخيال عظيم في الشعر ، لا يدانيه إلا دور الموسيقى ، لذلك تنبه له النقاد القدامى ، وقد أودعت العرب أشعارها من الأوصاف والتشبيهات ، ما أحاطت به معرفتها ، وأدركه عيانها ومرت به تجاربها (١) .

وقد بين الإمام عبد القاهر الجرجاني أهمية القول في التشبيه والتمثيل والاستعارة ، فذكر أن هذه أصول كثيرة ، كأن جل محاسن الكلام – إن لم نقل كلها– متفرعة عنها وراجعة إليها ، كأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها (٢) .

والمراد بالتصوير الفني ، هو التعبير بالصورة المحسة المتخيلة ، عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية ، ثم الارتقاء بالصورة المرسومة بمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ... (٣)

وقد عرف الفقهاء – بين أوساط النقاد – بميلهم إلى الأسلوب التقريري المباشر، في مواعظهم ونصائحهم وشعرهم التعليمي ، يدفعهم إلى ذلك شعورهم بمسؤليتهم تجاه أفراد أمتهم ، وحرصهم في أن يستوى من المجتمع كل عوج ، حتى صرفهم ذلك عن الإبداع الفني ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذا الأسلوب المباشر كان مدعاة لقربهم والتصاقهم من عامة الناس ، الذين لا يزالون إلى وقتنا هذا يرددون نصائحهم ومواعظهم بإعجاب (٤) .

---

(١) انظر عيار الشعر لابن طباطبا ص ١٥ .

(٢) انظر أسرار البلاغة ص ٢٠ .

(٣) انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٣٦ .

(٤) انظر شعر الفقهاء نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول ص ١٥١ .

وإننا مع ذلك لا يمكن أن نتجاهل أن للكثير منهم صوراً شعرية جميلة تستحق الإعجاب ، دلت على قدرتهم ومهارتهم الفنية . وقد كان لثقافتهم الدينية واتصالهم الوثيق بمصادر الشريعة الإسلامية أثر في تشكيل صورهم ، ومن أمثلة ذلك قول القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي ، في تصوير حالة بؤسه في بغداد لأنه فقير معدم ، حيث قال :

بَغْدَادُ دَارٌ لأَهْلِ المَالِ واسِعَةٌ ... وللصَّعَالِيكِ دَارُ الضَّنْكِ والضِّيقِ
أَصْبَحْتُ فِيها مُهَاناً في أَزِقَّتِهَا (١) ... كأَنَّنِي مُصْحَفٌ في بَيْتِ زِنْدِيقِ (٢)

فقد شبه الشاعر نفسه مهاناً ذليلاً لا يأبه له أحد من بني قومه بكتاب الله ، وهو ملقى في بيت زنديق ملحد ، دون أن يكترث به ، أو يُلقى له أدنى اهتمام .

ويلاحظ في هذه الصورة دقتها وجمالها ، وحس ملاءمتها لحال الشاعر ، مع ما تشير إليه ضمناً ، من بيان عظم جرم اضطهاد الفقراء والمعدمين وازدرائهم .

وظهر في بعض صور الفقهاء كذلك ، آثار حياتهم العلمية ، ومن ذلك قول القاضي أبي جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي :

رَأيْتُ العَيْبَ يَلْصَقُ بِالمَعَالِي ... لُصُوقَ الحِبْرِ في لِفْقِ الثِّيَابِ (٣)

فالشاعر يشبه لصوق العيب بأهل المعالي ، بالتصاق الحبر في المكان البارز من الثوب ، ونرى الشاعر قد استمد صورة المشبه به من واقع حياته العلمية ، من خلال اعتماده على الحبر – وهو أداة حفظ العلوم في بطون الكتب – في تجسيد صورته .

(١) جاء الشطر الأول في وفيات الأعيان : ظللت حيران أمشي في أزقتها .
(٢) الذخيرة – القسم الرابع – المجلد الثاني ص ٥٢٥ – ٥٢٦ ، وفيات الأعيان ٢٢١/٣ ، الديباج المذهب ٢٨/٢ .
(٣) معجم الأدباء ١٥٨/٢ ، وللمزيد من الأمثلة انظر يتيمة الدهر ٣٩٥/٢ .

كما برز الجانب العقلي في صورهم ، ومن ذلك قول القاضي أبي حامد محي الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، في وصف يوم نزل فيه الثلج :

وَلَمَّا شَابَ رَأْسُ الدَّهْرِ غَيْظاً ... لِمَا قَاسَاهُ مِنْ فَقْدِ الكِرَامِ
أقَامَ يُمِيطُ عَنْهُ الشَّيْبَ عَمْداً ... وَيَنْشُرُ مَا أمَاطَ على الآنَامِ (١)

فالشاعر هنا يصور الثلج ، وكأنه شيب على رأس الدهر ، مشيراً بذلك إلى ما قاساه من فقد الكرام ، ثم إن الدهر يميط عنه هذا الشيب ، وينشره على الآنام ، وكأنه يدعوهم إلى مشاركته في آلامه وأحزانه ، ويلاحظ أن الصورة هنا ذهنية ، فيها حظ من الخيال الفني الجميل ، والمبالغة المحمودة .

وقد استمد فقهاء هذا العصر أيضاً بعض صورهم من الشعر القديم ، الذي لقى منهم عناية واضحة ، فالحبيب عند القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، كما كان عند القدماء ، يشبه قضيب البان في رقته وتأوده ودقة خصره ، كما جاء في قوله:

اِرْحَمْ قَضِيبَ البَانِ وارْفُقْ بِهِ ... قَدْ خِفْتُ أنْ يَنْقَدَّ مِنْ قَدِّكْ (٢)

كما أن ريق الحبيب يشبه العسل ، كما عبر عن ذلك الفقيه الشاعر أبو الفرج مهذب الدين عبد الله بن أسعد بن علي المعروف بابن الدهان ، وهو يصور غلاماً لسعته نحلة حتى أدمت شفته ، حيث قال :

بِأبِي مَنْ لَسَبَتْهُ نَحْلَةٌ ... آلَمَتْ أكْرَمَ شيءٍ وأجَلّْ (٣)
أثَّرَتْ لَسْبَتُهَا في شَفَةٍ ... مَا بَرَاهَا اللهُ إلاَّ لِلْقُبَلْ
حَسِبَتْ أنَّ بِفِيهِ بَيْتَهَا ... إذْ رَأتْ رِيقَتَهُ مِثْلَ العَسَلْ (٤)

---

(١) الوافي بالوفيات ١/٢١٠ .

(٢) يتيمة الدهر ٤/١٠ ، معجم الأدباء ١٤/٢٥ ، وينقد : ينشق .

(٣) لسبته العقرب بالفتح تلسبه لسباً : أي لدغته . انظر الصحاح ٢/٦٣١ .

(٤) ديوان ابن الدهان ص ٢٣١ .

بيد أن هذا الشاعر لم يكتف مثل سابقه عند استيحاء صور القدماء ، بل أضاف إلى صورته بعثاً جديداً ، وتصوراً طريفا ، حتى أصبحت بين أيدينا صورة فنية جميلة ، تتمثل في هجوم نحلة شرسة على شفة الحبيب حتى أدمتها ، ظناً منها أن فمه بيتها ، لأن ريقه يشبه العسل .

ومن الصور التي تكرر مجيئها عند القاضي أبي بكر ناصح الدين أحمد بن محمد ابن الحسين الأرجاني ، صورة القصائد الشعرية ، وكأنها عذارى محصنة لا تريد أو لا يراد لها إلا أن يمتلكها الكفء (١) ، كما في قوله مادحاً :

أَبْكَارُ مَدْحِي كُلَّمَا استأمَرْتُهَا ... تَأْبَى لِكُفْوءٍ غَيرِكَ الإِنْكَاحَا (٢)

وليس بخاف أن القاضي قد استوحى صورته هذه ، من الشاعر المعروف أبي تمام الطائي ، الذي عُني بهذه الصورة في شعره (٣) ، ومن ذلك قوله :

أَمَّا القَوَافِي فَقَدْ حَصَّنْتَ غِرَّتَهَا ... فَمَا يُصَابُ دَمٌ مِنْهَا ولا سَلَبُ
مَنَعْتَ إلاَّ من الأَكْفَاءِ نَاكِحَهَا ... وكانَ مِنْكَ عَلَيْهَا العَطْفُ والحَدَبُ (٤)

وأنت ترى أن صورة أبي تمام أكثر جمالاً ودقة من صورة الأرجاني ، على الرغم من تأخره، لأن أبا تمام بث في صورته العواطف الإنسانية ، فبعث فيها الحياة ، إذ أوجد صلة إنسانية بين الشاعر وقصيدته ، من خلال عطفه وحدبه عليها ، مثل حنو الأب على ابنته التي توشك أن تفارقه إلى بيت زوجها ، أما القاضي الأرجاني فقد وجه المعنى توجيهاً فقهياً يتناسب مع مشربه الفقهي ، ويمكننا أن نلحظ ذلك في تركه حرية الاختيار أو التمنع لأبكار مدحه ، كما هو الحال حينما تستأذن البكر وتستأمر الثيب.

---

(١) وللقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني أبيات في وصف شعره ، وكأنه عذارى غيد ترتدي أبهى حلة ، انظر يتيمة الدهر ٢٣/٤.

(٢) ديوان الأرجاني ٣١٨/١ ، وانظر أيضاً ٥٠/١ ، ٤٨٦/٢ ، ٦٣٦ .

(٣) انظر الصورة الفنية في شعر أبي تمام للدكتور عبد القادر الرباعي ص ٣٥ .

(٤) ديوان أبي تمام ٢٥٢/١ - ٢٥٣ .

وأعجب فقهاء هذا العصر بالطبيعة الساحرة ، التي منحتهم فيضاً من الصور الجميلة ، وشوا بها أشعارهم ، ومن ذلك أبيات القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني،

في وصف أثر الربيع ، وأمطاره على الطبيعة [1] ، قال فيها :

أَلَمْ تَــرَ أنْــوَاءَ الرَّبِيــعِ كأنَّمَــا ... نَشَرْنَ على الآفَـاقِ وَشْـياً مُذَهَّبَا [2]
فَمِــنْ شَــجَرٍ أظْهَــرْنَ فِيــه طَلاقَــةً ... وكَــانَ عَبُوســاً قَبْلَهُــنَّ مُقَطِّبَــا
ومِنْ رَوْضَــةٍ قَضَّى الشِّــتَاءُ حِدَادَهَــا ... فوشَّــحْنَ عَطْفَيْهَــا مُــلاءً مُطَيَّبَا [3]
سَقَاهَا سُلافُ الغَيْثِ رِيًّا فأصْبَحَــتْ ... تَمَايَلُ سُكْراً كُلَّما هَبَّتِ الصَّبَــا [4]

فالشاعر يرسم لنا لوحة فنية ساحرة الجمال ، متكاملة في عناصرها الفنية ، من تشبيهات دقيقة ، واستعارات عميقة ، كما عمد في إخراجها إلى الصور الفنية الجزئية المتعلقة بالخيال التفسيري ، المفعمة بالحركة والحياة مع الاهتمام بالتشخيص الحي والتجسيم [5] ، فالربيع كسى الأرض وشياً مذهباً ، فعاد للشجر طلاقته وبشره بعد طول عبوس وتقطيب ، وخلعت الرياض ثوب حدادها ، وتمايلت أشجارها سكرى ، وقد ظهر تأثر الشاعر بأبيات البحتري في وصف الربيع ، التي يقول فيها :

أتَاكَ الرَّبِيـعُ الطَّلْـقُ يَخْتَـالُ ضَاحِكـاً ... مِـنَ الحُسْـنِ حَتَّـى كَـادَ أنْ يَتَكَلَّمَــا
وَقَـدْ نَبَّـهَ النَّـوْرُوزُ في غَلَــسِ الدُّجَـى ... أوائِــلَ وَرْدٍ كُـــنَّ بِـــالأمْسِ نُوَّمَــا
يُفَتِّقُهَــا بَــــرْدُ النَّــدَى فكأنَّــهُ ... يَبُــثُّ حَدِيثـاً كَــانَ أمْـسِ مُكَتَّمَـا
ومِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبِيـــعُ لِبَاسَـــهُ ... عَلَيْهِ كَمَا نَشَّرْتَ وَشْيَـا مُنَمْنَمَــا

---

(١) وله أبيات أخرى يرى فيها أن الخريف أجمل الفصول ، بسبب رقة هوائه ، وصفاء طبيعته ، انظر يتيمة الدهر ١٨/٤ .

(٢) الأنواء : جمع نوء وهو هنا : المطر ، انظر الصحاح ٧٩/١ .

(٣) العطف : الجانب .

(٤) يتيمة الدهر ١٦/٤ - ١٧ .

(٥) انظر أصول النقد الأدبي ص ٢١٨ - ٢١٩ .

أحَـلَّ فَـأبْدَى لِلْعُيُـونِ بَشَاشَـةً وكـانَ قَـذىً لِلعَيْنِ إذْ كـانَ مُحْرِمَـا
وَرَقَّ نَسِيـمُ الرِّيحِ حَتَّى حَسِبْتُـهُ يَجِيءُ بأنْفَاسِ الأحِبَّـةِ نُعَّمَـا (١)

وأنت ترى التأثير الواضح لهذه الأبيات على أبيات القاضي الجرجاني السابقة ، بل إن معاني البحتري وصوره لتطل برأسها في نص الجرجاني ، تأمل قول البحتري : " أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا " ، " ومن شجر رد الربيع لباسه " " كما نشرن وشيا .. " " فأبدى للعيون بشاشة " ...

إذ نجد هذه العبارات – أو قريباً منها – ماثلة أمامنا ، في أبيات القاضي الجرجاني .

ومن مظاهر اعجاب الفقهاء بالربيع وآثاره أيضاً ، قول القاضي أبي بكر عبد الله بن محمد البستي ، يصف ورداً أحمر اللون أهداه إليه الحبيب :

حَيَّا بِمَا خَجِلَ العَقِيقُ لِلَوْنِـهِ لَمَّا أتَانِي في الصَّبَاحِ بِوَرْدِهِ
لَوْلا لِحَاظِي خَـدَّهُ مِنْ بَعْـدِهِ لَقَضَيْتُ أنَّ عَلَيْهِ جِلْدَةَ خَـدِّهِ (٢)

فالشاعر أراد أن يصور لنا نضارة الورد وروعة لونه ، الذي يشبه لون خد الحبيب ، لكنه لم يوفق في ذلك ، إذ أن تعبيره : " لقضيت أن عليه جلدة خده " ، أخل بجمال الصورة ، فهذا الأمر يدعو إلى التقزز وليس الإعجاب .

وقد بدا واضحا أثر العصر في ذوق الفقهاء الفني ، وتأثرهم بمظاهر الحضارة في عصرهم ، في رسم صورهم وتشكيلها ، ولعل أبرز مثال على ذلك ، قصيدة القاضي الأرجاني في وصف الشمعة – التي ذكرنا جانباً منها (٣) – حيث استقصى فيها سائر صفاتها ، ومن ذلك قوله :

صَفْـرَاءُ هِنْدِيَّـةٌ في اللـونِ إنْ نُعِتَـتْ والقَـدِّ واللِيـنِ إنْ أتْمَمْـتَ تَشْـبِيهَا
فالهِنْـدُ تَقْتُلُ بِالنِّيـرَانِ أنْفُسَهَـا وعِنْدَهَا أنَّ ذاكَ القَتْـلَ يُحْيِيهَـا

(١) ديوان البحتري ٤/٢٠٩٠ – ٢٠٩١ .
(٢) يتيمة الدهر ٤/٤٩٠ .
(٣) انظر مبحث الوصف .

مـا إنْ تَـزَالُ تَبيـتُ اللَّيْـلَ لاهِيَـةً ... ومَـا بِهَـا عِلَّـةٌ في الصَّـدْرِ تُظْمِيهَـا

تُحْيِي اللَّيَالِيَ نُـوراً وهـي تَقْتُلُهَـا ... بِئسَ الجَـزَاءُ لَعَمْـرُ اللهِ تَجْزِيهَـا

ومنها أيضاً قوله :

لَـوْلَا اخْتِـلافُ طِباعَيْنَـا بِوَاحِـدَةٍ ... وللطِّبَـاعِ اختـلافٌ في مَبَانِيهَـا

بأنَّهَـا في سَـوَادِ اللَّيْـلِ مُظْهِـرَةٌ ... تلكَ الَّتي في سَوَادِ القَلْبِ أُخْفِيهَا

وَبَيْنَنَا عَبَرَاتٌ إنْ هُـمُ نَظَـرُوا ... غَيَّضْتُها خَوْفَ وَاشٍ وهي تُجْرِيهَا (١)

ونلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر استطاع بحسه المرهف ، وذوقه الفني الرفيع أن يخرج صوراً فنية جميلة غنية بالحركة ، فأكسبها نبضاً من الحياة ، دلت على قدرته الفنية في التصوير .

فقد مزج الصورة بالإحساس ، وشبه حالته بحالة الشمعة ، وقد أعطى هذا المزج بعداً فنياً تجاوز ظاهر الصورة المادية – لونها الذهبي المتموج وقدها المشسوق ... – إلى نبض الإحساس ، الذي خلعه على الشمعة ، فمنحها ذوباناً عاطفياً .

إذ بث الشاعر في شمعته مشاعر إنسانية سامية ، أبرزها الإيثار كما في تضحيتها بنفسها وهي سعيدة من أجل الآخرين ، كذلك مشاركتها الوجدانية للشاعر في معاناته، وما أجمل البيت الأخير الذي صور فيه مدى ائتلافهما .

(١) ديوان الأرجاني – طبعة بيروت ص ٤٢٦ – ٤٢٧ .

واستمد الفقهاء بعض عناصر صورهم كذلك ، من حياتهم الخاصة وتجاربهم الذاتية ، كما في قول الفقيه أبي الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الشافعي الواسطي في وصف شيخوخته وعجزه :

صِرْتُ لَمَّا كَبِرْتُ ثُمَّ تَعَكَّزْ ... تُ وَمَا بِي شَيْخُوخَةٌ مِنْ حَرَاكِ
كَجِدَارٍ وَاهٍ أرادَ انْقِضَاضاً ... فَتَلافَاهُ أَهْلُهُ بِسِمَاكِ (1)

فالشاعر هنا صور جسده الضعيف ، الذي أنهكته السنون حتى اضطر إلى الاعتماد على العكاز ، وكأنه جدار واه متضعضع ، كاد أن يسقط لولا أن أهله تداركوه بما يعينه على إقامة صلبه ، وقد استطاع الشاعر بأسلوبه السهل هذا ، وحسن تشبيهه ، أن يخرج صورة فنية دقيقة ، أحسن فيها تصوير ضعفه ، وقد وضح فيها تأثره بصور القرآن الكريم وذلك في قول الله تعالى:﴿فَوَجَدا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾(2)

وأحسب هذه الصورة على بساطة تكوينها ، جديدة فريدة ، على الرغم من أنها منتزعة من صور القرآن الكريم ومشاهدات البيئة ومرئياتها ، فليس في المشبه به الذي طرحه الشاعر تجربة ذاتية ، لكن التجربة الذاتية صارت موضوعاً للصورة .

وهذا يقودنا إلى نتيجة مؤداها أن بساطة التجربة قد يشكل منها الشاعر فناً جميلاً ، وليست خطورة التجربة وأهميتها ، هي التي تضفي على الصورة الفنية قيمة (3).

(1) خريدة القصر ، الجزء الرابع – المجلد الأول ص ٣٣١ ، والسماك : ما سمك أي رفع به الشيء . انظر القاموس المحيط ٣/٣١٧ .
(2) سورة الكهف الآية ٧٧ .
(3) انظر النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال ص ٣٧٠ – ٣٧٢ .

ويظهر لنا مما تقدم ، أن الكثير من الفقهاء كانت لهم صور فنيةجميلة مفعمة بالحركة والحيوية ، وكذلك التشخيص والمشاركة الوجدانية ، وقد تضافرت عوامل عديدة في تشكيل صورهم ، مثل ثقافتهم الدينية والعلمية ، وتأثرهم بصور الشعراء القدماء ، وكذلك بيئتهم الطبيعية وتجاربهم الذاتية ، وقد اعتمد الفقهاء في صورهم على التصور الخيالي ، الذي يرتكز على قدرة الشاعر على منح الصورة تشكيلاً فنياً جميلاً ، ونقلها من محيط الواقع إلى الفن ، وكذلك على عناصر البيان القائمة على حسن التشبيه وجمال الاستعارة ...

الفصل الثالث

من قضايا الإسلام والشعر

المبحث الأول : الالتزام الإسلامي في شعر الفقهاء

المبحث الثاني : التجربة الشعرية والصدق الفني

المبحث الأول : الالتزام الإسلامي في شعر الفقهاء

يقرر الإسلام المسؤولية المناطة بالإنسان ، فيجعلها في بني آدم كلهم ، وقد جاءت الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، تحدد هذه المسؤولية[1]، فكل عمل يقوم به الإنسان سيسأل عنه يوم القيامة ، يقول الله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] ، وتشمل المسؤولية كل كلمة يتفوه بها المرء ، يقول الله عز وجل : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [3] ، وجاء في الحديث الشريف : (... وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ على وُجُوهِهِمْ – أَوْ قَالَ : على مَنَاخِرِهِمْ – إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) [4] .

ومعنى ذلك أن المسلم – شاعراً كان أم غير شاعر – ينبغي عليه أن يلتزم في أقواله كما يلتزم في سائر أفعاله .

ولا يفهم من ذلك الحجر على الشاعر ، والكبت على مواهبه الفنية ، لأن الالتزام الإسلامي في الشعر ، ليس الزاماً يفرض على الشاعر المسلم فرضاً ، إنما هو التزام موافق لطبع الإنسان مجار لفطرته ، ومنسجم مع إنسانيته ، لأنه جاء عن اقتناع بالشيء ورغبة فيه [5] ، كما أن آفاق الالتزام في الإسلام واسعة رحبة ، مستمدة من

---

(١) انظر الالتزام الإسلامي في الشعر لناصر بن عبد الرحمن الخنين ص ١٨١ – ١٨٤ ، شعر الفقهاء نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول ص ١٩٣ – ١٩٦ ، التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٨١٦ – ٨١٨ .

(٢) سورة الحجر ، الآيتان ٩٢ – ٩٣ .

(٣) سورة ق ، الآية ١٨ .

(٤) أخرجه الترمذي ، وقال : " هذا حديث حسن صحيح " انظر صحيح الترمذي ٨٨/٩ .

(٥) انظر الالتزام الإسلامي في الشعر ص ١٩٠ – ١٩١ .

التصور الإسلامي لهذا الوجود [١] ، يستطيع الشاعر أن يجول فيها بكل حرية بشرط أن يتقيد عنده مفهوم الحرية ، فلا يختلط بالتحلل والابتذال ولا يلتبس بالإباحة والفوضى [٢] .

ومعظم شعر فقهاء العصر العباسي الثاني ، كان ينبثق من مفاهيم الإسلام وتصوره ومنهجه ، في أغراضه وموضوعاته المختلفة ، كما رأينا ذلك عند الحديث عن أفكارهم ومضامين شعرهم .

وإن التزام الفقهاء بالدين يظهر جليا في مناجاتهم لخالقهم عز وجل ، ووقوفهم بين يديه متضرعين ، تتنازعهم عاطفتان وهما الرجاء في عفوه وغفرانه الذي وسع كل شيء ، والخوف من عقابه الشديد .

وفي مجال الزهد كان الفقهاء دعاة خير ، يرشدون الناس إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، وجاء الكثير من شعرهم في هذا المجال ، وهو أشبه ما يكون ترداداً لمعاني القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة .

كما تمثل التزامهم في مجال الأخلاق والآداب الإسلامية ، في اعتزازهم بمكارم الأخلاق وإشادتهم بها ، وحثهم الناس على التحلي بها ، وذم ومحاربة الأخلاق الفاسدة ، التي نهى عنها ديننا الحنيف .

وأظهر الكثير من الفقهاء التزاماً واضحاً في أغراضهم التقليدية ، التي مضت نصوصها من قبل ، وقد جرى التنويه عن كل ما يتعارض مع التزامهم في حينه .

(١) انظر منهج الفن الإسلامي لمحمد قطب ص ١١٩ ، مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي ص ١٦ - ١٧ .

(٢) انظر قيم جديدة للأدب العربي للدكتورة عائشة بنت عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ص ٢٤١ .

فالمدح عندهم لم يكن استجداء أو تملقا ، إنما كان تعبيراً عن التقدير والإعجاب برجالات الإسلام ، وكذلك الخلفاء والوزراء ... وعنى الكثير منهم بإبراز فضائل الممدوحين على هدي من الحق .

وفي مجال الفخر لا نجد عند الفقهاء دعوة إلى عصبية جاهلية ، أو تعالياً أو تطاولاً ينافي الالتزام ، إنما اتجه الكثير من شعرهم في هذا الغرض إلى الاعتزاز بخصالهم الخلقية ، وكذلك قدراتهم وملكاتهم وتفوقهم العلمي ، وهذا أمر محمود إذا كان من باب الحديث عن نعمة الله عز وجل وفضله ، وكان في حدود الاعتدال .

وكان التزام معظم الفقهاء بالدين الحنيف ، سبباً مباشراً في عدم وجود هجاء فاحش مقذع في شعرهم ، وكذلك عدم النيل من أعراض المسلمين لحرمة ذلك ، كما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قوله (... كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَام : دَمُهُ وَمَالُهُ وعِرْضُهُ) (١) ، وقد انصرف معظم هجاء الفقهاء إلى ذم ما يخالف الدين ، وإلى نقد ما في المجتمع من فساد ، لذلك فهو وإن كان في الظاهر هجاء ، فإنه في الحقيقة إصلاح وتهذيب لكل اعوجاج في المجتمع الإسلامي (٢) .

وفي مجال الغزل كان تشبيب أكثر الفقهاء عفيفاً في غير معين ، مما هو من سنة الشعراء في افتتاح قصائدهم ، دون إفراط فيه أو دعوة إلى فاحشة ، وهو مما أباحه

---

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ١٩٨٦/٤ .

(٢) انظر فصول في الشعر ونقده ص ٢٠ .

الإسلام ، وذلك لإقرار الرسول الكريم صلى ا لله عليه وسلم ، فعل كعب بن زهير رضي ا لله عنه ، عندما شبب بسعاد في أول قصيدته التي مدحه بها [١] .

ولم يشبب أحد من فقهاء هذا العصر - فيما بين يدي من النصوص - بأمرأة بعينها لحرمته ، كما أوضح ذلك العديد منهم ، ومن هؤلاء الإمام أبو حامد الغزالي ، الذي قال في معرض كلامه عن الأشعار المحرمة : (... وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال) [٢] ، وقال شيخ الإسلام موفق الدين المقدسي في هذا الصدد : (... فما كان من الشعر ، يتضمن هجو المسلمين والقدح في أعراضهم ، أو التشبيب بامرأة بعينها ، والإفراط في وصفها ، فذكر أصحابنا أنه محرم ..) [٣] .

ولعل من تمام الفائدة أن نورد هنا بعض النصوص الشعرية ، التي تجسد التزام الفقهاء بأحكام الدين الحنيف ، وانصياعهم لكل ما جاء في الكتاب والسنة النبوية المطهرة في كل أمورهم ، فهذا الفقيه أبو نصر إسحاق بن أحمد بن شبيب بن نصر البخاري المعروف بالصفار (توفى بعد سنه ٤٠٥هـ) [٤] ، يترفع عن الغزل بالغلمان ، ويصون نفسه من الوقوع في مزالق الهوى والضلال ، خوفاً من خالقه عز وجل ، الذي يحصى عليه كل أقواله وأفعاله ، فهو يقول :

---

(١) انظر أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي ١٤٣٤/٣ ، المغني لابن قدامة المقدسي ٤٥/١٢ ، قصيدة البردة شرح أبي البركات ابن الأنباري ، تحقيق الدكتور محمود حسن زيني ص ٩٠ ، الالتزام الإسلامي في الشعر ص ١٤٥ - ١٤٧ .

(٢) إحياء علوم الدين ٤٣٨/٢ .

(٣) المغني ٤٥/١٢ .

(٤) الفقيه الشاعر ، كان أحد أفراد الزمان في علم العربية والمعرفة بدقائقها الخفية ، ورد إلى بغداد وروى بها ، ثم خرج إلى الحجاز وسكن الطائف وبها توفى ، له تصانيف في اللغة ، وكان حسن الشعر ، انظر ترجمته : معجم الأدباء ٦٦/٦-٦٨ ، شعراء بغداد ١٠٣/٢ ، معجم المؤلفين ٢٣٠/٢ .

العَيْنُ مِـنْ زَهْـرِ الخَضْـرَاءِ في شُـغُلٍ ... والقَلْـبُ مِـنْ هَيْبَـةِ الرَّحْمَـنِ في وَجَـلِ
لَوْ لَمْ تَكُـنْ هَيْبَـةُ الرَّحْمَـنِ تَـرْدَعُـنِي ... شَـرِقْتُ مِنْ قُبَلِي في صَحْـنِ خَـدٍّ وَلِي
يَـا دُمْيَـةً خُلِقَـتْ كالشَّـمْسِ في المَثَـلِ ... حُورِيُّ جِسْمٍ ولَكِنْ صُـورَةُ الرَّجُـلِ (١)
لَوْ كَانَ صَيْدُ الدُّمَى والمُرْدِ مِـنْ عَمَلِـي ... لَكُنْـتُ مِـنْ طَـرَبٍ كَالشَّـارِبِ الثَّمِـلِ
لَكِنَّـنِي مِـنْ وَثَـاقِ العَقْـلِ في عُقُـلِ ... وَلَيْسَ لي عَنْ وِفَاقِ العَقْلِ مِـنْ حِـوَلِ (٢)
اللهُ يَرْقُبُـنِي والعَقْـلُ يَحْجُبُـنِي ... فَمَـا لِمِثْلِـي إذاً في اللَّهْـوِ والغَـزَلِ
كَلَّفْتُ نَفْسِيَ عِـزًّا في صِيَانَتِهَـا ... دِينُ الوَرَى لَهُمُ طُـرًّا وَدِينِـي لي (٣)

ويحرص القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي ، على إنفاق سنوات شبابه ، في مرضاة الله تبارك وتعالى ، بدلاً من إهدارها فيما لا يفيد ، كما عبر عن ذلك بقوله :

سَـأُنْفِقُ رَيْعَـانَ الشَّـبِيبَةِ آنِفـاً ... على طَلَبِ العَلْيَاءِ أوْ طَلَبِ الأجْرِ
أَلَيْـسَ مِـنَ الخُسْـرَانِ أنَّ لَيَالِيـاً ... تَمُرُّ بِـلا نَفْعٍ وتُحْسَبُ مِنْ عُمْـرِي
وإنَّا لفي الدُّنْيَـا كَوَاكِـبُ لُجَّـةٍ ... نُظَنُّ قُعوداً والزَّمَانُ بِنَا يَجْـرِي (٤)

(١) الدمية : الصورة المنقوشة من الرخام .
(٢) عقل : جمع عقال وهو حبل يشد به البعير في ذراعه .
(٣) معجم الأدباء ٦/٦٨-٦٩ ، شعراء بغداد ٢/١٠٣ - ١٠٤ .
(٤) الذخيرة - القسم الرابع - المجلد الثاني ص ٥١٩ .

ويعلن الفقيه أبو القاسم زين الإسلام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة ابن محمد القشيري النيسابوري ، في أبياته التالية انصياعه لأوامر الشرع ، ورفضه القاطع لصوت الهوى واللهو والمجون :

جَنِّبَانِي المُجُونَ يَا صَاحِبَيَّا ... واتْلُوَا سُورَةَ الصَّلاةِ عَلَيَّا
قَدْ أَجَبْنَا لِزَاجِرِ العَقْلِ طَوْعاً ... وتَرَكْنَا حَدِيثَ سَلْمَى ومَيَّا
وَمَنَحْنَا لِمُوجِبِ الشَّرْعِ نَشْراً ... وشَرَعْنَا لِمُوجِبِ اللَّهْوِ طَيَّا (١)

وكما سبقت الإشارة فإن شعر فقهاء هذا العصر ، لم يخل من بعض التجاوز الذي أخل بالتزام بعضهم عن اتباع المنهج الإسلامي القويم ، وأبرز هذه التجاوزات هي غزل بعضهم بالغلمان ، وكذلك وصفهم للخمر .

وكان ينبغي لهؤلاء الفقهاء ، أن يربأوا بأنفسهم عن نظم مثل ذلك الشعر ، لأنهم القدوة والمثال الذي يحتذى بأفعالهم وأقوالهم . ولعل من المناسب أن أشير هنا إلى حادثة ذكرها صاحب الوافي بالوفيات ، تبين خطورة صدور مثل تلك الأشعار عنهم ، وأثرها السيء في نفوس العامة ، فقد ذكر الصفدي أن بيتي الفقيه إبى إسحاق إبراهيم ابن علي بن يوسف الفيروزابادي الشيرازي ، اللذين يقول فيهما :

جَاءَ الرَّبِيعُ وحُسْنُ وَرْدِهِ ... وَمَضَى الشِّتَاءُ وقُبْحُ بَرْدِهْ
فاشْرَبْ علَى وَجْهِ الحَبِيـ ... ـبِ وَوَجْنَتَيْهِ وحُسْنِ خَدِّهْ (٢)

قد أنشدا عند أحد حكام عصره ، فقال لأحد أتباعه : أحضر ذلك الشأن – يعني الشراب – فقد أفتانا به الإمام أبو إسحاق ، فبكى أبو إسحاق حين بلغه الخبر ، وقال:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٦١ – ١٦٢ .

(٢) الوافي بالوفيات ٦/٦٥ .

يا ليتني لم أقل هذين البيتين قط ، وتمنى لو استطاع أن يردهما من أفواه الناس ، ولكن هيهات فقد سارت بهما الركبان [1] .

على أن وقوع هؤلاء الفقهاء في هذا المزلق ، لا يخرجهم من دائرة الإلتزام بالإسلام ، لأن معظمهم قالوه بلسانهم فقط ولم تعتقده قلوبهم ، ولكن ذلك لا يعفيهم من الوقوع في الإثم ، فهم بتجاوزهم حدود الأدب والفضيلة ، واتباعهم للهوى ، أصبحوا في جملة الشعراء الذين ذمهم ا لله عز وجل [2] ، في قوله ﴿ ... وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ﴾ [3]

ونخلص مما سبق إلى أن شعر فقهاء العصر العباسي الثاني ، كان في جملته شعراً ملتزماً بالإسلام ، بيد أنه كان في أغراض المناجاة ، والزهد ، والأخلاق والآداب الإسلامية ، أكثر وضوحاً من الأغراض التقليدية .

---

(١) انظر المصدر السابق ٦/٦٥ .

(٢) انظر الإلتزام الإسلامي في الشعر ص ١٠٩ ، ٢٨٤ ، الشعر والشعراء في الكتاب والسنة ليوسف العظم ص ١٧-١٨ ، دراسات في أدب الدعوة الإسلامية للدكتور محمود حسن زيني ص ٨٤ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٦ .

المبحث الثاني : التجربة الشعرية والصدق الفني .

حظيت التجربة الشعرية باهتمام كبير من قبل دارسي الأدب ، ولاسيما النقاد الذين استعانوا بالدراسات النفسية في تتبع عملية الإبداع ، ورصد التجربة الشعورية ، والوقوف عند مكوناتها ، وكذلك العوامل المؤثرة فيها (١) .

وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف في تعريف التجربة الشعرية إلى أنها الحدث الوجداني أو العاطفي ، الذي ينبع من نفس صاحبه ومن عقله ، ومن كل حواسه ودخائله النفسية والفكرية الظاهرة والباطنة ، كما بين أن التجربة تتألف من تلاحم أربعة عناصر هي : الأحاسيس ، والعقل ، والخيال ، والموسيقى (٢) .

أما الدكتور محمد غنيمي هلال فيرى أن لكل تجربة شعرية عناصر مختلفة فكرية وخيالية وعاطفية ، والشاعر يتخذ منها مواد تصويرية ، إذ يستعين بهاعلى جلاء صورة تتوافر لها قوة الإيحاء والتعبير (٣) .

وقد ارتبطت التجربة الشعرية بالصدق الفني ، وهو الأمر الذي تنبه له النقاد الأقدمون ، الذين توسعوا في موضوع الصدق والكذب في الشعر ، وأشبعوه بحثاً ودراسة ، وتباينت آراؤهم حوله ، بحيث لا يتسع المقام هنا للحديث عنه (٤) .

---

(١) انظر مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي للدكتور عبد الباسط بدر ص ١٨ ، النقد الأدبي أصوله ومناهجه لسيد قطب ص ١٨٢ - ٢٣٣ ، الأسس النفسية للإبداع الفني للدكتور مصطفى سويف ص ٢٧٨ - ٣٠٦ ، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي أصوله وقضاياه للدكتور سعد أبو الرضا ص ٢٦ - ٤١ .

(٢) انظر في النقد الأدبي ص ١٣٨ ، ١٤٦ - ١٥٢ .

(٣) انظر النقد الأدبي الحديث ص ٣٦٤ .

(٤) انظر أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٤٢٤ - ٤٣٣ ، النظرية النقدية عند العرب للدكتورة هند حسين طه ص ١٩١ - ٢٠٧ ، النقد الأدبي الحديث ص ٢١١ - ٢١٧ .

وبطبيعة الحال فإن الصدق الفني لا يفترض فيه مطابقة الحقيقة والواقع بصورة قاطعة مثل التجارب العلمية ، إنما المقصود به [1] . أن يتجلى الشاعر في مثاليته ، كما يتجلى في تصويره لما حوله تصويراً إنسانياً ، وفي كون تجربته صورة لفكره وذاتيته ومثله ، وهو في هذا يتلاقى مع الصدق الخلقي [2] .

وعند تأملنا لشعر فقهاء العصر العباسي الثاني ، نجد الكثير من التجارب التي توافرت فيها عناصر النجاح ، فجعلتها ترقى إلى مصاف الشعر الجيد ، على الرغم من مجيء معظم شعر الفقهاء على هيئة مقطعات قصيرة ، ذلك لأن الإبداع الشعري والإجادة الفنية ليستا رهينتين لطول القصيدة وكثرة عدد أبياتها ، إذ إن أهمية التجربة وصدقها ليسعها أحياناً البيتان ، كما تسعها القصيدة الطويلة .

وقد اشتهرت في الشعر العربي القديم ، مقطوعات شعرية ، وذاعت بين الناس، فاهتز لها العامة والخاصة ، دون أن تكون قلة أبياتها سبباً يحط من قيمتها الفنية [3] .

ويذهب بعض النقاد إلى أكثر من ذلك ، إذ يرون أن الشاعر إذا أتى بالمعنى الذي يريده في بيت واحد ، كان في ذلك أشعر منه إذا أتى بالمعنى في بيتين ، وإذا أتى شاعران بذلك ، فالذي يجمع المعنيين في بيت ، أشعر من الذي يجمعهما في بيتين [4] .

وحينما نتأمل شعر المناجاة نقف أمام عواطف الفقهاء السامية ، وانفعالاتهم النفسية ، ومشاعرهم الفياضة ، التي لا يرقى إلى صدقها شك ، تجاه خالقهم عز وجل، والصدق الفني في شعرهم هذا ، نابع من كونه تجربة روحية خالصة ، مستمدة من روح الدين الحنيف .

---

(١) تحدث ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر عن ضروب الصدق ومواطنه في الشعر ص ٢٢ -٢٤ ، وقد قام بشرحها وتوضيحها الدكتور إحسان عباس في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٤٢- ١٤٦ .

(٢) انظر النظرية النقدية عند العرب ص ٢٠٦ ، مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي ص ١٩ .

(٣) انظر أمثلة على ذلك في الشعر والشعراء ١/٨٦ - ٨٨ .

(٤) انظر قضايا النقد الأدبي للدكتور بدوي طبانه ص ١٨ .

يقول الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي الشيرازي ، في أبياته التي أنشأها في لحظات صفاء وإشراق روحي ، متضرعاً إلى مولاه أن يكشف مابه من ضر ، ومصوراً ضعفه وقلة حيلته ، وكذلك ثقته بخالقه عز وجل وشدة تعلقه به :

لَبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا والنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا ... وَقُمْتُ أشْكُو إلى مَوْلايَ مَا أجِدُ
وَقُلْتُ يَا عُدَّتِي في كُلِّ نَائِبَةٍ ... ومَنْ عَلَيْهِ لِكَشْفِ الضُّرِّ أعْتَمِدُ
أشْكُو إليكَ أُمُوراً أنْتَ تَعْلَمُهَا ... مَالي على حَمْلِهَا صَبْرٌ ولا جَلَدُ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بالضُّرِّ مُبْتَهِلاً ... إليكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إليه يَدُ
فَلا تَرُدَّنَّهَا يَارَبِّ خَائِبَةً ... فَبَحْرُ جُودِكَ يُرْوِي كُلَّ مَنْ يَرِدُ (١)

وقد جاءت مناجاة هذا الفقيه زاخرة تنبض بالحياة ، لأنها صادرة عن قلب صادق خاشع ، عاش في رحاب التدين ، ومدارسة العلوم الشرعية .

أما شعر الزهد وكذلك الأخلاق والآداب الإسلامية ، فلم يكن كله ينحو أسلوب المباشرة والنصح والإرشاد ، والجنوح إلى الجانب العقلي ، مما يتنافى مع طبيعة التجربة الشعرية ، كما هو الحال مع الشعر التعليمي ، الذي ليس له من الشعر إلا اسمه على حد وصف الدكتور محمد مصطفى هدارة له (٢) .

فهناك العديد من التجارب الشعرية الناضجة ، التي حفلت بفيض من المشاعر الصادقة ، فخاطبت القلوب قبل العقول ، ومن أمثلة ذلك من شعر الزهد ، وصف الموت ووحشة القبر ، كما في أبيات شيخ الإسلام موفق الدين المقدسي ، الذي صور

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٤/٢٢٥ ، شعراء بغداد ١/٥٢ .

(٢) انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٦٧ .

رحلة موته من حين وضعه فوق النعش حتى استقر في قبره ، وقد أسبغ على صوره عناصر عاطفية ، حتى بدت شاخصة مؤثرة في نفوس السامعين ، حيث قال :

كَأنِّي بِجِسْمِي فَوْقَ نَعْشِي مُمَدَّداً ... فَمِنْ سَاكِتٍ أوْ مُعْوِلٍ يَتَحَرَّقُ
إذَا سُئِلُوا عَنِّي أجَابُوا وأعْوَلُوا ... وأدْمُعُهُمْ تَنهَلُّ : هَذَا الموَفَّقُ
وغُيِّبْتُ في صَدْعٍ من الأرْضِ ضَيِّقٍ ... وأودِعْتُ لَحْدًا فَوْقَهُ الصَّخْرُ مُطْبِقُ
وَيَحْثُو عليَّ التُّرْبَ أوْثَقُ صَاحِبٍ ... ويُسْلِمُني لِلْقَبْرِ مَنْ هُو مُشْفِقُ
فَيَارَبِّ كُنْ لي مُؤْنِساً يَوْمَ وَحْشَتِي ... فإنِّي لِمَا أنْزَلْتَهُ لَمُصَدِّقُ (١)

ومن التجارب الشعرية الجيدة في مجال الأخلاق والآداب الإسلامية ، أبيات القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني – السالفة الذكر – في حديثه عن عزة نفسه ، التي يقول فيها (٢) :

يَقُولُونَ لي : فِيكَ انْقِبَاضٌ وإنَّمَا ... رَأوا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أحْجَمَا
أرَى النَّاسَ : مَنْ دَانَاهُمو هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَمَا زِلْتُ مُنْحَازاً بِعِرْضِي جَانِباً ... مِنَ الذَّمِّ ، أعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا
إذَا قِيلَ : هَذَا مَشْرَبٌ ، قُلْتُ : قَدْ أرَى ... ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
وَلَمْ أقْضِ حَقَّ العِلْمِ إنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لي سُلَّمَا
ولَمْ أبْتَذِلْ في خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأخْدُمَ مَنْ لاقَيْتُ لكنْ لِأُخْدَمَا
أأشْقَى بِهِ غَرْساً وأجْنيهِ ذِلَّةً ... إذًا فاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أحْزَمَا
وَلَوْ أنَّ أهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
ولكنْ أهَانُوهُ فَهَانَ ، وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا (٣)

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ١٤١/٢ .

(٢) اقتضت الضرورة إعادة هذه الأبيات في هذا الموضع أيضاً .

(٣) يتيمة الدهر ٢٥/٤ ، المنتظم ٢٢١/٧ ، معجم الأدباء ١٧/١٤ ، البداية والنهاية ٣٣١/١١-٣٣٢ .

فقد كان القاضي الجرجاني في أبياته هذه مرهف الحس ، يسمو عن دوافع الغرض والحاجة ، إذ صور تجربة ملكت عليه جوانب نفسه ، فعبر عن وجدانه في حرارة وصدق ، حيث جسد لنا قمة إحساسه بعزة العلم وكرامته ، فهو بعلمه يعف عن مواقف الذل ، وهو لتعظيمه للعلم لا يتخذه وسيلة لتحقيق مطامعه ، لأن التسامي بالعلم عن أن يكون وسيلة إلى المطامع ، لأعز وأغلى من أي شيء مهما عز وغلا ، والحق أن صدق تجربة القاضي الجرجاني وسموها ، وعمق احساسه بها ، قد أثمرا هذا العمل الفني الخالد ، الذي سيظل مصدر امتاع وتأثير مهما تقادم الزمان ، واختلفت عليه الأجيال (١) .

ونشهد عمق التجربة الشعرية ، حينما يصف الفقهاء بعض أحوالهم الخاصة ، ومن ذلك وصف الفقيه أبى بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري ، للحظاته الأخيرة في الدنيا ، وهو على فراش المرض ينتظر الموت ، حينما لاحظ من كان معه سكونه وانقطاع عرق جبينه ، فظن ذلك من علامات العافية ، فأنشأ أبياتاً مشحونة بالمشاعر المؤثرة ، تصور نفسيته الحزينة التي يعتصرها الألم ، والموت يسري في أنحاء جسده عضواً عضواً ، حتى عجز عن التعبير عن الآمه ، حيث يقول :

أقُولُ لِصَاحِبَيَّ وَسليانِي ... وَغَرَّهُمَا سُكُونُ حُمَّى جَبِينِي
تَسَلَّو بِالتَّعَزِّي عَنْ أخِيكُمْ ... وخُوضُوا في الدُّعَاءِ ووَدِّعُونِي
فَلَمْ أدَعِ الأنِينَ لِضَعْفِ سُقْمٍ ... ولَكِنِّي ضَعُفْتُ عَنِ الأَنِينِ (٢)

وهذا القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي ، يعبر عن مشاعر الحزن والأسى ، حينما قرر ترك بغداد على الرغم من حبه الشديد لها ، لأنه لم يجد فيها ما يقيم أوده أو يسد عوزه ، فانطلقت شاعريته لتعبر عن خلجات نفسه المكلومة بكل صدق ، حيث قال :

(١) انظر أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .
(٢) أوراق من ديوان أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني ص ٨٣ .

سَـلامٌ علـى بَغْـدَادَ فِي كُـلِّ مَوْطِـنٍ وَحُـقَّ لَهَـا مِـنِّي سَـلاَمٌ مَضَـاعَفُ
فَـوَا للهِ مَـا فارَقْتُهَـا عَـنْ قِلـىً لَهَـا وإنِّـي بِشَـطَّيْ جَانِبَيْهَـا لَعَـارِفُ
ولكنَّهَـا ضَـاقَتْ علـيَّ بأسْـرِهَا ولمْ تَكُـنِ الأرْزَاقُ فِيهَـا تُسَـاعِفُ
وكانَتْ كَخِلٍّ كُنْتُ أهْـوَى دُنُـوَّهُ وأخْلاَقُهُ تَنْـأى بِـهِ وتُخَالِـفُ [1]

وإذا ما انتقلنا إلى الأغراض التقليدية ، نجد أن صدق التجربة الشعرية قد تحقق في كثير من النماذج الشعرية ، ففي مجال المدح لم يكن الفقهاء شعراء مناسبات ، يتكسبون من أشعارهم وينتظرون ثمن مدحهم – كما سبق أن أشرنا إلى ذلك – إنما كانت تحركهم مشاعر الإعجاب والتقدير التي يكنونها للممدوحين ، لذلك نلمس في الكثير من أشعارهم قوة العاطفة وصدقها ، ولعل أعمق التجارب الشعرية في هذا الغرض مدحهم للرسول صلى ا لله عليه وسلم ، وآل بيته وأصحابه رضي ا لله عنهم [2] .

وقد حرص معظم الفقهاء على التزام الصدق الأخلاقي [3] ، في مجالي المدح والهجاء ، وذلك من خلال نقلهم للحقيقة الأخلاقية ، وعدم تزييفها أو المبالغة في نقلها، كما سبق أن رأينا ذلك .

وحفل رثاء الفقهاء بفيض من الأحاسيس والمشاعر المتأججة التي انبعثت من قلوب ملتاعة ، بفقد الأهل والأحبة والأصدقاء ، وقد مرت بنا نماذج من الرثاء المؤثر الذي يهز النفوس ، خاصة في رثاء الفقهاء لأهلهم وذويهم ، إذ تميز هذا اللون من الرثاء بالصدق الفني الذي يتسامى عن تزييف المشاعر .

---

(١) وفيات الأعيان ٣/٢٢٠ ، فوات الوفيات ٢/٤٢٠ ، الديباج المذهب ٢/٢٧ ، وانظر مزيداً من تجاربهم الشعرية في وصف أحوالهم الخاصة في نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٤/٢٥ ، خريدة القصر – الجزء الرابع – المجلد الأول ص ٣٢٤ ، الوافي بالوفيات ٤/١٤٢-١٤٣ .

(٢) انظر مبحث المدح .

(٣) انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٤٣ .

ورأينا في مجال الإخوانيات العديد من النصوص الشعرية ، التي تعبر عن العواطف السامية والإحساس الصادق بالمودة الحميمة ، بحيث تجاوزت علاقة الصداقة عند الفقهاء إلى علاقة روحية نابعة من آداب الإسلام ، ولعل أبرز التجارب الشعرية الناضجة في هذا المجال ، أبيات الفقيه أبي على الحسن بن أحمد بن عبد الله ابن البناء البغدادي ، التي عبر فيها لأحد أصدقائه عما يكنه له من حب ومودة وشوق صادق ، كما بين له فيها أنه وإن بعدت أجسامهما ونأت ، فإن أرواحهما تتلاقى وتتواصل ، حيث قال :

إذَا غُيِّبَتْ أشْبَاحُنَا كَانَ بَيْنَنَا ... رَسَائِلُ صِدْقٍ في الضَّمِيرِ تُرَاسَلُ

وأرْوَاحُنَا في كُلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ ... تَلاقَى بِإخْلاصِ الوِدَادِ تُواصِلُ

وَكَمْ غَائِبٍ والقَلْبُ مِنْهُ مُسَالِمٌ ... وكَمْ زَائِرٍ في القَلْبِ مِنْهُ بَلابِلُ (١)

فَلا تَجْزَعَنْ يَوْماً إذَا غَابَ صَاحِبٌ ... أمِينٌ ، فَمَا غَابَ الصَّدِيقُ المُجَامِلُ (٢)

أما الغزل فإن الكثير من أشعار الفقهاء فيه ، لم يكن صادراً عن تجربة حية صادقة ، تنبض بمشاعر الشوق والحرمان ، واللذة والألم ... تدفعهم إلى الانفعال ، على نحو ما نراه في الشعراء العذريين وغيرهم ، إنما كان يعنيهم – في المقام الأول – إظهار قدراتهم الشعرية ومهارتهم الفنية ، في هذا الغرض المهم ، لذلك عمد العديد منهم إلى استنفاد كل جهودهم وطاقاتهم ، في إبداع الصور والتشبيهات التي تبرز الصفات المادية للمحبوبة ، كما في أبيات القاضي أبي القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي (٣) ، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (٤) .

---

(١) في الوافي بالوفيات : وكم غائب في الصدر منه مسلم .

(٢) الوافي بالوفيات ٣٨٢/١١-٣٨٣ ، الذيل على طبقات الحنابلة ٣٦/١-٣٧ ، المنهج الأحمد ١٤١/٢، وانظر مبحث الإخوانيات في الفصل الثاني من الباب الأول .

(٣) انظر يتيمة الدهر ٤٠٣/٢ - ٤٠٤ .

(٤) انظر المصدر السابق ١٠/٤-١٢ .

لكننا نستثني بعض الفقهاء الذين عاشوا تجربة الغزل ، وانفعلوا بها ، واستوعب شعرهم عمق تجربتها الحية ، مما منح شعرهم الصدق والجمال وقوة التأثير .

ومن أبرز أولئك الفقهاء ، الفقيه أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري ، وقاضي القضاة ابن خلكان [1] .

ومما تقدم يمكننا القول إن معظم شعر فقهاء العصر العباسي الثاني ، يزخر بعاطفة صادقة ، ومشاعر إنسانية سامية ، نابعة من النزعة الدينية التي يصدر عنها الفقهاء في أشعارهم ، وقد منح الصدق الكثير من شعرهم قدرته على إطلاق شحنات من الانفعالات ، ونقلها إلى المتلقين بصورة فنية ، ليس فيها تزييف للمشاعر والأحاسيس .

---

(١) انظر مبحث الغزل في الفصل الثاني من الباب الأول .

الخاتمة

الخاتمة :

حاولت في الصفحات السابقة من هذه الدراسة ،تقديم صورة لشعر فقهاء العصر العباسي الثاني أحسب أنها متكاملة ، وقد اقتضى مني ذلك لم شتات شعر الفقهاء من بطون المصادر ثم دراسته ، وكانت أبرز النتائج التي كشفت عنها هذه الدراسة مايلي :

أولاً : أوضحت الرسالة في التمهيد اسهام كثير من فقهاء هذا العصر في الساحة الأدبية، من خلال مشاركتهم في المجالس الأدبية ، التي كانت تعقد في قصور الخلفاء والوزراء ... وما كان يجري فيها من مساجلات شعرية ، ومناظرات أدبية ، بالإضافة إلى ما كان بين بعض الفقهاء وبين أدباء ذلك العصر ، من روابط أدبية أثمرت نتاجاً شعرياً .

ثانياً : أظهرت الرسالة في الباب الأول ، في مجال الأغراض الإسلامية ، أن شعر المناجاة عند الفقهاء شعر تعبدي في مجمله ، وقد تميز بعاطفة صادقة جياشة ، كشفت عن عمق صلتهم بخالقهم .

* وكان زهد الفقهاء أصيلاً في بواعثه ودوافعه ، وقد دارت موضوعات الزهد عندهم حول التحذير من الدنيا وزخرفها ، وعدم الركون إليها ، والتحذير من

الذنوب ، ووجوب طاعة الله والتقرب إليه ، وهي معان مشتركة عند أغلب الذي نظموا في هذا المجال .

* وسعى الفقهاء في مجال الأخلاق والآداب الإسلامية ، إلى ترسيخ قيم وأخلاق الإسلام الفاضلة ، من قناعة ، وصبر ، وعزة النفس ... ، كما تعرضوا بالذم لبعض الخصال الفاسدة ، التي وجدت في المجتمع ، مثل الحسد والكبر والنفاق...

* وجاءت معظم حكم الفقهاء ممزوجة بالنصح والإرشاد ، وكانت ثمرة لفهمهم للقرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، بالإضافة إلى ثقافتهم المتنوعة ، وتجاربهم الذاتية .

* وفي مجال الأغراض التقليدية تطرق الفقهاء إلى معظم ميادين المدح ، وكان مدحهم بدافع الإعجاب والإكبار والتقدير لمدوحيهم ، ومعظمه دال عليهم ، فليس فيه غلو أو إفراط .

* وكان معظم فخر الفقهاء فخراً ذاتياً ، افتخروا فيه بخصالهم الحميدة ، التي استمدوها من الإسلام ، من عزة وإباء ... ومنهم من كان فخره تقليدياً ، إلا أنهم لم ينحوا فيه منحى الجاهليين ، إنما كان فخرهم ضمن الدائرة التي ارتضاها الإسلام .

* وحرص الفقهاء في مجال الرثاء على الإشادة بمناقب المتوفين ، كما نجد في بعض مراثيهم التأسي والتجمل بالصبر ، والرضا بقضاء ا لله تعالى وقدره .

* وانصرف معظم هجاء الفقهاء إلى محاربة من يتعرض لأمور العقيدة والدين ، وإلى انتقاد الأوضاع الاجتماعية الخاطئة ، وقد ظهر أثر الإسلام واضحاً في هذا الغرض ، في ترفع الفقهاء عن النيل من أعراض الناس ، وهجاء معين .

* وتميز شعر الإخوانيات عند الفقهاء بالصدق وحرارة العاطفة ، بيد أنه كان تقليدياً في معانيه وموضوعاته .

* وأكثر الفقهاء من النظم في مجال الغزل ، وجالوا في معظم ميادينه ، فقد تغزلوا في مطالع قصائدهم على نمط القدماء ، كما كان لهم غزل عذري عفيف اتسم بالرقة والشفافية ، وتطرقوا أيضاً إلى الغزل الحسي .

وتميز فقهاء هذا العصر بلون طريف من الغزل ، وذلك من خلال استخدامهم للمصطلحات الفقهية ، إلى جانب فتاويهم وأجوبتهم الشعرية .

وقد انساق بعض الفقهاء إلى ظاهرة خطيرة انتشرت في ذلك العصر ، وهي التغزل بالغلمان ، ويرجع سبب ذلك إلى التصوف وحب الجمال ، وكذلك التقليد الفني والمحاكاة ...

* وفي مجال الوصف رأينا للفقهاء نصوصاً شعرية في وصف الحيوان ، ومظاهر الكون ، ووصف الربيع ، والروضيات ، والزهريات ، والثمار ، والمائيات ، ووصف مظاهر من حياتهم العامة ، وهي كما ترى موضوعات سبقوا إليها ، بيد أنهم أفادوا مما قاله أسلافهم في هذا الفن ، من خلال اعتمادهم على التشخيص الحي ، والمشاركة الوجدانية ... ويؤخذ عليهم أنهم لم يلتفتوا في وصفهم إلى التأمل والتفكر في قدرة ا لله عز وجل ، والنظر في عجائب صنعه ... لذا لم يتميز الوصف عندهم برؤية جديدة عما كان عليه لدى معاصريهم .

* وفي مجال الشعر التعليمي أسهم الفقهاء بقصائد ومنظومات تعليمية ، في مجالات العقيدة والفقه والنحو ، كما جسد بعض الفقهاء العلاقة الوثيقة بين الشعر التعليمي وبين شعر الأخلاق والآداب الإسلامية ، وذلك من خلال استخدامهم لمعارفهم وعلومهم من أجل الحث على طلب العلم ، ووجوب تعلمه لشرفه ومنزلته الرفيعة .

* وشارك الفقهاء شعراء عصرهم في الاهتمام بالألغاز ، التي اتسمت بحسن الصياغة، وجودة المضمون .

ثالثاً : وبينت الرسالة في الباب الثاني – الدراسة الفنية – أن معظم أفكار الفقهاء ومضامين شعرهم مستمدة من الإسلام ومثله العظيمة ، وقد تميزت أفكارهم

بالسهولة والوضوح ، فليس فيها عمق أوغموض ، ولا تميل إلى الفلسفة أو المنطق .

* وقد استوحى الفقهاء أكثر معانيهم الشعرية من الإسلام ، كما غلب على جانب من معانيهم التقليد والمحاكاة من الأقدمين .

* ولم يسر الفقهاء على وتيرة واحدة في إنشاء أشعارهم ، فمنهم من نظم القصائد الطويلة ، ومنهم من نظم المقطعات – وهم الأكثر – .

وقد حرص الفقهاء في بناء قصائدهم ومقطعاتهم على التناسق والارتباط بين أبيات القصيدة ، كما نوعوا مطالع قصائدهم فمنهم من تابع الأقدمين ، ومنهم من جاء بمقدمة روضية ، وآثر بعضهم الدخول في صلب الموضوع دون مقدمات.

* وكانت السمة الغالبة على ألفاظ وتراكيب فقهاء هذا العصر هي السهولة والوضوح ، وكان تأثرهم كبيراً بألفاظ وأساليب القرآن الكريم ، كما جاءت في بعض أشعارهم الألفاظ الفقهية والعامية ، وكذلك الأساليب المنطقية .

* وفي مجال موسيقى الشعر نظم الفقهاء في معظم الأوزان الشعرية ، بيد أنهم مالوا إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة ، كما جاء في شعر العديد منهم بعض الأوزان المولدة مثل الدوبيت والمواليا .

وقد وفق الفقهاء في معظم أشعارهم في توفير العنصر الموسيقي ، كما حافظوا على وحدة قوافيهم ، وعنوا بها عناية فائقة ، وقد جاءت معظم قوافيهم مطلقة سهلة ، غير نافرة ولا مستكرهة .

وقد ظهرت عناية الفقهاء بالمحسنات البديعية ، مثل غيرهم من شعراء عصرهم، ولاسيما الجناس والطباق ، بيد أنهم كانوا متفاوتين في استخدامها ، فمنهم من نجح في استخدامها ، فأسهمت في تجلية معانيه وتأكيدها ، كما اشتركت في تشكيل الإيقاع الداخلي في بناء موسيقاه الشعرية .

ومنهم من أفرط في استخدامها ، فجاء شعره مثقلاً بها .

* وفي مجال الصورة الفنية رأينا أن كثيراً من الفقهاء كانت لهم صور فنية جميلة مفعمة بالحركة والحيوية ، وكذلك التشخيص الحي ، والمشاركة الوجدانية ، وقد تضافرت عوامل عديدة في تشكيل صورهم ، مثل ثقافتهم الدينية والعلمية ، وتأثرهم بصور الشعراء القدماء ، وكذلك بيئتهم الطبيعية ، وتجاربهم الذاتية .

* وفي مجال الالتزام ، اتضح لنا أن شعر فقهاء هذا العصر كان في جملته شعراً ملتزماً بالإسلام ، بيد أنه كان في الأغراض الإسلامية أكثر وضوحاً من الأغراض التقليدية .

* وفي مجال التجربة الشعرية والصدق الفني ،تبين لنا أن معظم شعر الفقهاء يزخر بعاطفة جياشة ومشاعر إنسانية سامية نابعة من النزعة الدينية ، التي كان يصدر عنها الفقهاء في أشعارهم ، وقد منح الصدق كثيراً من شعرهم قدرته على إطلاق شحنات من الانفعالات ، ونقلها إلى المتلقين بصورة فنية .

وا لله أعلم وأعز وأكرم ، وصلى ا لله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

أولاً : المصادر المخطوطة :

٢- ديوان الصرصري ، أبي زكريا جمال الدين يحيى بن يوسف بن يحيى الأنصاري الصرصري ، رقم النسخة (١٩٥٦) ، قسم المخطوطات ، المكتبة المركزية ، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

ثانياً : المصادر المطبوعة :

٣- أبو العتاهية أشعاره وأخباره ، عنى بتحقيقها الدكتور شكري فيصل : مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .

٤- أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م .

٥- إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، تحقيق : سيد إبراهيم ، دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

٦- أخبار القضاة لوكيع (محمد بن خلف بن حيان) ، صححه وعلق عليه : عبد العزيز مصطفى المراغي ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م .

٧- الاستقامة لابن تيمية ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٨- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ، صححه وعلق على حواشيه : السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٩- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م .

١٠- الإقناع في القراءات السبع لأبي جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري المعروف بابن الباذش ، تحقيق : الدكتور عبد المجيد قطامش ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، الكتاب (٢٣) ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

١١- إنباه الرواة على أنباه النحاة لأبي الحسن جمال الدين علي بن يوسف القفطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب المصرية - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م .

١٢- أوراق من ديوان أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني ، دراسة وتحقيق : الدكتور نوري حمودي القيسي ، دار الحرية للطباعة ومطبعة الحكومة ، بغداد ، سلسلة كتب التراث (٢٢) ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

١٣- الإيضـاح في علـوم البلاغـة ، للخطيب القزويني ، تحقيق : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، منشورات دار الكتاب اللبناني - بيروت ، الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

١٤- البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، مطبعة السعادة والمطبعة السلفية ومكتبة الخانجي ، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م .

١٥- البديع لعبد الله بن المعتز ، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس : إغناطيوس كراتشقو مسيكي (تـ ١٩٥١م) ، دار المسيرة - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

١٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

١٧- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله محمد بن عبد البر النمري القرطبي تحقيق : محمد مرسي الخولي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٧ - ١٩٦٩م .

١٨- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

١٩- تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، والمكتبة العربية ببغداد ، ومطبعة السعادة بمصر ، ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م .

٢٠- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، للقاضي أبى الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتي ، تحقيق : الدكتور أحمد بكر محمود ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ، ودار مكتبة الفكر - طرابلس - ليبيا ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

٢١- الجواهر المضية في طبقات الحنفية لأبى محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله بن سالم بن أبى الوفاء القرشي الحنفي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٢٢- الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين لإبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي المعروف بابن دقماق ، تحقيق : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، الكتاب (٣٩) .

٢٣- خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الأصفهاني الكاتب :

أ- قسم شعراء الشام :

عنى بتحقيقه الدكتور شكري فيصل ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق - المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .

ب- قسم شعراء العراق :

تحقيق : محمد بهجة الأثرى ، وشارك في تحقيقه الدكتور جميل سعيد ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي : ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

جـ- قسم شعراء مصر :

نشره : أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

٢٤- خزانة الأدب وغاية الأرب لأبى بكر تقى الدين على المعروف بابن حجة الحموي ، شرح عصام شعيتو ، منشورات دار ومكتبة الهلال - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م .

٢٥- الدليل الشافي على المنهل الصافي لأبى المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي ، تحقيق وتقديم : فهيم محمد شلتوت ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، الكتاب (٢١) .

٢٦- دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن علي بن الحسن بن أبى الطيب الباخرزي ، تحقيق : الدكتور سامي مكي العاني ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع - الكويت ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٢٧- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لإبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون المالكي ، تحقيق : الدكتور محمد الأحمدي أبو النور ، مكتب دار التراث للطبع والنشر - القاهرة .

٢٨- ديوان ابن الدهان ، تحقيق : عبد الله الجبوري ، مطبعة المعارف - بغداد ، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

٢٩- ديوان ابن المعتز ، صنعة أبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، دراسة وتحقيق : الدكتور يونس أحمد السامرائي ، منشورات وزارة الإعلام العراقية ، سلسلة كتب التراث (٦٢) ، ١٩٧٧م .

٣٠- ديوان أبي تمام ، بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق : محمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة ١٩٧٨م .

٣١- ديوان أبى الطيب المتنبي ، بشرح أبى البقاء العكبري " التبيان " تحقيق : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، ١٩٧١م .

٣٢- ديوان أبى فراس الحمداني ، شرح وتقديم : عباس عبد الساتر ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .

٣٣- ديوان الأرجاني :

أ- صححه وفسر الغريب من ألفاظه ملتزم طبعه أحمد بن عباس الأزهري ، طبع في مطبعة جريدة بيروت ببيروت ، ١٣٠٧هـ .

ب- تحقيق الدكتور محمد قاسم مصطفى ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، سلسلة كتب التراث (٧٨) مؤسسة دار الكتب ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٣٤- ديوان البحتري ، عنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .

٣٥- ديوان بشار بن برد ، ناشره ومقدمه وشارحه : محمد الطاهر ابن عاشور ، راجعه وصححه : محمد شوقي أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

٣٦- ديوان السرى الرفاء ، تحقيق ودراسة : الدكتور حبيب حسين الحسني ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، سلسلة كتب التراث (١٠٧) ١٩٨١م .

٣٧- ديوان الشريف المرتضى ، تحقيق : رشيد الصفار المحامي ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٥٨م .

٣٨- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني تحقيق : الدكتور : إحسان عباس ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٣٩- الذيل على طبقات الحنابلة لأبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد المعروف بابن رجب الحنبلي ، وقف على طبعه وتصحيحه : محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م .

٤٠- ذيل مرآة الزمان لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الدكن - الهند ، الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

٤١- رياض الصالحين للإمام النووي ، تحقيق : جماعة من العلماء ، تخريج : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤٢- الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني ، تحقيق : الدكتور إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار - الأردن ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م .

٤٣- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م .

٤٤- سنن أبى داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السمستاني الأزدي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بالقاهرة .

٤٥- سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي ، طبع بعناية محمد أحمد دهمان ، دار إحياء السنة النبوية .

٤٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن أحمد المعروف بابن العماد الحنبلي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

٤٧- شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، نشره : أحمد أمين ، عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

٤٨- شرح هاشميات الكميت لابن زيد الأسدي ، تفسير أبى رياش أحمد بن إبراهيم القيسي ، تحقيق : الدكتور داود سلوم ، الدكتور نوري حمودي القيسي ، عالم الكتب ، ومكتبة النهضة العربية ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٤٩- شروح سقط الزند لأبى العلاء المعري ، تحقيق : مصطفى السقا ، عبد الرحيم محمود ، عبد السلام هارون ، إبراهيم الإبياري ، حامد عبد المجيد ، إشراف : طه حسين ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر ، سلسلة المكتبة العربية .

٥٠- شعر زهير بن أبى سلمى ، صنعة : الأعلم الشنتمري ، تحقيق : الدكتور فخر الدين قباوه ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

٥١- الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .

٥٢- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين أحمد الخفاجي المصري ، تصحيح وتعليق ومراجعة : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الحرم الحسيني التجارية الكبرى بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

٥٣- الشهاب في الشيب والشباب للشريف المرتضى ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٥٤- الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، نشره : حسن عباس الشربتلي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٥٥- صحيح الترمذي بشرح الإمام أبى بكر ابن العربي ، مطبعة الصاوي بمصر - الطبعة الأولى ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م .

٥٦- صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، تحقيق : محمد فؤادعبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .

٥٧- الصناعتين لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تحقيق : الدكتور مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٥٨- الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد لأبي الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي الشافعي ، تحقيق : سعد محمد حسن ، مراجعة : الدكتور طه الحاجري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م .

٥٩- طبقات الحنابلة للقاضي أبى الحسين محمد بن أبى يعلى ، وقف على طبعه وصححه : محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

٦٠- الطبقات السنية في تراجم الحنفية لتقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي المصري الحنفي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي بمصر ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٦١- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، تحقيق : محمود محمد الطناحي ، عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

٦٢- طبقات الشعراء لابن المعتز ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م .

٦٣- طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة .

٦٤- طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي ، تحقيق : الدكتور إحسان عباس ، دار الرائد العربي - بيروت ، ١٩٧٠م .

٦٥- طبقات فقهاء اليمن لعمر بن علي بن سمرة الجعدي ، تحقيق : فؤاد سيد ، دار القلم - بيروت .

٦٦- طبقات المفسرين لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق : علي محمد عمر ، مكتبة وهبة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

٦٧- طيف الخيال للشريف المرتضى ، تحقيق : الدكتور محمود حسن أبو ناجي ، ضمن سلسلة من تراثنا الخالد (٣) ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٦٨- العزلة لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي ، حققه وعلق عليه : ياسين محمد السواس ، دار ابن كثير - دمشق - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٦٩- العمدة لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطبع - بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م.

٧٠- عيار الشعر لأبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، تحقيق : الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع ، دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٧١- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ترقيم وتبويب : محمد فؤاد عبد الباقي ، إخراج وتصحيح : محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ومكتبتها.

٧٢- فوات الوفيات والذيل عليها لمحمد بن شاكر الكتبي ، تحقيق : الدكتور إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ١٩٧٣م .

٧٣- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

٧٤- قصيدة البردة لكعب بن زهير بن أبى سلمى ، شرح أبي البركات ابن الأنباري، دراسة وتحقيق : الدكتور محمود حسن زيني ، تهامة بجدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

٧٥- الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ، دار صادر ، دار بيروت ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م .

٧٦- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله القسطنطي الرومي الحنفي المعروف بحاجي خليفة ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٧٧- اللباب في تهذيب الأنساب لعز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ، مكتبة القدس - القاهرة ، ١٣٧٥هـ.

٧٨- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري المعروف بابن منظور ، دار صادر ودار بيروت ، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .

٧٩- المحمدون من الشعراء وأشعارهم لجمال الدين علي بن يوسف القفطي ، تحقيق : رياض عبد الحميد مراد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، مطبعة الحجاز بدمشق ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

٨٠- مختصر منهاج القاصدين لأحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ .

٨١- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لأبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

٨٢- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي ، الناشر : مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب .

٨٣- مصارع العشاق لأبي جعفر محمد بن جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاريء، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت .

٨٤- معجم الأدباء لياقوت الحموي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

٨٥- معجم البلدان لياقوت الحموي ، دار صادر ودار بيروت ، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .

٨٦- معجم الشعراء لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .

٨٧- المغني والشرح الكبير لأبي محمد عبد الله بن قدامة ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، ومكتبة المؤيد بالطائف .

٨٨- مقامات الحريري للقاسم بن علي الحريري ، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٨٩- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي المعروف بابن الجوزي ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الدكن - الهند ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٧هـ .

٩٠- منصور بن إسماعيل الفقيه ، حياته وشعره ، جمع ودراسة : الدكتور عبد المحسن فراج القحطاني ، دار القلم - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.

٩١- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

٩٢- المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد لأبي اليمن مجير الدين عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الرحمن العليمي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

٩٣- الموطأ للإمام مالك بن أنس ، صححه وخرج أحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م .

٩٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

٩٥- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة لأبي علي المحسن بن علي التنوخي ، تحقيق : عبود الشالجي ، دار صادر - بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

٩٦- نقد الشعر العربي لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ،دار الكتب العلمية - بيروت .

٩٧- الوافي بالوفيات لصلاح الدين بن أيبك الصفدي ، باعتناء هلموت ريتر ، س . ديدرينغ ، إحسان عباس وغيرهم ، دار النشر فرانز شتاينر بقيسبادن ١٩٦٢-١٩٨٤م .

٩٨- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

٩٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق : الدكتور إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ١٩٧٢م .

١٠٠-يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - وتتمتها - لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ، تحقيق : الدكتور مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

ثالثاً : الرسائل الجامعية :

١٠١- أدب ابن الجوزي لأول خير عمر عيسى سراج - رسالة ماجستير - بكلية اللغة - جامعة أم القرى ١٤٠٩هـ .

١٠٢-أدب الزهد في العصر العباسي لعبد الستار السيد متولي - رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر ١٩٧٢م .

١٠٣-أدب الوعظ في النثر حتى نهاية القرن الرابع الهجري لعبد ا لله بن محمد بن حميد - رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٣هـ - ١٤١٤هـ .

١٠٤-شعر فقهاء المشرق من بداية عصر الخلفاء حتى نهاية العصر العباسي الأول لعادل عبد ا لله أحمد حجازي - رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية - جامعة أم القرى ١٤١٠هـ .

١٠٥-منظوم الدرر للحافظ ابن حجر العسقلاني " الديوان الكبير " تحقيق ودراسة : يحيى محمد حسان ، رسالة ماجستير ، بكلية اللغة العربية - جامعة أم القرى ١٤١٠هـ .

رابعاً : المراجع

١٠٦-اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري للدكتور محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٠م .

١٠٧–اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري للدكتور نبيل خليل أبو حلتم ، نشر وتوزيع دار الثقافة – الدوحة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

١٠٨–الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري للدكتور محمد بن مريسي الحارثي ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي – الكتاب (٦٤) ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

١٠٩–الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، أصوله وقضاياه للدكتور سعد أبو الرضا، مكتبة المعارف – الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

١١٠–أدب الفقهاء لعبد الله كنون الحسني ، دار الثقافة للنشر والتوزيع – الدار البيضاء ١٩٨٨م .

١١١–الأدب في العصر الأيوبي للدكتور محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م .

١١٢–أدب المرتضى من سيرته وآثاره للدكتور عبد الرزاق محي الدين ، مطبعة دار المعارف – بغداد ، الطبعة الأولى ١٩٥٧م .

١١٣–أدب المعتزلة للدكتور عبد الحكيم بلبع ، دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م .

١١٤–الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة للدكتور مصطفى سويف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٨١م .

١١٥-أسس النقد الأدبي عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة ، ١٩٧٩م .

١١٦-أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا للدكتور عبد الغني محمد سعد بركة ، مكتبة وهبة - مصر ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١١٧-أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثامنة ١٩٧٣م .

١١٨-الأعلام لخير الدين الزركلي ،دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م .

١١٩-الالتزام الإسلامي في الشعر لناصر بن عبد الرحمن الخنين ، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام - الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

١٢٠-الأمثال البغدادية المقارنة لعبد الرحمن التكريتي ، مطبعة الإرشاد - بغداد ، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

١٢١-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر جابر الجزائري ، راسم للدعاية والإعلان - جدة ، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

١٢٢-تاريخ الشعر العربي للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي ، دار نهضة مصر - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٧م .

١٢٣-تاريخ الموصل لسليمان صائغ الموصلي ، المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٢٨م .

١٢٤-تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة - بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

١٢٥-التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق للدكتور زكي مبارك ، مطبعة الاعتماد بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م .

١٢٦-التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ، دار الشروق بيروت - القاهرة ، الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

١٢٧-تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام (من امرئ القيس إلى ابن أبى ربيعة) للدكتور شكري فيصل ، دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة الخامسة .

١٢٨-التطور والتجديد في الشعر الأموي للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة ١٩٧٣م .

١٢٩-التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول للدكتور مجاهد مصطفى بهجت، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية العراقية ، سلسلة الكتب الحديثة ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

١٣٠–الثقافات الأجنبية في العصر العباسي (١٣٢–٣٣٤هـ) وصداها في الأدب للدكتور صالح آدم بيلو ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١٣١–الحب في التراث العربي للدكتور محمد حسن عبد الله ، من سلسلة عالم المعرفة التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ١٤٠١هـ – ١٩٨٠م .

١٣٢–الحكم والأمثال لحنا الفاخوري ، ضمن سلسلة فنون الأدب العربي ، الفن التعليمي (٣) ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

١٣٣–حول الحكمة في الشعر العربي للدكتور عبد الله أحمد باقازي ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ، الكتاب (٨٤) ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .

١٣٤–دراسات في أدب الدعوة الإسلامية للدكتور محمود حسن زيني ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

١٣٥–دراسة الحب في الأدب العربي للدكتور مصطفى عبد الواحد ، دار المعارف بمصر ١٩٧٢م .

١٣٦–الرثاء للدكتور شوقي ضيف ، ضمن سلسلة فنون الأدب العربي ، الفن الغنائي (٢) ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .

١٣٧–الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب للدكتور محمود حسن أبو ناجي ، دار مكتبة الحياة – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

١٣٨–الرجز نشأته وأشهر شعرائه لجمال نجم العبيدي ، مطبعة الأديب البغدادية ، ١٩٧٠م .

١٣٩– الشريف المرتضى شاعريته وخصائص شعره للدكتور محمد إبراهيم المطرودي ، مطبوعات النادي الأدبي بالرياض ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

١٤٠–شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم لعلي الخاقاني ، مطبعة أسعد – بغداد ١٣٨٢هـ – ١٩٦٢م .

١٤١–شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة للدكتور علي نجيب عطوى ، المكتب الإسلامي – بيروت – دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

١٤٢–شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني للدكتور رشدي علي حسن ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، دار عمار – عمان الأردن الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م .

١٤٣–الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي – أواسط القرن الخامس إلى أواسط القرن السادس – لعلي جواد الطاهر ، دار الرائد العربي – بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

١٤٤-شعر الفقهاء نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول للدكتور حسني ناعسة ، المكتبة العربية بحلب ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

١٤٥-الشعر والشعراء في الكتاب والسنة ليوسف العظم ، دار الفرقان للنشر والتوزيع - عمان الأردن ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١٤٦- الصورة الفنية في شعر أبي تمام للدكتور عبد القادر الرباعي ، نشر بدعم من جامعة اليرموك - اربد الأردن ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

١٤٧-الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول للدكتور أنور عليان سويلم ، دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١٤٨-ظهر الإسلام لأحمد أمين ، دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الخامسة.

١٤٩-العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثامنة ١٩٧٨م .

١٥٠-العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثامنة ١٩٧٧م .

١٥١-عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية ، العراق ، إيران) للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٨٠م .

١٥٢-عصر الدول والإمارات (مصر) للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٩٠م .

١٥٣-العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السابعة ١٩٧٨م .

١٥٤- العصر العباسي الثاني للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٥م .

١٥٥-العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي للدكتور محمد سالم بن شديد العوفي ، مطبعة بساط - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م .

١٥٦-علم البديع للدكتور عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧٤م .

١٥٧-الفخر والحماسة لحنا الفاخوري ، ضمن سلسلة فنون الأدب العربي ، الفن الغنائي (٥) ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٨م .

١٥٨-فصول في الشعر ونقده للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م .

١٥٩-فقه السنة للسيد سابق ، مكتبة الخدمات الحديثة - جدة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

١٦٠- فن الهجاء وتطوره عند العرب لإيليا حاوي ، ضمن سلسلة المرجع في الفنون الأدبية وتطورها عند العرب (٣) ، دار الثقافة - بيروت .

١٦١- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين للدكتور مصطفى الشكعة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م .

١٦٢- في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف ، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (٢٦) ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .

١٦٣-القاضي الجرجاني الأديب الناقد للدكتور محمد السمرة ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٩م .

١٦٤-القاضي الجرجاني للدكتور أحمد أحمد بدوي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

١٦٥-القافية والأصوات اللغوية للدكتور محمد عوني عبد الرؤف ، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٧م .

١٦٦-القضاء والقضاة في الإسلام " العصر العباسي " للدكتور عصام محمد شبارو ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت ١٩٨٣م .

١٦٧-قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث للدكتور محمد زكي العشماوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الإسكندرية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م .

١٦٨-قضايا النقد الأدبي للدكتور بدوي طبانة ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة .

١٦٩-قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر للدكتوره عائشة بنت عبد الرحمن (بنت الشاطيء) ، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (٥٤) ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م .

١٧٠-المدائح النبوية في الأدب العربي للدكتور زكي مبارك ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة .

١٧١- المديح للدكتور سامي الدهان ، ضمن سلسلة فنون الأدب العربي ، الفن الغنائي (٤) ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠م .

١٧٢-المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها للدكتور عبد الله الطيب ، الدار السودانية - الخرطوم ، الطبعة الثانية ١٩٧٠م .

١٧٣-مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني للدكتور بكري شيخ أمين ، دار الآفاق الجديدة - بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

١٧٤-مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية للدكتور عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م .

١٧٥-معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول للدكتور محمد نبيه حجاب ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م .

١٧٦-معجم فقه السلف لمحمد المنتصر الكتاني ، مطبوعات المركز العالمي للتعليم الإسلامي بجامعة أم القرى ، مطابع الصفا بمكة المكرمة ١٤٠٥هـ .

١٧٧-معجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٤٠٣هـ - ١٤٠٧هـ .

١٧٨-معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

١٧٩-مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي للدكتور مصطفى عليان ، دار المنارة للنشر - جدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

١٨٠- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني للدكتور حسين عطوان ، دار الجيل - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

١٨١-مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي للدكتور عبد الباسط بدر ، دار المنارة للنشر - جدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

١٨٢-مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، دار الفكر - بيروت .

١٨٣-من شوارد الشواهد لعلي الطنطاوي ، دار المنارة للنشر - جدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

١٨٤-من غزل الفقهاء لعلي الطنطاوي ، دار المنارة للنشر - جدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

١٨٥-منهج الفن الإسلامي لمحمد قطب ، دار الشروق - بيروت ، القاهرة ، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١٨٦-موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

١٨٧-ميزان الذهب للسيد أحمد الهاشمي ، مؤسسة خليفة للطباعة - البوشرية .

١٨٨-النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتوره هند حسين طه ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، سلسلة دراسات (٢٨٣)، دار الرشيد للنشر ١٩٨١م .

١٨٩-النقد الأدبي أصوله ومناهجه لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت - القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

١٩٠-النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٩م .

١٩١-الهجاء للدكتور سامي الدهان ، ضمن سلسلة فنون الأدب العربي ، الفن الغنائي (٦) ، دار المعارف بمصر ١٩٥٨م .

١٩٢-الوقوف على الأطلال (بين شعراء الجاهلية والإسلام حتى القرن الخامس الهجري) للدكتور مصطفى عبد الواحد ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .

خامساً : الدوريات

١٩٣-رثاء الأم في الشعر العربي (من ابن الرومي إلى أبي العلاء المعري) للدكتور محمد إبراهيم حور ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإمارات ، العدد الثاني ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

١٩٤-رسالتان فريدتان في عروض الدوبيت لأبي الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل المالقي السبتي ، تحقيق وتقديم : هلال ناجي ، مجلة المورد - المجلد الثالث - العدد الرابع ١٩٧٤م .

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات